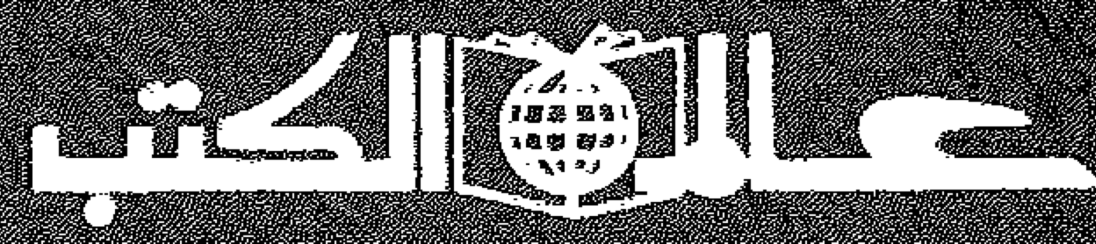
الإسلام و المسلمون فى شرق أفريقيا

الدكتور
عبد الفتاح مقلد الغنيمى



الإسلام والمسلمون
في شرق أفريقيا

الإسلام والمسلمون في شرق أفريقيا

دكتـــور

عبد الفتاح مقلد الغنيمي



٣٨ شارع عبد الخالق ثروت القاهرة ت. ٣٩٢٦٤٠١

الطبعة الأولى
١٤١٨ هـ - ١٩٩٨م

عالم الكتب
نشر * توزيع * طباعة

الادارة:

١٦ شارع جواد حسنى

تليفون ٣٩٢٤٦٢٦

فاكس ٣٩٣٩٠٢٧

المكتبة:

٣٨ شارع عبد الخالق ثروت

تليفون: ٣٩٢٦٤٠١

ص. ب ٦٦ محمد فريد

الرمز البريدي ١١٥١٨

الإهداء

فى زمن التردى والسقوط

فى زمن النكران والجحود

فى زمن التبلد والجمود

فى زمن صدأت فيه الضمائر وتحكمت فيه الشللية والانتهازية . وضاع فيه كل أثر للموضوعية .

فى زمن المزايدات الفكرية ومحاولة اقتلاع الجذور التاريخية والثوابت الأيدية فى زمن تحدى بنيامين نتنياهو .

فى زمن دنست فيه اقدام هؤلاء تراب مصر الطاهرة، التى قدمت مائة ألف شهيد ليرتفع علم إسرائيل فى أعلى عمارة بجوار كوبرى جامعة القاهرة، أجد نفسى ولاءً وانتماء وشعورا بالعرفان والجميل، أقدم هذا العمل العلمى إلى كل اساتذتى، هؤلاء الذين تعلمت على أيديهم وتعاملت معهم :

أستاذ دكتور/ أحمد محمد بدوى	رئيس جامعتى عين شمس والقاهرة الأسبق
أستاذ دكتور/ جابر جاد عبد الرحمن	رئيس جامعة القاهرة الأسبق
استاد دكتور/ عز الدين فريد	عميد كلية الآداب ـ جامعة القاهرة
أستاد دكتور/ عبد اللطيف احمد على	عميد كلية الآداب ـ جامعة القاهرة
أستاذ دكتور/ محمد صقر خفاجة	عميد كلية الآداب ـ جامعة القاهرة
أستاذ دكتور / حسن احمد محمود	وكيل كلية الآداب جامعة القاهرة
أستاذ دكتور/ جمال حمدان	أستاذ الجغرافيا بآداب القاهرة
أستاذ دكتور/زكى نجيب محمود	أستاذ الفلسفة بآداب القاهرة

وغيرهم كثير من عباقرة الفكر والعلم، وجهابذة المعرفة والثقافة، والذين يعود لهم كل الفضل بما غرسوا فى نفسى من قدرة على مواجهة التحديات، بعيداً عن العفن والروائح الكريهة والنفاق والرياء، وكل ما من شأنه أن يسقط الإنسان.

١٥مايو (آيار) ١٩٩٧م

دكتور

عبد الفتاح مقلد الغنيمي

التمهيد

استطاع الإسلام في حركته الامتدادية الواسعة أن يصل إلى آفاق بعيدة من الكرة الأرضية؛ حيث توطدت أقدامه، واتسعت دائرته، وتعمقت مفاهيمه في قلوب الذين اعتنقوه وأخذوه عقيدة ومنهاجًا لهم، ومن هنا حافظوا على هذه العقيدة الخالدة،وعملوا على الدفاع عنها،وصد غارات الاعتداء التي تريد النيل من هذه العقيدة السمحة. ومن هنا فإن الإسلام يكسب كل يوم أرضاً جديدة وأقواما جدد، هذا ما كان عليه الحال قبل ربع قرن من الزمان. أما الآن فإن الصورة قد تغيرت وبدأت الأطراف المعادية تحاول النيل من هذه العقيدة، والتخطيط لتنفيذ مآرب تبشيرية استعمارية تهدف إلى تقطيع بعض أوصال هذا العالم،والصورة واضحة أمامنا تصويرا جليا؛ فأحداث جنوب السودان والبوسنة والهرسك وإقامة إسرائيل في قلب العالم العربي الإسلامي، ومحاولات تمزيق العراق بالادعاء بالمناطق الآمنة، وما يجري من أحداث تبشيرية في إندونيسيا، ومأساة المسلمين في جنوب الفلبين وفي بورما وغيرها من الأقطار الأخرى، كل ذلك شاهد عيان أمام اعين العالم في هذه الأيام.

اضافة إلى أن ما يحدث في الصومال من تدخل غربي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، ومساعدة بعض الدول الغربية، والدول التي تسير في الركاب الغربي، وما قام به شعب الصومال، الذي فرقته الانقسامات إلى طوائف وشيع قبيلية وإقليمية ضيقة، كان وراء هذا التدخل تحت ستار مسميات، ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب، ومخططات غير معلنة.

لكن شعب الصومال البطل الذي قادت إحدى فرقه معركة طاحنة مع القوات الأمريكية، قتلت فيها ثمانية عشر جنديًا، وجرحت ثمانية وثمانين جنديا أمريكيًا، كانت وراء قرار الانسحاب من الصومال، ومن هنا يدرك العالم أن هناك روح معاداة لكل ما هو إسلامي،تحت ستار مسميات تأخذ طابع الإنسانية، ولكنها في الحقيقة تحقيقًا لمآرب صليبية.

ومن هنا كانت هذه الدراسة عن شرق أفريقيا، الإقليم المجاور والقريب لمنطلق الدعوة الإسلامية الخالدة،حيث أرض الجزيرة العربية مهبط الوحي وتنزيل القرآن الكريم على قلب رسول الإنسانية وخاتم الأنبياء محمد بن عبد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم،وحيث الأراضي المقدسة وقبلة الإسلام والمسلمين في مكة المكرمة،حيث أول بيت وضع للناس.

ومن هنا كانت منطقة شرق أفريقيا،أو ما أطلق عليها في العصر الإسلامي الأول

الحبشة، وهى أول أرض خارج مكة تطأها أقدام المسلمين، ومن هنا كانت هذه الديار فى البلاد التى بكرت فيها رسالة الإسلام،حيث انطلق المهاجرون الأوائل قبل الهجرة الكبرى إلى المدينة المنورة إلى هذه الديار، ومن هنا كان الإسلام بها قديمًا قدم الدعوة الإسلامية الخالدة، بل إن القوى المعادية للإسلام؛ زادت فى عدواتها للإسلام فحوّلت نضال شعب أرتيريا ضد الحبشة محاولا الاستقلال بعد صراع طويل، دام أكثر من إربعين عاما -إلى صالحها فأقامت على رأسس الدولة الأرتيرية أحد أعوانها وربيبتها وهو (أساسى أفورقى)، الذى تلقى تدريبه على يدى خبراء فى اسرائيل الولايات المتحدة الأمريكية، ومن هنا أخذت أرتيريا، التى هى دولة عربية إسلامية تسود العقيدة الإسلامية أكثر من ٨٥٪ من شعبها، وتنتشر اللغة العربية بين معظم سكانها، وكان الواجب القومى يحتم أن تكون إحدى الدول العربية التى تنضم إلى الجامعة العربية، حيث قرب مقر موقعها ولسان شعبها وعقيدته فهى أقرب من الصومال وجيبوتى،بل وجزر القمر،لكن السياسة المعادية ربطت بين قيادة هذا البلد المتحرر من ربقة الإستعمار الأثيوبى،وبين إسرائيل؛لكى تمنع أن يكون البحر الأحمر بحراً عربيا إسلاميا ولم تكتفِ بذلك،بل أقامت ارتيريا علاقات قوية مع إسرائيل؛ لكى تحول بين النفوذ العربى الإسلامى وبين مخططاته، وقامت بتأجير جرز دهلل لإسرائيل؛ لكى تتخذ منها موانى ومحطات تموين بإمداد للأسطول الإسرائيلى فى البحر الأحمر، وهكذا تسير المخططات، ويخضع العالم العربى للنفوذ والسيادة الأمريكية الإسرائيلية الشرق أوسطية. ولكن الذين يطالعون هذه الدراسة يدركون الدور الذى لعبه الأجداد فى نشر الإسلام فى شرق أفريقيا، وهذا ما نلقى عليه الأضواء.

وفى هذه الدراسة التى يتابعها القارىء الكريم، تلقى الأضواء والظلال على جزء عزيز من عالمنا الإسلامى؛ حيث انتشر الإسلام فى هذه المناطق، وكيف كانت السبل والوسائل التى سلكها المسلمون الأوائل، وصولاً بالراية الإسلامية إلى هذه المناطق فى القارة الأفريقية، وكيف وقع العبء الأكبر على المسلمين الأوائل فى اكتشاف هذه المناطق،قبل قدوم المستعمر الأوربى إلى هذه الديار بعدة قرون،وكيف اعتمد الأوربيون على دراسات وأبحاث وخدمات المسلمين فى الوصول إلى هذه المناطق.

إن الذين يطالعون هذه الدراسة يدركون الدور الفعال والمؤثر المهم، التى قام به المسلمون الأوائل فى نشر راية التوحيد، راية لا إله إلا الله محمد رسول الله فى هذه البقاع الذى يحاول المستعمر الأوربى والمخطط التبشيرى، تحقيق أهدافه فيها على حساب عقيدة الإسلام وأهلها، والذى لم يجد مخططا إسلاميا علميا موضوعيا، يصد هذه المخططات، التى لا تكف ولا تكل عن تحقيق ما تسعى إليه.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على من اصطفاه ربه هادياً ومبشراً ونذيراً للعالمين، محمد بن عبد الله، النبى العربى القرشى خاتم الأنبياء والمرسلين،وعلى آله وصحبه، صلاة دائمة إلى يوم الدين. أما بعد فتلك هى دراسة،جاءت لتعبر عن أثر من آثار انتشار الإسلام فى أنحاء الأرض المسكونة، وعن حركة المد الإسلامى الواسعة التى انطلقت لتعمر أرجاء المعمورة بأنوار القرآن الكريم، بعد أن استفاء العالم بأنوار هذه الدعوة الخالدة،واستظلت الجزيرة العربية والأجزاء المجاورة بظلال الإسلام.كذلك فإن الذى يقلب صفحات هذه الدراسة ويعمق النظر فى ثناياها،يدرك المعنى الحقيقى لفحوى ما جاء بها من أبواب مختلفة، تعبر جميعها بصورة متكاملة عن مآثر الدور الإسلامى،فى تلك الأنحاء،ودور العرب فى تقدم وتطور وتحضر ورقى تلك الأماكن،التى كانت عميقة الصلة والعلاقات منذ قرون غائرة فى التاريخ القديم،قبل البعثة النبوية الشريفة بعدة آلاف من السنين،حيث يطالع القارىء الكريم فى الباب الأول الذى هو أول ستة أبواب، قسمت إليها تلك الدراسة، ليكون دور العرب فى شرق أفريقيا قبل ظهور الإسلام؛ حيث تدفق العرب تجاراً وأصحاب حضارة منذ أقدم العصور، عابرين باب المندب والبحر الأحمر وبحر العرب حيث كان للحركات البشرية القادمة من جنوب الجزيرة العربية وساحل عمان والحجاز؛ الأثر الأعظم فى تعمير شرق القارة، بالسلالات البشرية وبضروب مختلفة ومتنوعة من الثقافات،حيث امتدت آثار ذلك التيار إلى الجنوب الشرقى للقارة،وامتد ذلك التأثير من ساحل البحر الأحمر المواجه للأراضى الحجازية حيث إقليم أرتيريا إلى سفاله فى موزمبيق جنوبا.

وقد تناولت فى هذا الباب دور العرب الواضح قبل الإسلام فى شرق أفريقيا، وكيف نشطت حركة الملاحة إلى شرق أفريقيا، وكان العرب أول من عرف أفريقيا الشرقية، وأول من اتصل بالجماعات البشرية المقيمة على سواحلها، لقد كانت هناك صلات وطيدة بين الطرفين منذ عصور قديمة،سواء اكانت صلات تاريخية أم ثقافية حضارية، أم تبادل تجارى واقتصادى.

ثم كان الباب الثانى عن ظهور الإسلام والعلاقات مع شرق أفريقيا،وكيف كانت هجرة المسلمين الأول إلى الحبشة قبل الهجرة إلى المدينة المنورة (يثرب) بعدة أعوام،وكيف كانت

هناك صلات ورسائـل متبادلـة وهدايـا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين نجاشى الحبشة،وكيف رحب النجاشى بمن جاء من بلاد العرب من المسلمين، وفتح أبواب بلاده أمامهم، وكيف تطورت العلاقات فى عهد المنازعات الدينية والخلافات السياسية التى حدثت بين المسلمين، وخاصة بعد الفتنة الكبرى بين على بن أبى طالب، ومعاوية بن أبى سفيان، إثر استشهاد عثمان بن عفان، وفى عهد الدولتين الأموية والعباسية وكيف أدت تلك الهجرات إلى تطور المدن وانتشار الدين الإسلامى أثر هذه الهجرات العربية الإسلامية (فارس والهند)، وظهور المراكز الحضارية الإسلامية.

وكان الباب الثالث عن الإسلام ومعالم الحضارة الإسلامية، وكيف برزت معالم الدور الإسلامى عن ظهور المظاهر الحضارية، وظهور اللغة السواحلية، ومعظم مفرداتها ٨٥٪ من اللغة العربية، والشعب السواحيلى الذى هو سلالة عربية زنجية من البانتو سكان الساحل، وظهور المدن العربية الإسلامية الممتدة فى سلطنات الطراز الإسلامى من أرتيريا شمالا إلى سفاله فى موزمبيق أقصى الجنوب.

كان الباب الرابع : عن الإمارات الإسلامية فى شرق أفريقيا، وتحدثت فى هذا الباب الذى قسم إلى ثلاثة فصول: الأول عن الإمارات الإسلامية الشمالية، وهى إمارات الحبشة الإسلامية،ودورها فى نشر الإسلام، والصراع مع الحبشة المسيحية ؛من أجل نشر الإسلام، وتدخل البرتغال فى ذلك الصراع، وحسم الصراع لصالح القوى المسيحية، والفصل الثانى عن امارة ساحل الصومال (مقدشيو)، وكيف لعبت دورها فى نشر الإسلام ومساعدة أخوة الإسلام فى عهد الإمام أحمد القرين، فى صراعه ضد الأحباش، وكيف تطورت الحياة العربية الإسلامية والعلاقات مع العالم العربى الإسلامى،وكيف وقفت مقدشيو فى وجه الزحف البرتغالى، والفصل الثالث عن الإمارات الإسلامية الجنوبية ممباسا وكلوه وباتا وسفالة وموزمبيق، وغيرها من الإمارات العربية الإسلامية، ودورها فى نشر الإسلام فى الداخل، وظهور تلك السلطنات بالمظهر الإسلامى العربى، وانتشار معالم الثقافة العربية والثقافة الإسلامية، وصلاتها بالبلاد العربية الإسلامية؛ لا سيما جنوب شرق الجزيرة العربية، والخليج العربى واليمن، وخاصة عمان.

وتحدثت فى الباب الخامس عن الاستعمار البرتغالى فى شرق أفريقيا، ودور البرتغال فى ضرب الوجود الإسلامى، ومحاولة الانقضاض على المظاهر الحضارية الإسلامية، والعمل على وقف التيار الإسلامى، والدخول فى الصراع مع القوى الإسلامية، وقيام عمان بمساعدة ومساندة أخوة الإسلام فى شرق أفريقيا، والصراع بين سلاطين عمان والبرتغاليين وحسم

الصراع لصالح العمانيين، ثم استقلال الإمارات الإسلامية الشرقية الأفريقية عن عمان، ثم كان الفصل الأخير عن انتقال السلطان سعيد بن سلطان إلى زنجبار، واتخاذها مقرا لحكم شرق أفريقيا وتوطيد دعائم الوجود العربى الإسلامى وكان ذلك الاستقرار هو نهاية هذه الدراسة؛ حتى لا تدخل فى مرحلة التاريخ الحديث.

وكانت نهاية أبواب هذه الدراسة الباب السادس، وهو عن انتشار الإسلام فى جزيرة مدغشقر وجزر القمر، وكيف لعب العرب والمسلمون دورهم فى نشر الإسلام فى تلك الجزر، وما هى المراحل التى تم فيها انتشار الإسلام، وكيف كانت الهجرات العربية إلى تلك الجزر واختلاطها بالسكان، من عوامل صبغ الحياة بالصبغة العربية الإسلامية.

ثم كانت بعد ذلك خاتمة البحث، وهى الخلاصة التى توصلت اليها هذه الدراسة ونهاية المطاف، ثم خاتمة المصادر والمراجع العربية والمترجمة والأجنبية، التى عولت عليها؛ حتى استطعت أن أقدم للقارىء الكريم تلك الدراسة، حيث عالجت الموضوع من زاوية إسلامية، محاولاً قدر الإمكان تحرى الدقة العلمية والأمانة التاريخية، ودحض كل افتراء على الإسلام والمسلمين من جانب كتاب الغرب ومؤرخيه، الذين لم يعطوا للإسلام والمسلمين دورهم الرائد فى شرق أفريقيا، والإساءة إليهم بقولهم بقيام العرب بتجارة الرقيق وما قالوه من أكاذيب. ولكن هذه الدراسة جاءت؛ لتعبر عما يحس به كل عربى ومسلم من غيرة على تاريخ الإسلام، فى تلك البقعة من بقاع العالم الإسلامى، الذى خضع فى التاريخ الحديث للقوى الاستعمارية، التى حاولت طمس كل المعالم العربية الإسلامية، ومحو كل عمل قام به الأجداد، وما تحملوا من صعاب وشقوا عباب البحار والمحيطات؛ من أجل نشر الرسالة الإسلامية، وإقامة معالم الحضارة العربية الإسلامية على طول الساحل، وبعمق الداخل وصولا إلى حوض الكونجو غربا والمحيط الأطلسى أيضا.

ونهاية... أسأل الله أن تكون هذه الدراسة قد سدت فراغاً فى تاريخ الإسلام، فى شرق أفريقيا، وأن يكون علاج هذه الزوايا فى الأبواب المختلفة قد أرضى رغبات القارىء الكريم، الذى هو صاحب القول الفصل فى هذه الدراسة.

والله ولى التوفيق،،،

٣ مارس (آذار) ١٩٩٧م.

دكتور

عبد الفتاح مقلد الغنيمي

الباب الأول

شرق أفريقيا والعرب
قبل الإسلام

تضم منطقة شرق أفريقيا الشمالية أرتيريا والحبشة، أما ساحل الزنج أول شرق أفريقيا والجنوبية فإنه يشتمل على إقليم الصومال وكينيا وتنزانيا وموزمبيق، بل إن حدوده تتسع حتى تصل جنوبا إلى حدود اتحاد جنوبا أفريقيا، بل يمتد الإقليم الجنوبى من خليج جروفون شمالاً إلى خليج دلجاوا جنوباً، وهو يكاد أن يطلق على الإقليم من الناحية السياسية، وإن كان اقليم شرق أفريقيا البريطانية يشتمل على معظم أجزاء الإقليم (العصر الإستعمارى)، والتى كانت تلك الأقسام تشتمل على أوغندا، كينيا، تنزانيا (تينجانيقا، زنجبار)، بالإضافة إلى أنه يضاف لها اقليم راوندى وبروندى، التى تقع وتشكل جزءاً من هضبة شرق أفريقيا، ولقد كان هذان الإقليمان يخضعان أو يشكلان جزءاً من الكونغو البلجيكى؛ حتى حصلا على استقلالهما عام ١٩٦٠م وانضما للأمم المتحدة عام ١٩٦٥م.

وهذا الإقليم تنتشر به سلسلة من الهضاب والمرتفعات، أهمها الهضبة الحبشية،التى يبلغ ارتفاعها نحو ستة آلاف وخمسمائة، قدم والتى تأخذ فى الارتفاع كلما سرنا نحو الشرق؛ حتى يبلغ ارتفاعها فى أقصى الشرق إلى ثمانية آلاف قدم، ثم تنحدر تدريجياً صوب الغرب، متجهة صوب سهول السودان، ثم يقل ارتفاع هذه الهضبة بالتدريج فى الجنوب الشرقى؛ حيث تتخللها الوديان العميقة، فتقسمها إلى طائفة من الهضاب الصغرى، ثم هضبة البحيرات، وهذه الهضاب المنتشرة من الشمال إلى الجنوب تكاد أن تكون حاجزا يمنع أو يقلل من اتصال هذا الجزء ببقية العالم الأفريقى المجاور، وهى تترك بينها وبين ساحل البحر الأحمر والمحيط الهندى سهولا فسيحة، تغلب عليها الطبيعة الصحراوية أو شبه الصحراوية.

هذه الحواجز الهضبية الممتدة من الشمال إلى الجنوب، على هيئة حاجز ضخم، عزلت المناطق الساحلية عن الداخل، لكنها فرضت على هذه المناطق أن تتجه وجهة شرقية نحو عالم الجزيرة العربية والمحيط الهندى، وأن تتصل بهذه العوالم عن طريق البحر، عبر مضيق باب المندب، أو عن طريق المسالك الملاحية فى المحيط الهندى. ومضيق باب المندب طريق ضيق جدا، ولا يعتبر عبوره من إحدى القارتين إلى القارة الأخرى أمراً شاقًا،حتى لدى الشعوب البدائية، وتكتنفه الجزر، وأكبر الظن أنه كان فى العهود البشرية الأولى أصغر مسافة، والقارتان أشد تقاربا، ولم يكن هذا الباب يوما مشكلة جدية، تعوق انتقال الجماعات الأولى من أفريقيا إلى آسيا أو فى جنوب الجزيرة العربية إلى جانب الغربى للبوغاز، فهل دخل

الإنسان قارة أفريقيا من هذا الباب، والإجابة عن هذا السؤال لا تزال موضع جدل وبحث، إذ إن الانتقال البشرى من آسيا إلى أفريقيا يمر بباب المندب ظاهرة، ترى أثارها اليوم رأى العين، ولا سبيل إلى إنكارها، فإن الآثار الثقافية الآتية من آسيا واضحة تمامًا فى الأقاليم الأفريقية المتاخمة للبوغاز، وفى الأقاليم التى تليها.

ومن أهم ما ترتب هلى هذه الظاهرة ما نراه فى هضبة أثيوبيا من آثار ثقافية من جنوب جزيرة العرب، وما نشاهده من آثار عربية أخرى فى شرق أفريقيا، هذا ولم يعرف أن هناك هجرة بشرية خطيرة، حدثت فى الاتجاه المضاد، أى من أفريقيا إلى أسيا وغيرت الأوضاع الثقافية فى الجزيرة العربية، صحيح أن ملوك أثيوبيا قد غزوا اليمن والحجاز، ولكنها كانت غزوة من الطراز الحربى، ولم تترك على كل حال أى أثر يستحق الذكر، سواء من الوجهة السلالية أو الثقافية؛ فطريق باب المندب إذًا هو باب لدخول السلالات والثقافات إلى الموجات البشرية المتتالية، عبر القرون، منذ أقدم العصور إلى وقتنا هذا؛ حيث كان هذا المعبر ولا يزال يمثل مصدر هجرة بشرية منذ أقدم العصور؛ حيث انتشر سكان الجنوب العربى على السواحل الشرقية للقارة الأفريقية؛ حيث استقرت منهم جماعات على الساحل، فى الاتجاه جنوبا، ثم تسربت اعداد كبيرة منهم بعد ذلك غربا، فقد كان طريق باب المندب من أهم طرق الهجرة، وكذلك أهم طرق التبادل التجارى والحضارى قبل الإسلام؛ حيث ترك عرب الجنوب فى الجانب الأفريقى أثرهم الحضارى والثقافى والعمرانى؛ ذلك لأنه من المعروف تاريخيا أن عرب اليمن وجنوب الجزيرة وساحل عمان قد هاجروا إلى الحبشة والساحل الشرقى (ساحل الزنج)، ونشروا فيهما ثقافتهم العربية، فى وقت يرجع إلى عهد بعيد أيضا. وللحق.. لقد كانت نقطة الانطلاق فى تاريخ شرق أفريقيا متصلة اتصالا وثيقا بجنوب الجزيرة العربية.

لقد تدفق الساميون من هناك غزاة أحيانا وتجارة أحيانا على جبال الحبشة المنيعة وسهولها الواسعة، وطوروا مع الوقت حضارة أثيوبية وشرق أفريقيا؛ فأضافوا عليها من حضارتهم سمات كثيرة. ولقد تأثرت هذه المناطق الساحلية وبين آسيا، وعملت الطبيعة بدورها على تيسير الاتصال بين هذه المناطق الساحلية بشرق أفريقيا وبين بلاد العرب والهند، فالرياح الموسمية تهب فى شهر ديسمبر من كل عام، متجهة إلى الشمال الشرقى، وتظل تهب فى هذا الاتجاه حتى آخر نوفمبر، ثم يتكرر هبوب الرياح مرة أخرى من إبريل إلى سبتمبر، فى اتجاه مضاد نحو الجنوب العربى ومعنى هذا إن هذه الرياح تحمل أهل ساحل

شرق أفريقيا إلى شواطىء الهند، ثم تحمل أهل الهند إلى ساحل جزيرة العرب الجنوبى ومضيق عدن، وهكذا كانت من أهم هذه الموجات وأسبقها فى الزمان الموجات المتجهة، صوب القارة الإفريقية عن طريق باب المندب أولاً، وبوغاز باب المندب طريق واحد عريض، سلكته الجماعات البشرية المتتالية فى مسالك متعددة متقاربة أو متباعدة، تبعاً للمصدر، الذى ترجع إليه كل جماعة وافدة فى مواطنها الأصلية، ولاشك فى أن هذه الحركات البشرية، القادمة من آسيا جنوب الجزيرة وساحل عمان، قد كان لها أثر عظيم فى تعمير شرق القارة بالسلالات البشرية وبضروب متنوعة من الثقافات، وآثار هذا التيار الشرقى المتجه نحو أفريقيا قد امتدت إلى الجنوب الشرقى للقارة.

ولقد كان العرب على صلة عميقة الجذور بأفريقيا، منذ القدم عن طريق التجارة والهجرة، وخاصة إلى السواحل الشرقية من القارة، ولا تزال آثارهم شاهدة على ذلك، وهكذا ظهرت التأثيرات العربية واضحة فى ساحل شرق أفريقيا فى المنطقة الممتدة على رأس جروفون، شمالاً إلى خليج دلجادو جنوباً، وهى المنطقة التى أطلق عليها العرب ساحل الزنج أو زنجبار (من الفارسية بار بمعنى الساحل) حيث كان التجار من جنوب الجزيرة وسواحل الخليج العربى أقدم فى وطئها، وكان قدومهم للتجارة حيناً، أو للاسستيطان حينا آخر وعلى الرغم من أنهم كانوا قلة من الناس يأتون فى فترات محدودة، إلا أنه يمضى الزمن، بدأ اختلاطهم يشتد بالسكان فتزوجوا من نساء القبائل، وأقاموا عدة مراكز تجارية على الساحل للاشتغال بتجارة الذهب والعاج والرقيق، على أنه يلاحظ أن القبائل الأفريقية لم تتمكن من أن تستوعب أو تذيب الوافدين عليها؛ لأن مورد العرب كان منهلا لا يكاد ينقطع وترتب على ذلك أن احتفظ هؤلاء النازحون إلى حد كبير بسماتهم المميزة.

وقد كانت هذه المنطقة بحكم موقعها على الساحل المقابل للجنوب غرب الجزيرة العربية، المجال الحيوى للجماعات، التى خرجت من بلاد العرب بصفة عامة ومن اليمن وجنوب الجزيرة العربية بصفة خاصة للتجارة،وطلب الرزق أو لاتخاذ مواطن جديدة، هرباً من حالات الذعر.

وليس من اليسير تحديد هذه الجماعات التى جاءت إلى الساحل الأفريقى، غير أنه من المؤكد أن جماعات كثيرة فى أعدادها قد دخلت القرن الأفريقى، وأخذت تنتقل فى القارة

الأفريقية، هذه الجماعات كانت قد وصلت إلى ما يعرف فيما بعد -باسم دويلات الطراز الإسلامي- بر سعد الدين، ثم يقع منها جنوبا يقع ساحل البنادر أو صوماليا، حيث إنه لم تكن لهذا الإقليم، كما لم تكن لغيره من الأقاليم بصفة تامة حدود على المستوى السياسى المعروف فى الوقت الحاضر، كما لم تكن هناك من حدود قبلية، تبين مناطق الرعى الفعلية لكل فريق، ويرجع عدم الاهتمام بإقامة حدود خاصة فى إقليم ساحل البنادر (لفظ بندر مفرد بنادر، يرجع فى أصله إلى اللغة الفارسية، ونقل منها إلى اللغة التركية، واستخدم فى اللغة العربية للدلالة على المدينة التى يقوم فيها سوق تجارى، أو على الميناء التى تصل إليها البضائع وبصفة عامة يطلق هذا اللفظ على عواصم الأقاليم ومراكزها الكبيرة) لسبب رئيسى، وهو أن حكومات مدن قد قامت على الساحل، ولم تتعد سيطرتها حدود المنطقة، التى تقوم فيها المدينة، وكانت فى داخل الأقاليم قبائل رحل تنتقل من هنا وهناك.

وعرف الإقليم قديما باسم «أوزانيا»، وكان جزءاً من بلاد بونت، أما اسم صوماليا أو الصومال الذى عرفت به حديثا، فإن هذا الاسم يرجع على وجه التقريب إلى القرن الخامس عشر الميلادى، فقد ورد الاسم فى قصيدة أثيوبية، بمناسبة انتصارات اسحاق نجاشى أثيوبيا على إمارة (اوقات) فى ذلك القرن، وهناك روايات عديدة عن أصل هذا اللفظ، غير أن هناك احتمالاً بأن أصل هذا اللفظ يرجع إلى أحد مصدرين، أو إلى الاثنين معاً، وهما وادى شمايل الموجود فى عمان فى جنوب شرق الجزيرة العربية، أو وادى صومل الموجود فى اليمن على مسافة من صنعاء،وفى هذه الحالة يكون هذا الاسم فى صورته المحرفة قليلا، قد جاء مع جماعات عربية جاءت إلى الإقليم.

ويبدأ هذا الإقليم صوماليا من جنوب منطقة الزيلع فى خليج عدن، وينتهى جنوباً عند راس شمبونى، وهذا على تقدير الحدود السياسية، والحد الشرقى المحيط الهندى، وفى الغرب لم تكن الحدود محددة فى الماضى، وينقسم الإقليم إلى ثلاث مناطق، عرفت الأولى منها وهى المطلة على خليج عدن، وتنتهى عند رأس حافون برأس عسير أو رأس البلهارات، وتنبت فى هذا الإقليم اشجار البخور والمر وغيرها، وتعرف المنطقة الثانية باسم سير العجم أو العجانى كما ينطقه البعض، ويبدأ من رأس حافون وينتهى عند نهر الجيب (الجوبا)، وتجرى فى هذا القسم مياه نهر الشيلى والجيب. وعلى الرغم من اختلاف مياههما من حيث الملوحة، فإن

واديها أكثر صلاحية للاستغلال الزراعى، وتوجد فى منطقة قريبة لهذين النهرين ذبابة التسى تسى التى تقتل الماشية وغيرها.

وعرف هذا القسم أيضا باسم ساحل البنادر؛ لقيام سوق تجارية على شاطئه وأطلق على المنطقين الأولى والثانية (القرن الأفريقى)، وترجع علاقة الإقليم بالجزيرة العربية ومصر والهند وغيرها إلى عهد سحيق فى القدم، فقد كانت علاقة الساحل وطيدة الأركان مع ممالك مصر وجنوب الجزيرة العربية، ومنها مملكة الظفار، التى قامت فى أرض المهرة، وكذلك مع الممالك الأخرى، التى قامت فى جنوب الجزيرة العربية ،ومنها: سبأ وذو الريدان ومعين وقتيان وحضرموت ومملكة حمير.

وقد استخدمت هذه الممالك مينائى عدن ومخا، وتقع عدن على الخليج المعروف بهذا الاسم ،أما ميناء منى فيطل على البحر الأحمر،وكان استخدام كل من الميناءين بما يتناسب مع الوضع الإقليمى للمملكة القائمة، ويعتقد أن السيطرة على ساحل أفريقية الشرقى قد انتقلت إلى الأحباش بعد دخولهم إلى اليمن، ولكن هذا غير صحيح، ويحتمل أن السيادة على شرق أفريقية قد انتقلت إلى الفرس، الذين جاءوا إلى جنوب غرب الجزيرة العربية وأخرجوا الأحباش منها، وتقول بعض المصادر إن السيطرة الحميرية على شرق أفريقية كانت عن طريق ولاية أوزانيا جنوب صوماليا، التى كان ساحلها مركزا للنشاط الاقتصادى.

وقد كان الصوماليون يسكنون المنطقة الساحلية المطلة على خليج عدن، وتحتل الجالا المنطقتين الجنوبية والغربية، وتقطن جماعات البانتو فى حوض الشيلى والجيب، وكانت على الساحل فى قسميه –المطلين على خليج عدن وعلى المحيط الهندى– مدن أو بنادر تجارية، تسكنها جماعات من العرب والفرس وغيرهم،وقد أصاب التجارة البحرية ركود فى الفترة الزمنية السابقة لظهور الإسلام، وقد حدث فى تلك الفترة سقوط سد مأرب؛ الأمر الذى دفع بالسكان إلى الهجرة إلى خارج جنوب غرب الجزيرة العربية، وكان الساحل الأفريقى الشرقى فى خليج عدن وساحل القرن الأفريقى وبر الزنوج من أقرب المناطق لهؤلاء المهاجرين، وقد تبعت هذه الجماعات خطى العرب الأوائل، الذين جاءوا إلى الساحل ومن ثم أقاموا على الساحل مدنا، تولى الحكم فيها الزعيم، وعرفت هذه المدن باسم البنادر، ويرجع تاريخ البنادر إلى زمن سحيق قبل الإسلام.

وكان لهذا الساحل نشاطه التجارى وصلاته مع الدول المطلة على المحيط الهندى، كما وصلت إليه السفن التجارية من حوض البحر الأحمر من مصر، والقوافل التجارية من حوض وادى النيل الأوسط عن طريق جنوب السودان، وكانت هناك علاقات تجارية وثيقة بين هذه الأقطار.

أما المنطقة الجنوبية -حيث تحدثنا عن المنطقة الشمالية بر سعد الدين، ثم بر البنادر- فإننا هنا نتحدث عن المنطقة الجنوبية من أقاليم شرق أفريقيا، ويطلق عليها بر الزنوج أو بر الزنج، وأصل هذا الاسم أنه أطلق على ساحل أفريقيا الشرقى، ويشمل المنطقة التى تمتد من حدود كينيا الشمالية مع بر العجم إلى سوفاله جنوبا (موزمبيق)، وكان هذا الساحل بصفة خاصة مع ساحل بر العجم (صوماليا) وثيق الصلة بشبه الجزيرة العربية وبلاد ما بين النهرين (العراق وغيرها من أقاليم المحيط الهندى)، وقد لعب هذا الساحل دوراً مهماً فى التجارة بين مختلف الأقاليم؛حيث كان المحيط الهندى فى الزمن القديم مركزاً خطيراً للتجارة الدولية، وكان الساحل الغربى للمحيط الهندى أو ساحل أفريقيا الشرقى مركزا أو وسيطاً، تلتقى فيه مختلف التجارات،كما التقت فيه حضارات العالم، ويبدو أن اتخاذ الساحل الأفريقى المطل على المحيط الهندى كمركز للتجارة، يرجع إلى عهود بعيدة فى التاريخ، وقد خضعت تلك المنطقة على سبيل المثال لحكم الفرس فى عهد الملك بهرام الخامس (٤٢٠ - ٤٣٩م)؛ حيث سيطرت الدولة الساسانية على ذلك الإقليم فى تلك الفترة، وكانت السفن الفارسية على طريق الملاحة فى المحيط الهندى الغربى تستخدمه، واستمرت قابضة على هذه السيطرة إلى أوائل القرن السابع، الذى سقطت فيه الدولة الساسانية على يد الجيوش الإسلامية.

ومن المؤكد أن العرب كان لهم تأثيرهم الواضح فى شرق أفريقيا، ويدل على ذلك أن الإغريق والرومان أطلقوا عليه اسم ساحل عزانيا نسبة إلى إحدى الممالك القديمة، وهى مملكة عزان التى يقال إنها وجدت فى منطقة ما فى جنوب شبه الجزيرة العربية، فى فترة سابقة على ظهور الإسلام، لم تحدد تحديدا قاطعا.

ومن هنا فإنه من المرجح أن يكون عرب جزيرة العرب-وخاصة عرب الجنوب- هم أقدم الشعوب العربية اتصالا بالسواحل الشرقية الأفريقية،بحكم الجوار الجغرافى،وساعدهم على قيام هذه الصلات نظام الرياح الموسمية؛ فالرياح الموسمية كانت تمكن السفن الشراعية الصغيرة

المعروفة باسم واهو Ohaw، من القيام برحلتين على الأقل فى العام، ففى الخريف تدفعها الرياح الموسمية الجنوبية الغربية من خليج عمان وسواحل الجزيرة العربية نحو الساحل الأفريقى، وفى فصل الربيع تدفعها فى اتجاه الشمال الشرقى؛حيث تمكنها من العودة إلى قواعدها، وفى خلال دورة الرياح يتم التعامل التجارى.

وعن هذا الطريق دخلت المؤثرات السامية القديمة، وعن هذا الطريق البحرى نفسه تسرب العرب إلى شرق أفريقيا والحبشة، وأوغلوا فيها؛ حتى إذا جاء الإسلام اعتنقوه ونقلوه إلى قلب الهضبه نفسها،بل أكثر من هذا أن هؤلاء المهاجرين،كانوا يوطدون علاقاتهم وصلاتهم بالطبقة الحاكمة،وكان الأمراء والحكام يرحبون بهم ترحيباً عظيماً؛فهم وسيلتهم للكسب والثراء، فقد كانوا يساعدون هؤلاء الناس على تصريف منتجاتهم ،وشراء ما يحتاجون إليه.

وكما أنه كان للاتجاهات الملاحية من عوامل الرياح أثر عميق على نظام الملاحة، بين شرق أفريقيا من ناحية، وجنوب الجزيرة العربية والخليج العربى وموانىء الهند الغربية من ناحية أخرى، ففى فصل الخريف تندفع الرياح الموسمية فى اتجاه جنوبى غربى، فتخرج السفن الشراعية من موانئ الساحل الجنوبى للجزيرة العربية والخليج العربى إلى المحيط الهندى، ثم تنتشر بمحاذاة الساحل الشرقى الذى ينحنى فى اتجاه جنوبى غربى.

وفى فصل الربيع تدفعها الرياح فى اتجاه شمالى، وبذلك تتمكن السفن من العودة إلى قواعدها فى سواحل الجزيرة العربية، وفى دورة الرياح فى اتجاه شمالى، كان يتم التعامل التجارى، وقد استفاد الهنود من تلك الرياح؛ فوضح اتصالهم بالساحل الشرقى لأفريقيا، ووجدت لهم جاليات كثيرة على الساحل، وقد ظلت الرياح الموسمية سراً من الأسرار التى احتفظ بها العرب والهنود لأنفسهم، إلى أن تمكن ملاح إغريقى فى القرن الأول الميلادى من كشف اتجاه هذه الرياح، وكان من نتيجة ذلك ظهور بعض الكتب باللغتين اليونانية واللاتينية عن المحيط الهندى وموانيه وحركة التجارة فيه، ومن الملاحظ أيضا أن العرب لم يقتصروا نشاطهم على الساحل الشرقى للقارة الأفريقية، وإنما اندفعوا بفضل تلك الرياح إلى الشرقى الأقصى؛ حيث وجدت بعض المستوطنات العربية فى سواحل الهند والصين وجزر الشرق الأقصى، وكان لهم فضل فى نشر الإسلام بعد ظهوره فى تلك البقاع.

ولقد كان البحار الأغريقى الذى وصل إلى تلك الأنحاء فى القرن الأول الميلادى (٤٥م) قدكشف اتجاه هذه الرياح، ومن ثم وضع كتاباً، أطلق عليه الدليل الملاحى للبحر

الأرتيرى،وهو الاسم الذى كان يطلق على الجزء الغربى من المحيط الهندى،وعلى وجه التحديد الجزء الملامس لسواحل شرق أفريقيا، والكتاب من المصادر المهمة فى تاريخ شرق أفريقيا؛ حيث يتحدث فى كثير من فقراته عن كثرة السفن العربية، وعن اختلاط العرب وتزاوجهم من القبائل الأفريقية، كما يعرض لتعدد العناصر على الساحل، والتى كانت تفد من الهند وفارس وجزر الشرق الأقصى، بالإضافة إلى الجزيرة العربية والخليج العربى، وتطلعها إلى معرفة اللغة العربية، ومحاولة التحدث بها؛ لما تتيحه لهم من آفاق واسعة فى التعامل والتجارة.

ويتضح من ذلك أن ذلك البحار الأغريقى كان قد سافر بنفسه، وارتحل وشاهد تلك المناطق التى تحدث عنها، وكتب عنها كتابه هذا، الذى يعتبر أول مصدر، أكد العلاقات التى كانت قائمة بين العرب من جنوب الجزيرة العربية والساحل الشرقى لأفريقيا، ومنها أن بعض زعماء الساحل كانوا يدينون بالولاء لأمراء حمير فى جنوب الجزيرة، وأن السفن العربية كانت تأتى من جنوب الجزيرة العربية، ومن بعض مناطق المحيط الهندى؛ حيث تتبادل التجارة فيها بين الساحل، وقد قدم الكتاب معلومات عن التجارة، وعن حالة شرق أفريقيا والجزيرة العربية عموما، كما أنه تعرض لحركة التبادل التجارى التى كان يشترك فيها الهنود.

وبذلك يتضح لنا كيف كان يتم الاتصال بين العرب وسكان هذه السواحل، ومن ثم كان عليه أن يذكر أن أقدم ما عرف من اتصال بين الشعوب العربية بشرقى أفريقيا، كان اتصال شعوب الرافدين، ولاسيما زمن الملك سرجون الأكادى، الذى ولى حكم منطقة الرافدين (العراق) حوالى عام ٢٧٠٩ق. م؛ فقد عثر على نقوش سومرية وبابلية على ساحل شرق أفريقيا ترجع إلى عهد، يفيد وصول شعوب الرافدين إلى هذه البقاع.

ومن أمثلة العلاقات العربية بالساحل الشرقى الأفريقى فى العصور القديمة، ما ورد على الآثار المصرية، ويؤكد وصول السفن المصرية إلى هذه المناطق، منذ عهد الأسرة الخامسة (٢٥٦٠ – ٢٤٢٠ف م) فى عهد ساحورع؛ من أجل جلب البخور والقمح والأبنوس والعاج وجلود الحيوانات، ثم كثرت الرحلات التجارية المصرية إلى شرقى أفريقيا فى عهد الأسرة الحادية عشرة (٢١٤٣ – ١٩٩١ ق. م فيذكر أحد رؤساء البعثات فى هذا العصر واسمه خنتو (أنه سافر إليها إحدى عشرة مرة، ثم هناك اشهر ما سجل على الآثار المصرية وأعنى به مناظر الرحلة التى أوفدتها الملكة حتشبسوت (١٤٩٠ – ١٤٦٩ ق م) إلى تلك البلاد التى سجلت على جدران معبدها بالدير البحرى).

ولقد كان الأثر نفسه لقيام دولة عربية فى اليمن، ذات حضارة زاهرة منذ القرن ١٤ ق. م وهى دولة معين وسبأ وحمير، والتى قامت حضارتها وثروتها من العمليات التجارية البرية والبحرية،فكان أهلها يجلبون السلع من الهند وساحل أفريقيا الشرقى، ثم تنقلها القوافل إلى الشام والعراق ومصر .ومع ازدهار التجارة وتقدم فنون الملاحة، زاد اتصال العرب بالساحل الشرقى لأفريقيا، وفى هذه الفترة زادت العلاقات العربية الأفريقية، وكثر قدوم السفن العربية فى الساحل الشرقى لأفريقيا،وكثر اختلاط العرب وتزاوجهم مع القبائل الأفريقية،بل إن بعض زعماء الساحل كانوا يدينون بالولاء لدولة حمير فى اليمن؛ فيقال عن العرب إنهم يألفون أهل البلاد، ويتزاوجون معهم،ويعرفون الساحل واللغة،ومن هنا كان انتقال السكان العرب إلى شرق أفريقيا،حيث نسب الأغريق والرومان هذا الساحل إليهم فيما بعد، ولكن مما هو جدير بالذكر أنه على الرغم من معرفة الأغريق والرومان لساحل شرق أفريقيا، إلا أنهم لم يتصلوا به اتصال العرب، ثم حدث أن تعرض الغرانيون لغزوات من الشمال وهجرات قبلية،غيرت من معالم حضارتهم؛ خاصة حينما وفدت على الساحل قبائل الجالا والصومال والمساى. وغيرهم من شعوب القرن الأفريقى، وأخضعوا المنطقة لنماذج حياتهم العربية وموانيء الساحل الشرقى لأفريقيا؛ حيث تمكن عرب الجزيرة العربية من عبور باب المندب إلى الساحل الأفريقى.

وقد ساعدت العوامل الجغرافية على نشاط حركة الملاحة، وكذلك ساعدتهم معرفتهم بعلم الفلك، وتحديد اتجاهات الشمس والكواكب على الملاحة بانتظام بين بلادهم وبين سواحل أفريقيا الشرقية من بلاد الدناقل وعدن شمالا،حتى موزمبيق وما جاورهما من جزيرة مدغشقر جنوبا،ومن ثم كان العرب أول من عرف أفريقيا الشرقية،أول من اتصل بالجماعات البشرية المقيمة على سواحلها،وكان مضمون هذا الاتصال التبادل التجارى،وتصريف منتجات سكان أفريقيا الشرقية المقيمة على سواحلها، وربطها بأهم مصادر الإنتاج العالمى فى الشرق الأقصى وبلاد البحر الأبيض، وقد ساعد على ذلك عوامل الجوار والتوجيه البحرى والتجارى، أو بمعنى آخر المواجهة المكانية للجزيرة العربية أمام أفريقيا؛ فضلاً عن الظروف الجغرافية والمناخية السائدة؛ فمثلا نجد أن ساحل شرق أفريقيا يتجه اتجاهاً عاماً من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى، ويبدو هذا الاتجاه بوضوح فى ساحل الصومال الحالية من رأس جردفون حتى أرخبيل زنجبار وبمبا، ثم يتجه الساحل بعد ذلك إلى الجنوب حتى خط عرض ١٥

درجة جنوبا، ثم يتابع بعد هذا انحرافه نحو الجنوب الغربى،حتى أقصى جنوب القارة،ولاشك أنهما كانا أهم اتجاهين، لهما تأثير عميق على تطور الساحل الشرقى لأفريقيا، وبالتالى على الاستقرار فيه وعلاقاته بسواحل الخليج والجزيرة العربية، ثم الاتجاه فى الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى فى سواحل الصومال، ثم الاتجاه من الشمال إلى الجنوب فى عروض كينيا وتنزانيا، وما يليها فى الجزء الشمالى من موزمبيق، إذ إن هذه كل هذه الأمور قد ساعدت على انتشار العرب، وازدياد نشاطهم على الساحل الشرقى لأفريقيا.

ويبدو أن العرب فى المرحلة الأولى من استقرارهم لم يتوغلوا داخل القارة، ولكن اكتفوا بإقامة بعض المراكز التجارية على الساحل؛حيث يصل إليهم مندوبون عن القبائل الأفريقية، يحملون إليهم الذهب والعاج وغيره من منتجات بلادهم، ويقايضونهم على ما لدى التجار العرب من بضائع وتبقى السلع الأفريقية فى المراكز العربية الساحلية؛ حتى يحين موعد رحيل السفن؛ حيث يتم نقل البضائع الأفريقية إلى الخليج العربى أو سواحل شبه الجزيرة العربية، ومن هناك تنقلها القوافل إلى الشام والعراق ومصر، أو تنقلها السفن إلى الهند.

وقد قام العرب بتصدير تراب الذهب والعاج والرقيق، الذى كان يحمل إلى الدول القديمة، التى كانت تلح فى طلبه، وهى الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية، وتعاونت القبائل الأفريقية مع العرب فى هذه التجارة؛ حيث كان الرؤساء وزعماء القبائل يأتون إلى الساحل، محملين بالذهب والعاج والرقيق، فيقايضون التجار العرب المتعاملين معهم بما يحملونه، وكانت البضائع الأفريقية غالبا ما تستبقى فى المراكز التجارية، التى أقامها العرب على السواحل، إلى أن يحين موسم الرياح؛ حتى يتم نقلها إلى الخليج العربى وسواحل الجزيرة العربية فى رحلة العودة، وكان العرب يقايضون على ما يأخذونه بالحرير، الذى كانوا يحصلون عليه من الهند.

وقد اضطرد نشاط حركة التعامل التجارى؛ فوصلت تجارة الذهب إلى درجة كبيرة من الانتعاش، كما يؤخذ ذلك من التاريخ المحلى لسلطنة كلوة، وشهدت الجزيرة العربية أعداداً وفيرة من الزنوج الذين جلبهم العرب من شرق أفريقيا. واستخدموهم فى حراسة قوافلهم، كما تزوجوا منهم وتناسلوا، ونشأ من نتيجه ذلك نسلاً أو جيلاً، عرف بشجاعته وسواد بشرته.

ولقد كانت الهجرة العربية الواسعة على أثر انهيار سد مأرب باليمن؛ حيث خرجت من جنوب شبه الجزيرة العربية هجرات عربية إلى مختلف الأنحاء، سواء داخل شبه الجزيرة أو

خارجها، وكان من الطبيعى أن يتجه جزء من هذه الهجرات إلى الساحل الشرقى لأفريقيا؛ حيث القرب الجغرافى، والمعرفة السابقة بالساحل والأخوة وأبناء العمومة، الذين قد سبقوا بالهجرة إلى تلك الأماكن فى أزمان سحيقة فى القدم، وقد كان ربط الهجرات القديمة بالهجرات اللاحقة بعد انهيار سد مأرب، له أثر في زيادة التأثير العربى فى سكان الساحل فى قبائل البانتو، ويرى بعض الباحثين إن ازدياد اختلاط العرب بالقبائل الأفريقية منذ هذه الفترة القديمة، كان بداية لظهور ثقافة مميزة المعالم، أخذت من كل من الشعبين، وهكذا أصبحت السواحلية لغة قائمة بذاتها، مزيجًا من الذى أتى به العرب، والذى كان ملكاً خالصا للأفريقين، وهذا لا ينفى وجود اللغة العربية فى الساحل الأفريقى، كلغة قائمة بذاتها؛ باعتبارها لغة الأرستقراطية الحاكمة.

ولا تزال رحلات السفن الشراعية التقليدية المعروفة باسم الدوات Dhaws، تعمل فى المحيط الهندى والخليج العربى، وجنوب الجزيرة العربية وشرق أفريقيا، وتقوم بنشاط ملاحى له أهميته في المحيط الهندى حتى وقتنا الحاضر .وهذه الصورة من الترابط والنشاط الحضارى فى المحيط الهندى، محتاجة إلى كثير من الجهود العلمية الدائبة؛ لتوضيح غموضها، وإذ كنا قد تحدثنا عن أقسام الساحل الشرقى لأفريقيا الثلاثة (بر سعد الدين، الإمارات الإسلامية الحبشية ممالك الطراز الإسلامى، ساحل البنادر، صوماليا ثم أخيراً الجزء الجنوبى ــ ساحل الزنج) إلا أن الضرورة التاريخية تحتم دراسة الجزء الشمالى بدراسة موسعة، أكثر من الإشارة السابقة؛ ذلك لأن الدور الإسلامى فى الحبشة وامارات الساحل (أرتيريا) والإمارات الداخلية قد لعب دوراً مؤثراً وفعالا فى انتشار الإسلام فى تلك الأقطار، فعلاقة منطقة الحبشة الشمالية أو ساحل شرق أفريقيا الشمالى، وبصفة خاصة بمنطقة اليمن، ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ كما سبق أن ذكرنا، لأن صلة الربط بينهما قوية، فلا يفصل بينهما سوى البحر الأحمر الضيق، مضيق باب المندب، والذى يضيق كلما اتجهنا جنوباً حتى يكاد شاطئاه يلتقيان؛ لذلك فإن قيام علاقة وثيقة بين منطقة اليمن ومنطقة الحبشة أمر طبيعى، بل أكثر من ذلك نجد عديداً من المؤرخين والباحثين يتفقون جميعا فى أقوالهم أن كلمة الحبشة ومنها الأحباش، ترجع فى أصولها إلى قبيلة بين حبش العربية، وهى أقوى القبائل العربية، التى هاجرت من جنوب بلاد العرب فى الفترة بين القرنين العاشر والسابع قبل الميلاد،

واستقرت فى أفريقيا، ولم يأت القرن الرابع الميلادى، حتى غلب اسم هذه القبيلة العربية على المنطقة، التى استوطنتها فى شمال الحبشة، بل وعلى الوطنيين أنفسهم، ثم أطلق العرب اسم الحبشة على جميع المنطقة الممتدة بين النيل غربا والبحر الأحمر شرقا، ومن النوبة شمالا إلى ما وراء خط الاستواء جنوبا، كما أن لغة الجغر أو لسان جغر، وهو الاسم الذى عرفت به اللغة الجبشية القديمة تنسب إلى قبيلة الأجاعز (الأجعازيان)، وهى إحدى القبائل العربية التى هاجرت من اليمن إلى الحبشة، واستقرت فى الجانب الشمالى الشرقى من الحبشة، ولم تلبث أن بسطت نفوذها على سائر البلاد؛ حيث نزلت طائفة من الشعوب البدوية فى هذه المنخفضات التى تشتغل بالرعى والنقلة فى هذه السهول الفقيرة، وأصبح تاريخ هذا الجزء من أفريقيا صراعاً بين البدو سكان هذه السهول والمستقرين، سكان هذه الهضاب المرتفعة.

وإذا كان الباحثون قد اختلفوا فيما بينهم بشأن حجم الهجرات العربية إلى الحبشة، فقد اتفقوا جميعا على أن هناك هجرات عربية، شملت أعداداً من التجار، استقروا على الشاطىء الغربى للبحر الأحمر فى منطقة الحبشة، وبمرور الزمن تزايدت أعدادهم وكونوا مراكز تجارية فى مناطق متفرقة، بطريقة تشبه- إلى حد كبير- ما حدث فى ساحل الزنج، فتكونت مراكز حضارية، ظلت لفترة طويلة على صلة بالوطن الأم، وبمرور الزمن اختلط العرب بالوطنيين الأصليين، وكان من نتاج هذا الاختلاط مواطنو مملكة اكسوم، التى ازدهرت فيما يبدو منذ منتصف القرن الأول الميلادى وهى تقابل من تاريخ العرب عصر الجاهلية وصدر الإسلام وليس أدل على عمق الإسلام والعروبة فى تلك الديار، مما أشارت إليه صحيفة الأهرام القاهرية، فى عددها رقم ٣٦٥٥٠ بتاريخ ٣ يناير ١٩٨٧م، بذلك العنوان اكتشاف أقدم أثر بشرق أفريقيا: اكتشف فريق من علماء بجامعة أوكسفورد البريطانية بقايا مسجد، يرجع تاريخ إنشائه إلى أكثر من ألف عام على الساحل الكينى، فيما يعتبر أقدم أثر إسلامى، يتم اكتشافه فى منطقة شرق أفريقيا.

ويوضح ريتشارد ويلدبنج مدير الآثار بالمتحف الكينى أن بناء المسجد، تم فى حوالى ٩٥٠ ميلادية، وقد اكتشف ضمن أطلال منطقة، كانت مشهورة بالتجارة فى جزيرة بيت على حدود كينيا مع الصومال، وتربط الأساطير الحبشية بين قيام مملكة اكسوم والعلاقة بين الحبشة واليمن، إذ تقول هذه الأساطير بأن البيت المالك فى الحبشة من أقدم البيوت فى العالم (قبل الثورة الاشتراكية بقيادة منجيستو مريام). ومهما يكن من أمر.. فإن اتساع

مملكة اكسيوم وازدهارها ونشاط تجارتها، أدى إلى تقوية علاقاتها بجنوب الجزيرة العربية. ومن أجل المحافظة على تجارة الحبشة والسيطرة على الطريق البرى بين اليمن والشام، قام ملوك أكسيوم بعدة غزوات لليمن، وأخضعوه منذ وقت مبكر قد يرجع إلى أوائل القرن الثانى الميلادى، كما أنهم أخضعوا بعض القبائل العربية شمالى سبأ وحمير، كما تدخلت مملكة أكسيوم منذ القرن الثالث الميلادى فى الصراع الدائر على السلطة، فى جنوب شبه الجزيرة بين سبأ وحمير، إلا أن سيطرة اكسيوم على بعض مناطق اليمن كانت متقطعة، ولقد كانت هناك أحداث فى اليمن، دفعت مملكة اكسيوم للتدخل فى اليمن، فأرسلت حملة قوية إلى اليمن ساهم فيها الإمبراطور البيزنطى جستنيان، ونجحت هذه الحملة فى القضاء على سلطان حمير وأقامت عرشا مسيحيا يخضع للملك اكسيوم.

ولقد انتهى حكم الحبشة لليمن حوالى عام ٥٧٠م، عندما مد الفرس يد المساعدة لحمير؛ للقضاء على النفوذ الأكسيومى الحبشى؛ فأصبحت اليمن تابعة للفرس حتى فتحها المسلمون عام ١٣هـ ٦٣٤م، كما أن علاقة الحبشة لم تقتصر على اليمن فقط قبل الإسلام، بل امتدت تلك العلاقة إلى منطقة الحجاز أيضاً؛ بحيث كانت أرض الحبشة متجراً لقريش ومع التجارة ومع الهجرة المتبادلة من بلاد العرب إلى الحبشة للمتاجرة أو المهاجرة أو فى الحبشة إلى بلاد العرب- سواء أكانوا أحراراً أم أرقاء- تبادل العرب والأحباش كثيراً من المؤثرات اللغوية والحضارية، فمن المعروف أنه منذ عهد قديم جدا، كانت هناك تجارة متبادلة بين العرب والأحباش فى الحجاز.

ويشير بعض المؤرخين إلى عدم توفر المعلومات الكافية عن حالة العرب فى ساحل شرق أفريقيا فى الفترة السابقة لظهور الإسلام، إلا أن الذى لاشك فيه أن الصلات كانت قائمة لا تكاد تنقطع، حتى ظهور الإسلام فى القرن السابع الميلادى، وقد لاحظنا أنه لم يكن للعرب قبل الإسلام اتصالات دائمة بشرق أفريقيا، لاسيما الجزء الجنوبى المعروف ساحل الزنج، الذى يصل إلى سفاله فى موزمبيق جنوباً، وإنما كانت الصلات تقتصر فقط على عمليات التبادل التجارى.. وهكذا فإنه لم يكد القرن الأول الميلادى ينقضي، حتى كان هؤلاء العرب المغامرون قد انتقلوا من مرحلة الرحلات الخاطفة إلى مرحلة الإقامة والاستقرار، فقد أنشأوا مستعمرات على طول هذه السواحل، وأقاموا فيها المنازل وجلبوا أهلهم وذويهم، وطاب لهم المقام، وكانت هذه المدن العربية القديمة تنشأ على جزر قريبة من البر؛ ليمكن

الدفاع عنها إذا أراد السكان الأصليون المنتشرون فى الساحل أن يتعرضوا لها بسوء، ولا نعرف عن هذه المدن قبل ظهور الإسلام شيئاً يذكر.

وقد كانت هناك علاقات بين الساحل والهند وفارس والعراق والبحر الأحمر ومصر وحوض النيل الأوسط وجنوب غرب الجزيرة العربية وغيرها، وهنالك نصوص حبشية فى القرن التاسع الميلادى تشير إلى إقليم يوربارس الذى يقع إلى الجنوب الغربى، والذين كما ذكرت الروايات الصينية أن بلدهم به العاج والعنبر. وبالإضافة إلى هذه الرواية فإننا نجد أن السفن فى الصين قد وصلت إلى الساحل الأفريقى الشرقى، فى رحلات منتظمة متتابعة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن منطقة الصومال كانت الميدان الذى اتخذته قبائل الجالا لشن غاراتها على ساحل الزنج (شرق أفريقيا)؛ الأمر الذى جعل سكان الساحل يلجأون إلى الأماكن الأخرى، فمنهم من دخل إلى منطقة البحيرات، ومنهم من انتقل إلى أثيوبيا وأرتيريا وحوض وادى النيل الأوسط، وكانت هذه المناطق الأخيرة أكثر أمنا وطمأنينة، وساعد ذلك على النشاط التجارى.

وتدل الاكتشافات الحديثة والعثور على العملة الرومانية إلى أن مركز الثقل التجارى قد عاد إلى الساحل الشرقى لأفريقيا، منذ القرن الرابع الميلادى، ومن بعض المراجع- كدليل التجار المسمى بريبلوس ـ بحر ارتيريا ـ، وكذلك بعض فقرات من جغرافية بطليموس، الذى عاش فى القرن الثانى الميلادى- نستدل على أن تجار الإسكندرية قد عرفوا جبال كلميغارو، والبحيرات الكبرى عند منابع النيل فى القرن الرابع الميلادى، كما تشير إلى أن النشاط التجارى فى شرق أفريقيا قد كان يتمثل فى العاج، الذى لقى رواجاً، لم يلقه فى أى فترة حتى القرن الثامن عشر الميلادى. وهناك نقص كبير فى الوثائق المكتوبة والآثار، التى يمكن أن تلقى الضوء على الفترة من القرن الثالث الميلادى حتى القرن السابع، وهى الفترة التى شهدت أخطر التطورات فى تاريخ شرق أفريقيا كله؛ إذ احتل زنوج البانتو المنطقة الساحلية ومما له دلالة واضحة أن دليل بحر أرتيريا الذى يصف ساحل شرق أفريقيا كله حتى زنجبار جنوبا، لم يشر مطلقًا إلى السود، أما فى جغرافية بطليموس فيذكرهم فى أقصى الجنوب، حتى موزمبيق شمالا، وعلى هذا فشمال موزمبيق كله كان أهله من الصومال أو الأحباش.

ولا يزال الكتاب وعلماء الأجناس والسلالات البشرية يتحدثون عن الحاميين والساميين، ومن ذلك قولهم أن الحاميين قد احتشدوا بعد انتقالهم فى موجات متتالية في الجزء الشرقى

من أفريقيا، الذى يلى بوغاز باب المندب، والذى يسميه كثير من الكتاب قرن أفريقيا، وتتدافع الموجات عبر البوغاز، وتتدافع الشعوب، وتحتل الأقطار المختلفة على مدى قرون عديدة حتى لم يبق فى أوطانها الآسيوية إلا بقية، لم تلبث أن اندمجت فى عناصر ثقافية أخرى فى الجنوب العربى، وقد ترتب على ذلك احتشاد الحاميين الشرقيين فى شرق أفريقيا، إلى أبعد من القرن العاشر قبل الميلاد.

ومن هنا فإننا نجد أول هذه الشعوب التى سكنت ساحل البنادر هى شعب الصومال؛ حيث إنه أول ما يصادفنا، حين تغادر الأقاليم الزنجية فى شرق أفريقيا، وتتجه شمالا، ولذلك نجد بعض الصوماليين يعيشون فى كينيا فى الإقليم المتاخم لصوماليا، فأوطانهم تبدأ من المجرى الأسفل لنهر تانا على الدرجة الثانية من درجات العرض الجنوبى، وتتجه الأوطان نحو خليج عدن، كما أن هناك مساحة ضخمة تشمل الجنوب الشرقى من أثيوبيا؛ أى منطقة أوجادين وما يجاورها، وتشمل بلاد صوماليا جميع الإقليم الذى يدعى قرن أفريقيا، ثم يلى ذلك شعب الجلا، وهو الشعب الحامى الذى يعيش فى الجنوب والجنوب الغربى من أثيوبيا، وليست له أوطان خارج أثيوبيا، وهم يدعون أحيانا بأسماء أخرى مثل الموارما وادومر، ويقال إنهم نزلوا أوطانهم هذه فى القرن السادس عشر، وأجلاهم الشعب الحامى الوحيد، الذى لايزال شطر كبير منه، ولعله أكثره محتفظا بتقاليده ونظمهم الاجتماعية.

والسلالة الأثيوبية التى تهيمن على دولة أثيوبيا، قد تكونت على مدى قرون بواسطة هجرات، دخلت الهضبة واستقرت فى أرجائها، ومن الجائز أن يكون الجنس الزنجى قد دخل الهضبة منذ آلاف السنين لاجئًا أو هاربا من الجماعات الحامية، التى أخذت تتدفق عبر باب المندب، وهؤلاء الحاميون أتوا فى موجات متتالية، وسواء دخلوا الهضبة راغبين أم هاربين فلا شك أن إنتقالهم إليها قد جعلهم على مضى القرون العنصر الراجح فى تكوين السكان، ولعلهم امتصوا القلة الزنجية، التى سبقتهم إلى سطح الهضبة؛ بحيث أصبح التكوين الجنسى للأحباش يتألف من ٧٥٪ من الحاميين، ونحو ١٥ ٪ من الدم الزنجى، ونسبة أقل، ولكنها مهمة جداً من الساميين.

وهجرة الساميين إلى أثيوبيا تعد حادثًا بعيد الخطر فى تاريخها، وأنه لا يمكن أن يكون أثراً كثيراً فى شكل السكان؛ لأن التشابه قوى بين الحاميين والساميين، ولكن التأثير ظهر فى نواح ثقافية واجتماعية عديدة، إننا لا نكاد نعرف شيئا عن تاريخ أثيوبيا قبل دخول الساميين

إليها، وتاريخ دخول الحضارة السامية لا نعرفه إلا على وجه التقريب، ويبدو من الروايات الأثيوبية أن هذه الهجرات السامية لابد أنها وقعت فى حدود القرن العاشر قبل الميلاد.

والأثيوبيون يقولون إن البيت المالك فى أثيوبيا ينحدر من مملكة سبأ، وصفوة القول أن هجرات متتالية أتت من بلاد اليمن، وجهتها هضبة الحبشة، وقد توالت هذه الهجرات على مدى قرون عديدة، وإلا لما أمكنها أن تحدث الأثر الثقافى العميق فى هذه الأوطان الأفريقية، التى لم تلبث أن اصطبغت بالصبغة السامية، وأخذت أثيوبيا تظهر فى التاريخ، وكانت لها صلات بالبطالمة، وغيرهم من حكام وادى النيل.

أما الأثر الثقافى الأكبر قبل ظهور أنوار الإسلام، فيتمثل فى انتشار لغة سامية سبأية، تدعى لغة العجز فى منطقة تجرة وبرزت منذ زمن متقدم مدينة أكسيوم كمركز للحضارة أولا، ثم للديانة فيما بعد، وظلت هى العاصمة الدينية زمنا طويلا، غير أن لغة العجز باتت مقصورة على الشئون الدينية، وذلك لأن هناك لغة جديدة، تدعى الأمهرية، ظهرت فى القرن الثالث عشر، وقد تغير المركز السياسى من إقليم تجرة إلى إقليم امهاره، بل إن هذه اللغة الأمهرية ليست سامية خالصة، بل دخلتها عناصر من لغات حامية وغيرها، ولكنها بامتصاصها للعناصر الحامية، لم تتحول إلى لغة حامية، بل لا تزال عضوا مهماً فى اللغات السامية، وهى إلى جانب اللغة العربية واللغة التجرينية، أهم اللغات السامية الحية، والتى ظت حية قرونا عديدة.

وهكذا نرى كيف طبعت الهجرات اليمنية العربية أثيوبيا بالطابع السامى، وأكبر الظن أنها كانت هجرات سلمية أو قريبة من أن تكون سلمية، فقد ترتب عليها اتصال مطرد بين اليمن وأثيوبيا، وانتقلت فى غضونه بعض العناصر الحضارية من اليمن إلى الحبشة، ولا شك فى أن تشابه البيئتين فى كل من اليمن وأثيوبيا ساعد على ربط الإقليمين، وتوطيد العلاقات والصلات، وإن كانت أثيوبيا فيما بعد قد رأت أن تهاجم بلاد اليمن وتستولى عليها فترة من الزمن.

لكن إلى جانب الصومال والجلا وغيرهم من شعوب شرق أفريقيا، كانت هناك قبائل عديدة صغيرة من المجموعة الشرقية للبانتو، ولكن ما يهمنا هنا ما دام الحديث محضاً عن شرق أفريقيا أن نذكر منها الشعب السواحلى، وهذا الشعب كما يدل عليه اسمه، يعيش فى المنطقة الساحلية الممتدة إلى نحو خمسمائة ميل ما بين نهر تانا شمالا ومصب نهر روفوما

جنوباً؛ حيث الحدود السياسية بين تنزانيا وموزمبيق، وحيث هذا أهم جزء فى أقطار البانتو، تعرض للهجرات العربية وللنشاط العربى، كما تعرض أيضا لهجرة بعض سكان إقليم فارس من منطقة شيراز، ولكن كثيرا ما يطلق عليهم اسم الشيرازين، وقد كان فى الإقليم أيضا مجال لهجرات من الهند، وأكثرها من الجهات التى يطلق عليها اليوم اسم باكستان، ولكن الذى لا يدانيه أدنى شك أن الأثر العربى كان أطول وأعمق، حيث يمثل تجارة وانتقالات ثقافية واجتماعية، مصدرها السواحل العربية من عمان وعدن.

وبقطع النظر عن المؤثرات الدينية والاقتصادية التى جاءت نتيجة للهجرات العربية، كان أوضح أثر تركه هذا الإتصال المستمر، هو نشوء وتكوين لغة السواحلى، التى أصبحت هى لغة التعامل فى شرق أفريقيا لا فى الإقليم الساحلى فقط، بل تمتد كما يقول سليجمان من الكونغو غرباً إلى جزر كومورد شرقاً إلى الشمال الغربى من مدغشقر.

وهكذا استطاع الاتصال العربى أن يوجد أداة لغوية واسعة الانتشار فى النصف الشرقى من القارة، وتسهل التعامل والتفاهم بين أبنائها، ومن أجل ذلك لم تتردد حكومة تنزانيا أن تجعل لغتها الرسمية هى اللغة السواحلية، وقد حذا حذوها بعض الحكومات فى شرق أفريقيا.

وهذا اللسان السواحلى فى أصله لغة من لغات البانتو، ونظن أنه مبنى على أصول لغة قبيلة جرباما، وهى تعيش إلى الشمال من ممباسا، ولا يستبعد أن يكون الاتصال الأول بالمهاجرين العرب قد تم فى هذا الإقليم، ثم أخذ نتشر تدريجيا فى كل اتجاه، ونظرا لأهمية لغة السواحلى، فقد الفت فيها الكتب وعملت لها المعاجم، وهى لغة من لغات البانتو، لكنها تشتمل على نسبة عالية جدا من الألفاظ والعبارات العربية، ولا شك أنها تكونت فى بيئة مختلطة، تتكون من عرب وبانتو، وإلا لما سميت بهذ الاسم العربى الصريح، والظاهر أنها لغة مرنة وليس المهم فى هذا ما للاتصال العربى من أثر فى الفاظ اللغة وعباراتها، ولكن المهم أن الاتصال بالعرب قد أكسب الإقليم قومية، لها خطرها فى المقومات السياسية والاجتماعية، الأمر الذى يفتقر إليه كثير من الوحدات الأفريقية الحديثة، التى اضطرتها ظروفها لأن تعتمد على اللغة الفرنسية أو الإنجليزية أو البرتغالية.

ولابد أن يكون من نتائج هذا التأثير العربى بعض الانتشار للدماء العربية، ممتزجة فى الأغلب بدماء من البانتو، ومع ذلك فإن فى البلاد عدداً ليس بالقليل من العرب الصرحاء، وهم على الأرجح متمسكون بمظاهر وتقاليد الحياة العربية، أما سائر السكان فمن المنتظر أن

يكون هناك تنوع كثير في الصفات الطبيعية، سواء في لون البشرة أو طول القامة أو مقدار ونوع الشعر ونحو ذلك، كذلك لابد أنه ستكون هنالك اختلافات في مظاهر الحضارة، وهكذا نرى أننا تابعنا توزيع العناصر السلالية في الأطراف الشرقية، من شرق القارة الأفريقية، دون الدخول في تفاصيل دراسة جنسية عرقية سلالية؛ لأن ذلك ربما يدخلنا في دراسات انثروبولوجية، وجغرافية أجناس، ذلك لأن الموضوع الذي ندرسه هنا هو دراسة تاريخية إسلامية بحتية، دعت ضرورة البحث إلى القاء نظرة على ظروف منطقة شرق القارة، قبل انطلاق أنوار الرسالة الإسلامية إلى تلك الأنحاء.

وحول شرق أفريقيا قبل الدعوة الإسلامية، نجد شارل اندريه جوليان في كتابه تاريخ أفريقيا» يذكر أن عرب الجنوب قد شاركوا مشاركة فعالة في تجارة بونت الصومال مع المصريين، بل أبعدوهم عن الجزئين الأدنى والأوسط من البحر المتوسط، إبان حكم الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشر، واحتفظوا طوال الألف سنة السابقة على الميلاد بالسيادة على تجارة الجنوب، وكانوا يمزجون منتجات الهند بمنتجات الصومال وأرتيريا، ويسيرون بها في قوافل إما إلى سوريا عن طريق مأرب ومكة، وإما إلى طيبة عن طريق وادى جاسوس، ولكن الرومان والبطالمة على الخصوص عمدوا إلى تحطيم هذه السيطرة، واكتشف اليونان حوالى عام ٤٠ ق. م ظاهرة هبوب الرياح في هذه النواحي، وأنشأوا علاقات مباشرة بين أفريقيا وساحل الهند الغربي، وتردد ملاحوهم على أرض الصومال، وتابعوا المسير بحذاء الشاطىء حتى بلغوا مدخل قناة موزمبيق.

لكن العرب استعادوا السيادة على المحيط الهندى وساحل شرق أفريقيا، نتيجة لتدهور اقتصاديات روما، واحتفظوا بها حتى القرن السادس عشر الميلادى وهكذا، كما سبق القول، أنشأ قوم من العرب- والذين جاءوا من الجزيرة العربية، أو من بلاد فارس منذ القرن السابع- سلسلة من الوكالات التجارية في ساحل شرقي أفريقيا، ولكنهم لم يتجاوزوا راس كوريانت؛ لأن مجرى نهر موزمبيق أوقفهم عن متابعة السير، إلا أنهم وضعوا أقدامهم في الكومور (جزر القمر) وفي مدغشقر، وكان العرب يهدفون من وراء ذلك إلى الاشتغال بالتجارة، ثم الاستقرار، ولقد شيدوا فيها مدناً فسيحة مزودة بوسائل الراحة، تشابه المدن في البلاد العربية؛ حيث عاشوا فيها حياتهم التقليدية بمنأى عن نظام الحصون، الذى كان منتشراً في الجزر.

ومن هنا فقد كان هناك اختلاط وتجانس بين سكان شرق أفريقيا والعرب، منذ وقت

بعيد، وهناك من يذهب إلى أن النشاط اليمنى فى الحبشية يرجع- على الأقل- للقرن العاشر، قبل الميلاد، ومن الثابت أيضا أنه فى هذا الزمن المبكر قد تحركت نواة يمنية صلبة إلى الحبشة وشرق أفريقيا، تتمثل كما سبق الإشارة فى قبيلتى الجشان والأجاعز، وهناك من يشكك فى أن السود الوطنيين كانوا لا يستطيعون وحدهم القيام بهذا النوع من الحضارة فى الحبشة لولا هذه الأمواج العربية القديمة، التى وضعت أساس السامية فى الحبشة، وقد ازداد هذا التأثير أكثر حين تصدع سد مآرب حوالى منتصف القرن الخامس ق. م، وكان هذا السيل الذى لا ينتهى من الهجرة، خلف وراءه اليمن، وقد أثبتت النقوش القديمة فى بلاد الحبشية إما أنهم كانوا يستخدمون فى هذه الفترة المتقدمة اللغة والكتابة السبئة، ومن هنا فإن المخطوطات الحبشية، إما أنها مطابقة تماما للحروف السبئية، وإما أنها تشبهها إلى درجة لا تدع مجالا للشك فى تطورها عن السبئة، وإذا كان لا يمكننا القول أن اللغة الأثيوبية القديمة أو الأمهرية هى مجرد واحدة من اللهجات القديمة للغة العربية، إلا أن هذا لا يمنع الاستنتاج الذى ينتهى إلى أن اللغة الأثيوبية القديمة بعد انفصالها عن اللغات السامية قد سارت فى طريقها نفسه فترة من الزمن، ولكن عملية الانفصال عن العربية كانت فى وقت مبكر، لم تكن فيه العربية قد وصلت إلى أشكالها الحالية، وإلى قواعدها التى كانت فى طريق الاستقرار، بالإضافة إلى أنه ثبت أن هناك أماكن وآلهة وبعض نظم الحياة، كانت مشتركة بين الحبشة واليمن، وهذا يدل على الدور العربى الذى لا شك فيه فى الحبشة.

بل إنه من الثابت أنه فى عهد الدولة الحميرية الثانية، قد غزا الأحباش اليمن غزواً أسفر عن حكم؛ ذلك لأن ملوك حمير الوطنيين سرعان ما تخلصوا من هذا الحكم، وظلوا يحتفظون بمكانتهم حتى حوالى عام ٥٢٥م، وفى النقوش الأكسومية التى ترجع إلى منتصف القرن الرابع، نجد ملك أكسيوم وحمير وريدان وحبشة وسلع وتهامة، ومن المعروف أن هذه الغزوة لم تكن الغزوة الأولى للأحباش فى بلاد العرب، ذلك لأنه حدث قبل ذلك فى القرنين الثانى والثالث الميلاديين أن الأحباش تمكنوا من بسط نفوذ مؤقت لهم على بعض أجزاء بلاد العرب الجنوبية، وقد احتفظت النقوش بأسماء تسعة من ملوك حمير فى ذلك العصر.

بل إنه يمكن القول أن المسيحية قد أخذت طريقها إلى اليمن بواسطة الأحباش، وآزرهم الروم، ذلك لأن قيصر الروم جنينان جهز عام ٢٤ ق. م حملة مؤلفة من عشرة

آلاف رجل، وخرجت من مصر تحت لواء حاكمها يلوس جالوس Aeluis Gallus وقد ساعد الروم في هذه الحملة حلفائهم الأنباط؛ من أجل تحقيق هدف الاستيلاء على شبكات طرق النقل، التى كانت محتكرة لعرب الجنوب، ومن أجل استغلال الموارد اليمنية لمصلحة روما، وقد توغلوا بالفعل فى المنطقة الجنوبية، بعد أن كانوا قد استولوا على نجران من قبل، كذلك فقد كانت هناك صلات بين الحبشة والشمال سكان الحجاز رغم أنهم تخطوا حادث الغزو الذى قام به أبرهة لمكة المكرمة، ومن هنا ندرك أن مكة نفسها كانت إحدى المناطق الحيوية التى دار حولها نزاع بين الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية البيزنطية، ونحن نلاحظ أنه قد استمر سيل التجارة بين الشمال والحبشة؛ فالمطلب أكبر أولاد عبد مناف، قد عقد أحلافاً تجارية مع النجاشي؛ من أجل إدخال قريش فى أرضه.

وعلى يد هاشم بن عبد مناف وإخوته، خرجت قريش إلى مجال التجارة الخارجية، فقد اتصلوا فيما اتصلوا بالأحباش، ووثقوا الصلات التجارية معهم، ومن هنا كانت رحلاتهم، وهكذا نرى أن الحبشة قد أصبحت متجراً لقريش، ذلك لأن الحبشة كانت أحد المصادر المهمة للتجارة الشرقية، وفى الوقت الذى كانت الحجاز تحصل فيه على منتجات الحبشة، كانت قريش تحمل إليها ما تحتاجه من حاصلات الشام ومن مصنوعاته إلى جانب حاصلات الجزيرة العربية نفسها.

وحين استولت الحبشة على اليمن، ضعف الدور التجارى لقريش، ولكنها ظلت مسيطرة على التجارة الداخلية؛ مما أضطر ابرهة إلى أن يفكر فى انتزاع هذه السيطرة من أيديهم ،على نحو ما مر بنا، ثم لما انحسر الأحباش عن اليمن استعادت قريش زعامتها. وهذا التبادل التجارى البحرى الذى كان بين عرب الحجاز والحبشة، ربما قد أشار إليه عديد من آيات القرآن الكريم، وقد كان الحجازيون الشماليون يذهبون إلى الحبشة، كما أن الأحباش الذين كانوا يعيشون فى الجزيرة العربية، يدخلون فى نسيج الحياة العربية الاجتماعية.

ومهما يكن من أمر العلاقات والصلات والروابط، التى ربطت بين عرب الجزيرة العربية سواء فى اليمن أو الحجاز، أو الساحل الجنوبى والخليج وعمان.. فإن كل هذه الأنحاء قد ارتبطت مع شرق أفريقيا بأقسامها الثلاثة الشمالية – الحبشة وأرتيريا الوسطى ساحل صوماليا والجنوب ساحل الزنج؛ إذ إن كل هذه الصلات كانت– فى بداية الأمر– صلات تجارية وعسكرية، لكن قد تبعها بعد ذلك استقرار من جانب العرب على الشاطىء الغربى للبحر

المتوسط، والقرن الأفريقى، وجزر المحيط الهندى، وساحل شرقى أفريقيا، وإن ذلك قد أدى إلى قيام وكالات ومستوطنات سكنية، وظهور المؤثرات الحضارية العربية والمظاهر الثقافية والاجتماعية، التى ساعدت على ظهور ما أشرنا إليه سابقاً من مظاهر الزى والملبس والتقاليد والعادات، ثم كان أكبر مظهر حضارى وثقافى، ذلك الانتشار الواسع للغة العربية واختلاطها بلغات البانتو، وظهور لغة السواحلى، التى شكلت أجزاء كبيرة فى شرق أفريقيا، إضافة إلى أن اللغة الأمهرية، لغة الحبشة هى جزء من اللغة العربية أو اللغات السامية.

وهكذا كانت هناك صلات بين الطرفين من عصور قديمة، سواء تاريخية بعد الميلاد أو قبل التاريخ الميلاد، بل إنها ازدادت منذ القرن العاشر قبل الميلاد؛ بحيث ظهرت بصورة مؤثرة. وهكذا كانت الروابط والصلات من عوامل الانطلاق العربى إلى تلك الأنحاء، بعد ظهور الإسلام فى الجزيرة العربية، وهذا يدل دلالة مؤكدة على أن العرب كنت لهم سابق معرفة قديمة بهذه الأماكن، وهذا ما سنعرض له فى الباب القادم.

***

الباب الثانى

ظهور الإسلام
والعلاقات مع شرق أفريقيا

لقد كان من الطبيعى أن نشهد بعد ظهور أنوار الإسلام والدعوة القرآنية توسعًا عربياً، وتوثيقاً فى الروابط القائمة بين عرب الجزيرة والساحل الشرقى لأفريقيا؛ حيث ظهر عامل آخر غير العامل التجارى، حيث كان ظهور الإسلام فى أوائل القرن السابع الميلادى بداية لصفحة جديدة من تاريخ العلاقات بين العرب والحبشة، وفى هذا الدور قام العرب المسلمون بالدور الإيجابى فى هذه العلاقات؛ خاصة وأن مملكة أكسيوم كانت فى طريقها إلى الانهيار، إذ كان تعرض المسلمون الأوائل لإيذاء قريش، دافعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى التفكير فى هجرة اتباعه إلى الحبشة، ومن هنا فإن هجرة المسلمين إلى الحبشة تطرح سؤالا لماذا الحبشة ؟ فإنه من البديهى أن نعرف أن هذه الهجرة، لم تتم عشوائيا، وإنما كانت ثمرة بحث عميق فنحن عرفنا أن أرض الحبشة متجر القريشيين، وكانوا يجدون فيها أمناً وسلاماً ومتجراً حسناً، ثم أن هذه الفترة التى تمت فيها الهجرة كانت فترة استمرار للعلاقات بين ساحل البحر الأحمر، ولقد كانت الرحلة سهلة، فهؤلاء المهاجرون لم يجدوا أدنى صعوبة فى عبور الحر الأحمر والانطلاق إلى الحبشة؛ فقد تسير لهم مركبان نقلاهما إلى الحبشة، وهذا يدل على استمرار العلاقات فى هذه الفترة بين بلاد العرب والحبشة؛ فإذا أضيف إلى هذا سهولة وصول أخبار النبى محمد صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة، واستمرار وصول الوفود إلى النبى، لأدركنا أن العلاقات كانت طيبة بين ساحلى البحر الأحمر، ولم تكن العلاقات تستمر على هذا النحو من السهولة واليسر، إلا نتيجة طبيعية للظروف، التى كانت تحتم وجود هذه العلاقات؛ فظروف الحياة القاسية فى شبه الجزيرة العربية وسهولتها فى الحبشة تجعل هجرة اليمنيين والحجازيين إليها سهلة مستمرة.

ومهما يكن من أمر فإن المسلمين كانوا على وعى بحماية المسيحية، وكيف أن الأحباش كان من همهم تحطيم الوثنية العربية فى الشمال، وفى ضوء هذا كله نرى أن النبى عليه السلام يرسل بعثة استطلاعية، لتعرف أحوال البلاد، وتحسس رغبة النجاشى فى قدرته على حماية المسلمين، ورغبته فى وصول عدد كبير من المسلمين إلى الحبشة، ومن هنا كان قوله صلى الله عليه وسلم لأصحابه لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه.

وفى هذا المجال أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم، فى السنة الخامسة من البعثة ٦١٤م، وفداً إلى ملك الحبشة، واستغرقت رحلة هذا الوفد حوالى أربعة أشهر، مكث منها

شهرين أو ثلاثة بالحبشة، عاد بعدها إلى مكة، ولما اطمأن الرسول صلي الله عليه وسلم على مستقبل المسلمين بالحبشة وموقف السلطات الحاكمة هناك منهم، أذن للمسلمين بالهجرة إلى الحبشة، فهاجر إليها فى العام نفسه من الصحابة ونسائهم وأولادهم مائة واثنان وثلاثون.

وقد ذكر الرواة أن النجاشي أراد أن يتثبت من حقيقة هؤلاء، الذين قدموا عليه، فما كان منه إلا أن أرسل وفداً إلى النبى صلى الله عليه وسلم، وهو مازال فى مكة، كما أن ملك الحبشة أراد أن يتعرف حقيقة الرسول صلى الله عليه وسلم، فأرسل وفدا لمقابلته فى مكة، وذلك ليسمعوا كلامه ويروا صفاته وكان عدد أعضاء ذلك الوفد اثنى عشر، وقيل خمسون فردا، وقيل بضع وستين، وقيل سبعون رجلا، سبعة منهم قساوسة وخمسة من الرهبان وقيل بالعكس، وهم الوفد الذى حين ظهرت استجابة أعضائه للرسول صلى الله عليه وسلم، قال لهم أبو جهل مع نفر من قريش: خيبكم الله من ركب، وقد رجع هذا الوفد إلى النجاشى وحدثه بما رأى، ولا شك أنهم أخبروا بروح تنطوى على الإعجاب، وتنم عن الود، وبذلك صادف المسلمون قبولا لدى ملك الحبشة، فأذن لهم بالهجرة إلى بلاده.

ورحب بكل الذين جاءوا إلى بلاده، وسيجيئون إلى دياره، وهكذا لم يكن رجوع هذه البعثة الاستطلاعية لإشاعة سرت فيهم أن أهل مكة قد أسلموا، كما زعم بعض الرواة، ومن هنا كان المهاجرون فى حماه وتحت رعايته، فتدفق العرب والمسلمون إلى بلاد الحبشة آمنين مطمئنين، ومن المرجح أنهم لم يرحلوا جمعاً واحداً إلى الحبشة، بل هاجروا على دفعات، وليس بوسعنا أن نعرف متى بدأت كل دفعة منها الهجرة، ولا متى عادوا من الحبشة، فإن عودتهم كانت أيضا على دفعات وربما، كانت آخر عودة لهم عام فتح، فى السنة السابعة للهجرة ،عام ٦٢٨م.

ومن هنا فإن منطقة شرق أفريقيا كانت أسبق بقعة فى العالم القديم، فى استقبال الدعوة الإسلامية الخالدة؛ ذلك لأن الهجرة الأولى للمسلمين حين اشتدت عليهم مضايقات وإيذاء كفار قريش وإيذائهم للمسلمين، هاجروا إلى الحبشة، ومروا فى طريقهم بساحل أرتيريا، ودعوا القوم هناك لدين الإسلام وتعاليمه السمحة، وكان على رأس المهاجرين جعفر ابن أبى طالب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولذا فإن الأفارقة قد استقبلوا القوم الذين حملوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أول رسالة إلى النجاشى إمبراطور البلاد، وكانوا أول من آمن برسالة الحق، ولقد كان ذلك قبيل الهجرة النبوية إلى

المدينة المنورة بخمس سنوات، وهناك فتحت شرق أفريقيا أبوابها بحنان وحب للمسلمين المهاجرين، فى سبيل إعلاء كلمته، وذلك بعد هجرتهم من ظلم الطاغوت من أهل مكة.

وهكذا أحدث الإسلام انقلاباً خطيراً فى حالة العرب بوجه عام، وتاريخ الساحل الشرقى لأفريقيا بوجه خاص؛ فقد لاحظنا أنه لم يكن للعرب قبل الإسلام اتصالات دائمة بشرق أفريقيا، وإنما كانت الصلات تقتصر فقط على عمليات التبادل التجارى، وما ينبع ذلك فى بعض الأحيان من استقرار مؤقت فى المراكز التجارية، التى أقامها العرب لغرض التجارة، على أن الأمر قد تغير تغيراً تاماً بظهور الإسلام؛ إذ ظهر عامل آخر غير العامل التجارى، نتج عن محاولة العرب الاستقرار الدائم.

ولقد ساء قريش أن ينعم المسلمون المهاجرون إلى الحبشة بالأمن والطمأنينة، ولذلك أوفدت إلى النجاشى سفارة، ومن هنا أسرعت قريش على نحو ما هو معروف، فأرسلت بعثة تحمل الهدايا لإحباط المسلمين هناك، وكان على رأس سفارة قريش عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبى ربيعة، وكانت لهما معرفة بالحبشة وأهلها، وكان غرض قريش من هذه السفارة إحباط أعمال المسلمين فى الحبشة، وإقناع النجاشى بالتخلى عنهم، لكن على الجانب الآخر فإن أبا طالب عم الرسول صلى الله عليه وسلم، بعث برسالة إلى النجاشى يوصيه بابنه جعفر وصحبه خيرا.

وفى الحبشة أمام النجاشى، كان هذا الالتحام الفكرى بين المسلمين وبين من قدموا من مكة، وكانت هناك محاولة الوقيعة بين المسلمين وبين من يعيشون فى رحابهم، ومن هنا فإنه رغم ما بذله رسولا قريش بالهدايا والمال وحسن التودد إلى النجاشى، إلا أنهما لم يستطيعا الإيقاع بالمسلمين ولا استثارة حمية النجاشى ضدهم، إذ عرض جعفر بن أبى طالب قضية الإسلام بين يدى النجاشى، وفند ما وجه إلى قومه من تهم، فاقتنع النجاشى بموقف المسلمين، وأبى تسليمهم لقريش، وفى السنة السادسة للهجرة عام ٦٢٧م عقب صلح الحديبية، أرسل الرسول عليه الصلاة والسلام عمرو بن أمية الغمرى بكتاب إلى النجاشى يدعوه فيه للإسلام، ويذكر أنه بعث إليه ابن عمه جعفر بن أبى طالب، ومعه نفر من المسلمين، كذلك أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم رسالة إلى النجاشى، بأن يخطب له السيدة أم حبيبة بعد أن تنصر زوجها، ثم بشأن رد المهاجرين إلى ديارهم، وفى السنة التاسعة للهجرة / ٦٣٠م أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى النجاشى هدية مكونة من

حلة وأوانٍ من المسك فردت إليه لموت النجاشي، فلما عرف النبي ذلك أرسل عمرو بن أمية بكتاب جديد يدعو فيه النجاشي الجديد إلى الإسلام، وفي ضوء كل هذا نرى المسلمين قد كرموا في الحبشة، وقد استمرت الرسائل والهدايا متبادلة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين النجاشي، ومهما يكن من أمر إسلام النجاشي أو عدمه أو الأسباب التي دعته إلى قبول الإسلام دون اعتناقه، فإن علاقة الحبشة بالعرب في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، اتسمت بالود وتبادل الهدايا بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين النجاشي، فضلاً عن تبادل الرسائل، وليس أدل على استمرار هذه العلاقات الودية مما أجمعت عليه المصادر العربية، من أنه عندما علم الرسول عليه الصلاة والسلام بوفاة النجاشي في السنة التاسعة للهجرة عام ٦٣٠م، دعا الرسول إلى الصلاة عليه، ولقد عاد مهاجرو الصحابة بأرض الحبشة إلى المدينة المنورة في السنة السابعة للهجرة/ ٦٢٨م، وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب، بعد أن مكثوا بالحبشة حوالي أربعة عشر عامًا، وهي فترة طويلة كفيلة بإحداث مؤثرات فعالة في جعفر وأصحابه، ووفد مع مهاجري الصحابة بعض من زعماء الحبشة، اختلفت المصادر في عدده، ومن هؤلاء الأحباش من بقي بجوار الرسول ﷺ، وتطوع لخدمته وخدمة المسلمين ومنهم (ذومخمر ابن اخي النجاشي إمبراطور الحبشة) وقد لزم الرسول ملازمة كلية.

وكان للعلاقات الودية بين الرسول عليه السلام والنجاشي والمعاملة الطيبة التي لقيها المسلمون المهاجرون إلى الحبشة، كان لذلك أثر في توثيق العلاقات بين نصارى الحبشة وبين الإسلام، غير أن هذه الهجرات الإسلامية الأولية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لم تترك أثراً في حياة البلاد، وإن كانت قد تركت أثراً في نفوس الأحباش، وأطلعتهم على الينبوع الروحي الجديد المتفجر بالقوة والحياة، ووطدت الصلات بين الدولة الإسلامية في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، وبين الأحباش ولم ينس الرسول صلى الله عليه وسلم مكرمة الأحباش، فكان يكرم الوافدين منهم، وتحمل لهم أطيب الذكريات وإحبها، بل إنه بلغ من إكرام الرسول لهم أن وفد الحبشة حين قدم على الرسول، فإنه صلى الله عليه وسلم قام بنفسه بخدمتهم، وحين قال له أصحابه نحن نكفيك يا رسول الله، قال لهم إنهم كانوا لأصحابي مكرمين فأحب أن أكفائهم، وحين بلغته صلى الله عليه وسلم وفاة النجاشي قال لأصحابه (أخرجوا فصلوا على أخ لكم)وفي ضوء هذه العلاقة الطيبة بين العرب والحبشة نرى القرآن الكريم في نظر بعض علماء الدين الإسلامي (عطاء بن أبي رياح) يذكر أن ذكر النصارى بالخير في القرآن الكريم، يراد به النجاشي وأصحابه.

ومن هنا فإنه مما هو جدير بالذكر أن الرسول ﷺ فضلاً عن العرب، قد تأثر بالأحباش

فى لغتهم وحضارتهم، ويذكر الرواة أنه ﷺ نطق ببعض الألفاظ الحبشية، ولا شك أن الإسلام بهذه العلاقات الطيبة أفسح المجال للمؤثرات، تنمو وتزداد فى تلك الصلات المباشرة بين العرب ووفود الحبشة، التى قدمت على النبى وبين العرب وبين الأحباش المقيمين فى شبه الجزيرة العربية، وبين المسلمين وبلاد الحبشة التى هاجروا إليها، وعاشوا فيها فترة من الزمان، ثم تلك الصلات غير المباشرة التى جاءت عن طريق اليمن.

وهكذا ظلت العلاقات الودية بين العرب والحبشة فى العصر الإسلامى، فكثر توافد العرب المسلمين من أجل التجارة، بعد أن دانت شبه جزيرة العرب للإسلام وأصبح المسلمون يتحكمون فى التجارة الشرقية بين مصر والهند عن طريق البحر الأحمر، فعبرت مجموعات قليلة من تجار العرب إلى الساحل الغربى للبحر الأحمر، وأسسوا لهم بالتدريج مراكز استقرار على الساحل الغربى للبحر الأحمر.

ولقد كان أول اتصال واحتكاك بين الدولة الإسلامية فى المدينة المنورة وبين الحبشة، فى عهد الخليفة الراشد الثانى عمر بن الخطاب عام ٢٠هـ / ٦٤٠م على وجه التقريب، إذ تذكر الأخبار أن الخليفة عمر بن الخطاب أرسل إلى الحبشة سرية بقيادة علقمه بن مجزر المدلجى فلم توفق، الأمر الذى جعل الخليفة يأخذ على نفسه عهدا بألا يحمل فى البحر أحد من المسلمين للغزو، وهذا سر عدم موافقة الخليفة عمر بن الخطاب بالأمر للغزو فى البحر، عندما طلب منه معاوية بن أبى سفيان والى الشام غزو قبرص، ولقد كان أول عربى مسلم هاجر إلى الحبشة واستقر بها فى عهد خلافة عمر بن الخطاب هو (ود بن هشام المخزومى).

ولاتتفق أخبار هذه الحملة لاتتفق مع علاقات الود التى سادت بين الأحباش والمسلمين منذ أيام الرسول ﷺ، وكذلك فإن عمر بن الخطاب لم يكن الرجل الذى لم يخرج على أمر قرره الرسول، بل قيل إن الخليفة قضى بألا تعتبر أرض الحبشة أرض جهاد، أو داراً لجهاد المسلمين بها، والتعليل الصحيح لإرسال هذه السرية أنها أرسلت لرد عادية قرصان البحر من الأحباش، كذلك فإنه من المعروف أن النجاشى الذى جاء المسلمون إلى بلده فى عهد الرسول ﷺ، هو صاحب الولاية على إقليم فى شمال الحبشة، والمعروف أنه كان فى ذلك العهد ملوك أو نجاشية لا يعدون، وكان لقب صاحب الولاية الكبرى نجاشى النجاشية؛ أى ملك الملوك، ونذكر ذلك هنا حتى لا يتسرب إلى ذهن القارىء أن النجاشى الذى دخل المسلمون بلده، هو نجاشى النجاشية، أو نجاشى آخر لهذا النجاشى، الذى استقبل

المسلمون الأوائل، وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب هو النجاشى أحمد، وقبره موجود بين قريتى حوزين والبطن، وقد زاره فى مقبرته الإمام أحمد القرين فى نهاية النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادى، وهاتان القريتان فى المنطقة الشمالية من الحبشة.

وقد ساعد انهيار مملكة أكسيوم مع نمو النشاط العربى على سيطرة العرب المسلمين، على ميناء عدل (عدول)، ولم يعد هناك مخرج للتجارة الحبشية إلا عن طريق العرب المسلمين، وتدريجيا تكونت للعرب المسلمين مراكز استقرار على طول الساحل الشرقى لأفريقيا، ولم يلبث أن امتزج العرب المسلمون بالوطنيين وصاهروهم، فأخذ الإسلام ينتشر تدريجيًا، حتى أحاطت الرقعة العربية الإسلامية بأفريقيا الشرقية عامة، كما أنها أحاطت بالحبشة فى الناحية الشرقية، التى تقابل اليمن فى الجزيرة العربية. ومن هنا فإنه ظهرت كتابات عربية إسلامية، ولذلك شهد الساحل الشرقى لأفريقيا قيام كثير من المدن والإمارات العربية الإسلامية، التى كانت تمتد فى صورة سلسلة، لا تكاد تنقطع من ساحل البنادر فى الصومال شمالاً إلى ساحل موزمبيق، حتى مصب نهر الزمبيرى جنوبًا، بالإضافة إلى الإمارات العربية الشمالية المحيطة بالحبشة، والتى أطلق المؤرخون عليها من ممالك الطراز الإسلامى؛ لأنها على جانب البحر كالطراز له، كذلك بالإضافة إلى سيطرة المسلمين على الجزر المواجهة لهذا الساحل من سقطره فى الشمال إلى مدغشقر فى الجنوب، وترتب على ذلك كثرة عدد العرب المهاجرين إلى الساحل الأفريقى. ورغم ارتفاع درجة الحرارة ارتفاعا كبيرا، فإن العرب لم يتأثروا بهذا المناخ؛ لأنهم كانوا يأتون عادة من مناطق أشد حرارة، وهى جنوب الجزيرة العربية وسواحل عمان.

وقد قام الأحباش فى عام ٨٣هـ بالإغارة على ميناء جدة، ومن هنا فإن المسلمين لم يجدوا بدأ من دفع أذاهم، وحماية شواطئ بلاد العرب من أى خطر يأتى من ناحية الأحباش، إلا أن يتخذوا لهم فى البحر الأحمر قاعدة قريبة من الشاطىء الأفريقى الغربى، فنزلوا أرخبيل دهلك على مقربة من ميناء مصوع، ويبدو أن تلك السيادة الإسلامية على هذه الجزر قد استمرت بصفة دائمة، نظرا للموقع الإستراتيجى لهذه الجزر، واستمر الحال على ما هو عليه طوال العصر الأموى، بدليل ما ذكره ابن العماد الأصفهانى، صاحب كتاب الأغانى، من نفى الدولة الأموية للشاعر الأحوص والفقيه عمال بن مالك إلى هذه الجزر، كذلك استمرت هذه السيادة على تلك الجزر طوال العصر العباسى، بدليل أن الطبرى فى كتابه «الأمم والملوك»، يقرر أن هذه الجزر تعرضت لغارات الهنود، فى النصف الأول

والثانى فى القرن الثامن الميلادى، الثانى الهجرى؛ بسبب قيام المأمون الخليفة العباسى بنفى حاكم خراسانى ابن عبد الجبار بهذه الجزر، كما أنه وجدت بتلك الجزر نقوش عربية إسلامية، يرجع تاريخها إلى منتصف القرن التاسع الميلادى.

ويبدو أن الدولة الإسلامية انسحبت بعد ذلك من تلك الجزر لكنها تركت فى هذه الجزر جالية من المسلمين من أهل البلاد الذين اعتنقوا العقيدة الإسلامية وأصبحوا مسلمون، فكانت بذلك جزر دهلك أول رأس جسر يقيمه الإسلام والمسلمون وصولا إلى الساحل الشرقى لأفريقيا.

بل أنه يذكر أن الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ - ٦٨٥ - ٧٠٥م) قد قام بإنشاء حكومات ومدن عربية إسلامية فى شرق أفريقيا، فى منطقة لاموا وغيرها من المدن الساحلية، ويبدو أن هذه المحاولة كانت آخر محاولة من الدولة الإسلامية (الخلافة الأموية) للتدخل الرسمى فى شرق أفريقيا، فقد ترك الإسلام يتسرب إلى البلاد تسربا سلميا بطيئا فى ركاب المهاجرين إلى أفريقيا من التجار المضطهدين، والمغامرين، والفارين بعقيدتهم عبر المسالك البحرية المعهودة.

ويعتقد أن أسرة من قبيلة مخزوم القرشية كانت أول أسرة عربية، أقامت ملكاً إسلامياً عربياً فى منطقة من الحبشة، وهى منطقة الشوا، وكان ذلك حوالى القرن الثالث الهجرى، حيث كان أول مهاجر عربى استقر فى الحبشة، كما ذكر هو (ود بن هشام المخزومى)، ومن هنا ساعد ذلك على هجرة أفراد عديدين من قبيلة بنى مخزوم.

وهذا الانتشار العربى الإسلامى ما هو إلا طور من اطوار الاتساع العربى الإسلامى، وإن كان يختلف بعض الاختلاف عن الفتوح العربية الإسلامية التاريخية المشهورة، إذ أنه لم يكن من عمل دولة أو خلافة إسلامية، بل كان نتيجة نشاط إمارات عربية إسلامية على ساحل حضرموت وعمان واليمن والحجاز، بل كان أحياناً لم يكن له شأن بالإمارات الإسلامية القائمة على الشاطىء العربى بالمرة، بل يرجع إلى جماعات كانت تفد إلى المنطقة بقصد الاستقرار أو الاندماج والتجارة، وهكذا ظهر لسكان شبه الجزيرة العربية دوافع لمحاولة الاستقرار الدائم فى سواحل أفريقيا الشرقية، وإقامة كيانات سياسية عربية إسلامية، وبالتالى زادت الروابط بين العرب وشرق أفريقيا، ولم يقتصر الأمر على عرب شبه الجزيرة، بل

زاد أيضا اتصال شرق أفريقيا بكافة الدول العربية الإسلامية فى أنحاء الوطن العربى، وقد ساعد على ذلك عامل الجوار؛ فالقبائل العربية القريبة من الساحل الشرقى لأفريقيا أو الجيران، كان لابد لها من أن تمد نشاطها وتجارتها وتنتقل حضارتها إلى سواحل أفريقيا الشرقية، كذلك كان من العوامل الرئيسية التى دفعت سكان السواحل العربية للخروج من شبه جزيرتهم كالعمانيون والحضارمة على وجه الخصوص أنهم سكنوا فى بيئة بحرية مثالية فى جنوب الجزيرة، ظهيرها طارد، فكان طبيعيا أن يفد إلى ساحل شرق أفريقيا فى مجموعات صغيرة انتشرت فى بعض الجزر، ثم فى المراكز الساحلية، واستطاعت هذه المجموعات أن تطبع مناطق واسعة فى شرق أفريقيا بلغتها ودينها، وأن تندمج مع السكان الوطنيين.

وهكذا أصبحت السفن العربية تحمل بين الحين والآخر بعض الذين طاب لهم الاستقرار فى الساحل الشرقى لأفريقيا، للإتجار فيه وليكونوا حلقة اتصال بين إخوانهم فى الجزيرة العربية وبين سكان السواحل الشرقية من أفريقيا والجهات الداخلية فيها.

ولقد كانت الهجرات العربية إلى الساحل الشرقى لأفريقيا فى العصور الوسطى نتيجة لعوامل متعددة، لعل أبرزها- كما سبق القول- المنازعات الدينية والسياسية، التى أخذ يتعرض لها المسلمون؛ خاصة فى عهد الدولتين الأموية والعباسية، ومن الطبيعى أن تنتقل هذه الجماعات المهاجرة من سواحل شبه الجزيرة العربية (الإحساء البحرين وعمان وحضرموت ـ اليمن) أن تنتقل معها صورة من الحضارة العربية الإسلامية إلى أفريقيا، وكان أبرزها إنشاء المنازل العربية ـ المراكز التجارية، وانتشار الدين الإسلامى، والحضارة الإسلامية فى أرتيريا والصومال والحبشة وزنجبار إلى الجنوب من خط الاستواء، وهكذا حدث هذا الاستيطان فى شرق أفريقيا وتلك البقاع الواسعة نتيجة دوافع متعددة، لعل أبرزها كما سبق القول المنازعات الدينية والسياسية التى اخذ يتعرض لها المسلمون خاصة فى عهد الدولتين الأموية والعباسية مما دفع العرب للهجرة إلى موانى شرق أفريقيا؛ حيث كانوا قد ألفوا من قبل التبادل التجارى معها. وتحدثنا بعض الروايات التاريخية أن كثيرا من أهالى عمان هاجروا إلى شرق أفريقيا، هرباً من الحجاج بن يوسف الثقفى، وفى القرن العاشر الميلادى كانت سفن سيراف وعمان فى تجارة منتظمة مع منطقة شرق أفريقيا.

كذلك يلاحظ أن المراكز العربية الإسلامية فى الحبشة- شأنها فى ذلك شأن بقية المراكز العربية على طول الساحل الشرقى لأفريقيا- قد اتسمت بالطابع السلمى التجارى بصفة عامة، ولم تكن فى نشأتها وتوسعها عسكرية أو سياسية فى بادئ الأمر ، ذلك لأن الحبشة كانت موطن هجرة المسلمين الأولى، ومن ثم فإنه لم ينطبق عليها أن تكون دار جهاد ولايصح مقاتلة أهلها، ومن هنا كان التسرب الإسلامى إليها سلميا، فقد كانت الجماعات العربية المهاجرة من سواحل الجزيرة العربية اليمن والحجاز تنقل معها العقيدة الإسلامية، وصورة من الحضارة العربية إلى أفريقيا، ومع ذلك فإن الساحل لم يصطبغ اصطباغاً تاما بالصبغة العربية؛ ويرجع ذلك نتيجة لاختلاف السكان وتباين أجناسهم وتعدد عناصرهم وإن كان قد ترتب على ظهور الإسلام وهجرة المسلمين إلى شرق أفريقيا انتشار الدين الإسلامى، وقد تأثر قيام المراكز الإسلامية فى منطقة بر سعد الدين (ممالك الطراز الإسلامى) لحياة المجتمع المحلية حيث كان السكان أقرب إلى البداوة الغارقة فى البدائية؛ فهم كانوا يحبون حياة الغزو والنهب والسلب ، ولكن الإسلام عمل على تطوير حياة السكان الاجتماعية وأدخلهم فى إطار الإخوة الإسلامية .

وقد أدى التطور الحضارى لتطور المدن، أو ما يعرف باسم البنادر، ومفردها بندراوراس وأضيف لكل منها شخصية بارزة فى ذلك الإقليم مثل بندر زيادة وبندر قاسم، وهنالك أكثر من موقع، عرف برأس مضافا إليه اسم شخصية دينية أو تجارية، واقتطعت كذلك بعض البنادر بأسمائها القديمة مثل بربرة ومرخة (مركة)، وبرادوة ومقديشيو، وكانت أولى المحطات التجارية، التى استعادت نشاطها فى العهد الإسلامى الذيلع وبربرة، وهنا لك أيضا عدد من الموانيء قد أصابه الخراب، ومنها ميناء ميدى، وهى الواقعة فى مركز اريجانو، وكان هذا البندر يمثل مكاناً بارزاً، كما توجد به مقامات أخرى كثيرة فى أماكن متعددة، وفى بعض الحالات يقام بجانبها مساجد، ويقام مولد، وكان لهذا الساحل نشاطه التجارى وصلاته مع الدول المطلة على الساحل العربى، وكذلك الدول المطلة على المحيط الهندى، كما وصلت إليه السفن التجارية من حوض البحر الأحمر من مصر، والقوافل التجارية من حوض وادى النيل الأوسط عبر طريق جنوب السودان، وكانت هنا لك علاقات تجارية وثيقة بين هذه الأقطار، وقد لعبت ميناء عدن دورها فى العصر الإسلامى؛ حيث اتخذ التجار منها مركزاً تجاريًا كبيراً للتجارة بين مصر والهند وشرق أفريقيا وشمال أفريقيا، كما أن العرب زادت هجرتهم إلى ساحل الزنج أو بر الزنوج فى العصر الإسلامى ، كما زاد تعميرهم للموانيء، التى أقاموا فيها مراكزهم التجارية، ويعتقد أن ميناء قنبلو بفتح القاف والباء وسكون النون،

كانت من أقدم الموانئ التى أنشأها العرب على الساحل ، وقد رآها المسعودى، واختلفت الروايات حول موقع هذا الميناء؛ فيقول البعض إنها كانت على جزيرة زنجبار، ويقول آخرون إنها كانت على جزيرة بمبا ، غير أن المسعودى يحدد موقعها على أنها قريبة من سوقاله، وجاءت هذه الميناء فى خريطة ابن ماجد أنها تقع جنوب ممبسا .

وتشير الروايات إلى أنه كانت قد قامت فى جزيرة قنبلو هذه أسرة حاكمة عربية إسلامية، وأنه كانت بها جماعة من قبيلة الأزد، التى كانت تعمل فى التجارة، بالإضافة إلى هؤلاء، كانت هناك جماعات من الأفريقين الزنوج، الذين اعتنقوا الإسلام، ومنهم فئة قليلة كانت لاتزال على الوثنية .

ولقد أدت الأحداث التى جرت على الساحة العربية الإسلامية إلى ترك الأثر البالغ فى هجرة المسلمين إلى شرق أفريقيا ، حيث أدت هذه الأحداث إلى زيادة موجات الهجرة العربية الإسلامية، حتى أصبح ساحل شرق أفريقيا منطقة مألوفة، بل معروفة تمام المعرفة بالنسبة للمهاجرين المسلمين، الذين طردوا أو اجبروا على الهجرة من مواطنهم؛ نتيجة الأزمات الدينية أو السياسية التى تعرضوا لها .

ولقد كان لقيام هذه المراكز العربية الإسلامية أثر كبير فى توطيد العلاقات العربية الأفريقية، وفى الشمال مع الحبشة، وفى الوسط مع ساحل البنادر وساحل الزنج ، إذ كانت هذه المراكز هى حلقة الوصل بين الأحباش فى الداخل وبين العرب ، فقد توطت علاقاتها بشبه الجزيرة العربية، عن طريق التجارة والحج، وانتقال طلاب العلم للدراسة فى المدينة المنورة ومكة المكرمة وبغداد وصنعاء ومدن عمان وساحل الجنوب العربى وبغداد والقاهرة ودمشق، كذلك فإنه بالإضافة إلى هذه المراكز العربية التجارية على أطراف الحبشة، استولى العرب المسلمون على مجموعة جزر دهلك، تجاه ميناء مصوع، كما سبق القول .

وبمرور الزمن، زاد عدد الوافدين للاستقرار وزادت العلاقات مع الداخل والتوغل فيه وتشعبت المصالح، وأصبحت للعرب إمارات فى هذه السوحل، لها اتصال وثيق بالجماعات العربية فى الجزيرة العربية نفسها، وصادفوا جماعات من العرب، سبقتهم إلى هناك، كما لقوا شعباً سواحليا (سواحيليا)، أسهمت العناصر الوافدة على الساحل فى تكوين سماته، وهناك إجماع بين الباحثين على أن تلك الفئة من المسلمين أقامت منازلها الجديدة، دون كثير مشقة أو عناء؛ إذ حلوا على الناس، وتزوجوا منهم، وامتزجوا بهم، كما فعل غيرهم

من قبل وأخذت شعوب الساحل عنهم الدين الإسلامى الجديد والثقافة العربية، التى قامت عليها كما أخذت عنهم الكثير من وسائل معيشتهم ونماذج حياتهم .

وعلى كل حال.. فقد أحدث الإسلام أثره فى ساحل شرق أفريقيا، وأثرت التجارة العربية وما تلاهما من استيطان عربى إسلامى على الساحل تأثيراً كبيراً فى تلك المنطقة، ولعبت الحروب الأسرية والدينية فى الدولة الإسلامية دوراً كبيراً فى الإضافة لهذا الأثر ، ذلك لأن الأوضاع السياسية والاقتصادية فى الدولة العربية الإسلامية، دفعت الكثيرين إلى الهجرة، واتجهت بعض هذه الهجرات إلى سواحل أفريقيا الشرقية؛ وخاصة الحبشة بمفهومها الجغرافى فى العصور الوسطى ، وكانت هذه الهجرات العربية تحدث بصفة مستمرة وفى أعداد يسيرة ، ولما كانت هذه الهجرات ليس لها طابع الغزو، ولكنه توغل سلمى، فإن السلطات الحاكمة فى الحبشة لم تهتم بهم ، ولأنها بلغت من الضعف مبلغاً هائلاً حتى أصبحت سلطة الإمبراطور على الأجزاء الساحلية تكاد تكون شبه اسمية .

ثم استطاعت بلاد الحبشة أن تتخلص من عزلتها، ومن متاعبها الداخلية التى شغلت بها، منذ النصف الأخير من القرن السابع الميلادى ، فقد استأنفت نشاطها المألوف وعادت إلى عالم التجارة، توطد صلتها بالأسواق التجارية القديمة فى بلاد العرب ومصر والسودان الأوسط.

وهكذا تحولت المراكز التجارية إلى امارات عربية إسلامية، يسكنها المهاجرون العرب، على أنه من الملاحظ أن الثقافة واللغة التى انتشرت على يد هؤلاء، لم تتعد الساحل والجزر القريبة منه؛ إذ كان للتجار العرب الوافدين من الخليج وسواحل الجزيرة العربية، فضل كبير فى نشر الإسلام فى جزر القمر، وجزر المحيط الهندى على الساحل الأفريقى، كمدغشقر، والجزر المجاورة لها، والتى عرفت فيما بعد باسم ريونبون وموريس وبشنل، بينما بقى الداخل فى أفريقيا صرفاً، كما كان قبل قدوم تلك الهجرات .

ولقد كانت هذه المدن العربية القديمة تنشأ على جزر قريبة من البر، يمكن الدفاع عنها، إذا أراد السكان الأصليون المنتشرون فى الساحل أن يتعرضوا لها بسوء، ولا نعرف عن هذه المدن القديمة شيئاً بذكر ، وكل ما نعرفه أن ظهور الإسلام وانتشاره فى بلاد العرب كلها وامتداده إلى الشرق الأدنى والأوسط (بالمصطلح الحديث)، قد امتد أثره إلى هذه البقعة النائية من شرق أفريقيا؛ فخرجت من ظلمة المجهول إلى وضح التاريخ؛ حين أسلم المقيمون فيها والمختلفون إليها، وهكذا كان اسلام المغامرين والمضطهدين والفارين بعقيدتهم (المذهب الشيعى، آل البيت، الخوارج، المعتزلة) والتجار العرب والفرس.. كان كل ذلك نذيراً ببروز هذه المدن، وبظهورها فى سماء الحياة الإسلامية العربية .

وهكذا بدأت هذه الآفاق النائية من شرق أفريقيا تتأثر بأحداث الشرق، ولم يعد يقصد إليها التجار مقيمين أو مسافرين ، إنما بدأت طوائف أخري من المهاجرين، تشد الرحال إلى الجنوب فراراً من ضغط سياسى أو مذهب دينى، أو تعرضًا لضائقة اقتصادية، أو التماساً لمهجر جديد يطيب فيه المقام وتستقيم الحياة ، هؤلاء المسلمين الراحلين إلى الجنوب هم الذين تسببوا فى بروز هذه المدن وظهورها فى ميدان الحياة الإسلامية ، ولقد كان هؤلاء الراحلين المهاجرين العرب من مختلف الطبقات، فمنهم زراع من اليمين، ومنهم تجار من حضرموت وعمان والحجاز ، بل إنهم قبل كل ذلك كانوا أصحاب دعوة إسلامية، وحملة دين وقيم إسلامية خالدة، سعوا إلى نشرها فى هذه الآفاق ، كما أنهم تفانوا فى درجة غناهم ولقد كانت هذه من الأسباب التى دفعت كلاً منهم إلى الهجرة .

وهكذا يكون من المفيد هنا الإشارة إلى المنازعات الدينية والسياسية أنها كانت من العوامل المهمة، التى دفعت العرب إلى المجىء إلى شرق أفريقيا، بهدف الاستيطان أو الاستقرار الدائم ، وهذا ما دفع بالعرب إلى الهجرة إلى ساحل شرق أفريقيا؛ حيث كانوا قد ألفوا من قبل التبادل التجارى مع مدنه وموانيه، ومما تجدر الإشارة إليه أيضا أن الاستقرار العربى فى شرق أفريقيا حدث بهدوء ودون اللجوء إلى القوة أو العنف؛ فالتاريخ الأفريقى فى تلك المنطقة لا يذكر لنا حروباً أو معارك وقعت بين المهاجرين العرب والسكان الأصليين .

ومع ان الاضطرابات قد وقعت بين المسلمين بنسب متفاوتة، فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين ، إلا أن هذه البقعة التى كانت تنحصر فى البحر الأحمر الجنوبى وما على ساحليه الشرقى والغربى وساحل المحيط الهندى الشرقى لأفريقيا، كانت تتمتع بهدوء نسبى، وكانت تمثل الخط التجارى المقابل ، وهكذا كان هؤلاء الخليط من اليمن وسكان جنوب الجزيرة والأحباش كانوا يحملون التجارة من موانىء البحر الأحمر والمحيط الهندى من جهة، وموانى مصر الشرقية من جهة أخرى .

وكان العرب يمثلون الطبقة الأرستقراطية فى هذه المدن، وإلى جانب هؤلاء كان الهنود من أصحاب الحوانيت والصيارفة والسماسرة، يتجهون إلى أن يحلوا محل سادتهم العرب فى ميادين الأعمال، واحتلت طبقة من المولدين، الذين يدينون بالإسلام، ويتكلمون خليطاً من اللغات ، مركزاً متزايد الأهمية، وكان كثير من العبيد يعملون كخدم وحمالين وجنود، وكانت كل مدينة تحيا حياة مستقلة، ولم تكن هناك قط إمبراطورية عربية فى أفريقيا الشرقية، بل كانت هناك زعامات وقتية لإحدى المدن على المدن الأخرى، ولقد سادت جزءاً

من الساحل كل من ممبسا ومقديشيو وبمبا وزنجبار ، واحدة بعد الأخرى، وكانت كلوة أقوى هذه المدن ، فقد أخضعت لنفوذها سفالة، وتجارة الذهب فيها حكمت الشاطىء الجنوبى، وأثرت تأثيرا قويا فى الشمال .

ومن ثم توالى دخول الأفارقة فى دين الله أفواجا، ولقد كان للدعاة والتجار تأثير قوى فى نشر الإسلام، والدعوة له بين هؤلاء القوم والذين انصهروا فيهم وتزوجوا من نسائهم، واختلطت الدماء العربية بالدماء الأفريقية، وكان من أثر هذا الاختلاط أن وضحت غلبة الإسلام وذيوعه وانتشار تعاليمه المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وذيوع العلوم الإسلامية المبنية على هذين النبعين الخالدين والأساسين القويمين، وظهر واضحا للعيان أثر المهاجرين فى نشر الإسلام، وتكوين ممالك إسلامية افريقية عربية، كان لها دورها الفعال فى حمل دعوة الإسلام، ونشر رسالته فى هذا الجزء من القارة الأفريقية، وخرج الدعاة الذين نذروا أنفسهم للجهاد فى سبيل الله من هذه الممالك لنشر الإسلام فى كل مكان فى شرق أفريقيا، وغلب طابع الإسلام، وازداد بعد ذلك تدفق الموجات الإسلامية المهاجرة من الخليج العربى وجنوب الجزيرة العربية (عمان - مسقط - حضرموت - اليمن).

وهكذا لقد كادت المنطقة الممتدة من أرتيريا شمالا حتى موزمبيق جنوبا- من أثر الدعوة الإسلامية، ودور الدعاة من العلماء والمهاجرين والتجار- أن تكون جزءاً من العالم العربى الخالص ولكن كانت جزءا من العالم الإسلامى تشبه فى تطورها الإسلامى مناطق مسقط وعمان وحضرموت والاحساء وعسير والحجاز وكذلك المناطق التى تشمل الصومال والحبشة، والأجزاء الساحلية المحيطة، بخليج عدن من الناحية الغربية والبحر الأحمر ، هرر - سواكن - زيلع - بربرة - مصوع، والحبشة من الهضبة الداخلية ، والمناطق التى نشأت منها أول مجتمعات إسلامية فى المناطق الساحلية، وكانت تبشر وتدعو وتهدى بالإسلام بين القبائل البدوية .

ومن هنا نشأت وظهرت للعالم الإسلامى مدن إسلامية، أسست على التقوى والإيمان، وأنشأها رجال خرجوا يدعون لدين الله فى أرض الله، ومن هنا ظهرت دار السلام كلوه ، مدغشقر ، سفالة ، ممبسا ، مقديشيو، زنجبار ، وبهذا يمكن القول بأن المنطقة التى كانت تضم من الشمال ارتيريا والحبشة وبلاد الصومال وكينيا وتنزانيا ، زنجبار (تنجانيقا) وموزمبيق ، تؤلف عالما إسلاميا مستقلا، نجحت الهجرة العربية الإسلامية والدعوة الإسلامية

فى إيجاد هذه الإمارات الإسلامية؛ حيث ارتفع نداء الله اكبر ، لا إله إلا الله محمد رسول الله على الساحل الشرقى الأفريقى، وظهرت للعالم إمارات إسلامية، شاركت أخواتها المسلمات فى كل مكان من الأرض الإسلامية، فى الدعوة لدين الله الخالد، بل إن الدعوة والرغبة العربية الإسلامية لم تلتق بالدعوة بتلك المدن الساحلية ، بل إنها توغلت بفضل أبناء الإسلام المخلصين فى داخل القارة، حتى كادوا أن يصلوا إلى الساحل الغربى للقارة الأفريقية، وذلك عبر الغابات الاستوائية وحوض الكونغو، ومنطقة البحيرات الاستوائية .

ولقد كتب أحد الرحالة الغربيون (ستانلى ، ليفنجثون) يصف الإسلام وقوته فيقول إنه من مدينة دار السلام على الساحل الشرقى لأفريقيا، وهو يأخذطريقه عبورا للداخل فى القارة حتى حوض الكونغو كان يشاهد المساجد فى كل القرى، التى مر بها سواء القرى الصغيرة أو الكبيرة؛ حيث كان المسجد المعلم الظاهر فى القرية ، وكذلك كان المسجد فى الغابات والأحراش أو على أطرافها ، ومن ثم فإن نداء الله أكبر لا إله إلا الله محمد رسول الله، كان يرتفع بالنداء فى كل البقاع التى مر بها .

وهذا القول من أحد رجال الغرب المكتشفين، الذين وضعوا لبنة التبشير المسيحى والاستعمار الأوربى، إن دل على شيء، فإنه يدل على رسوخ الدعوة الإسلامية فى هذه الأماكن، وعزم الرجال الذين خرجوا يجاهدون من أجل رفع اسم الله وقرآن الله بين القبائل الوثنية، ولأجل خلق أمة إسلامية فى تلك البقاع النائية بين القبائل الوثنية، ولأجل إيجاد أمة إسلامية، يسعى نورها ليضيئ الكون بأنوار الرسالة الإسلامية، التى وطدت العزم على بلوغ أهدافها؛ لإيصال ذلك الدين القيم إلى كل الشعوب، حتى وصل إلى شعوب منطقة البحيرات الاستوائية وخط الإستواء وأوغندا والكونغو، حيث ظهرت تلك الأماكن إسلامية فى كل مظاهرها راقية متطورة .

وإن بعض كتاب الغرب المحدثين (شارل اندريه جوليان) يذكر أن العرب لم يدخلوا فى علاقات مع قبائل البانتو والبوشمن فى الداخل، إلا بقصد تبادل المنسوجات والمواد التجارية كالأدوات المعدنية والخرز والعاج والذهب، الذى كان يستخرج فيما عرف بعد ذلك بإقليم رودسيا والعنبر الرمادى ، بل افترى كل الافتراء البعض حين قال بالحرف الواحد إن العرب كانوا يتاجرون فى العبيد، وكانوا يبيعونهم فى أسواق آسيا حتى الصين، وهم أول من أدخل الرق فى أفريقيا من قبل التاريخ المسيحى، ولم يتخلوا عن هذه التجارة إلا فى أواخر القرن التاسع عشر ، وإن ألفى سنة من الإتجار الدائم فى اللحم البشرى، إتجار تغذية الحروب

الداخلية، تلك الحروب التى كان إغراء الكسب يشعل نارها قد أسهمت فى إقفار القارة من سكانها والإبقاء على همجيتها .

والرد على هذا الأوروبى الجاهل المتحامل على الإسلام وقوته، ورسالته الخالدة بمنتهى الصراحة فى مظاهر ومعالم الرقى الحضارى، والتمدين فى شرق أفريقيا، وفى التطور الحضارى والرقى الاجتماعى والتغير فى جميع المظاهر، كما شهد بذلك الرحالة البرتغاليون، الذين وصلوا إلى شاطىء شرق أفريقيا ، ثم من الذى ذهب بالرقيق إلى أوربا وأمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية، ومن الذى يمارس سياسة التفرقة العنصرية فى جنوب أفريقيا، هل هم العرب المسلمون أو الأوروبيون. إن القارة الأفريقية الذى أفقرها سكانها هم الأوربيون، الذين نزحوا منها ما لا يقل عن ١٠٠ مليون بشر ، نذكر منها على سبيل المثال أن الكونغو كان عددها سكان ٦٠ مليون نسمة، قبل الاستعمار الأوروبى أصبح عام ١٩٥٤ ، ١٤مليون نسمة ، فأين ذهب الستة والإربعين مليون ، ياشارل أندريه جوليان ، وهكذا قلب الحقائق. ويضيف المؤلف أنه لكى يسهل العرب أمور تجارتهم ، أنشأوا طرقًا لقوافلهم بعيدة عن الشاطىء ، وبنوا مستودعات جمركية فى داخل البلاد، ولقد كانت تضطرهم الظروف فى بعض الأحيان إلى فتح طرق داخلية للتجارة، ولكنهم لم يسعوا ألبتة إلى إخضاع القبائل بالقوة، أو ضم أراضيهم إلى ممتلكاتهم، وإن كانت علاقاتهم قد انحصرت فى حدود ضيقة مع سكان الشاطىء، الذين اختاروا حضارة آسيوية أفريقية تقريبًا، فإن اتصالاتهم بالقبائل التى تقطن بالداخل كانت منقطعة ومقصورة فقط على التجارة ، ولهذا فإن ما فعله عرب الشاطىء الشرقى لم يذهب صداه إلى مدى بعيد، ولم يكن عميق الأثر. ومهما يكن من شئ، فقد يكون من الجائز أن ينسب إلى هؤلاء العرب إدخال زراعة الأرز وقصب السكر من الهند إلى أفريقيا الاستوائية، ضمن الذى أدخل الإسلام وحضارة الإسلام الخالدة، وظهور المدن الكبرى، والإمارات الإسلامية، واللغة العربية، وأثر ما فى اللغة السواحلية، والمظاهر الاجتماعية والتقاليد والعادات الجديدة والأعراف، وأثرها لكن الكاتب الأوروبى له عذره فعداوته للاسلام والعروبة واضحة وصريحة فى هذه الأقوال التى ذكرناها فقط؛ لكى يدرك القارىء الكريم مدى الافتراء والبهتان العظيم على الإسلام والعروبة والعرب .

ونقول هنا إن الجماعات العربية المهاجرة من سواحل الجزيرة العربية من الأحساء والبحرين وعمان وحضرموت واليمن تنقل معها صوراً من الحضارة العربية إلى شرق أفريقيا، وهى إنشاء المدن والمنازل والوكالات التجارية، وكل الأساليب الحضارية المتطورة والراقية،

ومع ذلك فإن الساحل الشرقى فى أفريقيا لم يصطبغ اصطباغًا تاماً بالصبغة العربية ، ويرجع ذلك إلى اختلاف السكان وتباين أجناسهم وتعدد عناصرهم ما بين عرب وفرس وهنود وبانتو وبوشمن وزنوج ، وإن كان قد ترتب على ظهور الإسلام وهجرة المسلمين إلى شرق أفريقيا انتشار الدين الإسلامى. وما تجدر الإشارة إليه تدفق الهجرات العربية الإسلامية فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى، ويغزى ذلك إلى سقوط الخلافة العباسية على أيدى المغول (٦٥٦هـ ١٢٥٨م) وغزو تيمور لنك لفارس؛ إذ أدت هذه الأحداث إلى دفع موجات الهجرات العربية الإسلامية إلى شرق افريقيا ، ومن هنا فإنه يمكن القول أن التجارة العربية أحدثت أثرها الكبير فى ساحل شرق أفريقيا، وكان مؤثرا، بل فعالا ، إذ إنه كان من أسباب استقرار العرب السلمى دور كبير فى قيام العلاقات بينهم وبين السكان الوطنيين، على أساس من الود والصداقة.

ووجد أهل البلاد فى هؤلاء القادمين نوعاً من الحماية فازداد تقربهم إليهم واندماجهم فيهم ، وارتبطوا معهم برباط المصاهرة، فظهر جيل جديد كان عماد المراكز الإسلامية فى شرق أفريقيا والحبشة، والتى ارتبطت بالعرب ارتباطاً وثيقاً، تمثل فى الدين واللغة، ثم فى رابطة الدم أيضا؛ ذلك لأننا نجد أن المهاجرين العرب ، قد اتجه الزارع (الفلاح) منهم إلى حيث الأراضى الخصبة وكثرة المطر، فقصدوا شمال الحبشة ووسطها، واتجه الرعاة إلى سفوح الهضبة الشمالية، وإلى حد ما فى الصحراء، وإلى سفوح الهضبة الشرقية من جهة الجنوب والى صحراء الإجاودين ، أما التجار فمكثوا فى المناطق الساحلية، ذات الاتصال السهل بالداخل؛ حيث الأسواق والسلع التجارية التى تحملها سفنهم .

وعلى الرغم من أن الهجرات جاءت من أمكنة متعددة من الجزيرة العربية، وعلى الرغم من أن المهاجرين جميعاً قدموا خدمات جليلة للإسلام وعملوا على نشره فى تلك البقاع ، إلا أن أبناء بلاد الجنوب واليمن الخليج وبصفة خاصة حضرموت قد قاموا- فى هذا المجال- بدور كبير، فقد تخطى هؤلاء القوم الصعاب، ولم ينسوا قط الدعوة للإسلام فى حلهم وترحالهم، فحملوا الأفارقة إلى الإسلام، وحملهم الإسلام إلى أسمى منزلة، بل إنه هناك عدة ملايين من البشر فى مختلف بقاع الشاطىء الأفريقى، يرتبط إسلامهم بهجرات الحضارمة وغيرهم من أبناء الجزيرة ، ومن المعروف أن الهجرات العربية الأفريقية وشرقها لم يتوقف نشاطها عند الساحل (كما فسر ذلك المؤرخين الغربيين)، بل تعمقت رسالة الإسلام حتى وصلت إلى قلب القارة، ويلاحظ هنا أن المهاجرين العرب لشرق أفريقيا قلما

صحبوا زوجاتهم فى هجراتهم؛ فالمرأة العربية كانت التقاليد تحميها من المغامرات والأخطار، ثم إن العربى كان قريب الشبه فى زيه وطعامه من أصحاب البلاد الأصليين وقد نتج عن ذلك حدوث تزاوج وارتباط واسع بين الطرفين، وهذا الإرتباط بين الجانبين قصر المسافة ويسر انتشار الإسلام ونجاحه بين الجماعات الوثنية، والتى ما كان فى شرق أفريقيا؛ فتحققت بذلك نظرية علماء مقارنة الأديان، التى تقرر أن الدين الأعلى يسكن فى قلوب من لا دين لهم، أو من يعتمدون فى تدينهم على خرافات وأوهام، وذلك كسيل ينحدر من أعلى إلى اسفل .

ولقد احس الوطنيون الأفارقة (البانتو ، البوشمن ، الزنوج) أن العرب جاءوا من أرض النبى صلى الله عليه وسلم، وإن لهم- أو بكثيرين منهم، خاصة المهاجرين- صلة نسب برسول الإسلام صلى الله عليه وسلم، ومن هنا تقربوا منهم، وتعاونوا معهم فى نشر الإسلام وفى اتباع تعاليمه، وأسلموهم القيادة فى كثير من الأحيان، ومن هنا يرتفع الانتساب إلى الأسر، التى حكمت فى الشرق الإسلامى كالأمويين والعلويين والهاشميين والعباسيين، أو إلى بلال بن رباح الحبشى، أو إلى أسرة سيف بن ذى يزن، مع ربط صلته بالرسول صلى الله عليه وسلم .

ولقد لقى المهاجرون من التجار والدعاة والعلماء، الذين هاجروا إلى شرق أفريقيا فى ساحل جنوب وغرب وشرق الجزيرة العربية وغيرها، ترحابا وبسطة وحسن معاشرة فى المناطق التى رحلوا إليها، فشدهم ذلك بالإغراء لكى يستقروا فى تلك البقاع، ينشرون فيها دين الله ويخدمون العلم والدين والتجارة والدعوة للاسلام، فاتخذوا من هذه المناطق مأوى ومستقرا جديدا، حيث طاب لهم المقام فأستوطنوها، وقد ساعد ذلك على انتشار الإسلام بسرعة فائقة بين هؤلاء الأقوام .

وفى ذلك يقول أرنولد توماس فى كتابه «الدعوة للإسلام»- الذى ترجمه دكتور حسن إبراهيم حسن وآخرون- إنه يعتقد أن أول هجرة جماعية كبيرة استقرت فى شرق أفريقيا، هم جماعة من الشيعة، حيث هاجروا إلى تلك الأماكن، وكانوا جماعة من شيعة الشهيد زيد ابن على بن زين العابدين بن الحسين بن على بن ابى طالب ، وقد فروا إلى تلك البقاع عقب هزيمة الثورة التى قام بها زيد، وأعدم من اجلها فى عهد هشام بن عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى، وكان ذلك عام (١٢٢هـ - ٧٤٠ م) .

بل إن هناك بعض الآراء تذكر فى المصادر التاريخية أن هناك هجرات عربية سابقة على تلك الهجرة وأن أولى هذه الهجرات العربية الجماعية إلى ساحل شرق أفريقيا، كانت فى

عهد والد هشام (عبد الملك بن مروان) (٦٥ - ٨٦هـ ، ٦٨٥ - ٧٠٥م)، وذلك على أثر اتباع سياسة البطش والتنكيل بالقوى الإسلامية المناوئة له؛ حيث كانوا يقومون بالحركات المناوئة لآل أمية، والأسر الحاكمة الأموية، فخرجت هجرات عربية كبيرة إلى ساحل شرق أفريقيا، وانضمت إلى من سبقوهم إليها؛ ليدعموا تأسيس المدن العربية، التى كانت هناك، والتى أصبحت نواتها لامو والمناطق التى حولها. وتضيف هذه الروايات أيضاً أن الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان، عندما علم بشأن تلك الهجرة العربية إلى شرق أفريقيا، فإنه بادر فوراً بإرسال أخيه حمزة بن مروان ومعه نفر من رجال الدعوة الاسلامية إلى شرق أفريقيا لنشر الدعوة الإسلامية، ومد نفوذ الخلافة الأموية إلى تلك المنطقة ، بل إن هناك روايات أخرى تؤيد إرسال عبد الملك بن مروان لوفد إلى تلك البقاع، ولكنه يذكر أنه أرسل ابنه جعفر بن عبد الملك ومعه نفر من اتباعه إلى شرق أفريقيا؛ حيث هاجروا إليها واستقروا وحكموا فى منطقة جنوب مدينة مقديشيو فى كيو أبو فى أرخبيل لامو، ومهما يكن من أمر تلك البعثة الأموية فإن تلك الروايات تذكر أن عرب بنى أمية، قد قاموا بتأسيس إمارة عربية إسلامية أموية فى لامو؛ حيث يمكن أن نقول أنها أقدم إمارة عربية إسلامية فى شرق أفريقيا .

بل إننا نجد المؤرخ هنشتر فى كتابه الإسلام فى شرق أفريقيا ، يذكر عن تلك الهجرة الأموية المشار إليها أنها قد حدثت فى عام ٧٥هـ/ ٦٩٥م، فى عهد عبد الملك بن مروان، وبعد توليه الحكم بعشر سنوات على وجه التحديد ، حيث عثر ذلك المؤرخ على مخطوطة بعنوان (أخبار مدينة لامو) لمؤلفها (شبيو فرج بن حمد الباقرى)، يعرض فيه لتاريخ هذا البلد الإسلامى الأفريقى والهجرات العربية الإسلامية التى تدفقت إليه ، فيذكر أن هذه الهجرة الأولى كانت تمثل فريقًا من أهل الشام، لم يرضوا عن سياسة البطش التى استخدمها الحجاج بن يوسف الثقفى، فرحلوا جنوبًا إلى لامو، ويبدو أن اعداد هؤلاء المهاجرين كانت عظيمة؛ لأنهم استطاعوا إخضاع السكان الأصليين واقتحام ميناء (ويونى) الحصين، وكانت به جالية من المسلمين تزيد عن عشرة آلاف من المسلمين ، مما يؤكد قدم انتشار الإسلام فى تلك البقاع، وإلا من أين جاء هؤلاء العشرة ألاف من المسلمين، الذين كانوا من أهل البلاد الأصليين، وخضعوا جميعًا لراية الإسلام؛ مما يعطى الدليل القوى على انتشار الإسلام منذ فترة طويلة، وأن هناك أعداداً كبيرة من العرب المهاجرين، قدمت إلى تلك البقاع، ونشرت الإسلام بين هؤلاء الأقوام وإلا كيف وصل عدد السكان الأصليين إلى عشرة آلاف مسلم .

ويعلق أرنولد توماس قائلاً على تلك الرواية إن هذه الجماعة عاشت فى مبدأ الأمر فى خوف بين السكان الأصليين الوثنيين، ولكنها نجحت بالتدريج فى نشر الإسلام، ثم بسطت نفوذها على ذلك الحصن ومنه إلى طول الساحل .

كذلك كانت أهم هذه الجماعات العربية المهاجرة، التى خرجت من عمان، خلال الفترة ٧٥ – ٨٥هـ (٦٩٤ ، ٧٠٤م)؛ حيث كانت هذه المرة الهجرة العربية من ساحل عمان، وممن هاجر منهم، بل بقيادة تلك الجماعة سليمان وسعيد ابنى عباد الجلندى، وهم من قبيلة أزد العربية العمانية وهما من شيوخ العرب، الذين حكموا عمان أيام الدولة الأموية، والذين كانوا قد أعلنوا الثورة فى وجه الخليفة عبد الملك بن مروان، ولكن تغلبت عليهم قوات الحجاج بن يوسف الثقفى عام ٧٥هـ / ٦٩٤م، بعد أن ظلوا يقاتلون قوات الأمويين؛ حتى غلبوا على أمرهم واضطروا للفرار إلى بلاد الزنج؛ حيث هرب سليمان واخيه سعيد مع انصارهما إلى الساحل الشرقى لأفريقيا ، فكان الأميران رسولى سلام ودعوة إلى الإسلام .

وإذا كان كوبلاند فى كتابة «شرق أفريقيا» لا يعرف أين انتهى المطاف بهؤلاء القوم ، إلا أن شيبو فرج بن حمد الباقرى، صاحب تاريخ لامو، يلقى المزيد من الضوء على هؤلاء العمانيين ، حيث قد يكون من المحتمل أنهم نزلوا فى مكان بات (بيت)، فى جزيرة مافيا، فى أرخبيل لامو، أو فى ارخبيل حدابو، التى أسسوها شمالى ممبسا؛ حيث كانت هذه الاستقراطية العربية الوافدة سبباً فى ظهور إمارة إسلامية فى هذا العصر، وفى مدينة لامو شمال ممبسا إذ استطاع حفيد هؤلاء، ويسمى الحاج سعيد، فى مستهل القرن الثامن الهجرى أن يؤلف حكومة ديمقراطية إسلامية، تهتدى بتعاليم المذهب الخارجى، الذى كان قد تفشى فى ذلك الوقت، فى قبيلة الأزد بعمان، ويذكر صاحب تاريخ لامو كيف أن المهاجرين من الشام والهند والعرب بمدينة حديو وأهل مدينة ويوتى، قد بايعوا سعيدا هذا بالزعامة، ورسم لهم أن تقسم المدينة إلى أحياء صغرى، لكل منها شيخها، ويؤلف شيوخ الأحياء مجلسا استشاريا يشاركه المسئولية، وأصبح المواطنون جميعهم أحراراً لكل منهم الحق فى أن يلجأ إلى هذا المجلس، طالباً الانصاف إذا احس بأدنى ضرر أو سوء يقع عليه، فكانت إمارة لامو هذه أقدم الإمارات الإسلامية فى ساحل شرق أفريقيا .

وتبع هذه الهجرة العربية هجرات أخرى، استقرت فى أماكن متفرقة على الساحل الشرقى لأفريقيا، وقدمت هذه الهجرة إلى الساحل هذه المرة من اليمن؛ حيث كانت هجرة زيدية، وذلك على أثر نشوب نزاع بين الشيعة فى اليمن وانقسامهم طائفتين متخاصمتين ،

حيث أدى انقسام الشيعة هذه المرة إلى اضطرار كثيرين من الزيدية إلى الاعتصام ببر الزنج ، حيث استقروا وكونوا لهم عدة منازل، ثم تبعتهم جماعات أخرى من الزيدية فتضاعفت أعدادهم بسرعة، وبخاصة بعد خروج أعداد من الزيدية من اليمن إلى شرق أفريقيا فى الفترة من (١٤٠- ١٤٢هـ / ٧٥٧ - ٧٦٠م)، فانتشروا على ساحل بنادر، وتوغلوا إلى الداخل قليلاً، واتسع ملكهم حتى ضموا منطقة مقديشيو ، تلك المدينة التى أسسها العرب فيما بعد، إن كان قد استقر بهم المقام أولا فى مدينة شنجايا Shangaya، التى يذكر أنها فى موقع مدينة (بورت دن فورد) الحالية، ويبدو أن هذه المدينة لم تبرز فى هذا المجتمع ولم تظفر بالنجاح والشهرة الذى ظفرت به الإمارات السابقة ، وكانت كل هجرة من هذه الهجرات مقدمة لظهور مدينة جديدة، ونشأة إمارة إسلامية جديدة ، ولما كان الشيعة الزيدية الذين نزلوا فى هذا المكان قد اضطرتهم ظروف سياسية إلى الهجرة إلى داخل أفريقيا واندمجوا مع السكان الأصليين، تاركين الساحل للوافدين الجدد، الذين كانوا أكثر عدداً وأوفر قوة ، فإنه يقال إنهم هم الذين أسسوا مقديشيو عاصمة الصومال الحالية .

وإن كانت هناك آراء تذكر أن مقديشيو أسست فى منتصف القرن العاشر الميلادى، وأن الذين أسسوها كانوا قوماً فى الفرس بدليل أن التسمية فارسية، ويمكن التوفيق بين الرأيين باعتبار العرب أسسوا المدينة فى القرن التاسع ربما باسم آخر ، ثم زاد الفرس فى المدينة، وأطلقوا عليها مقديشيو؛ إذ إنهم أطلقوا هذا الاسم على الحى الذى نزلوا به من المدينة أو على المنطقة التى بنوها ، ثم غلب الاسم على المدينة كلها ، كما غلب اسم القاهرة على كل الأحياء، التى بنيت قبل قدوم الفاطميين إلى مصر .

ويبدو أن أخبار نجاح الهجرة العمانية بزعامة الأخوين سليمان وسعيد ابنى عباد الجلندى، كانت دافعا للزيدية بالهجرة إلى السواحل الشرقية لأفريقيا؛ حيث استقروا وكونوا لهم عدة منازل ، وحكم الزيدية فى ساحل البنادر حوالى مائتى سنة، قاموا خلالها باستصلاح الأراضى القاحلة، بالاستفادة من مياه نهر جوبا وشبيلى، واستطاعوا بمساعدة الوطنيين زراعة بعض النباتات التى درت عليهم أموالا طائلة .

واهتم الخليفة العباسى هارون الرشيد (١٧٠ -١٩٣هـ / ٧٨٦ - ٨٠٩ م) بالساحل الشرقى لأفريقيا ، وذلك لما علمه من شهرة الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان هناك؛ لذا شجع سكان بغداد والعراقيين على الهجرة إلى الساحل، وبالفعل أرسل بعض رجاله

إلى الساحل؛ من أجل تعمير ذلك الساحل، ونشر الدعوة الإسلامية بين الأقوام الأفارقة وربما وصلت سفنهم إلى زنجبار وبمبا .

وفى أوائل القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى، خرج من اقليم الأحساء على الخليج العربى– خلال الصراع بين الخلافة العباسية والقرامطة– سبعة أخوة من قبيلة الحارث العربية على رأس جماعة من أنصارهم، وذلك إثر الصراع الدموى، الذى دار على أرض ذلك الاقليم. ومما يذكر فى هذا الصدد أنهم خرجوا فى ثلاث سفن، وهبطوا على الزيدية ، ولما كان الزيدية من الشيعة والوافدين الجدد من أهل السنة؛ حيث لم يكونوا من القرامطة، فإن الزيدية ارتدوا إلى داخل أفريقيا .

وتحالفوا مع أهل البلاد الأصليين من الصوماليين، وظهرت مقديشيو كمركز تجارى يشتغل بتجارة شرق أفريقيا ومنتجاتها المختلفة، ثم انشأوا مدينة براوة ويسميها الإدريسى بروات، كما أشار إلى مركة التى تقع عند نهر ديبى، بل إنه ظهرت عدة مدن صغرى أخرى بجانب مقديشيو ، وكان لهجرة الأخوة السبعة من آل الحارث العربية إلى ساحل أفريقيا الشرقى نتائج بعيدة الأثر، فى تاريخ المنطقة، على مدى قرنين من الزمان؛ فإليهم يرجع الفضل كل الفضل فى ظهور مشيخة مقديشيو كإمارة إسلامية، وهى التى تزعمت الساحل الشرقى لأفريقيا لفترة طويلة .

ولقد كان لاتساع نفوذ مقديشيو أن حدث ترابط بين عناصر السكان من العرب والآفارقة ، فعقدت اتفاقية فى القرن العاشر الميلادى بين العرب والفرس من جهة، والقبائل الأفريقية من جهة أخرى، قضت على تكوين اتحاد على صورة مجلس من الأشراف والأعيان فى القبائل؛ للنظر فى أمور البلاد، ومن ذلك حفظ الأمن وتطبيق العدالة، وقد تم ذلك الاتحاد بعد أن تم اختيار مقديشيو عاصمة لساحل البنادر بأجمعه، والذى يشمل موانى مركة وبراوة والأراضى المحيطة، والتى كان يطلق عليها جميعاً مقاديش، وعرف سكان هذه الجهات باسم سكان بنادر، كما عرفت بضائعهم باسم بضائع بنادر .

وعلى هذا.. فإن هذه المدن التى اطلق عليها بنادر ومفردها بندر، كانت لها صلاتها التجارية مع الدول المطلة على المحيط الهندى؛ حيث اتخذ التجار منها مراكز تجارية، ويهمنا أن نتعرف أثر هذه المنطقة ، منطقة الصومال الكبير فى تعرف الحياة الاجتماعية والاقتصادية؛ فقد كانت الصلات عن طريق القوافل قائمة، وأن القوافل لم تكن كما هو معروف لدينا،

مزودة بالدواب للنقل؛ لعدم صلاحية بعض المناطق لسير الجمال أو الدواب ، بل كانت تستخدم الحمالين من السكان المحليين لنقل البضائع أو غيرها ، وقدموا بل أقاموا حكومة تولى أمرها أمراء من العرب ، ولا يعلم عن تطور التنظيمات العربية، التى جاء بها هؤلاء القوم، سوى انهم كانوا يؤلفون مجلسا استشاريا لممارسة الحكم .

ولقد ظهر فى ذلك الأقليم شعب، عرف باسم الاموزيدج، ويبدو أن هذا الاسم تحريف سواحيلى لكلمة الزيدية، وربما يكون ذلك تميزاً لهم عن الزنوج الخلص ، حيث كان كما سبق القول أن قد ترتب على وصول هجرة هؤلاء الإخوة السبعة من آل الحارث، من إقليم الأحساء إلى ساحل البنادر، أن نشب صراع بينهم وبين الزيدية الشيعة، الذين كانوا قد سبقوهم بالهجرة إلى هذه الأماكن، وذلك نظراً للاختلاف فى المذهب الدينى، إذ كان الأخوة السبعة الاحسائيين وأنصارهم من أهل السنة، بل قبل إنهم كانوا سنّيين على طريقة المذهب الشافعى ، حينما كانوا الزيديين اليمن من انصار شيعة الإمام زيد، ومن هنا انتهى الصراع بين الفريقين بانتصار انصار المذهب السنى، وانسحاب الزيدية إلى الداخل ، وعلى مر السنين تزواج الزيدية مع القبائل الأفريقية الخالصة، وامتزجت دماؤهم، ونتج ما يعرف بهذا الشعب الاموزيدج .

وتتابعت الهجرات العربية إلى الساحل الشرقى لأفريقيا، ومنها إلى الجزر المجاورة للساحل ويذكر المؤرخون هجرات من اليمن والحجاز والجنوب العربى، وحضرموت والحجاز، انسابت إلى هذه البقاع، واختلطت بالسكان، وانتشر الإسلام فى ذلك الجو الجديد، وبرزت سلطنات إسلامية عديدة حاكمة أو قبائل ذات نفوذ كبير .

وبمناسبة الحديث عن الزيدية فى شرق أفريقيا واندماجهم فى السكان الأصليين فى تلك البقاع، فإن ذلك أدى إلى ظهور الجيل من المولدين، ومن ثم يجب الذكر أن المذاهب الإسلامية المتعددة التى كانت تموج بها البلاد العربية كالعراق وفارس أو الجزيرة العربية أو الشام، لم تجد فى شرق أفريقيا فرصة الازدهار (الشيعة - الخوارج - المعتزلة وغيرهم من الفرق الإسلامية)،إذ سرعان ماكان تيار الإسلام العام يبتلع الوافدين، وهكذا قبل وضوح أثر تلك المذاهب الإسلامية فى تلك المناطق، وإن كان ذلك لا ينفى وجود بعض الآثار الباقية منها، ولكن ليس بصورة عامة أو أغلبية ، بل إن التشيع أو الخوارج لم يستطيعا أن يثبتا جذورهما، كما اختفى التعصب للمذاهب الفقهية، الذى كان شديد الوضوح فى بعض بلاد الشرق الإسلامى ، وقد انتشر مذهب الإمام الشافعى والامام مالك فى تلك الأنحاء، وعاش المذهبان جنباً إلى جنب فى تعاون مستمر .

. ثم جاءت هجرة ثالثة، تمخضت عن ظهور مدينة أخرى وإمارة إسلامية جديدة، حيث خرجت هجرة فارسية شيرازية من مدينة شيراز على الخليج العربى، وذلك طبقاً للروايات العربية، لحوليات كلوه، كانت بزعامة الحسن بن على وأبنائه الستة، كما تروى لنا كتابات الشيخ محيى الدين الزنزبارى، الذى لخص كتاب «السلوى فى تاريخ كلوه»؛ حيث يذكر أن هذه السفن كانت عددها سبع سفن، وأنها حملت صاحب مدينة شيراز وأبناءه الستة، وصحبهم، فارين بأنفسهم «ملتمسين مهجراً جديداً يأوون إليه، وذلك فى عام ٣٤٦هـ / ٩٧٥م، وتألفت هذه الهجرات الجماعية من نحو الف ومائتى رجل، وزعيمهم وابنائه، ووصلوا إلى الساحل الشرقى لأفريقيا فى هذه السفن السبع، ونزلوا فى عدة أماكن على الشاطىء، ونجح الحسن ابن على الشيرازى فى تأسيس سلطنة إسلامية، امتدت إلى عدة موانى وجزر من بمبا إلى الشمال حتى سفالة فى الجنوب، وكانت كلوه عاصمة لهم، وكان لهذه الدولة الفضل فى قيام عدة مدن إسلامية على الساحل الشرقى لأفريقيا، وإن الشيرازين المهاجرين كانوا من الشيعة، وأنهم فروا من وجه طغرل السلجوقى، الذى فتح شيراز عام ٤٤٧هـ / ١٠٠٠م، وهذا رأى يذكر أنها كانت فى الفترة من ١٠٥٥ - ١١٠٠، وليس عام ٩٧٥م، وهذا الرأى أقرب إلى الصحة.

واستقر السلطان الفار بمدينة كاسوا وتفرق ابناؤه على الساحل، كل ينزل بالموضع الذى يختاره، ويجد قبولا لديه، وهكذا كان ظهور هذا السلطان الفارسى بداية لظهور إمارة كلوه الشهيرة، وكان ظهورها رهناً بهجرته (انظر احمد على احمد : كلوه تاريخها وحضارتها، رسالة ماجستير، معهد الدراسات الأفريقية - جامعة القاهرة (عام ١٩٨٣- رقم ٣٨٨٥ مكتبة جامعة القاهرة)، وقد تمت امارة كلوه فى عهد هولاء الشيرازيين، هؤلاء وتوطدت صلتها بزنجبار، وأنشىء بها مسجد، لازالت أثاره باقية حتى اليوم.

ورغم هذه الهجرة الفارسية فإنه لم ينتهى القرن الثالث والرابع الهجرى، العاشر الميلادى إلا وكانت مدن الساحل قد استكملت مقوماتها وسماتها العربية الإسلامية، إذ ساعدت الهجرات العربية الإسلامية المتوالية على طمس معالم الهجرة الأولى الفارسية، وتحولت هذه إلى مدن عربية صرفة، طابعها العروبة الصرفة، والإسلام الخالص، وهذه المدن من الشمال إلى الجنوب هى مقديشيو، براوة، قسمايو، بات، لامو، زنجبار، موفية، كلوه، موزمبيق سفالة، وقد انتشر الإسلام فيها جميعا، وأصبح لكل مدينة مسجدها الخاص.

وعلى هذا فإن استيطان العرب لأفريقيا كان يمتد حتى سوفالا سفالة فى موزمبيق،

جنوبى نهر الزمبيرى على الرغم مما قيل ما قبل من أن استيطانهم الحقيقى يرجع إلى القرن الثامن الميلادى ، على أثر نفى الزيدية كما سبق القول، بل إنه قيل إن استيطانهم يرجع إلى القرن العاشر الميلادى، وعلى كل حال فإنه مما لا ريب فيه أن الهجرات العربية اخذت تتوالى على شرق أفريقيا، وبصفة مستمرة من نواحى عمان والبحرين والإحساء واليمن وحضرموت والحجاز ، وأنهم انتشروا على طول الساحل الشرقى، وبنوا المدن العربية، التى امتدت من خليج عدن إلى مدار الجدى فى المنطقة، التى اطلق عليها جغرافيو العرب اسم بر الزنوج ، ولم يلبث هؤلاء المهاجرون أن أوغلوا فى أنحاء القارة الأفريقية المتآخمة للساحل؛ فشقوا طريقهم إلى كل البقاع الداخلية كما سبق القول ، بل إنهم وصلوا جنوباً إلى أقصى أنحاء القارة؛ حيث مستعمرة الرأس الأبيض، وكان سكان الساحل الشرقى فى هذه القارة وثيقى الصلة بالأرض، التى نشأ فيها الإسلام وظهرت منها أنوار دعوة الخلود والبقاء . وكما يقول أرنولد توماس: وعلى الساحل الشرقى بنى العرب تلك المدن السابق ذكرها؛ مما يدل دلالة قاطعة على قوة العقيدة الإسلامية وروح الجهاد الإسلامى فى سبيل الله، التى امتاز بها بحارة الخليج العربى وعمان .

وهكذا أصبحت المنطقة الشرقية للقارة الأفريقية توصف بأنها سلطنات عربية إسلامية فبجوار ممالك الطراز الإسلامى، كانت هناك سلطنات مشابهة فى مقديشيو، وعلى ساحل البحر الأحمر والمحيط الهندى، وفى الجزر المقابلة للساحل ، وقد نعمت الشعوب الأفريقية الإسلامية بالحكم الجديد، وتعاونت معه فى ظل الأخوة الإسلامية، وعلاقة المودة التى تجمع بين أخوة الإسلام فى رباط واحد .

ولمتابعة الحديث عن ظهور الإسلام والعلاقات مع شرق أفريقيا.. فإننا نجد أنه مع بداية القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى، قدمت إلى الساحل الشرقى لأفريقيا هجرة عربية كبيرة من إقليم عمان، كان لها أثر كبير فى تاريخ تلك المنطقة؛ اذ تزعم هذه الهجرة سليمان بن سليمان بن مظفر النبهانى صاحب عمان، واستقبله العرب فى بات (بيت) استقبالا طيبًا، وتزوج سليمان من أميرة سواحيلية هى ابنة اسحق من سلالة الشيرازيين الفرس حكام كلوه، وبعد إتمام الزواج تنازل اسحق عن الحكم لسليمان، الذى أصبح أول حاكم من أسرة بنى نبهان فى الساحل الشرقى لأفريقيا ، بل إنه يذكر أن سليمان تزوج ابنة اسحق حاكم باتا وليس كلوه ، ومن ثم ورث الملك وأصبح أميرا شرعياً ، ثم نقل بلاطه من عمان إلى شرق أفريقية ، وتأسست الأسرة النبهانية فى مدينة باتا Pata، وستقوم هذه الامارة

فى ظلهم بدور بارز فى تاريخ الإسلام فى شرق أفريقيا ، ومن هنا فإنه لم يكد القرن الثالث عشر الميلادى ينتصف، حتى كانت المدن الإسلامية قد انتشرت على طول الساحل الشرقى لأفريقيا من سواكن شمالا حتى موزمبيق جنوبا، اشتغلت هذه المدن بالتجارة فى المحل الأول ، ولكن بجانب هذا كانت الدعوة إلى الإسلام تمثل السبب الأساسى لكثير من الذين هاجروا إلى تلك الأماكن، ولم تكن التجارة هى الهدف الأول والأخير، كما حاول أن يصور ذلك كتاب الغرب فى عديد من مؤلفاتهم ، ولكن هذه المدن بجانب كونها مراكز تجارية كانت مركزاً لحياة إسلامية قوية ، وأماكن متقدمة، تتجمع فيها المؤثرات الإسلامية لتنتقل إلى ما ورائها، وليس ببعيد أن يكون الفقهاء ورجال العلم قد اقتفوا أثر التجار، غير أن الثقافة العربية فى هذه المرحلة لم تتضح معالمها بصورة كافية .

إضافة إلى أن الأسرة النبهانية استطاعت أن تضم إلى مناطق نفوذها معظم الساحل الشرقى لأفريقيا، وذلك فى آواخر القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى ، فضمت إلى حكمهم قسمابو ، براوة ، مقديشيو، وظلت الأسرة النبهانية تحكم بيت حتى عام ١٧٤٥م .

وإن كانت هناك آراء تذكر أن داخل أفريقيا قد بقى، دون تمكن العرب من الوصول إليه والمخاطرة بالدخول إلى منطقة الغابات حتى القرن الثامن عشر الميلادى؛ ذلك لأنه من المعروف أن رؤساء القبائل الأفريقية هم الذين كانوا يقومون بالوساطة التجارية، ولم يحدث على ذلك تعمق للعرب إلى الداخل إلا بعد إنشاء السلطنة العربية فى زنجبار، كذلك فإن القرن الخامس عشر الميلادى قد شهد هجرة كبيرة قام بها مهاجرون عرب إلى شرق أفريقيا من حضرموت عن طريق جماعة إسلامية، تتألف من أربعة وأربعين عربيا ، نزلوا فى مكان بربرة، ثم انتشروا فى بلاد الصومال، يدعون إلى الإسلام، وقد شق أحد هؤلاء المهاجرين واسمه الشيخ ابراهيم ابو زرباى طريقه إلى هرر حوالى عام ١٤٣٠م، واستطاع أن يحول كثيراً من الوثنيين، سكان ذلك الإقليم إلى عقيدة الإسلام، ولا يزال قبره فى تلك المدينة موضع تعظيم وتبجيل من سكان هذه المدينة .

وهكذا تدفقت الهجرات العربية عبر تلك القرون إلى شرق أفريقيا، وكان لها أثر كبير فى انتشار رسالة الإسلام على نطاق واسع ، بل امتد أثر هذه الهجرات إلى الجنس واللغة فأصبحت كثيرا من مناطق شرق القارة عربية الدم واللسان، وهناك حقيقة تاريخية ثابتة، هى

أن فيض المهاجرين العرب كان وفيراً فى الشرق الأفريقى، فتعربت بعض تلك الأجزاء (ارتيريا - الصومال ، اللغة السواحيلية جنوبا) وهكذا انتشر الإسلام عن طريق تلك الهجرات، وبناء عليه كان ينبغى أن تصبح الحبشة مثلاً بلاد عربية إسلامية صرفة، وقد أوشكت أن تكون كذلك، فقد قامت فيها إمارات وممالك عربية إسلامية مسلمة العقيدة والدين عربية اللسان ، ولكن الاستعمار الأوربى والبرتغالى والقوى الاستعمارية الأخرى الحديثة، عملت على أن تصبح الحبشة هى القوة السائدة فى تلك البقاع، وهكذا لم تتمكن راية الإسلام أن تحقق أهدافها ١٠٠٪ فى الحبشة.

* * *

الباب الثالث

الإسلام ومعالم الحضارة الإسلامية

لقد كانت للهجرات الإسلامية إلى الساحل الشرقى لأفريقية آثار بعيدة المدى، فى تطور معالم الحضارة الإسلامية فى تلك البقاع، وكذلك فى تطور العلاقات العربية الأفريقية، والتى كان من آثارها ذلك البعد المتعلق بالآثار المباشرة لهذه الهجرات العربية فى الساحل الشرقى ودور الإسلام فى اثراء حركة التجارة، وما يؤدى إليه من تطور حضارى وثقافى، كذلك فإن لتطور معالم العلاقات بين العرب وبين منطقة الساحل الشرقى لأفريقيا ابعاده فى تغيير المعالم التاريخية والثقافية فى الساحل الشرقى للقارة بأقسامه الثلاثة: أقليم أرتيريا (بر سعيد) وبر البنادر ، بر الزنوج .

ذلك لأن انتشار الإسلام وأهله فى تلك المناطق الساحلية، منذ القرن الأول الهجرى- كما سبق الإشارة فى الباب السابق- أدى إلى ظهور الآثار العربية الإسلامية، والتى منها كثرة المدن والمنازل العربية، بالإضافة إلى الأسلوب الثقافى الحضارى واللغة العربية، التى انتشرت على أيدى هؤلاء النازحين، والتى كانت فى بداية الأمر تتعدى الساحل والجزر القريبة من الساحل- ولقد تزايدت أعداد العرب والمسلمين، وامتدت مناطق استيطانهم على طول الساحل من إقليم أرتيريا إلى القرن الأفريقى، المواجه للجزيرة العربية حتى سفالة، وهى أقصى المناطق، التى ظهرت فيها كثافة العرب فى شرق أفريقيا، وإن كان ذلك لا ينفى وصول العرب إلى جنوب القارة الأفريقية . ومن هنا فقد كانت هناك بعض الشواهد التاريخية، التى تدل على ظهور معالم الحضارة الإسلامية بصورة قوية وفعالة، فى تلك البقاع وامتداد الامارات الإسلامية، وقد انتعشت تلك الإمارات فى أثر تلك الهجرة، وقد أدى ذلك إلى ازدهار حضارى ثقافى إسلامى وتجارى، وساعد على حركة النشاط التجارى فى الساحل الشرقى لأفريقية .

وإذ كانت مرحلة المد الإسلامى قد اقتصرت فى القرون الأربعة الهجرية الأولى، حتى القرن العاشر الميلادى قد على الجزر القريبة من الساحل، ونعنى بها جزر زنجبار وبمبا ولامو ومانيا، إلا أن الفترة اللاحقة بدءاً من القرن الخامس الهجرى، الحادى عشر الميلادى، قد شهدت انتشار الهجرات العربية إلى المناطق المواجهة للجزر، ثم أخذ العرب يتوغلون فى الداخل، وقد أدى ذلك إلى تكوين إمارات وسلطنات عربية أفريقية .

وإذا كان الغرض التجارى هو الغالب على هذه الجماعات العربية الإسلامية، إلا أن

الدعوة الإسلامية كانت تحتل الجانب الأكبر من عمل هؤلاء التجار ، كما أن فكرة الإستقرار لم تتخذ أى نوع من الأفكار الاستعمارية، مثلما ظهر بعد ذلك فى عصر الاستعمار الأوروبى البرتغالى والإنجليزى والألمانى والفرنسى والإيطالى لتلك البقاع ، كما أن التوطن العربى الإسلامى لم يكن لاستغلال الأرض والموارد لحساب المسلمين العرب وغيرهم من الفرس والهنود ، ثم الانتشار فى داخل القارة لم يكن للاستغلال أيضا ، بل كان للدعوة الإسلامية والتجارة .

بل إن ابرز معالم الدور الإسلامى، أن الدعوة الإسلامية استطاعت- بما حملته من قيم إسلامية ومبادىء روحية وتعاليم إسلامية ومفاهيم انسانية وحضارة عربية- أن تؤثر فى حياة هذه الشعوب البدائية الوثنية تأثيراً بعيداً ، وأن تؤتى ثمارها الطيبة فى الأرض الطيبة ، حتى لقد نقلت التعاليم الإسلامية الرجل الأفريقى من حالة البدائية الوثنية، إلى حالة من التقدم والرقى، وبدأت تأخذ به المعالم الحضارية الإسلامية إلى مدارج الحضارة الإسلامية السمحة، وأخذت بيد كل سكان المنطقة حيث مبدأ المساواة بين الأجناس والألوان لا فرق لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، وذلك لكى يشارك الآفارقة فى بناء القارة الأفريقية، وذلك انطلاقاً من منطلق الدعوة، فى أن يدعو بنى جنسه من الآفارقة إلى الدخول فى دعوة الحق، ولكى يحتل بالإسلام وعن طريق الإيمان مكانه اللائق فى الأسرة الإسلامية، ومن هنا جاءت رغبة هذه الشعوب القوية فى أداء فريضة الحج، والتمسك بالتعاليم الإسلامية، وتطبيق الشريعة الغراء، فى كل أمر من أمورهم وشئون حياتهم، وبذلك استطاع الإسلام أن يقفز بهذه الشعوب قفزات كبيرة فى مصاف التقدم والرقى .

ومن ثم ظهرت أبعاد تلك الدعوة الإسلامية فى الاستقرار على الساحل، لم يكن عشوائياً، بل كان يتم اختيار كل نقطة لكى تكون مركزاً للدعوة والتجارة، بل تكون وكالة تخدم النشاط التجارى، ولذلك كان يتم اختيار مراكز الاستيطان؛ بحيث تكون لها مزايا التجارة والدعوة للإسلام، وأن تمثل تلك النقاط التجارية ميناء من الموانى المنتشرة على طول الساحل؛ مما يسهل معه الاتصال بداخل القارة، كما أنه يمكن الاتصال أيضا بسواحل الجزيرة العربية المقابلة ، ولقد كان الغرض من الهجرة العربية ليس التجارة . كما حاول أن يصور ذلك كتاب الغرب، ولكن كان الهدف الأساسى لعديد من الهجرات العربية الاستقرار الدائم والدعوة للإسلام ؛ لأن التجارة مهما كانت أبعادها وأهدافها لم تكن تستدعى الاستقرار النهائى، وصحب الأسرة والزوجة والأولاد، بل إن منطقة ساحل أفريقيا الشرقية

شهدت هجرة قبائل كبيرة لقبائل الإزد، وآل نبهان، وآل الحارث، وغيرهم من الأسر العربية والفارسية .

ولكن لابد أن نأخذ بالفرض التجارى أيضا؛ لأنه كان يستدعى الاستقرار بجانب الدعوة الإسلامية؛ حيث كان ذلك بعداً آخر للاتصال بداخل القارة، وتسهيل حركة الوصول إليه؛ حيث يتم نقل الحاصلات الداخلية إلى الموانىء الساحلية للإتجار فيها، وكذلك استيراد ما يمكن استيراده من بضائع الجزيرة العربية والشرق الإسلامى؛ لكى يتم تصريفه داخل القارة ولذلك لم تهتم الجماعات العربية بامتلاك الأراضى، واستغلال السكان فى زراعتها إلا بالقدر، الذى يستدعى حماية مراكز الاستقرار وسد حاجة هذه الوكالات. ومن ثم كانت رقعة الإمارات العربية على الساحل الأفريقى ضيقة ، إضافة إلى أن العرب. من أجل العمل فى المجال الاقتصادى، قاموا بنقل حاصلات المنطقة مثل العاج والذهب وريش النعام والعسل والجلود ، والموز واللؤلؤ والصمغ واللبان، وغيرها من منتجات الداخل والساحل ونقلها إلى البلاد المطلة على المحيط الهندى، كما ظهرت هذه السلع فى الأسواق العربية فى الجزيرة والشام والعراق ومصر وفارس ، ومن هنا فإن القرن الرابع الهجرى، العاشر الميلادى، شهد بناء بيوت مدينة سيراف على الساحل الشرقى للخليج العربى بأخشاب تم استيرادها من زنجبار .

إلا أن المرحلة الأولى للاستقرار العربى، كانت العوامل الطبيعية من العوامل التى أثرت إلى حد ما فى عدم الانتشار إلى الداخل؛ حيث كانت التضاريس، والمناخ والغابات تمثل عوائق، تحول دون انطلاق العرب لحد ما على التوغل لمسافات بعيدة فى الداخل، ولذلك اقتصر التوغل فى الداخل على القدر الذى تخدم الغرض التجارى؛ إذ كان من أهداف هذه الامارات التى ظهرت فى تلك المناطق هو تسويق منتجاتها الواردة من الجزيرة العربية وجهات آسيا ومبادلتها بمنتجات الأقاليم الداخلية، ومن هنا كان التوغل بقدر ما تحتاج إليه عمليات تلك المبادلة .

لكن الذى لاشك فيه أن الدعوة الإسلامية كانت تسير بجانب التجارة؛ لأنه أينما سارت التجارة العربية سارت معها الدعوة الإسلامية إن لم تكن تسبقها ، ولقد كان العمل التجارى فى الداخل يستدعى أن تقوم هناك حملات، تصحب القوافل لحمايتها من سطو اللصوص، أو تعرض زعماء القبائل لرجال القافلة ونهب المواد التجارية؛ وذلك لأن تلك الحملات كانت تضمن وصول القافلة إلى أهدافها وأماكنها المرسلة إليها، كذلك كان يتم هناك عقد اتفاقيات تجارية مع الزعماء الافارقة فى الداخل، ولذلك كان الاستقرار العربى فى الداخل يأخذ أبعاداً أخرى حيث تسهل اقتحام الداخل وتوغل العرب، حتى حوض الكونغو

وهضبة البحيرات الاستوائية، وكل الأقاليم الاستوائية؛ حتى وصل العرب فى بعض المراحل التاريخية إلى الشاطىء الغربى للقارة، كما شهد بذلك ستانلى وكميرون فى رحلاتهم فى حوض الكونغو.

وهذه نقطة مهمة فى تاريخ الاستقرار العربى الإسلامى، والحصول على معلومات مهمة عن الداخل، ومعرفتهم ببعض الجهات لداخلية فى القارة الأفريقية .

وبالنسبة للأقاليم الشمالية التى تقع شمال الصومال، فقد بدأت عودة العلاقات التجارية وتوطيدها فى القرن العاشر الميلادى الرابع الهجرى ، ، حيث بدأت سفن اليمن تبحر من زبيد فى طريقها إلى موانى شرق أفريقيا ، وكان ذلك معناه اتساع أفق المبادلة التجارية بين الحبشة وبلاد العرب، وقد توسع الطرفان فى تبادل منتجات كل منها إلى أبعد حدود، ولقد شهد هذا القرن نمو المدن الساحلية المزدحمة بهؤلاء التجار المسلمين، المشتغلين بتجارة تلك الأقاليم .

ومن هنا ظهرت فى هذا العصر جاليات إسلامية قوية فى دهلك وسواكن وباضع ومصوع وزيلع وبربرة، ويجمع كتاب القرن العاشر من المسلمين جميعهم على ظهور هذه المدن العربية الإسلامية الزاخرة بالحياة الإسلامية فى جميع جوانبها (انظر. جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية ص٤٤ – ٤٥) .

وقد تحدث ابن بطوطة فى النصف الثانى فى القرن الرابع عشر الميلادى فى رحلته، التى قام بها عام ١٣٣١م إلى منطقة شرق أفريقيا؛ حيث وصف لنا مظاهر الحضارة الإسلامية فى زيلع ومقديشيو وممبسة وكلوه؛ فقد أورد تفاصيل ثلاث مراكز على الساحل الشرقى من أفريقيا؛ حيث تحدث عن مقديشيو، فذكر أن المسافة بينها وبين زيلع خمسة عشر يوما، وهى مدينة متناهية فى الكبر، ولها نشاط تجارى ملحوظ، كما أن لها صلات وطيدة ببلاد الجزيرة العربية ومصر، وتصنع بها الثياب الرقيقة المنسوبة إليها، والتى لا نظير لها، وتحمل منها إلى ديار العالم العربى ومصر وغيرها، كما أضاف أن القاضى الذى استضافه فى مقديشيو أثناء إقامته بها، يدعو ابن البرهان المصرى، وأنه افاض فى تحضر مقديشيو، وأن سلطانهم يجيد اللغة العربية وأنه يتكلم المقديشية، وأنها وصلت إلى درجة عالية من التطور، وأصبحت لها أنظمة وتقاليد خاصة بها ، كما تحدث عن دور الفقهاء والعلماء وذوى الرأى وكيفية إدارة الإمارة ومدى تطبيقهم للشريعة الإسلامية ، ثم كيف أن الحياة الاقتصادية بها قد تطورت بتطور النهضة الإسلامية، وما وصلت إليه السلطنة من اتساع النفوذ ونمو مطرد فى التجارة .

كما أنه تحدث عن مدينة ممبسا فقال إنه يغلب على أهلها المذهب الشافعي، وأن مساجدها مبنية من الخشب ، أما عن مدينة كلوه فقد وصفها بأنها مدينة ساحلية عظيمة أكثر أهلها من الزنوج، وهي من أحسن المدن وأتقنها عمارة، وكلها مبنية من الخشب، وأهلها أهل جهاد؛ من أجل نشر دين الله والدعوة له بالوسائل السلمية؛ لأنهم في بر واحد متصل مع الزنوج، وأنه اشار إلى انتشار الإسلام على نطاق واسع بين الزنوج، وأن هؤلاء يغلب عليهم الدين والصلاح، وأنهم ينتمون إلى المذهب الشافعي أحدى مذاهب السنة، كإخوانهم سكان ممبسا؛ مما يدل دلالة قاطعة على غلبة مذاهب السنة على ما عداها من مذاهب إسلامية أخرى .

وذكر ابن بطوطة عن كلوه أنها كانت على صلة وثيقة وعلاقات طيبة بالعالم العربي الإسلامي كالعراق والحجاز وجنوب الجزيرة، وكذلك تحدث عن سلطانها السلطان «أبو المظفر حسن» والذي كان يكن بأبي المواهب، والذي ذكر عنه أنه كان كثير الغزو في أرض الزنوج؛ من أجل نشر لواء الإسلام، وتعميق رسالة الإسلام في البقاع الداخلية، ومجاهدة الكفار الوثنيين بكثرة الإغارة عليهم؛ حيث كان يأخذ منهم الغنائم؛ حيث تخرج منها ويصرفها في الأوجه المعينة في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ويجعل نصيب ذوي القربى في خزانة على حدة، فإذا جاء الشرفاء دفعه إليهم، وكان الشرفاء يقصدونه من الحجاز والجنوب العربي والخليج والعراق، وغيرها من الأقطار .

وتحدث كذلك عن كيف أن نفوذ كلوه قد امتد إلى ممبسا إثر المصاهرة، التي تمت بين البيتين الحاكمين في كل من كلوه وممبسة، وعلى الرغم من أنه وصف كلوه بطريقة لم يسبقه إليها أحد من الرحالة العرب، فإنه لم يتوسع في الحديث عن علاقة سلطنة كلوة من الناحيتين السياسية والتجارية بغيرها من المناطق، خاصة وأن كلوه في القرن الثامن الهجري، كانت أهم مركز إسلامي في ساحل شرق أفريقيا، وكانت حركة الاستيطان العربي والإسلامي قد بلغت أقصى حداً لها من القوة والاتساع. ومما هو جدير بالذكر أن في الوقت الذي وصل فيه ابن بطوطة إلى ساحل شرق أفريقيا، وهو نهاية الثلث الأول من القرن الرابع عشر الميلادي، كانت معظم مناطق الساحل تنتمي إلى العرب؛ حين جاءت موجة كبيرة من مهاجريهم، في خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر، على إثر اجتياح المغول دار الإسلام في العراق، ولحق هؤلاء المهاجرون ببني جلدتهم، الذين سبقوهم في الهجرة إلى ساحل شرق أفريقيا .

وقد جاء المهاجرون الجدد بدماء دافعة، ظهر تأثيرها فى كل المعالم الحضارية الإسلامية؛ حيث ظهرت آثارها فى فن البناء والمدن والعمارات الزاهرة والمساجد ومبانى الإدارة الحكومية والسلطنة وأسواقهم الباهرة، التى فتنت خيال ابن بطوطة، حين قدم إلى ذلك الإقليم؛ حيث استطاعت هذه المجتمعات بعد أن تنوعت مصادر ثروتها، أن تصل إلى درجة عالية من الثراء والازدهار الحضارى، حيث الغنى والترف والرفاهية، ويظهر كل ذلك فى وصف ابن بطوطة لمدن الساحل الشرقى لأفريقيا .

وعلى الرغم من أن ابن بطوطة كان على معرفة ودراية تامة، بل على معرفة وثيقة بالمجتمعات الإسلامية المتطورة والمتحضرة والمزدهرة حضاريا، والتى تنعم بمظاهر الحضارة الإسلامية فى قلب العالم الإسلام ، إلا أنه قد تعجب لمظاهر الثراء الكبير والحياة الرغدة التى رآها فى شرق أفريقيا، بحديثه عن مدينة كلوه، والذى يوحى بأنها كانت من أجمل بقاع الأرض وأكثرها رونقاً وبهاء . وأنها صبغت بحياة إسلامية متقدمة لاتختلف عن أى بلد من بلاد الشرق الإسلامى، وكذلك حديثه عن ممبسا ومقديشيو؛ حيث أعطى صورة شبه ناطقة لهذه المجتمعات الفنية، التى ظهرت فيها معالم الحضارة الإسلامية بأزهى صورها وأحلى مباهجها .

وقد زادت هذه المدن سعة فى المال، وزيادة فى أعداد الجاليات الإسلامية الوافدة، وفى دخول النازحين إليها من أهل البلاد فى الإسلام ، بل إن الحياة الإسلامية حافلة بجميع مظاهرها التى تشهدها فى هذه المدن الساحلية، ولابد أنها سارت فى طريق النمو الحضارى طوال القرون القادمة، حتى قدوم رجال الاستعمار البرتغالى. وعلى أية حال فقد شهدت الفترة الواقعة بين القرن العاشر ومنتصف القرن الثالث عشر الميلادى توطيد النفوذ الإسلامى فى السهل الساحلى، وظهور ونمو الإمارات الإسلامية .

ولم يكن من المعقول أن يظل النفوذ الإسلامى حبيسا فى هذه المدن الساحلية، بل كان لابد أن ينفذ إلى الداخل ، حيث كان هؤلاء التجار العرب يخالطون رؤساء القبائل والتجار من أهل البلاد الأصليين، ويتزوجون من نسائهم، ويوطدون صلاتهم بهم إلى أبعد الحدود ، بل كانوا هؤلاء التجار يفتحون المراكز الإسلامية، المتمثلة فى كتاتيب تحفيظ القرآن الكريم وانتشار المساجد التى يعرفها المصلون من أبناء الأفارقة ، بل أنهم كانوا يرسلون الطلاب المتفوقين من العرب والأفارقة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة ومدن اليمن وساحل عمان أو القاهرة أو دمشق ثم بغداد فيما بعد، وكانت هذه المدن الساحلية أسواقاً ضخمة

يقصدها أبناء البلاد الأصليين من الزنوج والبانتو والصوماليين والأحباش، وغيرهم من الطوائف الأفريقية، لبيع حاصلاتهم الزراعية ومنتجات البيئة الاستوائية، وأنهم كانوا يعودون بعد أن اختلطوا بالعرب المسلمين، ويحملون معهم فى رحلة العودة كل ماهم فى حاجة إليه من تجارة العرب والشرق الإسلامى ، بل إن منهم من كان يقصدون الساحل بقصد الإقامة والاحتكاك بالعرب والاشتغال معهم، فكان اختلافهم إلى هذه المدن يتيح لهم الاحتكاك بالحياة العربية الإسلامية عن قرب، ومن ثم التأثر بكل المظاهر الحضارية الإسلامية، وكان كل ذلك يدفعهم إلى اعتناق الإسلام، ومن ثم ينشرونه بين ذويهم، إذا عادوا إلى بلادهم ، بل أكثر من ذلك فإن نفوذ هؤلاء التجار العرب كان يتجاوز المناطق الساحلية ممتدا إلى الداخل، فكانوا يرحلون إلى المناطق الداخلية التماساً للتجارة، ومن ثم يقيمون بعض الوقت، ثم ينحدرون إلى الساحل، وفى فترة إقامتهم يخالطون الناس، ويعاشرونهم ويحتكون بهم، وينشرون الإسلام وتعاليمه ومظاهره الإسلامية بينهم، ومن ثم كانت الصداقات مع السكان الأفارقة تتطور إلى دعوتهم للإسلام، قبل القيام بالمبادلة التجارية، والقيام بأعمال البيع والشراء، وكانت كل هذه المساعى أحياناً كثيرة، بل فى الأغلب تحقق النجاح والهدف المنشود، من الوصول للداخل والدعوة للاسلام؛ حيث إنه كثيرا ما كان يتم اعتناق الأمير أو الحاكم للاسلام، ومن ثم تتبعه حاشيته ورعيته وكل قبيلته.

وقد ترتب على توثيق العلاقات العربية الأفريقية بين العرب الوافدين وسكان البلاد الأصليين فى شرق أفريقيا أن تواقد كثير من الأفارقة إلى البلاد العربية، كالجزيرة والعراق والشام ومصر، وهناك كثير من صلات الترابط والزواج والانصهار فى المجتمع؛ حيث إن العقيدة الإسلامية فى جوهرها قائمة على إفساح المجال أمام كل الشعوب الإسلامية؛ لكى تكون منصهرة فى بوتقة الإسلام ، والمعروف أن الدولة العباسية منذ أن قامت ١٣٢هـ / ٧٥٠م قامت على عدم التمسك بسيادة العرب، وأنهم جوهر الإسلام، وإنما قامت هذه الخلافة على إفساح المجال امام كل العناصر الإسلامية؛ لتشارك فى بناء الدولة الإسلامية وترتب على ذلك هجرة عديد من الزنوج ، حتى أنه يذكر أنه فى عهد الخليفة العباسى أبو العباس المنصور كان فى جندة اربعة آلاف زنجى، فى الجيش الإسلامى، وهذا يعطى المثل الأمثل لأخوة الإسلام، التى لا تفرق بين الألوان والأجناس ، وقد تكون هذه القوات وغيرهم من أبناء الزنوج قد قدمهم الوطنيون إلى التجار العرب كرقيق من أسرى الحروب الوطنية، التى كانت تتم بين القبائل الزنجية، وعلى هذا شكل الزنج عنصراً مهمّا من عناصر السكان

والجيش، بعد أن اعتنقوا العقيدة الإسلامية، ولعبوا دورا خطيرا فى حياة الدولة الإسلامية. كما كان من أهم مظاهر الحضارة الإسلامية قيام العرب باستغلال المناجم فى الساحل الشرقى لأفريقيا، فاستخرجوا الذهب والفضة والنحاس والحديد، ويؤكد هذا ما ذكره أبو الفدا من أن معايش أهل الساحل من الذهب والحديد، وكانت كميات كبيرة من الذهب ترد إلى الدولة الإسلامية من سفالة، حتى سميت بسفالة الذهب ، كما أن أبا الفدا اسماعيل سلطان حماة فى كتابه «تقويم البلدان» يتحدث عن شرق افريقيا حديثه عن جبال كليمنجارو ، وحديث أبى الفدا الذى ربما اعتمد فيه كثيراً عن ابن سعيد، يوضح أن العرب عرفوا مناطق فى داخل افريقيا لم يصل إليها الأوروبيون الا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى، ولم يقتصر ابو الفدا فى حديثه على زنوج شرق أفريقيا، وإنما عنى أيضاً بأخبار الزنوج، الذين عاشوا فى البلاد العربية .

كما أن العرب أدخلوا إلى شرق أفريقيا تربية الإبل فى منطقة الساحل الشرقى للقارة، واعتنى العرب أيضا بتربية الماشية والأغنام عناية فائقة؛ حتى أصبحت الجلود من بين صادرات المنطقة، وهكذا كان للإسلام وللعرب والمسلمين تأثير واضح على مظاهر الحضارة والحياة الثقافية والعمرانية والاقتصادية فى شرق افريقيا بل تخطى الأمر ذلك إلى الأثر الواضح فى الحياة الإجتماعية؛ حيث كان أعظم مظهر من مظاهر هذه المشاركة الاجتماعية والاندماج، الذى تم من أثر اختلاط القبائل العربية بقبائل البانتو الزنجية والصوماليين وسكان الجزء الشمالى أرتيريا والحبشة ، حيث كان من تنتجه هذا الاختلاط شعب الصومال، الذى جاءت ملامحة قريبة جدا من الملامح العربية .

وعلى مر السنين ومع تزايد وتطور العلاقات العربية بشرق أفريقيا ، انتشر الإسلام واللغة العربية بين السكان الوطنيين، ولعب العرب دورا كبيرا فى تحفيظ القرآن الكريم وشرح تعاليم الشريعة وعلوم اللغة العربية، وكل ما يتعلق بأمور الدين الإسلامى بين الأهالى ، ولقد كان من نتيجة انتشار الإسلام فى المنطقة الممتدة من ساحل أرتيريا شمالا إلى سفالة جنوبا ، أن انتقلت إلى المنطقة مظاهر الحضارة العربية الإسلامية ، فاهتم السكان فى المنطقة على اختلاف عناصرهم بالعلوم الدينية واللغة العربية، حتى أصبحت براوة مثلا كجزيرة عربية على ساحل افريقيا الشرقى، تجذب إليها الطلاب من مختلف الأنحاء .

ومن هنا فإن الثقافة العربية الإسلامية– فى هذا الدور– تأثرت بموقع المدن الإسلامية وطبيعة الحياة فيها ، فالجهاد المستمر من أجل نشر العقيدة الإسلامية، والذى اضطلعت

به الامارات الإسلامية التى قامت على الشاطىء الشرقى لأفريقيا، جعلها تواصل المسيرة الإسلامية، لكى تخلق مجتمعاً إسلامياً ، بالإضافة إلى أن هذه الإمارات كانت مدناً تجارية، تشتغل قبل كل شيء بالنقل التجارى بين أفريقيا وبين أسواق الاستهلاك فى العالم كله ، وكانت هذه المدن على علاقة وثيقة بالعالم الإسلامى كله ، علاقة ببلاد الجنوب العربى (اليمن ، حضرموت ، عمان ، الاحساء ، بلاد الخليج ، الحجاز ، القاهرة ، بغداد وغيرها من البلاد الإسلامية العربية) .

هذا الاتصال المستمر بالعالم الإسلامى ترك أثره فى الحياة الثقافية فى البلاد ، فقد نزحت إلى تلك البقاع النائية عن قلب العالم الإسلامى ومقر الخلافة الأموية والعباسية ، كل الفرق الإسلامية وجميع المذاهب الإسلامية المختلفة، التى عرفتها الحياة الإسلامية ، نزحت إليها الزيدية من الشيعة ، ونزحت إليها الأباضية من الخوارج، ونزح إليها بعض المعتزلة، وتنوعت المذاهب بتنوع طوائف الراحلين والمهاجرين، وكثر الراحلون المهاجرون من الاتجاه المعاكس من شرق أفريقيا إلى بلاد اليمن وجزيرة العرب عامة .

كما كان فقهاء اليمن وعلماؤها أكثر المسلمين وفوداً إلى هذه الجهات ، حيث طبعوا الحياة بطابعهم الإسلامى وأثروا فى الحركة الإسلامية تأثيرا واضحا، ومن هنا رأينا فقهاء الحجاز واليمن ينتشرون مثلاً فى الجزء الشمالى من شرق افريقيا، بل إن دورهم قد تعدى دور الوعظ والإرشاد وشرح التعاليم الدينية، إلى تشجيع حركة الجهاد الإسلامى فى سلطنة عدل، وفى امارة هرر يحضون على الجهاد ويحرضون عليه.

كما أن مسلمى شرق أفريقيا كانت لهم صلة بمصر ، اتصلوا بها اتصالا اقتصاديا وثقافيا ، وكان تجار مصر يختلفون إلى اسواق الحبشة، وكان تجار مدن افريقيا الإسلامية يختلفون إلى مصر ، وكان المسلمون الراغبون فى الاستزادة من العلم يفدون إلى مصر للالتحاق بالازهر ، وقد أنشىء لهم بهذا الجامع العالمى، صاحب الرسالة الإسلامية والمحافظ على حياة العروبة والإسلام ، رواق لأهل زيلع ، ورواق للجبرت، ولهذا طبعت هذه الثقافة بطابع دينى عميق ، فقد سيطر الفقهاء ورجال الدين على حياة المسلمين، وتحكموا فيها، ومن ثم كان وراء حركات الجهاد التى اضطلع بها سلاطين عدل، أو الأمراء الأئمة الذين ظهروا فى هذه البلاد منذ القرن الخامس عشر ، وكان هؤلاء الفقهاء يشتركون فى القتال، ويحرضون عليه، بل إن هؤلاء الأمراء والسلاطين كانوا يأتمرون بأمر هؤلاء الفقهاء، ويتلقون منهم التوجيه والإرشاد، وقد اصطبغت الحياة الإسلامية فى هذه الجهات فى القرن الخامس عشر بلون دينى عميق، متفهم لأمور الإسلام، وملتزم بالتعاليم الإسلامية .

وقد أشار المقريزى إلى هذا الطابع الملتزم بقوله، وهم يتشددون فى ديانتهم تشددا زائدا، ويعادون من خالفهم من ساير الملك أشد عداوة ، كما لاحظ محافظتهم على عقيدتهم إلى حد المغالاة ، كذلك اضطلع الأمراء والسلاطين بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وقد تجلت الحضارة العربية فى شرق أفريقيا، فى المبانى المعمارية وتخطيط المدن وزحارف الأبواب والشبابيك، وكما أدخل العرب فن النقش والحفر والنحت وعقود البناء العالية والفسيفساء المتحدة مع الرخام الملون وظهر ذلك بوضوح فى قصور كلوه ومساجدها . ومن هنا كانت مظاهر الحضارة الإسلامية ظاهرة فى كل عمليات التشييد والبناء والتطور المعمارى.

ولقد كان ذلك التطور الحضارى فى بناء المساجد غلبة يعنى الطابع الدينى على الثقافة العربية الإسلامية ، ومن هنا فإن مدن شرق أفريقيا جميعها قد شهدت ظهور البلاد بالمظهر الإسلامى، وقد تجلى ذلك فى كثرة الجوامع والمساجد، التى تقام بها الخطب والجمع والجماعات، وكانت المساجد تمثل عند أهل شرق افريقيا مكاناً لتلقى العلوم الإسلامية وحفظ القرآن الكريم ، ذلك لأنه لم تكن واضحة الظهور، بل على العكس فقد كثر عندهم الفقهاء والعلماء والزهاد والإبرار وغيرهم من أئمة العلوم الإسلامية .

وهذه الأهداف العلمية والحقائق التاريخية الإسلامية الثابتة تحدد لنا الدور، الذى لعبته الحركة التعليمية الإسلامية كمظهر من مظاهر التطور الحضارى الثقافى الإسلامى، فى هذه البلاد، الذى كان طابعها طابعاً إسلاميًا صرفاً، خالياً من كل المؤثرات الوثنية، التى كانت منتشرة بين القبائل الأفريقية ، ومن هنا يمكن القول أن النشاط التعليمى فى علوم الدين والعربية كان يتقدم بمدى انتشار الإسلام بين الأفارقة، ومدى استجابتهم لتلقى العلوم الإسلامية، التى كانت تلقى قبولا وترحيبا من سكان البلاد، بمجرد إعلان إسلامهم، إذ كانوا يسعون إلى حفظ القرآن الكريم، ومعرفة العلوم الإسلامية، ومبادىء التعليم الإسلامى كالفقه والتفسير والحديث، وغيرها من العلوم المتعلقة بالثقافة العربية الإسلامية، مثل علوم اللغة العربية.

ومن هنا فإننا نشاهد أنه فى أية بقعة من بقاع شرق أفريقيا، كانت القافلة الإسلامية يحط رحالها، كان الإسلام ينتشر قبل أن ترحل القافلة التجارية إلى مكان آخر، ومن هنا كان الفقهاء والعلماء يسعون خلف هذه القوافل أو بصحبتها، بل إنه كان عديد من التجار هم

الفقهاء والعلماء ورجال الدين ، والذين كانوا يسعون لإقامة المساجد لتأدية الصلاة واتخاذها أماكن لتحفيظ القرآن الكريم، أو انتشار الكتاتيب المجاورة لها؛ للقيام برسالة تحفيظ القرآن الكريم ، لذلك كانت استجابة شعوب الساحل الشرقى للقارة الأفريقية للدخول فى العقيدة الإسلامية من الأسباب القوية لارتفاع المستوى الثقافى والعلمى والحضارى والاجتماعى لشعوب تلك المنطقة، بل أكثر من ذلك فإن تلك الشعوب الأفريقية التى اختلطت بالعرب الوافدين، وظهر جيل المولدين مسلمى العقيدة، وتعربوا لسانا، وامتزجوا جنسيا، ينظرون إلى الخلافة الإسلامية فى دمشق أو بغداد أو القاهرة؛ باعتبارها الوطن الأم مركز الخلافة؛ فضلاً عن كونها موطن الحضارة والثقافة والعلم والفكر فى ذلك العصر، ومن هنا كان ذلك من أهم الآثار التى ترتبت على الهجرة العربية إلى تلك السواحل، والتى توضح مدى عمق العلاقات بين العرب وسكان ساحل شرق أفريقيا، ومن هنا ازدادت العلاقات وتنوعت فى مختلف المجالات ، فلم تقتصر العلاقات على النواحى الاقتصادية والتجارية ، بل إن تلك الروابط والصلات قد تعدت إلى عديد من المجالات المختلفة التى تشاركت فى ربط المظاهر الحضارية الإسلامية مع موطن الخلافة الإسلامية، فى موطن العرب القادمين منه .

وهكذا تركت المؤثرات الإسلامية أهم مظاهرها الحضارية والاجتماعية فى أنه لم يمض وقت طويل حتى أننا رأينا العرب لم يلبثوا إلا قليلا من الوقت، حتى رأيناهم قد اندمجوا فى السكان الأصليين وتزاوج الفريقان وتصاهرا واختلطت الأرحام والأنساب. وبمضى الوقت ظهر جنس عربى إسلامى افريقى مولد، فيه كثير من الصفات والعادات والتقاليد والأعراف العربية، وأصبحت الإمارات العربية مزيجا تجمع فى أنظمتها بين أصول عربية إسلامية عميقة الجذور، وبين مظاهر افريقية تلاءمت مع التعاليم العربية الإسلامية والتقاليد والعادات العربية؛ بحيث إنه لم يعد هناك أى مظهر من مظاهر الوثنية القديمة .

بل إنه من أهم مظاهر ومعالم الثقافة العربية الإسلامية، ظهور اللغة العربية بمظهر العامل المشترك فى لغة التفاهم بين السكان؛ بحيث إنه لم تكن هناك لغات أفريقية مكتوبة أو منطوقة، كذلك فإن الذى لا يدانيه أدنى شك أن العرب المهاجرين وأخوانهم الفرس قد حملوا معهم جميعا إلى تلك الجهات معالم حضارتهم الإسلامية ، ومن هنا ظهرت تلك المعالم الحضارية الإسلامية فى كل الأمور اليومية الحياتية .

ومن هنا فإننا نجد أنه إذا كان كوبولاند قد أشار فى كتابه «شرق أفريقيا» يدعى أو يقرر أن العرب الذين استقروا فى شرق أفريقيا، كانوا يمثلون طبقة ارستقراطية حاكمة، لها

السيادة والتفوق فى كل الأمور، التى تجرى على أرض تلك الأنحاء ، إلا أنه رغم الأقوال، والتى ربما كانت تمثل بعضاً من مظاهر الصحة ، إلا أن ذلك لا يعنى أن العرب كانوا بعيدين عن سكان البلاد الأصليين أو متباعدين عنهم ، ولكن كل الحقائق والوقائع، التى كانت تجرى على الساحة تبين لنا أنه كان هناك تقارب وتجانس واختلاط ومصاهرة؛ مما ساعد على ذلك الاختلاط والاندماج، وفى ذلك يعترف كوبلاند حيث يقول إن روح المحبة والأخوة والمساواة والتعاون، هذه العوامل هى التى ساعدت على خلق ذلك الجو الملائم بين السكان الأفارقة، وبين المهاجرين العرب، والتى ترتب عليها الزواج والمصاهرة وصلة الأرحام والأنساب ، ومن هنا كانت ثمرة ذلك الاختلاط، ذلك الشعب السواحيلى، الذى يسكن تلك المنطقة، وهو ثمرة ذلك الزواج التى تم بين الجاليات العربية والفارسية، التى استقرت فى شرق أفريقيا وبين قبائل البانتو الأفريقية الشرقية، التى كانت تنتشر فى الساحل الشرقى حتى حوض الكونغو .

ومن هنا كان بانتو أفريقيا الشرقية قد تأثروا بالاختلاط بالعناصر العربية، منذ عصور قديمة، ولكن هذا التأثير لم يكن بدرجة واحدة، وهو اشد ما يكون على الساحل ومنطقة البحيرات، وما يليها شرقا من إقليم السافانا والجهات الشبه صحراوية، وامتدادها على سواحل المحيط الهندى .

وقد اعتنق السواحليون- نتاج ذلك الزواج بين البانتو والعرب- العقيدة الإسلامية ديناً لهم، وصاروا يقلدون العرب فى كل ما يتصل بحياتهم الاجتماعية، ومع أن السواحليين كما سبق القول ينحدرون أصلا من قبائل البانتو الشرقيين، إلا أن ملامحهم وصفاتهم الجسمانية قد تعدلت إلى حد كبير؛ نتيجة لامتزاجهم بالدماء الآسيوية، ومن الجدير بالذكر أن السواحليين يقسمون أنفسهم من ناحية السلالة البشرية إلى مجموعتين رئيسيين، هما السواحليون الشماليون، ويقولون إنهم من نسل العرب الأوائل، الذين هاجروا إلى ساحل افريقيا الشرقى فى القرن العاشر الميلادى ، الرابع الهجرى ، وأسسوا مدينتى مقديشيو وبراوة، والسواحليون الجنوبيين ويقولون إنهم انحدروا من سلالة المهاجرين الفرس القدامى، الذين أسسوا مدينة كلوه حيث كانوا من شيراز .

ومهما يكن من أقوال بشأن السواحليين وتقسيمهم إلى قسمين شمالى وجنوبى ، إلا أن هؤلاء القوم هم نتاج مشترك لمظاهر الحضارة الإسلامية سواء اكانت أصولهم عربية أم فارسية ، ولكن الإسلام وحضارته ومظاهرهم وأصولهم العرفية، هى الرباط المشترك الذى يجمعهم برباط واحد .

وعلى أية حال.. فإن السواحيلية اسم، تواترت الأقوال على أنه يدل على الجنس الخليط، الذى نعنى به طائفة المولدين من هذا الزواج، الذى تم بين أهل ساحل شرق القارة الأفريقية وبين العرب الذين كانوا يعيشون فى معظم سواحل شرق افريقيا، أو على وجه التحديد ساحل الزنج، الذى يقع مباشرة جنوب الصومال ، هذا بالإضافة إلى أنه كان تتوافد على المنطقة عناصر أخرى إسلامية غير العرب ، ومن هنا فإنه من الواضح أن كلمة الشعب السواحيلى اشتقت من سواحل، ومفردها ساحل، وهو اسم استخدمه كتاب العرب لدلالة على أفريقيا الشرقية. ومنذ عصور قديمة متوغلة فى القدم ترجع إلى القرن السابع أو السادس قبل الميلاد، كما ذكر المؤرخ الأغريقى عام ٤٥ ميلادية فى كتابه «دليل البحر الأرتيرى» أن التجار العرب استقروا على الساحل الغربى للبحر الأحمر والمحيط الهندى، وتزواجوا وتصاهروا مع سكان أهل البلاد، وأنه بمرور الزمن وباستمرار عمليات التعامل التجارى والهجرة المتواصلة أو المنطقة والاستقرار على الساحل، نشأ ذلك الشعب السواحيلى، ومن ثم تبعه ظهور تلك اللغة، التى يطلق عليها علماء اللغة، اللغة السواحيلية (انظر الباب الأول) .

ولقد كانت تلك اللغة الأفريقية السواحيلية الجديدة، أو ذلك اللسان السواحيلى فى أصله لغة من لغات البانتو، والتى كانت أفريقية فى بنائها، ولكنها متأثرة تأثراً كبيراً باللغة العربية فى مفرداتها، وتختلف طبيعة هذه اللغة بطبيعة الحال، باختلاف القبائل التى كان يحتك بها العرب احتكاكا قويا أو ضعيفا، أو باختلاف الجهات التى كان يتردد عليها العرب، يحكم عملهم التجارى ووصول الدعوة الإسلامية ، وفى الأصل هى لغة من لغات البانتو، ويظن أن اصول هذه اللغة من أصول لغة قبيلة جرياما Giryama، وهى تعيش إلى الشمال من ممباسا، وليس من المستبعد أن يكون الاتصال الأول بالمهاجرين العرب تم فى هذا الإقليم، ثم أخذ ينتشر تدريجياً فى كل اتجاه أو نظرا لأهمية لغة السواحيلى، فقد ألفت بها الكتب وعملت لها معاجم، وهى من أكثر اللغات، التى تدرس فى المعاهد المخصصة للدراسات الأفريقية وهكذا ظهرت تلك اللغة؛ لأن اغلب الذين كان يحتك بهم العرب فى الساحل الأفريقى الشرقى، من شعب البانتو الشرقيين الذين كانوا يتكلمون لغة البانتو .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الكلمات العربية هى أكثر، والكلمات التى دخلت فى مفردات اللغة السواحيلية ، لأن الأثر العربى فى الشعب السواحيلى، كان أطول وأعمق فى كل المؤثرات الإسلامية الأخرى التى وفدت إلى الساحل؛ حيث إن الأثر العربى يمثل التجارة والانتقال والاستيطان والاقتصاد والثقافة والاختلاط والاندماج وهكذا استطاع الاتصال العربى

أن يوجد تلك اللغة، التى صارت اداة لغوية واسعة الانتشار فى النصف الشرقى من القارة الأفريقية، وهى التى سهلت التعامل والتفاهم بين أبنائهم، ومن أجل ذلك لم تتردد حكومة تنزانيا فى جعلها لغة رسمية لها، وهى منتشرة فى تنزانيا وكينيا ورونداى ، وبروندى ، وأوغندا.

ولا شك أن تلك اللغة قد تكونت فى بيئة مختلطة، تتكون من العرب والبانتو، وإلا لما سميت بهذا الاسم العربى الصريح، والظاهر أنها لغة مرنة؛ لأنها تشتمل أيضاً على ألفاظ من بعض اللغات الحامية والأوربية، وعلى وجه الخصوص اللغة البرتغالية وفى ذلك يقول رويش Reusch، وهو أحد المتخصصين فى اللغة السواحيلية وتاريخها، وقام بتأليف معاجم لها، ومتتبع أصولها، وهو يذكر أن المفردات العربية فى اللغة السواحيلية لا تقل عن ٢٥٪ من مجموع مفرداتها، إن لم تصل إلى ٣٥٪ .

وانتشرت اللغة السواحيلية انتشاراً عظيماً، وعم استعمالها جميع الطبقات فى شرق أفريقيا وأصبحت اللغة الرسمية على طول الساحل الشرقى للقارة الأفريقية ، كما عدت لغة التجارة فى المخاطبات بين القبائل فى كل أرجاء المنطقة، وتعتبر السواحيلية (اوكى سواحيلى من لغات البانتو (بفتح الباء وسكون النون)، وتشتمل على مفردات كبيرة من اللغتين العربية والبرتغالية أولا، ثم الإنجليزية، وتعد السواحيلية من أهم اللغات الأكثر تداولاً فى العالم المعاصر، والسواحيلية لغة تطرب السامع ، فإن الحركات التى تنهى بها كلماتها، والحركات التى على ما قبل آواخر الكلمات يجعلها قريبة الشبه فى النطق باللغة الإيطالية، وقد جاءت حركاتها الحلقية من اللغة العربية، وقد تلطفت هذه الحركات بحيث يستطيع الأوروبى أن ينطق بها بسهولة، ويتكلم أهالى شمال مدينة ممبسا بجزيرة لامو، التى تعد أصل اللغة السواحيلية بهذه اللغة خالصة نقية، وقد انتشرت السواحيلية تدريجيًا نحو الجنوب، وعلى الساحل الأفريقى الشرقى، وفى الجزر حتى وصلت جنوبا إلى بلاد موزمبيق ، لذلك امتزجت شيئًا فشيئًا بألفاظ وتعبيرات عربية وفارسية وهندية وبرتغالية وغيرها، وقد استعربت هذه اللغة ببلاد زنجبار بوجه خاص، وآداب اللغة السواحيلية وافرة المادة نوعًا ، فقد ترجم رجال التبشير، ضربًا للحركة والدعوة الإسلامية فى تلك المناطق، التوراة والإنجيل باللغة السواحيلية، كما ترجم إليها عديد من الكتب المسيحية، ونشرت بها عدة رسائل عن الأمثال الدارجة وحكايات وأقاصيص وأشعار مختلفة، وقد انتشرت السواحيلية، وأصبحت لغة المعاملات التجارية والمالية والاقتصادية، وذلك فى أراض تبلغ مساحتها ألف فرسخ ، وقد

نقلها الملاحون والتجار من الأهالى على سفنهم من الساحل الشرقى للقارة الأفريقية إلى الثغور البحرية ببلاد الصومال وعدن، وعلى الساحل الجنوبى ببلاد العرب حتى الخليج العربى والمحيط الهندى، ووصلت إلى الهند فى مدينة بمباى، وانتشرت جنوبًا فى بلاد موزمبيق وجزائر القمر وجزيرة مدغشقر .

كما انتشرت اللغة السواحيلية على أيدى التجار فى داخل القارة الأفريقية، وهى منتشرة فى بعض جهات أوغندة، وفى أجزاء من جنوب السودان ، وإذا سرت فى النيل من أوغندة شمالا، رأيت مدى انتشار اللغة العربية، التى يتكلمون بها بلهجات مختلفة فى معظم هذه الأرجاء، والتى أخذت تحل محل اللغة السواحيلية؛ باعتبارها لغة المعاملات التجارية والمالية ، كذلك انتشرت اللغة السواحيلية فى حوض الكونغو، وفى جميع انحاء نياسة لاند، وهى لغة رسمية لتنجانيقا ، حيث لا توجد مدينة ولا قرية صغيرة لا يتكلم أهلها اللغة السواحيلية ، وكذلك انتشرت اللغة السواحيلية فى حوض بحيرة فكتوريا، وفى سفوح جبال كليمنجارو وكينيا، بحيث أصبح لاغنى عنها للسياح ورجال الدعوة الإسلامية، الذين تربطهم علاقات تجارية ببلاد أفريقيا الشرقية .

ويذكر اندرسون فى كتاب «الوحدة والترابط فى الحضارة الإسلامية» إن اللغة السواحيلية هى التى تمثل اختلاط المهاجرين العرب بدماء البانتو الحاليين، وأنها صارت لغتهم ، كما أنها انتشرت أيضا بين السكان الأصليين مثل قبائل الديجو Digo فى كينيا والياوس Yaos فى شرق افريقيا البرتغالية وتياسالاند (زامبيا) وزمبابوى، كما انتشرت بين قبائل الجلا والصوماليين، الذين يلاحظ أن التأثيرات العربية فيهم مباشرة ومستمرة ، وقد قام معلمو المدارس من السواحيلية بنشاط ملحوظ بين الأهالى، الذين يقيمون من الداخل على مسافة قصيرة من الساحل بين الأهالى ، ثم تضاعف هذا النشاط فى مستهل القرن العشرين؛ حتى مقاطعة كليمنجارو شمالا وبحيرة نياسا جنوبا .

كما ذكر لورينزو تيرنر Lorenzo Turner فى كتابه «أفريقيا اليوم» لما لاحظ انتشار اللغة السواحيلية فى شرق القارة، أنه يجب أن تلقى اللغة السواحيلية التى تعتبر لغة المعاملات التجارية والمالية قبولاً من جميع المدارس وأنه لا يعنى بدراستها فقط فى مدرسة الدراسات الأفريقية فى كلية شرق أفريقيا الجامعية .

ولقد افاد ذلك المؤرخ بأن طغيان اللغة السواحيلية يحول دون التوسع فى استعمال اللغة الإنجليزية كأداة للتعليم فى المراحل الابتدائية والثانوية ، ولكن قوة اللغة السواحيلية حالت

دون ذلك، فما كان من تنجانيقا بعد أن حصلت على استقلالها مباشرة إلا أن تعلن استخدام اللغة السواحيلية لغة رسمية للدولة .

بل اكثر من ذلك فإن الذى أثار حقد الأوربيين على انتشار اللغة السواحيلية كتابة حروفها بالحروف العربية، شأنها شأن اللغة التركية (تم تحويل حروفها إلى الحروف اللاتينية بعد ثورة كمال اتاتورك، وكذلك اللغة الفارسية فى إيران، واللغة الأوردية فى باكستان، والهوسا فى غرب أفريقيا) ومن ثم عمل رجال التبشير والاستعمار بجعل الحروف اللاتينية بدلاً من الحروف العربية .

لكن لاتزال حتى اليوم لدى قبيلة انتيموورونا بجزيرة مدغشقر، مؤلفات خطية قديمة العهد مكتوبة بالحروف العربية، وقد حافظت بعض سلالة المهاجرين من العرب على استعمال الحروف العربية فى الكتابة، وتوجد فى دار الكتب الأهلية بباريس محفوظة ملجاشية (مدغشقر) عربية، أو مدونة بلغة عربية ممزوجة بكلمات ملجاشية، وقد أخذ الملجاش سكان مدغشقر فى كتابتهم للغتهم بالحروف اللاتينية، فى ظل الاستعمار الفرنسى .

وهكذا نرى كيف كانت اللغة السواحيلية إحدى المظاهر القوية للمظهر الحضارى الإسلامى، الذى يتحدى كل الإدعاءات الاستعمارية، فى محاولة التهوين من الدور العربى الإسلامى فى شرق أفريقيا ، ثم أن سماحة الإسلام وتعاليمه الخالدة وروح التسامح والمساواة والإيمان بأنه لا فرق لعربى على أعجمى إلا بالتقوى، هى التى ساعدت على الاندماج والانصهار بين العرب وسكان الساحل من البانتو، ومن ثم تكون الشعب السواحيلى، الذى هو نتاج مشترك بين العرب والبانتو .

وهكذا ساهم الإسلام وأهله بما ملكوا من صفات وخصائل حضارية عريقة، وثقافة إسلامية عربية فى ظهور تلك الديار بالمظهر الحضارى المتطور، وتدرجت شعوب الشاطىء الشرقى للقارة الأفريقية فى مدارج الحضارة الإسلامية، بحيث كانت الصورة التى كانت عليها كلوه ، زنجبار ، مقديشيو ، ببا ، ممبسا ، بات ، سفاله، صورة مما عليه مدن الشرق الإسلامى كصنعاء ، الحديدية ، حضرموت ، الإحساء، المدينة المنورة ، مكة المكرمة ، القاهرة ، دمشق، وذلك يكون الرباط الإسلامى ، والمظهر الإسلامى هو الطابع المشترك بين كل هذه المدن الإسلامية، التى ترفع راية التوحيد، وتعيش تحت شعار لا إله إلا الله محمد رسول الله، وتستظل براية القرآن وأنوار الدعوة الإسلامية .

وقد أخذ كثير من هذه المفردات إلى هذه اللغة، وأصبح عمودها الفقرى، بل الأساس الذى قامت عليه تلك اللغة، وذلك لأن الألفاظ والمفردات العربية قد اتخذت كمصطلحات فى الدين الإسلامى والعبادات والمعاملات وفى التشريع، بل فى التجارة والاقتصاد والعمارة وأسلوب التعامل اليومى بل أنها أكثر بروزاً فى آثار المعالم الحضارية الإسلامية العربية، وقد كتبت اللغة السواحيلية قبل العصر الاستعمارى القديم البرتغالى – الأوربى الحديث فرنسا – المانيا – إنجلترا بحروف عربية، وإن كان لا يعرف على وجه التحديد التاريخ الذى استخدم فيه الخط العربى للكتابة ، إلا أنه من المرجح أن ذلك الخط العربى قد استخدم على وجه التقريب فى القرن الحادى عشر الميلادى ، الخامس الهجرى إن لم يكن فى القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى حيث كانت الهجرة العربية الإسلامية قد انصهرت واندمجت فى المجتمع الأفريقى السواحيلى ، وما زال الخط العربى مستعملا فى كتابة اللغة السواحيلية فى بعض المناطق .

وإن كانت اللغة السواحيلية تكتب حاليا بحروف لاتينية وذلك حينما تعمد رجال التبشير والاستعمار، الذين سيطروا على تلك المنطقة منذ القرن الخامس عشر الميلادى حتى القرن العشرين (١٩٦٠) حركة الاستقلال الأفريقى، قد عمدوا بصفة خاصة إلى تحويل حروف هذه اللغة من الحروف العربية التى كانت تكتب بها قبل قدومهم للقارة إلى الحروف اللاتينية ، بل إنهم فى تحويل مفرداتها إلى الكلمات اللاتينية، فإأهم عملوا بكل الوسائل والطرق على استبعاد الالفاظ والكلمات والمفردات العربية بشتى الطرق، ومحاولة إبعاد كل ما يتصل بهذه المفردات بالدين الإسلامى واللغة العربية (راجع كتابنا : أخطار التبشير فى العالم الإسلامى ، فصل التبشير فى شرق افريقيا ، فصل التعليم كوسيلة من وسائل التبشير ، اللغات الأفريقية)؛ وذلك لإضعاف الصلات بين العرب والأفارقة، والقضاء على كل المؤثرات والمعالم الحضارية العرية الإسلامية فى تلك البقاع، التى تشكل الظهر القريب لمصدر الدعوة الإسلامية، الحجاز .

ومما هو جدير بالذكر أن اللغة السواحيلية قد انتشرت انتشاراً واسعًا فى شرق أفريقيا كلها، مثلها مثل لغة الهوسا فى غرب أفريقيا ، وذلك نتيجة ازدياد الحركة التجارية ، كما

حملت القوافل العربية اللغة السواحيلية معها إلى داخل القارة ، إلى حيث تمتد طرق القوافل إلى البحيرات الاستوائية وحوض الكونغو ، وبذلك أصبحت اللغة السواحيلية هى لغة المعاملات العربية، بين مجموعة السكان فى أفريقيا الشرقية .

إلا أنه مع كل هذه التغيرات الجنسية السلالية واللغوية.. فإن اللغة العربية قد ظلت هى اللغة الرسمية لإمارات الساحل الممتدة شمالا وجنوبا؛ حيث إن اللغة السواحيلية لم تتاح لها فرصة التطور والنمو .

ولقد ترك انتشار اللغة السواحيلية أثرها فى الحياة الاجتماعية؛ نتيجة ازدياد انتشارها تبعاً للنشاط الاقتصادى؛ فقد فرضت هذه اللغة على سير الحياة اليومية على طوائف السكان الذين يعيشون فى تلك المنطقة، ومن هنا كانت وحدة الدين واللغة من العوامل التى ساعدت على التعاون لخير المجتمع، وقد كانت طبقات المجتمع- كما وضحت فى ذلك العصر- أربعة طبقات، كما أشار إلى ذلك كوبولاند فى كتابه «شرق أفريقيا والقادمون» ، أو «الغزاه» ، وتلك هى اقوال أوربية؛ حيث إن الإسلام لا يعرف نظام الطبقات لأن الجميع أخوة متساوون فى ظل الإسلام لكنه قال أن الأرستقراطية العربية كانت هى صاحبة الكلمة فى البلاد ، ثم تأتى بعدها طبقة الهنود الباكستانيين المهاجرين، وكانت تملك أغلب سفن المحيط الهندى، وكان الهنود المسلمون مهرة فى الشئون المالية والمصرفية، وركزوا فى أيديهم الحركة التجارية ، ثم ظهرت تلك الطبقة المشار، إليها وهم السواحيلية .

والذين كانوا خليطاً من المهاجرين العرب وأهل البلاد الأصليين (المولدين) ، والذين كانوا يتكلمون اللغة السواحيلية ، ثم الطبقة الرابعة وهى طبقة العبيد، الذين كانوا يشترون بالمال، يقومون بالأعمال اليدوية فى المزارع والمصانع والتاجر، هذه الطبقات كلها تعاونت معاً بصورة فريدة من أجل تطور المجتمع، وأنه كانت جميعها تتكلم اللغة السواحيلية . وهذا مظهر من مظاهر انتشار المعالم الحضارية الإسلامية .ولقد ظهرت مآثر الحضارة العربية الإسلامية واضحة فى شرق أفريقيا، لكن المصادر الأوروبية فى معظمها حاولت التقليل، بل التهوين المتعمد فى دور العرب والإسلام والمسلمين وتأثيرهم الحضارى فى شرق أفريقيا ، فنجد أنهم يشيرون إلى أن العرب لم يهتموا بإدخال الزراعة، إلا بالقدر الذى يفى احتياجاتهم، وما يكفيهم من الاستهلاك دون التصدير ، وتلك حقيقة علمية خاطئة؛ إذ أن حركة

تصدير المحاصيل الزراعية إلى خارج الساحل، وإدخال المحاصيل المتعددة، التى لم تكن معروفة من قبل تكذب هذه الأقوال، إضافة إلى قول المعادين للإسلام والمسلمين والعرب والعروبة إلى أن كل ما انصرف إليه العرب وإخوانهم المسلمون من فارس والهند، هو إشباع نهمهم فى تجارة الذهب والعاج والرقيق ، ولكن حقيقة الأمر أن العرب أدخلوا محاصيل زراعية من آسيا إلى شرق أفريقيا، اعترف بها بعض المنصفين المحايدين من كتاب الغرب ، وأنهم أقاموا صناعات معدنية، وإنتاجاً معدنياً فى الحديد والذهب والماس .

مع الملاحظة أن الأوروبيين لم يدخلوا الزراعة فى شرق أفريقيا، إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، رغم وصولهم إلى تلك المناطق فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وأنهم فى ذلك كانوا يستغلون الثروة البشرية والزراعية أسوأ استغلال، وهكذا كان المظهر الاجتماعى- الذى هو أحد مظاهر الحضارة العربية الإسلامية الواضحة المعالم- قد أخذ من الشعبين بنصيب؛ حيث نتج عن الامتزاج بالأفارقة، ظهور تلك الثقافة المميزة الواضحة المعالم، والتى أخذت من الشعبين بنصيب، حيث استقرت اللغة السواحيلية لغة قائمة بذاتها مزيجاً من الذى أتى به العرب، والذى كان ملكاً خالصاً للأفارقة.

وهكذا كان الفضل العربى الإسلامى فى شرق أفريقيا فضل لا ينكر، إذ أدى إلى قيام عدة مدن إسلامية على الساحل الشرقى لأفريقية، والحق أن تلك المدن نجحت نجاحاً كبيراً، ووصلت إلى درجة عالية ومتفوقة فى التحضر والازدهار، إلا أنه هنا يمكن القول بجدارة أن تلك المدن افتقرت إلى التنظيمات العسكرية، وربما يرجع السبب فى ذلك إلى أنها لم تقم نتيجة لفتح عسكرى، أو توسع استغلالى استعمارى، وإنما أسسها تجار أو مهاجرون أو مضطهدون رجال دعوة إسلامية، أو سياسيون، أو أصحاب فرق، أو مذاهب إسلامية تعارض نظام الخلافة الإسلامية، وهؤلاء جميعاً - بحكم استقرارهم فى تلك البقاع- لابد أن تكون علاقاتهم فى تلك البقاع علاقات سلمية إلى حد كبير مع الأهالى، الذين استقروا فى أوطانهم .

ومن هنا فإنه ما كاد القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى ينتهى حتى كانت تلك المدن- إلى حد كبير مع الأهالى الذين عاشروهم- قد استكملت مقوماتها وسماتها العربية؛ إذ ساعدت الهجرات العربية المتوالية على طمس معالم الفارسية والهندية، وتحولت تلك الإمارات إلى عربية صرفة .

وهكذا كانت مظاهر الحضارة الإسلامية-بجميع صورها وفروعها وألوانها- قد أخذت

خلال القرن العاشر الميلادى تأخذ بعداً جديداً إذ كان الإسلام قد انتشر فى تلك المراكز على نطاق واسع، وأصبح لكل مدينة مسجدها الخاص بها، وطابعها العربى الإسلامى الذى تجلى فى منازلها ومقر حكامها، ووكالاتها التجارية ومخازنها، ولباس أهلها، وأزيائهم ووسائل معيشتهم، وتقاليدهم وعاداتهم وأعرافهم، وقيمهم العربية الإسلامية ، وأنه رغم وجود بعض السمات الثقافية الفارسية، إلا أنها إسلامية فى جوهرها، وإن كانت بطبيعة الحال لم تبلغ القدر، الذى بلغته السسمات العربية الخالصة فى ساحل شرق أفريقيا ، بل إن تلك السمات الفارسية، لم تلبث أن ضاعت فى غمار غلبة الحياة العربية أو السواحيلية على الساحل الشرقى، وظهرت سمات ومميزات الأمة السواحيلية الإسلامية، التى انضمت فى الحياة الإسلامية ومظاهرها الحضارية، التى أثرت تأثيراً قويًا فى الحياة العامة لتلك المجتمعات الإسلامية، التى لو استطاع حاكم قوى أن يخضع كل هذه الإمارات تحت قيادة واحدة أو قيادتين، أو تكون ما يشبه الاتحاد الفيدرالى بينها كان الوضع السياسى الإسلامى أقوى مما عليه فى صورة إمارات مستقلة، كل منها تمثل كيانا سياسياً مستقلاً عن الأخرى ، بل الأدهى من ذلك أن العرب، الذين استوطنوا تلك المراكز الإسلامية لم يكتفوا بهذا الأسلوب الفردى فى إدارة دقة أمورهم السياسية ، بل إنهم نقلوا معهم خلافاتهم ومنازعتهم الأسرية والمذهبية، ولذلك ظهر العداء السافر بين هذه المدن بدلاً من الوحدة، بل زادت هذه الخلافات المذهبية ، فقد انتشر على سبيل المثال الأباضيون فى كثير من مدن شرق أفريقيا ، كذلك تولد فى نفوس المسلمين، سكان هذه البلاد الشدة فى التمسك بأهداب الدين، تمسكًا بالتراث الإسلامى من الضياع ، وكذلك وجدّ بعض أنصار المذهب الشيعى من الزيدية ، وكذلك أنصار المذهب السنى المتبع لمذهب أحمد بن حنبل ، وقد أدى ذلك أنه جعل من المستحيل قيام وحدة عربية إسلامية، تجمع بين هذه الإمارات طواعية .

بل إنه فى بعض الأحيان كانت تقوم عدة وحدات سياسية، تسند إلى التفوق وتوسع إحدى هذه المدن على حساب غيرها، كما نجحت ممبسا فى السيطرة على مدن الساحل، خلال بضعة أعوام من القرن الثانى عشر الميلادى، أو كما فعلت باتا فى سيطرتها على مدن الساحل من مالیندة شمالا إلى كلوه جنوبًا، فيما عدا زنجبار حوالى عام ١٣٣٠ ميلادية وكذلك حاولت كل من مقديشيو وبمبا وزنجبار فى أوقات متفرقة أن تفرض قيام وحدات من ذلك النوع .

وقد كانت تلك الوحدات السياسية الكبيرة التى ظهرت فى بعض الأحقاب التاريخية عاملاً مهماً، ساعد على نشاط حركة التيار الإسلامى، وطغيان المظاهر الحضارية الإسلامية على شتى نواحى الحياة اليومية .

وهكذا فإن الإسلام بسماحته قد فتح الأبواب على مصاريعها، أمام سكان شرق القارة الأفريقية، وأنه رفع عنهم الأمر والخوف، وكل ما يفتت روح الإنسان ، صحيح أنه كان هناك من يغلق هذه الأبواب الرحبة، أو يقارب بين بعضها بعضا ، ولكن هذا لم يحل دون تألف الإنسان الأسود فى بعض الفترات التاريخية ، بل أكثر من ذلك فإن أبناء شرق القارة الأفريقية كانوا قوة بشرية كبيرة، داخل نسيج الحياة العربية، وهكذا وضح أثر الحضارة العربية وثقافتها الإسلامية فى تلك المناطق .

ومن هنا ساعدت تلك الوحدة الاندماجية بين بعض الإمارات، فى أن يمتد النفوذ العربى الإسلامى إلى الداخل، ونشطت حركة الدعوة الإسلامية؛ حيث امتد ذلك التأثير الإسلامى، وقد وقف الإسلام وجها لوجه أمام الوثنية، واستطاع أن يكسر حدتها، وأن ينشر عقيدة الخلود بين شعوبها ، بالإضافة إلى أن القوة كانت طابع الازدهار الحضارى الإسلامى، وبالإضافة إلى أن الرخاء الاقتصادى كان هو السمة الظاهرة على سكان تلك الولايات. فإن هذه الامارات كان لها نظام سياسى دقيق، وتخطيط وحركة تجارية اقتصادية، ووسائل دفاع حربية، وقد ازدهرت التجارة فى تلك الإمارات، بعد أن بدأت مظاهر الحضارة الإسلامية فى كل بقعة وصل إليها المد الإسلامى .

وهكذا كانت تلك المدن هى المراكز الحقيقية للحياة الإسلامية؛ حيث عمل الفقهاء فى بلادهم على إنشاء الكتاتيب لتحفيظ القرآن الكريم، وإلى هؤلاء الفقهاء يرجع الفضل فى نشر الإسلام والثقافة العربية، وهكذا مارس المسجد دوره فى إثراء الحركة الثقافية والتعليمية؛ والعلمية حيث إن المساجد لا تنشأ إلا فى المدن ، أما أهل القرى فإنهم يتخذون أماكن صغيرة تتسع لعدد سكان القرية عند الصلاة، وهى فى صورة مساجد، ولكنها مبنية من الطين والقش، أما مساجد المدن أو عاصمة الإقليم فكانت مبنية من الحجارة واستخدم الملاط فى بياض جدرانها، وكذلك تقش الآيات القرآنية على الخشب، كما استخدمت العقود فى بناء هذه المساجد .

ولقد ساعد على صبغ الحياة اليومية بالصبغة العربية الإسلامية، ذلك الدور الذى لعبه

الفقهاء فى إنشاء الكتاتيب فى كل مكان، وأنه لا يكاد يوجد مجتمع إسلامى، وإن صغر عدده، إلا وترى فيه مدرسة أو كتاب لتحفيظ القرآن الكريم يرأسه أحد الفقهاء، الذى يقوم بتحفيظ القرآن الكريم وأمامه المصلين فى الصلاة، والقيام بدور الطبيب فى علاج حالات المرض ومن هنا كان الفقيه هو روح القرية، وهو الذى يعلم القوم تعاليم الإسلام .

وهكذا صحب انتشار الإسلام والثقافة العربية تطبيق الشريعة الإسلامية؛ حيث كان عديد من الحكام شديدى الحرص على التطبيق، ومن هنا نجد أن بعض حكام هذه الإمارات أبطل الخمر واللعب والرقص والطبول؛ حيث إن هذا التطبيق كان يتوقف على استعداد الحكام، كما يتوقف على التقاليد القائمة، ومن هنا كانت الظروف هى التى تيسر تطبيق الشريعة الإسلامية.

كذلك يجب أن يكون واضحاً كل الوضوح أن الأثر الثقافى الحضارى قد بدأ ظاهراً، وذلك لكثرة سفر طلاب العلم من كلوه وزنجبار وممبسا وبمبا وبات ومدغشقر ومقديشيو إلى شبه الجزيرة العربية؛ لينهلوا من علوم المعرفة، وبخاصة فى الدين والفقه، وكان ذلك ما يهتم به الأمراء؛ فقد انتقل السلطان «أبو المواهب» (١٣٠٨ - ١٣٣٤م)، الذى هو السلطان أبو المظفر حسن، وكان يكنى بأبى المواهب؛ لكثرة مواهبه وكرمه، إلى عدن ومكة لطلب العلم قبل ارتقائه عرش السلطنة فى كلوه ، وكان قد وصل إلى مكة المكرمة، وهو لم يزل فى الرابعة عشرة من عمره، وقد تحدث عنه ابن بطوطة فى كتابه «تحفة النظار فى عجائب الاسفار وغرائب الأمصار» عن ذكر ذلك السلطان، الذى كان يحكم كلوه عند زيارته لها، وكيف أنه كان مقصد العلماء والفقهاء ورجال الدين والثقافة العربية الإسلامية، وكيف أن الشرفاء كانوا يقصدونه من العراق والحجاز وغيرهما من البلاد العربية الأخرى ، حيث إنه كان اذ جاءه الشرفاء، دفع إليهم نصيبهم من خزانته، كل على حدة .

كذلك ساعد تنقل طلاب العلم والمعرفة من ساحل شرق أفريقيا إلى كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة ومدن جنوب الجزيرة كحضرموت وصنعاء والحديدية والقاهرة وبغداد ودمشق، والتنقل بين كل هذه البلاد من أجل العلم، وقد ساعد على طبع البلاد بالطابع العربى الإسلامى؛ حيث ساعد كل ذلك على انتشار الإسلام، بالإضافة إلى ما تبع ذلك من خروج حجاج تلك الإمارات فى وفود الحج، كل عام إلى مكة المكرمة؛ لأداء الفريضة المقدسة، ومن هنا كان الحج عاملاً قوياً من عوامل الصلة والربط، وظهور المآثر الحضارية الإسلامية فى تلك البقاع .

كذلك كان هناك دور واضح لانتشار حركة العلوم والتعليم فى جميع أرجاء شرق أفريقيا فى المناطق الداخلية، وقبلها أيضا المناطق الساحلية، ولكن يبدو أن الحركة التعليمية لم تكن تتجاوز تحفيظ القرآن الكريم، ومعرفة بعض القراءة والكتابة، وأمور الحساب البسيطة كالجمع والطرح، ولكن لم يكن هناك تعمق فى دراسة علوم الدين الإسلامى الأخرى؛ حيث كان ذلك يستدعى من الطلاب أن يشدوا الرحال إلى مراكز العلم والمعرفة فى المدن، والعواصم الإسلامية المختلفة كالقاهرة وبغداد ودمشق والحجاز .

كذلك فإن حركة انتشار المد الإسلامى؛ اذ كانت قد وصلت إلى سفاله جنوبًا فإنها احتوت أيضا جزيرة مدغشقر، التى يفصل بينها وبين سفاله مضيق موزمبيق؛ حيث كانت هناك صلات وروابط ثقافية واقتصادية بين إمارات الساحل والجزر القريبة، وبين جزيرة مدغشقر وملاجاش، وكذلك جزر القمر حيث أصبح الإسلام هو دين الأغلبية فى تلك الجزر، كما اعتنقته إحدى قبائل مدغشقر، وهى من قبيلة الأنتيمرون، والذين يذكرون أنهم يحتفظون بكتب خطية عربية قديمة، يخرجون فيها أنسابهم إلى مكة، وهم الذين يعيشون فى الطرف الجنوبى الشرقى من جزيرة مدغشقر ، كما أن العرب أنفسهم نجحوا فى تأسيس سلطنة عربية إسلامية فى شمال الجزيرة، وقد ضمت المكتبة الوطنية فى باريس عدة مخطوطات عربية قديمة، عثر عليها بعض العلماء الفرنسيين، وقاموا بإهدائها إلى تلك المكتبة، والتى يستدل من هذه المخطوطات على أن شعب الأنتيمرون كان ثمرة اختلاط بين العرب النازحين وبين قبيلة الأنكارا التى تخضع لها الوجهة التنظيمية، وقد عرفت قبيلة الأنتيمرون هذه الكتابة العربية بعد الإسلام .

ويعتبر هذا بعداً جديدا من ابعاد انتشار المظاهر الحضارية العربية الإسلامية؛ حيث عمت الثقافة العربية أرجاء جزيرة مدغشقر، أكبر جزر شرق أفريقيا وهذ يعطى الدليل القوى على قوة تأثير الحضارة العربية الإسلامية فى تلك البقاع، وعن الدور العربى الإسلامى الذى لعبه المسلمون فى تلك الأرجاء، باعتبار أنهم رسل حضارة وثقافة ورقى وتقدم ودعاة سلام وإسلام، وليس تجاراً للرقيق الذى وصل ما نزح من أفريقيا منه على أيدى الأوربيين ما لا يزيد عن مائة مليون، بيعوا فى أسواق أوروبا وأمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية ، وبهذا كان الوجود العربى يسعى فى انتشار تلك المظاهر الحضارية، وهكذا لعب الإسلام والمسلمون القادمون من الجزيرة العربية وغيرها من الأوطان الإسلامية دورهم المهم والأساسى- بعد

الاختلاط بالسكان الوطنيين– وظهور الشعب السواحيلى المسلم العربى اللسان ، فى أن تسود تلك البقاع من ساحل البحر الأحمر (منطقة أرتيريا) حتى جنوبا إلى سفاله فى موزمبيق وجزر القمر ومدغشقر ، مظاهر حضارية إسلامية تجلت فى أجمل صورها فى انتشار معالم الحضارة الإسلامية، وكذلك المعالم الثقافية العربية الإسلامية، التى زادت من صلة الربط والاتصال مع الساحل الشرقى للمحيط الهندى والخليج العربى وساحل البحر الأحمر .

ومن هنا كان دور الدعوة الإسلامية، التى تجلت فى أجمل صورها فى انتشار الإسلام على الساحل، وظهور تلك الولايات العربية الإسلامية الممتدة على طول الساحل ، بالإضافة إلى أن الإسلام قد اتخذ بعدا آخر فى حركته الامتدادية، وصولاً إلى حوض الكونغو ومنطقة البحيرات الاستوائية بل إنه وصل إلى الشاطىء الغربى للقارة، بعد أن كان الإسلام قد شق طريقه للداخل (راجع كتابنا : انتشار الإسلام فى حوض الكونغو) .

ومن ثم فإن كل هذه المظاهر الإسلامية كانت هى المحرك لظهور الإمارات العربية الإسلامية، التى تعرض لها فى الباب القادم، أو أن ظهور تلك الإمارات الإسلامية ، كان المؤثر الأساسى فى ظهور تلك المناطق، بذلك المظهر الإسلامى، الذى تجلى فى أبهى صوره، بالاتصال بكل الاقطار الإسلامية فى الشرق .

* * *

الباب الرابع

الإمارات الإسلامية في شرق أفريقية

الفصل الأول

الإمارات الإسلامية الشمالية

إمارات الحبشة

لقد كانت الهجرات العربية الإسلامية المتواصلة إلى ساحل البحر الأحمر المجاورة وساحل شرق افريقيا من الأسباب القوية، لظهور سلطنات وامارات إسلامية، لعبت دوراً كبيراً ومؤثرا، بل فعالاً في مجرى الأحداث السياسية والتاريخية والحضارية والاجتماعية فى تلك المنطقة ، بل إنها تركت بصماتها الواضحة الجلية فى كل مظهر من هذه المظاهر، ومن هنا كان لابد من الإشارة إلى تلك الدويلات الإسلامية أو الإمارات، بدءاً من المناطق الشمالية حيث ساحل البحر الأحمر، وما ظهر من ولايات عربية إسلامية، ثم الانحدار جنوبا فى اتجاه ساحل المحيط الهندى الغربى (شرق افريقية)، وصولا إلى أقصى المناطق الجنوبية التى وصل إليها المد الإسلامى، ومن ثم ظهرت ولايات عربية إسلامية .

ونقول إن العرب كانوا أول من توغل فى هضاب الحبشة لمسافات بعيدة، بعد أن استقروا على الشاطىء، واتخذوا لهم مراكز تجارية على الشاطىء، ومن ثم اتخذوا مجارى بعض الأنهار كوسيلة أساسية للوصول إلى المناطق الداخلية؛ حيث أن تلك المراكز التجارية أصبحت المنطلق، الذى تنطلق منه الجماعات الإسلامية للتوغل كثيراً داخل الهضبة الأثيوبية ، ومن هنا فإنه عندما اشتدت الهجرات العربية على سواحل البحر الأحمر الجنوبية الغربية، بدأت تظهر إمارات ساحلية إسلامية، ولم يأت القرن الثالث الهجرى التاسع الميلادى، إلا وكانت تلك المناطق قد شهدت قيام تلك الإمارات، والقيام بدورها الأساسى فى نشر الإسلام، وبناء تلك الإمارات العربية الإسلامية، وممارسة دورها فى تلك المناطق .

ولقد كان أول تلك المراكز الإسلامية، هى مملكة (شوا) الإسلامية، التى قامت فى وسط الحبشة فى بقعة من أخصب بقاعها؛ حيث كان الإسلام قد تطرق إلى شرق تلك المنطقة، وقامت تلك السلطنة الإسلامية التى عملت على توطيد العقيدة الإسلامية فى جنوب شرق الحبشة ، ومن المرجح أن هذه السلطنة الإسلامية قد ظهرت إلى الوجود السياسى، فى نهاية القرن الثالث الهجرى (٢٨٣هـ ونهاية القرن التاسع الميلادى

(٨٩٦م)؛ حيث ظهرت تلك الولاية بجهود قبيلة عربية قريشية، تنسب إلى بنى مخزوم، إذ لقب حاكمها باسم المخزومى ، حيث إن بعضاً من أفراد تلك القبيلة العربية القريشية قد عرفوا طريقهم إلى الحبشة منذ عهود سابقة ، ذلك أن عصر الخليفة الراشد الثانى عمر بن الخطاب، قد شهد هجرة أول عربى مسلم استقر بالحبشة، هو ودينه، هشام المخزومى نسبة إلى تلك القبيلة ، والذى لا شك فيه أن بعضاً أو جمعاً كبيراً من قبيلته قد هاجروا بعد ذلك، واتصلوا به، ومن هنا كان ظهور تلك السلطنة باعتبارها أولى السلطنات الإسلامية فى أرض الحبشة ، وعلى هذا يكون بنو مخزوم هؤلاء مهاجرين عرب، استطاعوا أن ينفذوا إلى تلك الجهات فى وقت مبكر، وليس بعيد أن يكونوا قد نزلوا أول الأمر فى ضيافة إمارة محلية من إمارات الحبشة، ثم اختلطوا بأمراء تلك الامارة عن طريق المصاهرة والزواج، ومن ثم آل إليهم فى آخر الأمر مسئولية تولى السلطة فى تلك الامارة .

وقد استمرت تلك الولاية العربية الإسلامية تحكم تلك الأنحاء فى جنوب شرق الحبشة، حوالى أربعة قرون متواصلة؛ حيث كانت المراحل الأخيرة من مراحل اضمحلال هذه الإمارة حينما فرقها الفتن والصراع بين الإمارات الإسلامية؛ حيث انتهى سطان تلك الولاية فى عام ٦٨٨هـ - ١٢٨٩م، بعد أن قام حكام سلطنة «أوقات» الإسلامية بمهاجمة سلطنة شوة وإسقاط حكم بنى مخزوم من مسرح الأحداث السياسية فى الحبشة، بعد أن نشروا الإسلام، وأقاموا قواعد الشريعة الإسلامية طوال أربعة قرون .

وقد سادت اللغة العربية والدين الإسلامى غالبية سكان تلك السلطنة ، كما حافظوا أشد المحافظة على اللغة العربية، باعتبارها لغتهم الأصلية ولغة القرآن الكريم ، وقد اشتغل سكان تلك السلطنة بالأعمال التجارية وقاموا بدورهم فى الدعوة الإسلامية؛ حيث وجدت الدعوة للإسلام فى تلك البقعة مرتعا خصباً بين الشعوب الوثنية .

وهكذا ظهرت سلطنة «وقات» وهى إحدى سبع سلطنات إسلامية، وينطقها العامة «أوقات» ويقال أيضا جيرة، والنسبة إليها جيرنى، وقد هاجرت إليها جماعة من سلالة عقيل بن أبى طالب، ونزل بنو عقيل فى بقعة يقال لها جبرة أو الجبرتى، وقد نسب هؤلاء المهاجرون إلى تلك المنطقة، فأصبحوا يعرفون بالجبرتية وإليها ينسب الشيخ المؤرخ الجبرتى ، الذى ينحدر من هذه السلالة ، واستطاع أحفاد بنى عقيل أن ينشروا الإسلام فى هذه المنطقة، وبمرور الزمن استطاعوا أن يكونوا أول دولة اسلامية فى الحبشة (سبقت إليها فى الظهور فى الحبشة سلطنة بنى مخزوم فى شوا، وبذلك تكون ثانى سلطنة إسلامية، وليس

أول دولة إسلامية فى الحبشة، كما يقول أحمد شلبى فى كتابه «موسوعة التاريخ الإسلامى» جـ٦ ص١٨٧ ، حتى إذا جاء القرن الرابع عشر الميلادى ، الثامن الهجرى، كانت من أكبر السلطنات الإسلامية فى الحبشة، وأهل هذه السلطنة يتبعون المذهب السنى على مذهب الإمام الشافعى، وموقعها بين الاقليم الأول وخط الاستواء .

وقد تحدث عنها أحد ابناء تلك المنطقة الشيخ عبد الله الزيلعى (زيلع)، فقال طول مملكتها خمسة عشر يومًا وعرضها عشرون يومًا بالسير المعتاد، وكلها عامرة أهله بقرى متصلة، وهى أقرب أخوانها إلى الديار المصرية وإلى السواحل اليمنية، وهى أوسع ممالك الطراز الإسلامى السبع أرضًا، وعسكرها خمسة عشر الفا من الفرسان، ويتبعهم عشرون الفا فأكثر من المشاه .

وقد تحكمت فى الطريق التجارى بين ميناء زيلع والداخل، وقد أسسها قوم من قريش مثل سلطنة شوه، ولكن هؤلاء القوم من بنى عبد الدار من بنى هشام من أبناء عقيل بن ابى طالب، شقيق جعفر بن ابى طالب، الذى كان على رأس المهاجرين الأول فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، والذين هجروا إلى الحبشة فى العام الخامس للبعثة النبوية عام ٦١٤م. ويبدو أن ابناء عقيل قد هاجروا إلى تلك البقعة، بناء على المعلومات، التى وضعها أمامهم المهاجرون الأوائل ومنهم بالطبع أبناء جعفر بن أبى طالب، والقوم الذين هاجروا إلى الحبشة .

ولم تبرز هذه السلطنة العربية القرشية الهاشمية الإسلامية، إلا فى نهاية القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى، عندما أصبح سلطانها أقوى السلاطين المسلمين فى تلك البقاع الواسعة من أرض الحبشة، والذين كانوا يدينون له بالولاء والاحترام والتقدير، كما يقول القلقشندى «منقادون له» وقال عنها القلقشندى:«هى مملكة عظيمة جليلة المقدار متسعة الأرجاء فسيحة الجوانب ، وهى من البلاد المقابلة لليمن على أعالى بحر القلزم (البحر الأحمر) وما يتصل به من بحر الهند ، وبلادهم ليست بذات أسوار ولا لها فخامة بناء، ومع ذلك فلها الجوامع والمساجد، وتقام بها الخطب والجمع والجماعات، وعند أهلها محافظة على الدين إلا أنه لا تعرف عندهم مدرسة ولا خانقاه، ولا رباط، ولا زاوية، وهى بلاد شديدة الحر .

وقد استطاع حاكم «اوقات» القوى بعد إسقاط شوه بعدة سنوات أن يفرض سلطانه على الإمارات الأخرى التى كانت صغيرة، لكنها كانت عربية إسلامية مثل عدل ، مورة ، هويت، جداية .

ويعد المقريزى أول من كتب كتابة، تكاد تكون علمية ووافية ودقيقة عن الحبشة فى القرن الخامس عشر الميلادى، عندما كتب عام ١٤٣٤ - ١٤٣٥ كتابه المسمى «الإلمام عما بأرض العرب من ملوك السودان» حيث ذكر فيه اثنى عشر إقليماً من اقاليم الحبشة، ولكن عبد الله الزيلعى يذكرها سبع إمارات أو ممالك، سميت بدول الطراز الإسلامى؛ لأنها كانت كالطراز الذى يحيط بالهضبة الأثيوبية، وهى سلطنة «وقات» أو «اوقات» (دوارو - ارابينتى - شرما - هدية - بالى - داره) .

وكانت دوارو هى القاعدة الثانية بعد «أوقات» وطولها خمسة ايام وعرضها يومان، وهى على هذا الضيق ذات عسكر جم نظير عسكر «اوقات» فى الفارس والراجل (خمسة عشر الف فارس ، عشرون الف راجل) والإمارة الثالثة وهى إمارة (أرابينى)، وطولها أربعة أيام وعرضها أربعة كذلك، وعسكرها يقارب عشرة آلاف فارس والراجل كثيرون جدا والقاعدة الرابعة من هذه القواعد هى إمارة هدبه (والهاء والدال المهملة والباء المثناه التحتية، ثم هاء فى الآخر) .

وموقعها بين الإقليم الأول من الأقاليم السبعة (أوقات)، وبين خط الاستواء، وطول مملكتها ثمانية أيام وعرضها تسعة ايام، وصاحبها أقوى إخوانه من سلاطين هذه السلطنات السبع، وأكثرها خيلا ورجالا وأشد بأسا على ضيق بلاده عن مقدار «أوقات» وسلطانها ، وتملك قوات عسكرية نحو أربعين الف فارس سوى الرجالة ، أى أكثر قوة فى أى من الإمارات الأخرى ، بالإضافة إلى أن عدد عساكرها الراجلة يصل إلى ثمانين الف فارس .

والإمارة الخامسة «شرما» وطولها ثلاثة أيام، وعرضها أربعة أيام، وعسكرها ثلاثة آلاف فارس ورجاله مثل ذلك مرتين أو تزيد قليلاً ، والامارة السادسة هى امارة «بلى» أو «بالى» وتلى «شرما»، وطولها ثلاثة وعرضها كذلك، ولكنها أكثر خصباً وأطيب سكاناً وأبرد هواء ، والسابعة هى «دارة» وهى أضعف إخوانها حالاً وأقلها خبرا ورجالاً، وعسكرها لا تزيد عن ألف فارس ورجالة كذلك .

وقد أشار كثير من المصنفات العربية إلى هذه الممالك مثل القلقشندى، الذى تحدث عن الممالك الإسلامية ، التى كان نجاح العرب فى تكوينها فى الحبشة- على أسلوب عربى ونهج اسلامى- كان حصيلة حسن العلاقات الطويلة، التى قامت بينهم وبين الأحباش ، ولكن الذى يمكن قوله أن ملوك الأحباش كانوا ينظرون إلى ملك الدويلات الإسلامية فى

بلادهم بعين الحذر والشك والحقد؛ لارتقائها حضاريا وثقافية وتقدمها مدنيا واقتصاديا ، إلا أنه مع كل ذلك التقدم فإن هذه الولايات السبع، التى لم تستطع أن تتوحد، كانت تعانى كثيراً من عوامل الضعف والتفكك والانهيار، بسبب المنازعات التى كانت تقوم بين بعضها والبعض الآخر؛ مما ساعد ملوك الحبشة فى بذر بذور الشقاق بين هذه الإمارات، والتدخل فى شئونها الداخلية، وتنفيرها من بعضها البعض؛ حتى لا تخضع جميعها لمملكة واحدة، وتكون قادرة على القيام لمواجهة الحبشة .

وعلى هذا فإن نتيجة لقيام تلك السلطنات الإسلامية، وانتشار الإسلام فى الحبشة والمناطق المحيطة بها ، فإن أبناء الحبشة من هذه الإمارات قد شدوا الرجال إلى بر اليمن؛ للتردد على مدارسها العربية الإسلامية المنتشرة فى عديد من مدنها؛ للتزود بالعلوم الإسلامية. ومن هنا أخذت صلة تلك الإمارات الحبشية تتوطد باليمن ، بل إن تلك البعثات العلمية أخذت تتابع بعد ذلك؛ خاصة فى عصور الاستقرار السياسى، وعدم تعرض تلك الإمارات للغارات المسيحية الحبشية .

ولقد كان الملك فى تلك السلطنات الإسلامية يتوارث، ومحفوظ فى أعقاب هؤلاء السلاطين وأحفادهم إلا إمارة «بالى» التى صار الملك فيها إلى رجل، ليس من بيت الملك، والذى تولى الملك واستقل بها .

كذلك فإن القرن الثالث عشر الميلادى ، السابع الهجرى قد شهد تسرب التيار الإسلامى إلى مناطق جنوب بلاد الحبشة، وفى مرتفعات شرق شوه ، ويعود ذلك النشاط الإسلامى إلى الجهود التى بذلها سلاطين شوه قبل سقوطها أمام سلطان «اوقات»؛ حيث كان القرن الثانى عشر الميلادى والسادس الهجرى قد شهد دخول الإسلام إلى بلاد اورجيبا Argobba، التى ضمت إلى «أملاك» بنى مخزوم .

ولقد كان ظهور تلك السلطنات الإسلامية بهذه الصورة، التى كانت عليها إنما جاء من اعتبار المسلمين ونظرتهم إلى أرض الحبشة، على أنها لم تكن أرض جهاد، ولهذا السبب تأثر مسلك المسلمين فيها بالطابع السلمى ، حيث اتخذ ذلك الاتجاه بعداً مغايراً للبلاد، التى تم فيها الجهاد الإسلامى، ومن هنا انتهى الأمر إلى ظهور عدة سلطنات إسلامية فى بلاد الحبشة، ولكن بمرور الزمن أخذ النشاط العربى الإسلامى فى الازدياد؛ حتى تم للمسلمين عزل الحبشة عزلاً يكاد يكون تاما عن العالم الخارجى؛ خاصة بعد استيلاء المسلمين على

السواحل الشرقية، التى هى مخرج الحبشة إلى الخارج، إضافة إلى الفتوحات الإسلامية وانتشار الإسلام فى مصر، والجزء الشمالى من السودان، وساحل أفريقيا الشرقى، كل ذلك أوجد حالة خطيرة بالنسبة للحبشة التى أصبحت محاطة ببلاد إسلامية ، بل أخذ الإسلام يتسرب فى بلاد الحبشة نفسها؛ حيث قامت سلسلة من الامارات الإسلامية، امتدت من الحبشة حتى منطقة البحيرات الاستوائية، كما تعددت المراكز العربية والإسلامية على طول سواحل الصومال .

وهكذا امتد التيار الإسلامى حتى أظلّ ظل الهضبة الحبشية نفسها، حيث إنه مع بداية القرن الثالث عشر الميلادى، أسلم كثيرون فى بلاد الحبشة نفسها، ولكن سلاطين تلك الامارات ظلوا- مع ذلك- كلمتهم متفرقة والعلاقات بينهم فاسدة ، ثم يضيف الشيخ عبد الله الزيلعى وغيره مثل القلقشندى والمقريزى ، أن هؤلاء السلاطين السبع لو انفقت كلمتهم، واجتمعت بينهم فإنهم يكونون اكثر قدرة على مدافعة خطر الأحباش .

وقد اضاف ابن فضل الله العمرى فى مخطوطه «مسالك الابصار بممالك الأمصار» بالتعريف بعدة سلطنات، أو بلاد غير السبع إمارات المشار إليها، فأشار إلى جزيرة «دهلك» وهى جزيرة مشهورة على طريق المسافرين، فى بحر عيذاب إلى اليمن، وبينها وبين بر اليمن نحو ثلاثين ميلا، وسلطان دهلك من الحبش المسلمين ، وكذلك هناك إمارة «عوان» أو مدينة «عوان» على ساحل بحر القلزم مقابل تهامة اليمن .

وعلى هذا فإن القرن الثالث عشر الميلادى قد وضح فيه نمو هذه المدن السياسية وزاد الإسلام رسوخًا بين أهلها، وبدأت تتسع رقعتها بالتدريج لممتدة إلى المناطق الداخلية، وظهرت هذه السلطنات بالصورة الإسلامية التى كانت عليها ، غير أن هذه السلطنات السبع تختلف من حيث التكوين والنشأة والظهور عن كثير من الأقطار الأفريقية والإمارات الإسلامية فى تلك الفترة الزمنية نفسها، فلم تكن هذه السلطنات الحبشية أفريقية خالصة ، أسستها أسرات حبشية من أهل البلاد الأصليين، الذين اسلموا، واتخذوا الإسلام عقيدة لهم ، وإنما أسستها أسرات عربية استقراطية دينية قرشية مخزومية، أو هاشمية أو أسرات عربية غريبة النسب، وغير معروف نسبها ، فسلاطين «أوقات» و«شوه» وغيرها من السلطنات الإسلامية الأخرى، التى أسسها حكام معروفو النسب، يمثلون ارستقراطية عربية مهاجرة، استقرت بهذه الجهات، ونمت ثرواتها واتسع نفوذها وكثر اتباعها، وسلمت مقاليد الحكم

فى هذه السلطنات ، وإذا كانت هذه السلطنات عربية خالصة على هذا النحو ، فإن الرعية المسلمة كانت أهل البلاد الأصليين، أو من قوم خليط من العرب الوافدين، وأهل البلاد الأصليين .

ويمتاز دور هذه السلطنات بأنها ما كادت تكتمل نموها ويزداد قوتها ويتسع نفوذها وتقييم قواعد حكمها؛ حتى تكون قد خاضت غمار حرب صليبية مع نجاشى الحبشة، استنزفت كل موارد هذه السلطنات، وقللت من نشاطها الثقافى والعلمى ، بل إن ذلك الصراع بين قوى غير متكافئة انما كان يشغل وقت كل هذه الإمارات، ومن هنا كان يحول دون اهتمامهم بقضية الدعوة الإسلامية .

ويمتاز هذا الدور أيضا بأن انتشار الإسلام فى شرق أفريقيه بل بقاء الإسلام، إنما كان يتوقف على نتيجة الصراع الدموى، الذى لم يهدأ مع الأحباش المسيحيين، وعلى نصيب هذه السلطنات من النجاح فى حماية المسلمين وصيانة التراث الإسلامى، الذى توطد فى البلاد منذ عهد بعيد ، وبهذا فإنه لم تنج سلطنة أو امارة من الاشتباك فى هذه الحرب الضروس من جميع الإمارات الواقعة شمال مقديشيو .

وعلى هذا فإنه لا غرابة اذاً إذ بدأ الضعف يدب فى كيان الحبشة، كما أخذت سلطة ملوكها فى الانكماش وخصوصا على السواحل المجاورة لها، والتى أخذت تستقر فيها دعائم حكم الإمارات الإسلامية، وعلى يد هؤلاء ومن اختلط بهم من الأحباش أخذت سواحل البحر الأحمر تستعيد نشاطها الملاحى والتجارى؛ اذ وقعت التجارة والسيطرة البحرية فى أيدى العرب؛ الأمر الذى جعل موارد الحبشة بل وعلاقاتها الخارجية مع غيرها من البلاد تقع فى أيدى المسلمين وقد خلقت هذه المشاكل والمتاعب لحكام الحبشة الذين رأوا العمل على الحد من نشاط الإمارات العربية ونشاطها الإقتصادى، ومن سيطرتهم على مرافق التجارة وطرف القوافل؛ مما كان سببا لقيام حروب ومنازعات داخلية بين المسلمين والقوى المناهضة لهم، وقد استمرت هذه الحروب والمنازعات حتى النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى .

وقد حاول النجاشى يكونو املاك Yokono Amlak (١٢٧٠ – ١٢٨٥م) الانتقام من المسلمين، على اعتقاد أنهم هم الذين مكنوا البيت الزغاوى من الاستيلاء على الحكم، غير أن الواقع يرجع إلى أن هذه الحروب التى دخل فيها النجاشى، والتى بلغت ذروتها فى منتصف القرن السادس عشر، نشبت نتيجة أن العرب قد سيطروا على الحياة الاقتصادية،

فقبضوا عن طريق تلك السيطرة على عصب الحياة اليومية، ولقد رأى النجاشي في شن الحرب علاجاً لهذا الوضع .

لكن نلاحظ أن نجاشي الحبشة لم يتعرض في ذلك الوقت للولايات الإسلامية، التي كانت قائمة حينذاك، على الرغم من كراهيته الشديدة للقائمين بالحكم فيها ، وقد كان العامل الديني هو العامل الأساسي، الذي ربط تلك العداوة بالدافع الديني ، إضافة إلى سيطرة المسلمين على التجارة في داخل الحبشة، فصار بها ولاؤهم، وكانوا أيضاً يسيطرون على الموانئ وعلى طريق القوافل، وعلى الرغم من هذه العوامل، فقد كان النجاشي ينظر إلى تحسن العلاقات بينه وبين سلطان مصر ، لكن شهد القرنان الرابع عشر والخامس عشر حدوث حروب بين نجاشي الحبشة، وبين سلاطين الولايات الإسلامية وهي أوفات ، دوارة ، هدية ، بلي ، أرابيني، وغيرها من الامارات الأخرى، واستمرت هذه الحروب حتى منتصف القرن السادس عشر، بل إنه يذكر أن سلطان «أوفات» السلطان خير الدين، هو الذي بدأ بالهجوم على الحبشة، ويقول ان هدفه إن يعتنق السكان المسيحيون الدين الإسلامي ويتهم السلطان قلاوون سلطان مصر بأنه هو الموغر إلى السلطان خير الدين، سلطان «أوفات» بشن هذه الحروب.

ومن هنا يتضح لنا أنه بعد استقرار البيت السليماني في الحبشة ، فإن روح التعاون والمسالمة بين الطرفين، قد انتقلت إلى العدوان السافر الصريح ، هذا العدوان وطبيعته واتجاهاته واثارة في حاجة إلى نقف عنده بعض الشئ ، بعد أن استطاع البيت السليماني أن يسترد سيطرته الداخلية الكاملة على كل أرجاء الحبشة، وهكذا كان ظهور البيت السليماني مقترناً بجهود ضخمة؛ لصبغ البلاد بالصبغة المسيحية، والقيام بجهد كبير لنشر المسيحية .

ولقد كان من دوافع حكام الحبشة إن كثيرا من أهل الحبشة قد تحولوا إلى الإسلام وأقاموا ببلادهم المساجد لإقامة شعائرهم الدينية، وظهر بين المجتمع كثير من العلماء والفقهاء والزهاد حيث كان الشعب الحبشي قد اتخذ المذهب السني مذهباً دينياً له، إلا أن بعضهم كان يتخذ المذهب الشافعي، والآخر يتخذ المذهب الحنفي، وبعضهم يتخذ المذهب الشيعي عقيدة له، وإن كان ذلك يشكل الأقلية في البلاد .

ولما كانت «أوفات» أكبر وأوسع هذه السلطنات، فانه وقع عليها عبء مقاومة الاعتداء الحبشي المسيحي، وكانت أهم مدنها مدينة زيلع (وهي مدينة صغيرة تقع على الشاطئ الغربي لخليج عدن ويقع بين خط طول ١٤ ، ٣٤ ، ٤٣ شرقي خط جرينتش، وعلى خط

عرض ١٩/٥٢ / ١١ شمال خط الإستواء، وكانت مبنية بسور مبنى بالحجر، بلغ ارتفاعه ثمانية أقدام، وكانت له ثلاثة أبواب أحدها فى الشرق، والثانى فى الشمال، والثالث فى الجنوب، وبلغ طول المدينة هذه حوالى اربعمائة وثلاثين مترا، وعرضها حوالى ثلاثمائة وثلاثين مترا، وبلغت مساحتها حوالى ثلاثة وثلاثين فدان .

وشاطىء زيلع كانت تكثر به الشعب المرجانية، التى تعوق مرور السفن القادمة إليها ، وكانت زيلع تحصل على مياه الشرب من مياه الأمطار المتجمعة بالقرب منها ، ويعمل السكان فى زيلع بالتجارة فكانوا يستوردون من عدن الأرز والمسلى والفضة والخرز والذرة والبلح والسكر الهندى ، وكانوا يستوردون من قبائل العيسى جنوبيًا، وقبائل موسى الأبقار والغنم والجلود والبن والصمغ وريش النعام ، وأنهم يتاجرون فى سن الفيل والملح ، وكان زيهم عبارة عن قطعة قماش يسترون بها الجزء الأسفل من الجسم ويظل باقى الجسم عاريا وكان من عاداتهم أن يتقلدوا بالأسلحة البيضاء الممثلة فى السيوف والخناجر، سواء أكانوا رجالا أم أطفالا .

ويواجه ميناء زيلع ثلاث جزر مهمة هى: ماشا Masha ، أبيات Abyat ، سعد الدين Saad El Din والذى اتخذ شاطىء أرتيريا اسمه من تلك الجزيرة؛ حيث اطلق عليه بعض المؤرخين شاطىء سعد الدين ، أو بر سعد الدين، وجزيرة سعد الدين لا تبعد عن زيلع إلا بمسافة لا تزيد عن ميلين، وهذه الجزر لها أهميتها بالنسبة لزيلع، إذ إنها كانت تمون المدينة باكثير من حاجتها فى زمن الخريف .

والشائع أن زيلع قد نشأت وأقيمت بيد العرب المهاجرين، الذين جاءوا إليها من اليمن وهاجروا أولا للجزر المقابلة، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى الشاطىء نفسه واستقروا به . وقد أصبحت ذات شأن فى شرق افريقيا مع بداية القرن السابع الميلادى، عندما انتشر الإسلام بين أهلها؛ حتى أصبحت ذات شأن عظيم حتى أنه قيل إن ممتلكات زيلع كانت من الاتساع بمسيرة ثلاثة وأربعين يوما، وكانت مقسمة إلى تسع مقاطعات، وقد عرفت باسم بلاد عدال .

وقد اشتهرت زيلع فى القرن الرابع عشر بحروبها مع الأحباش، التى انتهت بانهزام أمراء زيلع، وكانت النتيجة أن انكمشت المدينة، حتى أصبحت مقتصرة على الميناء، الذى لم يلبث طويلا حتى سقط فى يد الأحباش، الذين عاثوا فيها فساداً ، وفى القرن الخامس عشر برز بطل من أبطالها الأفذاذ يدعى (سعد الدين)، حاول تحرير وطنه من قبضة الأحباش،

لكنه استشهد ، إلا أن دماءه لم ترق عبثا، فقد استأنف أبناؤه وهم ، صابر الدين وعلى ومنصور وجمال الدين وسعد الدين ، الجهاد وانتصروا على الأعداء الأحباش، واطلق اسم سعد الدين على الجزيرة القريبة من زيلع ، ولما فتح الأتراك اليمن ، هاجر كثير من أهلها إلى الساحل الأفريقى المقابل، الذى عمر بالوافدين إليه ، كما انتقلت تجارة الهند للساحل الأفريقى؛ مما دعا الأتراك إلى العمل على وضع أيديهم على الموانىء الغنية فى هذا الساحل، ومنها ميناء زيلع، واتخذوا منها مركزاً تجارياً، يتحكم فى تجارة الهند المارة بباب المندب إلى أرض عدل ، بل استطاع الأتراك أيضاً بوضع أيديهم على زيلع أن يهددوا الحبشة نفسها، وقد يعلل عدوان الحبشة على هذه الولايات الإسلامية تعليلا اقتصاديا؛ حيث وجد الأحباش أن المسلمين استطاعوا فى عصور سابقة أن سيطروا سيطرة كاملة على الحركة التجارية بين موانى البحر الأحمر وداخل البلاد .

لقد كان الدافع المحرك للقيام بالعدوان الحبشى على تلك الإمارات الإسلامية ، ذلك أن هذه الإمارات قد سيطرت على التجارة الخارجية، وأصبحت موارد البلاد وعلاقاتها بالعالم الخارجي كذلك فى قبضة المسلمين ، وقد ترتب على ذلك أن بعض المدن التجارية المشهورة فى الحبشة والتى كانت مزدهرة اقتصاديا ، قد بدأت تفقد كيانها، بل تختفى من كيان الحركة الاقتصادية ، وأدى ذلك إلى فقدها لنشاطها؛ بسبب سيطرة المسلمين لتجارة البحر الأحمر، وما أدى إليه ذلك من نتائج اقتصادية .

وإن كانت الآراء تجمع كما سبق القول أن العامل الدينى كان هو المحرك الأساسى فى تلك الحرب الدائرة بين الامارات الإسلامية والبيت السليمانى الحبشى الحاكم ، حيث إن تلك الامارات قد تجاوزت دور النشأة والتكوين، وظهرت هذه السلطنات الإسلامية بدور مهم، تمارسه فى الحياة العالمية الإسلامية، بعد أن زادت ثروة وقوة، وتضاعف عدد سكانها، وازداد عدد الداخلين من الاحباش فى الإسلام، بعد ازدياد نشاط الدعوة المسلمين من خلال أعمالهم التجارية والدينية ، بل إنه يذكر أن تلك الإمارات استطاعت فى تلك المرحلة أن تكون فى موقف الند للدولة الحبشية، بل إنها ارادت أن تتحدى النفوذ الحبشى، وأن تدافع عن نفسها وسيادتها وأن تبادئها العدوان.

وقد أورد الدكتور حسن محمود فى كتابه «الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا» قائلاً، إن الصراع الذى دار بين ممالك الطراز الإسلامى السبع، التى كانت تحيط بالحبشة من الشرق والشمال والجنوب، كانت مسرحاً لحركة صليبية ضخمة حبشية، لم تستمد عوامل الصراع من بيئة داخلية محلية، بل إن أسباب الصراع كانت تستمد أسبابها من قوى عالمية ذات

أهداف صليبية مرسومة، وهى ضرب القوى الإسلامية، ومحاربة الوجود الإسلامى فى كل مكان، كما حدث فى الأندلس وبلاد الشام، ومن هنا كان دفع الأحباش دفعاً نحو الالتحام بالقوى الإسلامية المحيطة بها ومحاولة إخضاعها والقضاء التام عليها، وعدم السماح لأى نفوذ أو قوة اسلامية بأن تمارس دورها فى تلك البقاع الشمالية فى شرق أفريقيا .

ذلك لأنه من الثابت تاريخيا أن الأحباش من البيت السليمانى، كانوا على اتصال وثيق بالحركة الصليبية، التى تدور رحاها على أرض الشام، بل إنهم كانوا يعرفون أدق امور الصراع ويتابعون أخبار ذلك الصراع بين القوى الإسلامية والقوى الأوربية الصليبية الباغية، وقد كان واسطة ذلك الاتصال بين القوى الصليبية والقوى الحبشية رهبان دير الأحباش، الذى أقامه حجاج الأحباش فى بيت المقدس، ومن ثم كان هناك وجود صليبى حبشى فى القدس، لم تحاول القوى الإسلامية التعرض له بعد فتح صلاح الدين الأيوبى بيت المقدس، ولكن الأحباش كانوا يتخذون هذا الدير مكاناً للتجسس، وإيصال الأخبار إلى الحبشة وما يجب أن يقوم به قادة المسيحية فى الحبشة إزاء الإمارات الإسلامية ، ومن هنا كان الأحباش يتابعون الدور الذى تقوم به الحركة الصليبية فى الشام عن طريق هذا الدير، وعن ما يقوم به الرهبان والقساوسة من تقديم معلومات للنجاشى .

الإمارات الشمالية و صراع الأحباش :

لقد سبق القول بأن امارة «أوقات» كانت أقوى الإمارات الإسلامية السابق الإشارة إليها، ومن هنا وقع الجهاد والنضال؛ من أجل نشر الإسلام ورفع رايته، ومواجهة الخطر الحبشى والجهود الصليبية الحبشية للقضاء على القوى الإسلامية، وعلى تلك الولاية الإسلامية، ومن هنا كان القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى، هو القرن التى وقع فيه عبء الجهاد الإسلامى على إمارة «أوقات» ، ذلك لأن تلك الإمارة والقوى الإسلامية قد بدأت تأخذ بعداً جديداً فى حركة النضال الإسلامى، عندما أحست أن قوتها العسكرية تمكنها من استعراض القوى الإسلامية، ومن هنا بدأ التوسع الإسلامى نحو الداخل؛ حيث الهضبة الحبشية، وبدأ الإسلام يوغل فى الاتجاه الغربى، مندفعاً للصعود نحو السيطرة على البقعة المرتفعة واحتوائها تحت لواء الإسلام .

وكانت إمارة «هدية» إحدى الإمارات السبع، قد بدأت تمارس كيانها الإسلامى فى المنطقة الواقعة بين وجيبى وحواش؛ حيث احتلت بقعة واسعة ومتسعة من الأراضى، التى

تجاور الأحباش المسيحيين، كما أن هذه الإمارة قد تكون من أحدث الولايات السبع، التى ظهرت فى سماء الحياة الإسلامية فى تلك البقاع؛ حيث إن الطبقة الحاكمة العربية قد سيطرت عليها، وبدأ الأحباش فى اعتناق الإسلام بصورة فعالة وقوية .

وقد تغلب نجاشى الحبشة فى القرن الثامن الهجرى الرابع عشر الميلاد على هذه الإمارات الإسلامية وضربها وقتل أهلها، وأحرق ما بها من مصاحف، وارغم اكثر سكانها على اعتناق المسيحية، ولم يبق من هذه الامارات الإسلامية خارج طاعة التجاشى، سوى ابن سمار الذى تقابل بلاده جزيرة دهلك، والسلطان سعد الدين صاحب زيلع، وما يليها، وكانت بينهما حروب، كان النصر فيها حليف السلطان الإسلامى .

وحدث حوالى عام ١٣٠٠م/ السابع الهجرى أن شق أحد الدعاة المسلمين طريقه إلى داخل الحبشة، وأخذ يدعو اهلها إلى الإسلام، وتمكن من هداية مائتى الف مسلم؛ حيث استطاع بهذه القوة الإسلامية ان يهاجم ملك أمهر المسيحى واشتبك معه فى كثير من المعارك، ويقول أرنولد توماس فى كتابه «الدعوة إلى الإسلام» ، إنه فى نهاية هذا القرن، انشغلت بلاد الحبشة بالحروب الداخلية، التى صحبتها حالة من القلق والاضطراب، ومهدت بذلك السبيل للقبائل العربية المختلفة التى استقرت على طول الساحل من طرد أهل الحبشة إلى المناطق الداخلية.

وقد كانت غالبية الناس فى المناطق الداخلية من السداما والجوارجى والشاسو ، فقد كانت تباشير الإسلام قد بدأت تصل إليهم، مع أن غالبية هذه القبائل كانت لاتزال على الوثنية، وكان الإسلام لايزال فى طريقه نحو الانتشار، وقامت إمارة «هدبة» بمحاولات عديدة وكثيرة؛ لمد نفوذ الإسلام وانتشاره فى المناطق الواقعة إلى الغرب من نهر جيبى، وهكذا كانت امارة شوه العربية المخزومية القرشية، التى قامت عند الأنحاء القريبة لنهر حواش، أو عند النهاية الجنوبية الشرقية من هضبة «شوه»، كما شاركتها حركة النضال الإسلامى إمارة «دوارو» التى كانت تقع جنوب «شوه» وتمتد حدودها حتى الضفة اليمنى لنهر حواش، وتوغلت جنوبا حتى نهر وبينى، ولقد كانت تلك الإمارة من أقوى الامارات الإسلامية، فى هذا النطاق الداخلى كله .

ولقد ظهرت كذلك إمارة «بالى» او «بلى» بين نهر العريبى فى الشمال، وجبال دوريا فى الجنوب؛ فهى بهذا الوضع تتحكم فى سهول الصومال، وتجاور أوطان الداما والجلا .

وفى أقصى جبال أمحرة، ظهرت مدينة «هرر» كمركز من مراكز السيادة والنفوذ الإسلامى فى هذه البلاد، وهى مدينة قديمة النشاط، أسسها المهاجرون الساميون القدماء، ولازال أهلها يتكلمون لسانًا ساميًا وقد اعتنق أهلها الإسلام، وأصبحت من أهم المراكز التجارية ، وهى مدينة أو سلطنة إسلامية مستقلة، أسستها جماعة من العرب، كانوا قد هاجروا من الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى ، الأول الهجرى، واستقروا أولاً فى الأرض المنخفضة الملاصقة لساحل البحر الأحمر، وبعدها أخذوا يتوغلون نحو الداخل، بقدر ما سمحت لهم به طبيعة البلاد، وبقدر ما استلزمته منه مطالب حياتهم ومعيشتهم من تجارة ورعى وغيره، ثم اندمجوا فى السكان الأصليين، وقد كان للعرب اتساع فى تلك الأقاليم؛ حيث حمل العرب معهم- إلى هذه البلاد التى هاجروا إليها- حضارتهم، واستقروا فى تلك الديار الجديدة ،وأضحوا يزالون نشاط الدعوة الإسلامية والنشاط التجارى والرعوى والزراعى، وعاونهم على ذلك اتصالهم ببلادهم الأصلية ومهارتهم فى الملاحة .

وقد عظم شأن «هرر» عندما قامت بها سلطنة إسلامية عظيمة، تعرف فى التاريخ باسم سلطنة «عدل» التى اتخذت زيلع عاصمة لها كما دخلت فى نطاقها فيما بعد إمارة «بربر» .

وقام بين «هرر» الإسلامية والحبشية المسيحية نضال طويل، يرجع إلى عدة أسباب، منها: الاختلاف الدينى، وكذلك أهمية موقع هرر وملحقاتها كمنافذ وكسوق لتصريف منتجات الحبشة واستيراد ما تحتاج إليه من جهة أخرى ، وفى ختام القرن الخامس عشر استطاع الأمير محفوظ أمير «هرر» أن يوجه ضربة قاصمة للحبشة؛ للتغلب عليها وإحراق محاصيلها والاستيلاء على عديد من الأسرى، كما أنه كان له دور أكبر فى قتل الإمبراطور إلكساندر الذى حكم (١٤٧٨ - ١٤٩٥م)، وكانت «هرر» تقع على خط عرض ٩,٢٠ شمالا خط الاستواء، وخط طول ٤٣,١٧، وتبلغ مساحتها حوالى أربعمائة وواحد وثمانين ميلا، وثمانمائة واثنى عشر مترًا مربعًا، وهى محاطة بسور من جميع جهاتها، وكان من أعظم مبانيها الجامع الكبير، وكان بها ضريح الشيخ عمر أبى ذر البكرى، الذى قدم إليها من جدة، ومات بها ودفن فى الجانب الجنوبى منها، ويبلغ عدد سكانها حوالى خمس وثلاثين ألف نسمة، وكانوا يدينون بالديانة الإسلامية جميعهم على مذهب الإمام الشافعى، فكان الأطفال يدرسون فى الكتاتيب نهارًا، وكان الكبار يدرسون ليلا، كما كان بعض منهم يدرس الشريعة الإسلامية على أيدى كبار العلماء .

وكان من أهم القبائل التابعة لهرر قبيلة «الجارس»، التى تنقسم إلى ستة (أقسام)

صغيرة، وقبيلة «الجرى» التى تنقسم ايضا إلى عدد من الأقسام، وقبيلة «البابلى» ، وكذلك يوجد عديد من القبائل الصغيرة، التى تقطن ضواحى «هرر» ويعمل أفراد بعض هذه القبائل بالزراعة والبعض الآخر منها يعملون بالرعى .

وهكذا كانت الدويلات الإسلامية، والتى منها «هرر» تحيط هضبة الحبشة، والتى عرفت فى التاريخ باسم ممالك الطراز الإسلامى .

إلا أنه رغم قوة مدينة وإمارة «هرر» إلا أن إمارة «أوقات» كانت أقوى هذه الإمارات وأعظمها رقعه وتهيأت لتولى زعامة الحياة الإسلامية بحق ، وقد ظهر من امراء امارة «أوقات» أمير المسلمين بها عمر، المعروف بولشمع، وقد كانت هذه الإمارة تدين بالولاء لأمراء داموت، ثم انتقل الولاء للحبشة بعد قضائهم على إمارة داموت ، والمقريزى فى كتابه «الإلمام باخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام» ، يشير إلى أن عمرا هذا ولاه ملك الحبشة مدينة «اوقات» وأعمالها ، ولكن هذه الإمارة قد برزت فى صورة أقوى الإمارات فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى؛ حيث كانت قد قضت على إمارة بنى مخزوم فى «شوه» ، واستطاعت إمارة «أوقات» فى ظل بنى ولشمع، بعد أن ورثت ملك بنى مخزوم أن تبسط نفوذها على هذه الامارات الصغيرة التى اشرنا إليها بل استطاعت أن تبسط هذا النفوذ فى سواحل البحر الأحمر، حتى منطقة زيلع ، بل امتد نفوذها إلى سهل « اوسا »، ودان لها الأعقار فى الصومال بالطاعة والولاء، وتحكمت فى رقعة فسيحة من الأرض متنوعة الموارد ، كما تحكمت فى كثير من الطرق التجارية الغنية.

وعلى هذا.. فإن القرن السابع الهجرى ، الثالث الميلادى قد شهد وحدة اسلامية، تضم ممالك الطراز الإسلامى بزعامة إمارة «أوقات» وأمرائها، وامتد أثر تلك الوحدة إلى جزء كبير من جنوب شرق الحبشة وساحل البحر الأحمر، بل إنه اوغل فى بلاد الحبشة ، وكان ظهور تلك الوحدة أو التحالف الإسلامى، حين استشعر الخطر المحدق به من قبل الحبشة المسيحية، بعد أن وضح الاتجاه الصليبى لتصفية وجود هذه الإمارات، بعد أن تولت الأسرة السليمانية مقاليد الحكم فى الحبشة ، ومن هنا فإنه كان لابد أن تبدأ مرحلة جديدة، تقوم بها الامارات الإسلامية بمواصلة حركة الجهاد الإسلامى ، وكانت بداية تلك الحركة الجهادية الإسلامية، عندما أحس أمراء «أوقات» بقوتهم وعزتهم، وقدرتهم القتالية على مواجهة الحبشة، فكان ان أعلنوا عدم الخضوع لأوامر النجاشى، وطرح هذه التبعية الاسمية، وكان ازاء هذا التصرف من أمراء «اوقات» تجاه الحبشة، وعدم دفع الجزية أو ما تطلبه الحبشة، ما

يعتبر من وجهة نظر الحبشة تحرشًا إسلامياً أو استهانة بقوة النجاشي وعدم الاكتراث به وبدولته ، بالإضافة إلى أن نجاشي الحبشة كانوا يترقبون بحذر ويخشون كل الخشية أن تؤدى قوة «اوقات» وحركة الوحدة الإسلامية، وتلك الجهود الإسلامية المبذولة إلى عرقلة المشروعات الصليبية، التى كانوا قد أوشكوا فى القيام بها. ونجد بعض الكتاب العرب قد ساروا على نهج القس الأمريكى سبنسر ترمنجهام، فى كتابه «الإسلام فى الحبشة»، واتخذوا أقواله حجة على حركة الجهاد الإسلامى ، الذى كان طابع العصور الوسطى، بل هو المحرك الأساسى للإحساس بالعزة الإسلامية، ومحاولة جعل أسباب الصراع أسباباً اقتصادية بحتة، ويجب أن نأخذ هذه الأقوال بحذر؛ ذلك لأن الشعور الصليبى المعادى للمد الإسلامى فى تلك الفترة، كان على الشدة؛ لاسيما فترة الوجود الصليبى فى بلاد الشام، وما تلا ذلك من حركة الجهاد الإسلامى .

فنجده مثلا يهون ويحاول أن يضعف قوة الحركة الإسلامية، فيطلق على الوحدة الإسلامية تحالفاً إسلامياً ويقول إن مساحة «اوقات» كانت أكبر من مساحة مملكة الحبشة المسيحية نفسها، ويتناسى فى ذلك أن الحبشة كانت تسيطر على الأرض الحصينة، فى حين كانت ديار الإسلام صحراء جرداء، تنتشر فيها مجموعة من البدو الرحل، أما الأحباش فكانوا مستقرين ، كذلك يقول ترمنجهام إن حركة الجهاد التى تزعمتها «أوفات» لم تكن حركة جهاد دينية منبعثة من شعور دينى دافق، يغمر الشعب كله، ويدفعه الى القتال عن عقيدة وإيمان، بل كان الهدف اقتصادياً ومن هنا هزمهم الأحباش .

ولقد كان تدخل سلطان مصر المملوكى ، الظاهر بيبرس فى ذلك الوقت من الأسباب القوية، التى أدت إلى عقد هدنة بين الأحباش وأمراء «أوقات» وإعادة فتح الأحباش بلادهم للتجار المسلمين ، لكن سلاطين «أوقات» لم يكن ليقتنعوا بالهدنة، وقد اتخذوا الجهاد الإسلامى فى سبيل الله وفى سبيل نشر راية الإسلام خفاقة عالية بناء وعقيدة، فانقلب السلطان حق الدين من الاغارة غير المنتظمة على حدود الحبشة، إلى الهجوم المنظم، وقام بغزو أطراف الحبشة (مثلما فعل نظيره فيما بعد الأمير محفوظ أميرً هرر)، فقد قام بالانتقام من الغزو الحبشى السابق، وقتل أعداداً كثيرة منهم، واستولى على كثير من الغنائم والأسرى، وحمل بعض الأحباش بعد مجادلتهم بالتى هى أحسن إلى اعتناق الإسلام؛ مما يعطى الدليل القاطع إلى أن حركة الجهاد كانت إسلامية بحتة، ولا تعرف الطابع الاقتصادى، إلا أن القرن الرابع عشر (١٣٢٧م) قد شهد بعداً جديداً فى حركة الجهاد الإسلامى، التى نظمتها امارة «أوقات»؛ اذ قام نجاشى الحبشة بغزو بلادً «أوقات» واسر

السلطان حق الدين ودخلت اوقات وغيرها من الإمارات الإسلامية فى طاعة النجاشى مرة أخرى، ولكن بصورة أسوأ مما كانت عليه الأحوال فى العهود السابقة .

ولكن حركة الجهاد الإسلامى، التى نظمتها ممالك الطراز الإسلامى ضد العناد الصليبى الحبشى، الذى يحاول قلع جذور العقيدة الإسلامية من تلك الديار ، لم تتوقف بمقتل أو أسر سلطان، أو خضوع الديار الإسلامية لسلطان الحبشة ، إنما كانت حركة الجهاد ماضية فى سعيها لنشر الإسلام ، ذلك لأن الإمارات الإسلامية مثل إمارة «هدبة» ، و«دوارو» قد انضمت إلى «أوقات» فى حركة الجهاد الإسلامى؛ حيث ظهر الأمير سعد الدين ، الذى حاول تحرير وطنه من قبضة الأحباش، وكانت خطة الإمارات الإسلامية محاولة إشغال الأحباش بعدوهم التقليدى، وهم شعب الأجو المعارض للأحباش؛ حيث شقت تلك القبائل عصا الطاعة ضد نجاشى الحبشة؛ لشغل النجاشى عما يقوم به المسلمون من هجوم على الحبشة، وكانت خطة المسلمين مهاجمة الحبشة من ثلاث جهات، هى: الشرق والشمال والجنوب ، لكن تلك الخطة علم بها الأحباش؛ مما أعطاهم زمام المبادرة، وتم استشهاد الأمير سعد الدين، وتم للأحباش إخضاع هذه الإمارات، الواحدة إثر الأخرى، وبذلك تلاشت إمارة «أوقات» بعد أن تفرق أبناء سعد الدين ، فى تلك الأراضى الواسعة، وهم جمال الدين ، منصور ، صابر الدين، سعد الدين ، على ، وامتدت حدود الحبشة إلى حافة الهضبة؛ حتى وصلت إلى نهر حواش، وضمت بعض مناطق من إقليم «شوه» .

وقد ذكر القلقشندى فى كتابه «صبح الاعشى» ، أن نجاشى الحبشة قد ملك معظم هذه الإمارات بعد عام ثمانمائة ٨٠٠هـ، وخربها وأحرق مسجدها ومصاحفها، وقتل أهلها، وأحرق المصاحف الكثيرة، وأكره كثيرين من أهلها على الدخول فى دين النصرانية .

وقد ذكر عرب فقيه فى كتابه «فتح الحبشة» ، أن أبناء سعد الدين ليسوا خمسة ابناء ، ولكن له ولدين ، هما أبو بكر وبدلاى ، وبدلاى هذا له ولدان، أحدهما محمد بن بدلاى جد السلطان عثمان بن سليمان ، ولأبى بكر ولدان أحدهما على، وهو جد السلطانين بركان وحبيب ، فعلى له أولاد، منهم أظهر الدين، وهذا له محمد، ومحمد له عمر دين، والولد الثانى لأبى بكر اسمه آزر، وهو جد السلطان محمد بن أبى بكر بن محمد بن أزر بن أبى بكر ابن سعد الدين، والولد الثانى لبدلاى بن سعد الدين، اسمه شمس الدين، وقد انقرضت ذريته، وتولى البلاد السلطان محمد بن آزار بن أبى بكر بن سعد الدين عام ٩٣٠هـ، وخرج السلطان محمد للجهاد فالتقى المسلمون والأحباش؛ فكانت الدائرة لهؤلاء على المسلمين،

وقتلوا من المسلمين خلقاً كثيراً، وعاد السلطان محمد إلى بلاده، فقتله صهره محمد ابن ابى بكر ابن الأمير محفوظ أمير «هرر»، وملك البلاد بعده سنة واحدة، فقام بقتله ابراهيم بن احمد صاحب بلاد هديه ، مما يدل على أن الصراع بين المسلمين قد عاد مرة ثانية، بدلاً من الوحدة أيام سلطنة «أوقات» ولكن أسره منصور بن محمد وقيده وأرسله الى زيلع، وقتل فى زيلع وملك البلاد بعده الامير منصور بن محفوظ بن محمد الجراد .

لكن هذه الامارة رغم صدق ايمانها بالجهاد، لم تكن قادرة على مواجهة الأحباش، الذين اتحدت كلمتهم، وتوحدت صفوفهم فى حركة دينية دافقة، حيث كان القساوسة والرهبان هم الذين يقودون الجيوش ، حيث كان البطارقة هم قادة الحروب؛ ففى إحدى الغزوات، كان قائدها بطريق يدعى تخلى سوس، وكان معه ثلاثين بطريقاً من شعب التجرى، وذلك يعطى الدليل على الشعور الدينى المتعصب ضد الوجود الإسلامى ، والتى سعت الحبشة لتقييده؛ حتى استطاعت أن تخضع كل هذه الإمارات لنفوذها خضوعاً مطلقاً، وبدأت روح المقاومة الإسلامية تضمحل وتنكمش، ولم تكن بقادرة خلال القرن الخامس عشر أو بداية القرن السادس عشر الميلادى، على مقاومة الزحف الصليبى الحبشى؛ ذلك لأن القوات الإسلامية لم تستطيع وقف قوات الحبشة الزاحفة رغم تدخل سلاطين المماليك فى مصر ، ولكن قضت الحبشة على كل محاولة إسلامية، وسادت الفرقة والضعف فى القرن الرابع عشر الميلادى .

والذى يتتبع المراجع العربية يجد أن خطوات المسلمين فى داخل الحبشة قد ازدادت، بعد أن دخلت القبائل فى دين الله الخالد، وتكاثر المسلمين فى هذه المنطقة؛ حتى أصبحوا الغالبية العظمى بها؛ فقد كانت هجرات المسلمين إلى الحبشة متصلة ودائمة، وهكذا ظهرت زيلع كميناء على خليج عدن؛ حيث كانت محطة للعبور إلى الحجاز واليمن، وقد انتشر الإسلام بها منذ عهد مبكر ، فنجد المسعودى فيتحدث عن زيلع والدهلك وباضع؛ فنجده يذكر أنها مدن، فيها خلق كثيرة من المسلمين، إلا أنهم فى ذمة الحبشة، ويقول أبو الفدا:«ويجاور الحبشة فى الجنوب الزيلع، والغالب على سكانها دين الإسلام» ، كذلك فإن عرب فقيه يذكر أنها أصبحت عاصمة السلاطين المسلمين ، وهكذا فإنه يمكن القول أن زيلع كانت منطقة حبشية، ثم انتشر فيها الإسلام منذ مطلعه، وظل ينتشر رويداً رويداً ،حتى غلب على أهلها ، ثم تكونت بها سلطنة إسلامية، سرعان ما امتد نفوذها، فلما جاء القرن الثالث عشر الميلادى كانت تتزعم الإمارات السبع السابق الإشارة إليها؛ حيث أصبحت

سلطنات زاهرة فى هذه المنطقة، سميت الطراز الإسلامى، وقد تحول إلى ميناء زيلع كثير من النشاط التجارى؛ مما كان دافعاً لحقد ملوك الأحباش على السلطنات الإسلامية، وهكذا تعمقت بقية سلطنات الطراز الإسلامي فى داخل القارة فى أرض الحبشة الحالية، وكانت أكثرها تعمقاً فى داخل الأراضى الحبشية هما سلطنتا هديه وأرابينى؛ حيث كانتا تعتبر باباً فى نهر السوباط. وبسبب موقع «أوقات» على البحر، وبعدها عن مركز القوة فى الحبشة وامتلاكها ميناء زيلع ، فإنها أصبحت أقوى السلطنات الإسلامية الأخرى المجاورة لها، وأصبح سلطانها أقوى السلاطين؛ ولهذا كان هؤلاء يدينون له بالاحترام والتقدير، وكان قادراً على تحدى قوة النجاشى والوقوف أمام الخطر المسيحى ، ومن هنا غلب اسم «أوقات» على المنطقة كلها فيقال لها «أوقات» أو جبرت أو «عدل» ويقصد بذلك جميع هذه السلطنات، بما فيها ميناء زيلع .

وكانت سلطنة هرر تقع بين هذه السلطنات، وكانت تابعة للحبشة، ثم انتشر بها الإسلام وانتهزت أوقات فرصة ضعف الحبشة، فاستولت على منطقة هرر، وكانت الصلة وثيقة قبل ذلك بين هرر وزيلع؛ لأن زيلع كانت المنفذ البحرى لتجارة هرر، فلما انتشر الإسلام فى هرر قويت العلاقات الدينية والتجارية بين زيلع وهرر، وتهيأت الفرصة لاستيلاء زيلع على هرر ، ولما تم الاستيلاء على هرر، انتقل لها مركز القوة، وأصبحت تقود الصراع بين المسلمين وبين بلاد الحبشة .

وهكذا كان دور الصراع يقع على إمارة «أوقات» بعد ذلك، وإن كانت قد هزمت على أيدى الأحباش فى القرن الثالث عشر، وتم أسر سلطانها ، إلا أن القرن الرابع عشر أو الربع الأخير من هذا القرن قد شهد انتفاضة إسلامية، تقودها أوقات مرة أخرى؛ حيث عاود السلطان حق الدين الثانى القتال ضد نجاشى الحبشة، الذى كان دمر تلك الإمارات الإسلامية، وتحركت قواته غربا تريد أرض الحبشة ، لكنه هزم وقتل واستشهد فى المعركة، وهو يقود حركة الجهاد الإسلامى عام ١٣٨٦م، والتف المسلمون للمرة الثالثة والأخيرة حول خليفتهم السلطان سعد الدين الثانى ، ومن ثم أعلنت إمارة اوقات والإمارات التى اشتركت معه فى الصراع مثل إمارة عدل وموره وتحالفوا مع بعض القبائل البدوية، وأعلنوا الجهاد المقدس واشتركت طوائف الناس كلهم فى هذه الحرب ، وقد قاد سعد الدين الثانى حركة الجهاد الإسلامى؛ حيث خرج معه الفقهاء رجال الدين والقبائل، وقدمت له قوات عربية أخرى وجمع أهل البلاد، وقد تعاهدوا جميعا على الجهاد حتى الموت؛ فكانت بينهما

معركة عنيفة استشهد فيها جمع غفير من القوات، من بينهم أربعمائة شيخ وفقيه، وهكذا فشلت المحاولة الأخيرة لسلطنة «أوقات» للدخول فى الصراع المسلح ضد الحبشة ، ويذكر أن القوى الإسلامية المعاصرة فى ذلك الوقت لم تقم بالواجب، الذى يجب أن تقوم به تجاه مساعدة أخوة الإسلام فى تلك السلطنات، ولم تقدم المساعدة المجدية التى تساعد على تحقيق الانتصارات على الحبشة، أو الوقوف امام التيار الصليبى، الذى يريد أن يقتلع جذور الإسلام فى تلك الأراضى، وهكذا انتهت الانتفاضة الأخيرة، وفر سعد الدين الثانى إلى جزيرة قريبة من زيلع حيث حوصر بها، وقتل عام ٨١٧هـ / ١٣١٥م، فى عهد النجاشى بسحاق، ومن هنا أخذت تلك الجزيرة اسماً من اسم الشهيد المسلم سعد الدين، وسميت جزيرة سعد الدين، وهى أكبر ثلاث جزر تواجه ميناء زيلع .

وقد قامت زيلع بدور كبير فى حركة الجهاد الإسلامى، إضافة إلى أنها لعبت دوراً اقتصادياً كبيراً؛ إذ كانت تنقل إليها منتجات الحبشة من اللبان والبخور وسن الفيل؛ حيث تتجمع لتحمل مع التجارة الهندية إلى عيذاب، سواء برا أو بحرا؛ لتصل إلى أوروبا، أو إلى عدن لتحمل إلى الهند وبقية موانى شرق أفريقيا. والواقع أن احتكار مسلمى الحبشة للنشاط التجارى فى العصور الوسطى، كان من العوامل المشجعة لزيادة الروابط الاقتصادية بين الولايات الإسلامية من جهة، وكثير من جهات العالم الإسلامى، وعلى رأسها مصر واليمن والحجاز. ويشير القلقشندى فى حديثه عن أهل أوقات وأعمالها، أن معاملتهم بدنانير مصرية ودارهم الواصلة إليها صحبة التجار، وهكذا كان احتلال زيلع بمثابة إسدال الستار على مملكة أوقات التى احتلها الأحباش نهائيا، ولم يعد يسمع بها أحد، وانتهى دور أوقات فى الجهاد .

وقد كان سلاطين «أوقات» ومسلمو شرق أفريقيا من عمق الإيمان والتمسك بأهداب الدين الإسلامى، وكذلك المحافظة على التراث الإسلامى والقيم الخالدة؛ بحيث إنه لم يكن انتهاء سلطة ونفوذ «أوفات» من مسرح الأحداث السياسية، أن تكون نهاية المطاف؛ فقد كانت روح الإسلام القوية الكامنة فى أبناء زعماء وشعب ممالك الطراز، تدفعهم دائماً إلى عدم التخلى عن سياسة الجهاد الإسلامى، ومدافعة الأحباش ما وسعهم ذلك من عمل، ومن هنا تركزت حركة المقاومة حول الأمراء ابناء سعد الدين (سبق الإشارة إليهم فى صفحات سابقة) ومن هنا كان عليهم أن يقوموا بالدور والجهاد، وهو دور إمارة عدل .

وقد كان هؤلاء الجميع أبناء سععد الدين، وقيل عشرة وقيل اثنين فقط ، قد لجأوا إلى اليمن عند استشهاد والدهم فى جزيرة زيلع، ومكثوا فى اليمن، فى ظل سلطانها احمد ابن

الاشرف اسماعيل، وأعانهم بما قدم لهم من مساعدات عسكرية ومادية، وشجعهم على مواصلة الجهاد الإسلامى فى شرق أفريقيا ، وأنه لابد لهم من ظهور دورهم الإسلامى على مسرح الأحداث مرة أخرى، بعد أن كان اكبرهم قد اتخذ لقب سلطان عدل، واتخذوا مكاناً بعيداً عن نفوذ الأحباش، قريباً من الحدود الشمالية للصومال فى منطقة يقال لها دكز، وهى عَدل (بفتح العين وكسر الدال)، وهى إمارة إسلامية قريبة من حدود الحبشة .

ويصف G. Mathew فى كتابه فجر التاريخ الأفريقى إمارة عدل بقوله إلى أقصى الشمال وراء رأس جوردافيو، قامت سلطنة عدل الإسلامية المزدهرة فى القرن الخامس عشر الميلادى، وذلك كأثر من آثار الهجرات العربية المتواصلة والعلاقات التجارية، التى امتدت غربًا حتى الممالك الإسلامية، جنوب الصحراء الكبرى، وكانت تأتى إليها السلع التجارية الأفريقية، وكذلك بعض الحجاج يتنقلون من خلال أراضيها إلى الجزيرة العربية، وقد بسطت نفوذها الإسلامى على المدن التجارية القائمة على الساحل الشرقى لأفريقيا.

وفى خلال ازدهار سلطنة عدل، كانت الحبشة محصورة بين الممالك الإسلامية؛ فعدل تحيط بها من الجنوب والشرق، والسودان يحيط بها من الشمال والغرب، ولم تكن للحبشة موانىء على البحر الأحمر، بعد استيلاء المسلمين على موانئ مصوع وزيلع، وقد أدى ذلك إلى تدهور الحبشة اقتصاديا وماديا، وتمت عزلتها عن العالم الخارجى، فرقدت فى سبات عميق عدة قرون، نسيت خلالها العالم الخارجى، ونسيها العالم أيضاً .

وقد ورد ذكر اسم عدل للمرة الأولى فى تاريخ الإمارات الإسلامية، فى الحبشة للمرة الأولى، عند ذكر سلطنة شوه المخزومية، التى كانت أول سلطنة تظهر فى تلك المنطقة، ثم تقوم سلطنة أوفات بالاستيلاء عليها وضمها إلى ملكها، وكيف أن إمارة عدل خضعت مثلها مثل شوه لأمراء أوفات الذين أسسوا سلطنة أوفات، وذلك فى خلال القرن الثالث عشر الميلادى .

وقد شهد القرن الرابع عشر الميلادى ظهور عدل على أنها إقليم مستقل بكيانه السياسى، وسمى أمراؤها عدل الأمراء. ومن هنا فإن عدل كانت من الأقاليم التى خضعت فترة زمنية طويلة لسيطرة اوفات وحكمها أمراؤها ، كما أنه ليس بعيد أن تكون قد تأسست فيها إمارة محلية، تدين بالولاء والطاعة لسلاطين أوفات، كما أن موقعها المتطرف فى الطرف الجنوبى الشرقى للحبشة شجعها على أن تمارس دورها فى التوسع فى الأراضى الواسعة، لكى تقف أمام التوسع الحبشى الذى أطاح بالإمارات الإسلامية السابقة .

ومن هنا كان على ابناء سعد الدين أن يعودوا إلى هذه الأراضى الواسعة، القريبة من

البحر، بعد أن أعد لهم سلطان اليمن أحمد بن الأشرف إسماعيل كل ما هم فى حاجة إليه، واختاروا ذلك المكان القريب من البحر، والبعيد عن نفوذ الأحباش؛ حتى يتمكنوا من الاتصال باليمن، وكان نفوذها يمتد غربًا إلى حدود حافة الهضبة، على حين يمتد نفوذها جنوبا حتى رأس جورد فراى، وسميت هذه البلاد بر سعد الدين، تخليداً لسعد الدين الثانى، الذى استشهد فى جزيرة مواجهة لزيلع، وهو يقاتل الأحباش .

وقد رأى المسيحيون بالحبشة فى إمارة عدل خطرا عليهم، يتهدد نفوذهم وقدراتهم، وذلك لاتساعها وقوتها وضم السلطنات الإسلامية إليها ، وكان لابد أن يكون اتساع تلك السلطنة الإسلامية على حساب ضم بعض الأجزاء الحبشية إليها، ومن هنا فإن حروباً عنيفة ستنشب بين الأمراء المسلمين وبين الأحباش ، طالما حقق المسلمون النصر، وضموا مناطق جديدة من بلاد الأحباش لدولتهم. وقد استمرت هذه الحروب بين الطرفين تأخذ بعداً جديداً؛ ذلك لأن سلاطين عدل كانوا قد استأنفوا حركة الجهاد الإسلامى مرة أخرى، فى ذلك القرن؛ لكى يوسعوا حدود دولتهم، ويحاولوا أن يصمدوا أمام خطر الحرب الصليبية الحبشية المندفعة من الهضبة .

فقاد السلطان (صبر الدين الثانى ٨٢٥هـ/ ١٦٢٢م) حركة الجهاد الإسلامى ضد النجاشى بسحاق، صاحب المشروعات الصليبية المعروفة؛ لتصفية الوجود الإسلامى نهائيا من ارض الحبشة، ولكن ذلك المجاهد الإسلامى بعد أن خاض حرباً طاحنة، لم تكن القوى فيها متكافئة، فخسر المسلمون الحرب،- ولم يخالفهم التوفيق ، إلا أن ذلك لم يثنِ ويفل من عزيمة المجاهدين فى سبيل محاربة أعداء نور القرآن، فقاد خليفته واخيه منصور بن سعد الدين حركة الجهاد الإسلامى، ولكنه لقى مصير أخيه، واستمر فى حركة الجهاد الإسلامى فى عهد جمال الدين، وفى عهد بدلاى بن سعد الدين، وذلك دون أن يتمكن سلاطين عدل هؤلاء من قهر الأحباش القهر النهائى والقضاء النهائى على قوة الهضبة، أو استرداد أملاك أجدادهم القديمة التى وقعت فى أيدى الأحباش .

وقد صادف الإسلام نجاحاً كبيراً رغم الهزائم العسكرية؛ ذلك لأن الدعوة الإسلامية السلمية بدأت تؤتى ثمارها المرجوة من حركة الدعوة الإسلامية، بين قبائل الجلا، الذين استوطنوا بلاد الحبشة؛ حيث كان أكثر المسلمين يقيمون جنوب الحبشة، وقد تحول عديد من هذه القبائل إلى الإسلام فى عام ١٥٠٠م، وصادف هذا الدين نجاحًا كبيراً ورائعًا بين أهالى السهول، وانتشر على أيدى الدعاة، الذين كانوا فى زى التجار .

وقد لقى هؤلاء الدعاة ترحيبًا حارًا فى بلاط الجلا، وبين قبائلهم، لما وجدوه هناك من سوق لاستبدال حاصلات البلاد التجارية بسلع مستوردة من المصنوعات الأجنبية، وانتهز هؤلاء التجار فرصة رحلتهم إلى الساحل مرة كل سنة أو سنتين؛ لنشر الإسلام بين أهالى هذه البلاد. وإذا كانت الحركة الإسلامية لأمراء الامارات السبع لم تلاقِ نجاحًا فى كسر قوة الهضبة، إلا أن حركة الدعوة الإسلامية قد لاقت نجاحًا عن طريق التجار والتجارة ، حيث ظفرت الدعوة الإسلامية بدخول عدد كبير فى مدة قصيرة، وقد اخفق رجال التبشير المسيحى إخفاقًا تامًا، على حين حقق الدعاة المسلمون نجاحًا مستمرًا، وشقوا طريقهم صوب الجنوب.

وكان تدفق النفوذ الإسلامى إلى بلاد الحبشة، مشجعًا للعناصر العربية التى كانت تعيش هناك ظاهرة أم مستخفية ، غير أن الملوك المسلمين فى الحبشة استطاعوا أن يستردوا نفوذهم، منذ عام ١٥٨٩م؛ فقد مكنت الاضطرابات التى أصابت مرافق البلاد، فى البقية الباقية من القرن السادس عشر، وفى القرن السابع عشر، والمنازعات التى قامت بين رجال الكنيسة، الإسلام من الاستقرار والبقاء .

لكن الأحباش تغلبوا على هذه الحركات كلها، وخرجوا من الصراع ظافرين، واستطاعوا فى عهد النجاشى زرع يعقوب (١٤٣٤ ، ١٤٦٨) أن يكونوا امبراطورية عظيمة، امتدت شمالاً حتى مصوع وسهول السودان، وسيطرت على القبائل البدوية من التجراى والبجه فى منطقة الساحل ووادى بركة، وضمت إليها أوقات وقطجارو ودوارو، وبالى- وفى المنطقة الخصبة الجنوب الغربى، سيطرت على إمارة هدبه السابقة الذكر، وبعض ممالك سدامة، ومنحت هذه الولايات استقلالها الذاتى، بل إن هذا النجاشى المتعصب عندما تمت له السيطرة الكاملة على أجزاء الإمبراطورية الواسعة، فإنه كان على الكنيسة أن تمارس نشاطها، فبثت رجالها فى القرى والبوادى والصحارى؛ من أجل القضاء على كل المعتقدات الإسلامية، التى كانت منتشرة بين الأثيوبيين ، إلا أن المسلمين ظلوا على إسلامهم، وإن كانوا قد تظاهروا بالتحول إلى المسيحية؛ وذلك حتى يتمكنوا من الانتظام فى سلك الأشراف، وكان ذلك من أهم الأسباب التى ادت إلى نجاح هذا الدين، بفضل ما أحرزه المسلمون من تفوق أدبى على أهالى الحبشية المسيحيين.

وقد أخذ الإسلام يشق طريقه إلى الحبشة، لا عن طريق الفتح وحده الذى قاد حركته أمراء الإمارات الإسلامية، ولكن الدعوة والتجارة كانتا من الأسباب القوية لتحقيق ذلك النجاح ، فقد أخذ التجار يفدون إلى هذه البلاد ويدخلون الناس فى الإسلام ، كما أخذ

دعاة العرب يفدون من مكة والمدينة واليمن، وأنحاء عديدة من الجزيرة العربية، حتى قيل إنه كان يفد منهم مئات سنوياً؛ لكى ينشروا الإسلام فى الحبشة، ويدعوا لدين الله الخالد، حيث كانت أغلبية القادمين إلى الحبشة من الحضارمة، إلا أن الفضل الأكبر فى نشر الإسلام فى الحبشة عن طريق التجارة، إنما يرجع إلى طائفة من التجار المصريين، الذين نشأوا فى مدينة قوص بصعيد مصر، وكانت تلك الطائفة التجارية تتألف من مهاجرين من أهل التكرور، وبعض الهنود والعرب، وقد اتخذت لنفسها اسم الكارمية أو الكانمية .

لكن هناك آراء تذكر أن النجاشى زرع يعقوب (١٤٣١ - ١٤٦٨م) عندما ضم الولايات الإسلامية إلى حكمة، فإنه أبقى على كل ولاية عامل، يحكمها من قبله، ينحدر من البيت الإسلامى القديم، وقد كانت هذه الولايات وراثية؛ ولذا فقد احتفظ المسلمون بدينهم، وكانوا لايزالون نتشرون فى شوه وفى مجراى الشرقية، وطبّق الأحباش ما يحلو لهم من سياسات فى هذه الإمارات الإسلامية، التى خضعت لحكمهم، ففرضوا على كل أمير جزية سنوية ، وفرضوا عليهم شروطا، بها مهانة وامتهاناً للدين الإسلامى ورجاله . وهكذا فإن حركة الجهاد الإسلامى التى اشتعلت منذ القرن الثالث عشر الميلادى، حتى القرن السادس عشر قد فترت فى عهد السلاطين، الذين تولوا الحكم بعد ذلك، ومن ثم سالموا وجنحوا للسلم مع الحبشة، ريثما تكون هناك ظروف أخرى، تدعو وتساعد على الجهاد الإسلامى، وهكذا شهد القرن السادس عشر عقد هدنة بين سلاطين عدل المسلمين والأحباش المسيحيين؛ توطئة لكى تحين الفرصة النهائية للنجاشى؛ لكى ينقض على الإمارات الإسلامية ، ولكن عندما عاد سلاطين عدل إلى الراحة والاستقرار والهدوء، ومالوا إلى المسالمة وركنوا إلى التخاذل.. فإن الشعب المسلم الذى عرف روح الجهاد، لم يتخل عن سياسته التقليدية فى مقاومة الأحباش ومدافعتهم، ومن هنا كان تخاذل امراء عدل عن الجهاد، دافعاً للشعب بأن يتحمس، وأن يكون إيذاناً ببداية عهد جديد ، بل دور جديد للجهاد، تقوم به سلطنة أخرى من سلطنات الطراز الإسلامى .

فإذا كان سلاطين أوقات وعدل قد فضلوا الخلود للأمن والاستقرار والراحة، فإن على سلاطين هرر أن يبدأوا مرحلة الجهاد الإسلامى ، حيث إن جهاد هرر سوف يكون هو الجهاد الذى يأخذ صورة فعالة وقوية ومؤثرة فى مجرى الأحداث، فى تاريخ تلك المنطقة وعلى هذا فلابد من محاولة إلقاء الضوء على ذلك الدور، الذى تلعبه إمارة هرر فى حركة النضال الإسلامى؛ من أجل نشر راية الإسلام ورفعها خفاقة عاليه، فوق أديم الأرض الحبشية.

ويتميز هذا الدور بظواهر ثلاث: انتقال زمام حركة الجهاد الإسلامى من سلاطين عدل التقليديين الذين جنحوا للسلم، إلى طائفة جديدة من الأمراء تشربت حب الجهاد، واتخذت لقب الإمام، والعمل على نشر الإسلام على مدى واسع، وسيطر الفقهاء والدعاه ورجال الدين على حياة الناس، ودخول الشعوب البدوية سكان الصحراء ميدان معركة الجهاد الإسلامى والدعوة الإسلامية، بعد أن تم إسلامها فى النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادى .

وهكذا كان تحمس الشعب المسلم الحبشى، مؤذنا ببداية الدور الأخير من أدوار الجهاد، وهو دور هرر أو دور الفتح العظيم .

وقد شهدت فترة الفتح العظيم انتقال السلطان إلى طائفة من رجال الدين، بعد أن علت كلمتهم وارتفع شأنهم فى الحقبة الأخيرة من تاريخ عدل؛ فقد ظهرت طائفة جديدة من الأمراء المسلمين، متخذة لقب إمام، متفرغة للحرب والجهاد؛ مما يدل على أنها تمثل حركة دينية عميقة الجذور، وأصبح هؤلاء النفر من الأمراء الأئمة يشرفون على حركة الجهاد وسياسة الغزو الإسلامى، ويجدون الأنصار من الاعفار والدنا قل والصوماليين؛ حيث كان هذا الطراز من الأمراء والأئمة اكثر ملاءمة لروح العصر، وأقدر على إلهاب شعور الجماهير ، هؤلاء الأئمة كانوا يمثلون الحركة الإسلامية الدافقة، وكانوا سلاطين عدل يمثلون السلطة الاسمية التى تستمد وجودها من ملك قديم، تؤيدهم طائفة من الارستقراطية، تهتم بالتجارة أكثر من اهتمامها بحركة الجهاد الإسلامى، والدعوة الإسلامية، وهؤلاء التجار نظرا لمصالحهم الشخصية وصلاتهم التجارية مع حكام الأحباش المسيحيين، كانوا يدفعون سلاطين المسلمين إلى مسالمة الأحباش فى التفاهم معهم .

ولكن القرن الخامس عشر الميلادى قد شهد رجحان كفة علماء ورجال الدين، وبروز دورهم على كل الأدوار الأخرى؛ بحيث استطاعوا التأثير القوى على مجرى الأحداث السياسية، وحركة الحياة اليومية فى ذلك المجتمع، ومن هنا تسلل هؤلاء الأئمة إلى المدن العدلية الكثيرة، وانتشروا فيها وفى القرى وكل البقاع، وتولى العلماء والفقهاء السلطة الفعلية فى هذه المدن، وكونوا إمارات محلية فى أرض السلطنة الممتدة من هرر وساحل البحر الأحمر... وهكذا أصبحت السلطة الفعلية فى كل منطقة بر سعيد الواسعة، فى يد هؤلاء العلماء؛ حيث تجمع حولهم القوم، وكثر العسكر الذين يرغبون فى الجهاد والدفاع عن ديار الإسلام .

وقد كان هذا بعداً جديداً، لم تشهده المنطقة فى حركة الجهاد الإسلامى؛ حيث بدأ

الطابع الدينى الخالص يسيطر على روح المجاهدين، ولا شك أن ذلك الطابع سوف يدفع حركة الجهاد خطوات فعالة إلى الأمام، ويرفع من دور الشعور الدينى، الذى تعمق فى نفوس الشعب، وكان الدافع والمحرك له دور رجال الدين وعلماء الإسلام ، وقد كان لهؤلاء الأئمة الدور الأكبر فى حركة الجهاد الإسلامى؛ إذ كان بيدهم إعلان الحرب عندما يريدون، فقد كانت بإيديهم القوة الحقيقية فى البلاد، منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادى، وقد كانت سيطرة رجال الدين من العوامل الأساسية فى دفع حركة الجهاد الإسلامى، حيث شهد ختام القرن الخامس عشر الميلادى ظهور أمير هرر، الذى كان أحد هؤلاء الأئمة، وكان يسمى الأمير محفوظ؛ حيث اضطلع بحركة الجهاد الإسلامى ضد الحبشة فى عهد النجاشى ناعود، واستطاع أن يوجه ضربة قاصمة للأحباش، وتغلب عليهم وهزمهم هزيمة قاسية ونكراء، واستطاع أن يدمر كل ما وقعت عليه يديه، وأن يقتل أعداداً كبيرة من قواتهم العسكرية، وياسر عديداً من الأسرى ، وأصبح الإمام محفوظ، هو صاحب الأمر الفعلى فى البلاد بعد أن علت كلمته ، وقد قدم إليه الدعاة من بلاد العرب، من مكة المكرمة والمدينة المنورة واليمن وحضرموت والخليج، وأمدوه بالرجال والسلاح، وأعطوه راية خضراء ، بل إن دوره عظم، حتى أصبح له نفوذ قوى داخل العرش الحبشى؛ حيث كانت له اليد الطولى فى إقصاة الامبراطور الكسندر عن السلطة عام ١٤٩٥م، ومن ثم تم قتله بعد عزله.

وبينما هاتان القوتان تتطاحنان على أرض الحبشة؛ إذ بقوة جديدة تظهر فى الميدان الشرقى فى أفريقيا، عندما أخذت أفريقيا ترزح تحت نير الاستعمار الأوروبى، وقد كان للبرتغاليين قصب السبق فى هذا الميدان، فنجحوا فى الاستيلاء على أجزاء مختلفة فى الساحل الشرقى لأفريقيا، وامتد نفوذهم إلى الخليج العربى، واتخذوا من هرمز على هذا الخليج نقطة ارتكاز لهم، ثم عهد البرتغاليون بعد أن ثبتوا اقدامهم فى نقط على الساحل الأفريقى، إلى محاربة القوى الإسلامية بقدر المستطاع، ولقد كان الدافع الدينى من أهم الدوافع التى دفعتهم إلى التوسع فى هذا الاتجاه .

ومن جهة أخرى، وصلت إلى مصوع قوة برتغالية، تسهم فى الحرب ضد الدويلات الإسلامية المحيطة بهضبة الحبشة، التى عرفت فى التاريخ باسم ممالك الطراز، ومن هذه الدويلات الإسلامية دولة هرر، التى كانت تقود حركة الجهاد الإسلامى، فى ذلك الوقت أميرها محفوظ، والذى حقق عديداً من الانتصارات على الأحباش ، وكان أسطول البرتغاليين قد تقدم وفاجأ زيلع فى غياب الأمير محفوظ، وأغار عليها، ومن هنا لم تنجح حركة المجاهد محفوظ؛ ذلك لأن ملك الحبشة دواد تحالف مع البرتغاليين، وزحف على هرر بمساعدتهم

وقواتهم التى قدمت من الهند والبرتغال، وكانت كثيرة العدد، وهجم على هرر بقوة كبيرة من الأحباش والبرتغاليين، وانتصر على أميرها محفوظ، وقتله كما قتل عدد كبير من اتباعه، فأدى هذا إلى اضمحلال مدينة ودور هرر، وانكماشها حتى أصبحت مجرد قرية صغيرة يحكمها أمير .

ولما تولى حكم امارة هرر الأمير محمد جران الملقب بالاشول، واستتب له الأمر بها وحسم الأمور لصالحه، فإنه أخذ يشحذ همم العرب فى مكة المكرمة واليمن والأتراك، الذين كانوا قد سيطروا على اليمن ليمدوه بالسلاح والعتاد والرجال؛ لكى ينتقم من النجاشى داود، الذى هدم المساجد وأحرق المساجد والمصاحف، ودمر كل ما هو إسلامى أى العمل على القضاء على القوة المسيحية وزعامتها فى شخص النجاشى داود ، وقد تم له ذلك، فاستطاع محمد جران أن يستولى على شوا الامارة المخزومية القديمة عام ١٥٢٨م، وأن يدفع بالملك داود أمامه، وأن يهزمه حتى وصل داود إلى حدود سنار؛ حيث وقعت موقعة حاسمة على ضفاف النيل، قتل فيها عدد كبير من الأحباش، ومن بينهم النجاشى داود نفسه، لكن ذلك دفع الأحباش لفتح بلادهم أمام قدوم البرتغاليين، ومن هنا كانت دعوتهم على نطاق واسع ، وأسرعت البرتغال بإرسال قوة من رجالها، وأسطولها بقيادة دون ستبين Donstepner، ودون كريستفور Don Christopher، ونزلت القوة البرتغالية مدينة مصوع، وتقدم فريق منها بقيادة دون ستبين إلى الداخل؛ لكى يلتقى بقوات الإمام المجاهد محمد الجران، الذى كان قد نجح فى حشد قوات الأمراء من حوله، وحث الشعب على حركة الجهاد الإسلامى؛ حيث أمدوه بألفى (٢٠٠ محارب)، كما امده الأتراك فى اليمن بالأسلحة والرجال والزاد، وبهذه القوة والسلاح أخذ المجاهد محمد الجران يواجه قوة البرتغاليين، وقد حاول محمد الجران أن يحسم الأمر مع القوة البرتغالية بالحسنى وبطريق التفاهم، ولكن دون جدوى. ولقد كانت النتيجة هزيمة قاسية وساحقة للبرتغاليين؛ إذ لم ينجو من هذه القوة إلا عشرة افراد فقط، فروا وهربوا الى الغابات، وكان منهم القائد دون كريستوفر الذى أسر، ولكن نهاية الأمير محمد الجران قد شهدت استشهاده فى ميدان المعركة، فيما بعد وهو يقاتل الأحباش، بعد أن تقدمت قواته غرباً ، وبعد أن حقق المسلمون هذا النصر فإنهم أحاطوا مدينة هرر بسور كبير، مازالت معالمه ظاهرة حتى اليوم .

ولم يقف تدخل الدول الأوربية فى هذا النضال بين الامارة الإسلامية والحبشة عند حد مساعدات البرتغاليين للأحباش ، لكن الأمر تعدى ذلك إلى مساعدات حربية واقتصادية

من دول أوربية أخرى للحبشة كفرنسا مثلاً، التى عقدت معها المعاهدات؛ لمعاونتها فى حربها ضد القوى الإسلامية؛ فقد ذكر الرحالة الفرنسى (وشيه)أنه قام بعقد معاهدة سياسية واقتصادية مع ملك الشوه بتفويض من لويس فيليب ملك فرنسا ، تعهدت فيها فرنسا بتقديم العون لملك شوا فى حروبه ضد المسلمين، بالإضافة للتبادل الاقتصادى بين البلدين .

على أن سلطنة هرر أخذت منذ ذلك الوقت تنكمش ، وبدأت حدودها تضيق حتى أن نفوذ السلاطين لم يكن يخرج من جدران مدينة هرر نفسها. وبعد أن كانت قبائل الجالا وكذا قبائل الصومال المنتشرة بين المدينة وساحل البحر الأحمر، خاضعة لنفوذ أمير هرر، أصبح الأمراء تحت رحمة هذه القبائل ، وقد وفد بعد ذلك إلى هرر بعض أشراف الجزيرة العربية، الذين كان لهم دور فى دفع حركة الجهاد الإسلامى، فى فترات تاريخية لاحقة ، حيث كانت فترة الإمام الغازى أحمد بن إبراهيم صاحب الفتح العظيم، من أعظم وأهم فترات الجهاد الإسلامى فى شرق أفريقيا او الحبشة؛ ذلك لأن عصر ظهور المجاهد احمد ابن إبراهيم تمثل فترة نمو حركة الدعوة الإسلامية نمواً عظيماً، بعد أن رسخت أقدامها فى أرض الحبشة؛ لأن عصر ظهور المجاهد أحمد بن ابراهيم يمثل فترة نمو حركة الدعوة الإسلامية العلمية وتعمق المفاهيم الإسلاميةطوال اربعة قرون فى النضال والجهاد الإسلامى وكذلك نمو الحركة العلمية الإسلامية وتعمق المفاهيم الإسلامية فى نفسية الشعب بعد ظهور الأئمة، وقيامهم بدورهم القيادى الروحى والجهادى، وكذلك غلبة روح الفقهاء وجهادهم على حركة الحياة اليومية، وكذلك زيادة الصلة والعلاقات بين الإمارات الإسلامية الحبشية، وبين الأوطان الإسلامية الأخرى المجاورة.. كل هذه العوامل ساعدت على ظهور حركة الجهاد الإسلامى، فى عصر الامام أحمد بن إبراهيم، بصورة مغايره للحركات السابقة .

ذلك لأن هؤلاء الأئمة والفقهاء والدعاة ورجال الدين يعود إليهم الفضل، كل الفضل، فى إسلام قبائل البدو، وكذلك كسبهم إلى جانب الدعوة الإسلامية، وانضمام تلك القبائل إلى جانب الدعوة والحركة الإسلامية وتأييدها ، وكان هؤلاء الفقهاء يشدون من ازر الأئمة الأمراء ويدفعونهم دفعًا لمواصله الجهاد الإسلامى، ودفع راية الإسلام غرباً؛ حيث الهضبة الحبشية ، بل إنهم كانوا عدة الحركة الجهادية الإسلامية، التى انطلقت فى عهد الإمام أحمد بن إبراهيم لكى تحشد الجموع الإسلامية، حول ذلك المجاهد، الذى كان يقوم بغزو الأحباش النصارى؛ لأنهم كانوا فى زمان سعد الدين، وفى زمان محفوظ، ومن تولى بعدهم يقومون بغزو بلاد المسلمين، وخربوها مرات كثيرة، وكان بعض المسلمين يؤدون لهم الخراج، فلما ظهر أحمد بن ابراهيم الإمام منعهم من ذلك.

لقد كان الإمام أحمد بن ابراهيم يجلس لإقامة العدل، ويرفق بالمساكين، ويرحم الفقير ويوقر الكبير، ويعطف على الأرملة واليتيم، وينصف المظلوم من الظالم، ولا تأخذه فى الله لومة لائم ، وكان أهم من هذا كله أن القرن السادس عشر شهد دخول قبائل البدو فى حركة الجهاد الإسلامى ، وكان دخولها يشبه إلى حد كبير، ظهور تلك الحركة بصورة أكثر فعالية ومدفوعة بروح حماسية إسلامية لم يسبق لها نظير . فقد كانت هذه القبائل قوية شديدة المراس ، تريد أن تندفع صوب الغرب إلى المناطق الخصبة، وقد جاء اسلامهم معاصراً لحركة الجهاد والفتح، التى بدأها واستهلها الامام أحمد بن إبراهيم، الذى لقب بالقرين أو الأشول .

بل لعل بداية الجهاد الإسلامى بصورة فعالة انما تتأتى من اندفاع تلك القبائل البدوية صوب الغرب، نحو المناطق الخصبة، ومغادرة الأوطان القاحلة، ومن هنا كانت مشاركة تلك القبائل البدوية؛ لكى تقف من وراء الفتح تؤيده وتشد من أزره؛ لكى تندفع نحو الداخل لمحاولة الإجهاض على القوة الصليبية، التى أذاقتهم مرارة الغدر والإحباط، طوال أربعة قرون ماضية ، ومن هنا جاءت الأحداث والحوادث والشواهد التاريخية؛ لكى يكون الإمـــام الاشول ، أو القرين هو صاحب حركة الجهاد الإسلامى، فى القرن العاشر الهجرى ، السادس عشر الميلادى؛ حيث لم يكن عمره قد تجاوز إحدى وعشرين عاماً، ونراه يقود قوات عسكرية؛ حيث اختلف مع السلطان أبى بكر سلطان هرر، وتجددت الحرب بينهما؛ حيث قتل السلطان فى الحرب، وانفرد الإمام أحمد القرين بالأمر، بعد أن أقام عمرو بن، شقيق السلطان أبى بكر سلطاناً على البلاد، وفى ذلك الوقت غزا النصارى الأحباش بلاد المسلمين، وكان عليهم بطريق كبير من الجبابرة اسمه دجلجان صهر النجاشى، وتحته بطارقة كثيرة، فوصل إلى أطراف بلاد المسلمين، وخربها وهدم مساجدها وأحرق المصاحف، ونهب أموالهم وسبى أم أمير من أمراء المسلمين، اسمه الأمير ابو بكر فطين، فسار الامام أحمد بن إبراهيم إليهم بعسكره، والتقى الجمعان فى موضع يقال له الدير بكسر الدال، وكانت واقعة شديدة انتصر فيها المسلمون وأسروا نحو خمسمائة أمير، وعاد الإمام إلى بلده منصوراً، ثم توالت غزواته منها فغزا الفطجار، وغزا فيجى وانباريه فى داوراو، وغزا أوقات، واستولى الامام بعد ذلك على أنطوكية، ودخل كنيستها العظيمة ، ثم قصد الإمام بعد ذلك بلدة جنديلة، وهى بلدة مسلمة، يملكها ملك الحبشة فتلقاه أهلها بالفرح والسرور، وأعانوه بالذهب؛ لكى يواصل حركة انتصاراته وجهاده فى سبيل الإسلام، ولكن الإمام اشترى بهدية الذهب مائة سيف، وكان ذلك فى رجب عام ٩٣٥هـ .

ولقد ارتفع به المعاصرون له إلى مرتبة القداسة، ونسجوا حوله الأساطير، وأحاطوا ظهوره بالرؤى التى تمهد له وتبشر به، وفى ذلك روايات كثيرة (انظر عرب فقيه صـ١٣ – ١٤) وقد سموه أمام المسلمين ، وقد بدأ حياته بالانتساب إلى أسرة الإمام محفوظ؛ حيث تزوج ابنته دلنبرة، بنت الامير محفوظ، فكسب تأييد أنصاره، ومن هنا جمع الأنصار ورتب المجاهدين، ولما كثر اتباعه امتنع عن دفع الجزية، التى كان يدفعها لسلاطين الأحباش، ومن هنا انحدر الأحباش من الهضبة لقتال المسلمين عام ١٥٢٧م، وهم يعتقدون أنهم سيفرقون المسلمين كما تفرق المسلمون من قبل ، لكن الأحباش هزموا لأول مرة، منذ بداية الجهاد، وتم أسر خمسمائة أسير، وبدأ احمد القرين يتجاوز النطاق التقليدى القتال القديم، وهو الدفاع، ولكنه لم يكتف بالاغارة الخاطفة على الحدود ثم العودة ، إنما اراد هذه المرة أن يكون الجهاد بصورة اكثر فعالية؛ حيث إنه كان قد صمم على ضرورة الوصول إلى قلب الهضبة الحبشية، وضرورة القضاء النهائى على قوة الاحباش، ووضع حد لسيطرتهم، وإقامة دولة إسلامية، وأن تكون الهضبة مقر الحكم، وتنتهى إلى الأبد القوة الصليبية من أرض الحبشة .

ولم يكن احد من المسلمين الذين يشاركونه حركة الجهاد، يتوقع ان يقدم الأمير الامام احمد الاشول على اقتحام ميدان الهضبة، والدخول لملك الحبشة فى عقر داره، فقالوا له إن ملك الحبشة معه قوة عظيمة، وخيله لا تحسب، وعنده من الدروع والخوذ والرجال والدرق، لا يحصيهم إلا الله تعالى، وأباؤك وأجدادك الأمير على والامير محفوظ صهرك. والجراد إبراهيم والسلاطين المتقدمة فى ملك بر سعد الدين، لم يكن أحد منهم يقصد ملك الحبشة إلى بلده وسكنه، ولكن يغزون إلى اطراف البلاد ويقيمون ويرجعون، وإذا تبعهم أحد من الكفرة قاتلوه، وأنت تريد قصد ملك الحبشة إلى وطنه، والآن لا تهلك المسلمين ، فقال الامام ، الجهاد فى سبيل الله هو ما ينصب على المسلمين ، فقالوا نحن ما مرادنا إلا الجهاد، ومن قتل منا صار إلى الجنة .

ثم أنه بعد أن كان قد عقد مجلسه هذا ، فإنه استنفر القبائل للجهاد، فكانت أول قبيلة لبت نداءه، قبيلة هيرمجدى مع مقدمهم أحمد جرى بن حسين، فوصلوا «هرر» بعدتهم وخيلهم، وسر بهم الإمام سروراً عظيماً، ووصلت بعدهم قبيلة جرى، ومقدمهم منان بن عثمان بن خالد ، ثم وصلت بعدهم قبيلة زربه، ومقدمهم السلطان محمد ابن عم الإمام أحمد ابن

إبراهيم القرين، وبعد ذلك تهيأ الإمام لقصد بلاد الحبشة ، ومن جانب أخر اخذ ملك الحبشة يجمع مجموعة من قبائل التجرى ، وقبائل اقو وقبائل حجام، وأهل الفهقون، وأهل جن، وأهل قده وغيرهم، وانقلبت الحبشة بأسرها، وكان بطارقة التنجيرى أربعة وعشرين بطريقا، كل منهم تحت إمرته جيش عظيم ، وما زال ملك الحبشة يحشد الجيوش، ويستنفر القبائل لملاقاة الامام، وقد قيل إن جيش الحبشة كان ستة عشر ألف فارس، ونحو مائتى الف راكب لذلك طالت الوقائع فى شيزكوره؛ حيث انتصر الإمام فى أول رجب عام ٩٣٥هـ / ١٥٢٩م، وأحرز الإمام نصراً حاسماً على الأحباش فى تلك الموقعة ، ثم بدأ غزو بلاد الحبشة نهائيا، واصبحت قصة انتصاره بشيزكوره مقدمة سلسلة من الانتصارات .

ولقد كان المسلمون فى تلك الموقعة لقلة عددهم، بالنسبة لجيش الأحباش الكثير العدد كما قال عرب فقيه، كالشامة البيضاء فى جلد الثور الاسود ، وقام الإمام يخطب فى المسلمين، ويحرضهم على الجهاد وقرأ سوره «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون، وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم» . صدق الله العظيم.

وقد ولى الأحباش الأدبار والمسلمون يتبعونهم يقتلون ويأسرون، فقتل من بطارقهم البطريق روسيل من بطارقة التنجيرى وقد بلغ جملة من قتل من الأحباش عشرة الآف، ومن البطارقة مائة وأربعة عشر بطريقا .

وبعد هذه المعركة والنصر الهائل، أراد الإمام احمد القرين، أن يسير والمسلمون إلى قلب الحبشة، ويجهز على الباقى من جيشها، فشكا له المسلمون ما حل بهم من الجهد، فعاد الإمام إلى بلدته، ولقد وقع المسلمون فى خطأ جسيم؛ لعدم متابعتهم الغزو؛ حيث إن قوات الحبشة كانت مشتتة، وقتل منها أكثر من عشرة الاف، ولم تكن تستطيع ان تصمد بعد ذلك النصر الذى احرزه المسلمون، ولكن ما وقع فيه المسلمون كانت له نتائج سيئة فى نهاية حركة الجهاد الإسلامى، وتدخل القوى البرتغالية المسيحية المتعصبة .

وفى عام ١٥٣١م دخل الإمام مدينة دوارو وشوه وامحره ولاستا ، وفى عام ١٥٣٣م استعاد الإمارات القديمة بالى وهدبه وسدامة، وبات هذا الفتح لايمكن مقاومته؛ نظراً لأن الإمام جمع جموعة، وقصد بلاد الحبشة هذه، وكانت مع الإمام مدافع حديثة، أمر بأن تضرب بها قوات الحبشة، فهزموهم شر هزيمة، وكان ذلك فى الخامس من رجب عام ٩٧٧ / ١٥٣٣م .

وفى عام ١٥٣٥م سيطر المسلمون على جنوب الحبشة ووسطها، وغزا الإمام أحمد إقليم تجراى للمرة الأولى، وتقدمت قواته فى كل سبيل فى الساحل، وفى السهول وفى الشمال الغربى متصلا بسلطنات نوبية يحكمها البجاة، وكانت تخضع للنجاشى، ومات ملك الحبشة مقهوراً طريداً من هذه الانتصارات الإسلامية، وبينما حركة الجهاد الإسلامى تمضى فى طريقها المرسوم لتحقيق الهدف الاسمى فى غاية الجهاد- وهو تكوين دولة اسلامية، تكون الهضبة مقرها حيث يصعد السهل إلى الهضبة؛ لا أن تهبط الهضبة لتقضى على قوة السهل -كان الخطر الصليبى المتعصب المسيحى البرتغالى، يمد يد العون بقوة وحزم؛ لكى يقف وراء الحبشة المسيحية التى جاءت من أوروبا يبحث عنها وعن كاهنها، الذى كانوا يطلقون عليه القس يوحنا .

وعلى الجانب الآخر، ظهرت فى ذلك المجال قوة اسلامية فتية، هى قوة العثمانيين الأتراك، بعد أن سيطروا على مصر وبدأوا يسيطرون على البحر الأحمر، واستولوا على عدد كبير من المراكز التجارية والعسكرية، وكان ظهور العثمانيين فى هذا الوقت بالذات؛ مما أنقذ العالم الإسلامى من خطر محدق؛ فقد كان البرتغاليون يطمعون بالاتفاق مع الاحباش فى ضرب مصر من الظهر، عن طريق السويس، ومهاجمة البلاد المقدسة فى الحجاز، وتحقيق الحلم الصليبى القديم .

لذا فإنه يمكن القول أن القرن السادس عشر الميلادى قد شهد بعداً دوليًا جديداً؛ فقد ظهرت فى الميدان قوتان كبيرتان: احداهما مسلمة وهى الأتراك العثمانيين، والأخرى مسيحية هى البرتغال، وانضم الأتراك إلى الإمارة الإسلامية الحبشية بقيادة أحمد بن إبراهيم، وانضم البرتغاليون إلى الأحباش، وقد استطاع المجاهد أحمد بن ابراهيم بمساعدة الأتراك أن يحقق كثيراً من الانتصارات على الأحباش، وأن يضم كثيراً من أراضيهم، بعد أن امتد الغزو الإسلامى فى أرض الحبشة منذ عام ١٥٢٨ - ١٥٤٣م؛ حيث انضم إلى جيشه الظافر، عدد كبير من زعماء الأحباش وأصبحوا مسلمين ، بعد أن أعلن بعض قواد الأحباش صراحة أنه من الخير ان يخضعوا للحاكم المسلم، من أن يظلوا على محالفة البرتغاليين، الذين تدخلوا فى كل شئون البلاد .

ولقد اندفع الأتراك بشدة فى مساعدة المجاهد أحمد بن إبراهيم؛ حيث أدركوا مدى البعد الحقيقى لهذا الخطر الصليبى المتحالف مع الأحباش، وارتاعوا للسفارات البرتغالية والقوات والأسلحة البرتغالية أيضاً التى توافدت على بلاد الحبشة، فما كان من الأتراك إلا أن سيطروا على سواكن وزيلع، واتصلوا بالمسلمين فى مصوع .

وبعد أن سيطر المسلمون عام ١٥٣٠م على أرض جديدة وواسعة فى الحبشة، ولم تعد هناك إلا رقعة ضيقة يحكمها نجاشى الحبشة، وخرجت الأقاليم عن طاعته، ودخلت فى طاعة الإمام أحمد القرين، وبعد أن استشار البطارقة والحاشية، فما كان بد من الاتصال بالبرتغاليين فاستنجد بهم فى العام، ١٥٣٥م نفسه، حيث أرسل إلى ملك البرتغال، يلتمس العون والمساعدة العسكرية والمساندة الحربية، فأرسل له ملك البرتغال من توه قوة نجدة عسكرية كبيرة، قوامها أربعمائة جندى، وعدد من المدافع فوصلوا الحبشة عام ١٥٤١م .

والتقى المجاهدون بزعامة أحمد بن إبراهيم الملقب بالأشول أو القرين والبرتغاليين فى المنطقة الواقعة بين اميا الاجى وبحيرة الشانجى، وذلك فى عام ١٥٤٢م، وقد جرح القرين ونجا من الأسر، وأوى احمد القرين إلى جبل زيل المطل على بلاد الدناقل لتنظيم قواته .

وبعد أن تعافى الإمام من مرضه فإنه استنجد بالباشا التركى، والى الاتراك فى زبيد باليمن، فأرسل اليه الوالى التركى تسعمائة رجل من حملة البنادق، وعشرة مدافع، وعاود الإمام أحمد الهجوم، والتقى بالبرتغاليين فى وادى افلا؛ حيث استطاع أن ينتصر على البرتغاليين انتصاراً ساحقًا، وهزم قواتهم، وقضى على أغلبها، ولقد كانت حركة الجهاد الإسلامى التى يقودها الإمام أحمد القرين دافعاً قويًا لأن يشاركه فى الجهاد أقوام من بلاد شتى العرب والمغاربة والمصريين، وكان الإمام قد حقق انتصارات عظيمة بعد فتحه لبلاد دوارو، بالى ، هدبه ، جنر ، وج ، ورب ، فطبحار وأوقات وما حولها، فإنه لم يبق خارجاً عن طاعته إلا قدر ثلث أرض الحبشة، واستولى المسلمون على معظم الأراضى الحبشية .

ولما أحس الإمام أحمد القرين بقوته بعد انتصاره الرائع على قوات البرتغاليين، وأحس أن الامر قد استتب له ، فإنه أوجس خيفة من الأتراك، وبدأ يتوقع غدر الأتراك؛ لأن الأتراك قبل ذلك كانوا قد استولوا على ميناء زيلع من سلطان عدل عام ١٥٢٢م، نظير مساعدتهم له، ولما ضعف أحمد القرين إمام الأحباش والبرتغاليين، مد الأتراك نفوذهم إلى الساحل، واستولوا على كل موانيه ، فما كان من أحمد بن إبراهيم إلا أن يعيد النجدة التركية إلى اليمن، وللحقيقة التاريخية فإن الأتراك أدوا خدمات جليلة لتلك المنطقة، وإن كان وصولهم إلى تلك المناطق قد جاء متأخراً إلا أن وصولهم إلى المنافذ على سواحل الشرقى الأفريقى كان يحتم عليهم القيام بمجهودات كثيرة، خاصة بعد أن تحقق لهم شيء من النجاح، بإخضاعهم لبعض الموانى الآسيوية والأفريقية للبحر الأحمر كجدة وسواكن ومصوع وزيلع وبربرة وعدن ، ومن هنا كان تطلع القوى الإسلامية فى الحبشة إلى الأتراك العثمانيين،

الذين يرغبون بدورهم فى السيطرة على الحبشة لتقديرهم أنهم، إذا تمكنوا من إقامة دولة إسلامية فى الحبشة، سيؤدى ذلك إلى تأكيد سيطرتهم على الجزء الجنوبى الغربى من المحيط الهندى، وتحقيقاً لهذا الهدف اتصل الأتراك العثمانيون بمسلمي الحبشة، الذين وحدت القضية الدينية بينهم ، ووجدوا فى الإمام أحمد القرين الملقب بالأشول، القوة المحركة التى يستطيعون من ورائها تحقيق أهدافهم، فأمدوه بالسلاح والرجال والذخيرة، كما اتخذوا من تدينه وتقواه وسيلة لإظهاره، أمام مسلمى تلك البلاد بمظهر القائد الدينى، الذى يجمعها ويوجهها ضد الأحباش، واستطاع أحمد بن إبراهيم أن يجمع كلمة المسلمين، ويتولى أمورهم حتى لقبوه بالأمام الغازى، وصاحب الفتح، وذلك بعد أن حمل على الحبشة تلك الحملات والغزوات السابق الإشارة إليها، وذلك بمؤازرة الأتراك له، وتوغل فى الأقاليم الحبشية؛ حتى وصل إلى الأقاليم الشمالية من تيجرى، وبلغت حروبه مع الحبشة اقصى درجة من الحماسة والاقدام خاصة أن المسلمين اعتبروها جهاداً مقدساً، وأخذوا يحاربون فيها حرب المستميت للدفاع عن الدين، حتى لقد وصلت الفتوحات الإسلامية إلى بحيرة تانا على النيل الأزرق، وضمت إليه بلاد اوقات ، هدبه، بالى، دوارو ، طجبار جنر ، وكذلك استيلاؤه على بلاد التيجرى .

ولقد كان بفضل هذه الانتصارات وشتى الحروب المتواصلة ضد الامبراطور الحبشى لينادنقل، أن التف حوله كثير من المسلمين ومنهم الصوماليين ، وأخذت الرقعة التى يحكمها المسلمون فى الاتساع؛ حتى نجح الإمام- بفضل النجدات التركية التى كانت تصل إليه، من القواعد التركية فى اليمن- من هزيمة الإمبراطور لينادنقل، الذى اضطر إلى الفرار أمام زحف الإمام وقواته الكاسح، من بلد إلى بلد، وضعفت سلطة الإمبراطور، وأصبحت ضئيلة للغاية، لا سيما بعد أن أصبح الإمام أحمد يتصرف فى الحبشة كلها كتصرف الملك المستقل، صاحب الامر والنهى فى البلاد، كما أخذ يرسل من قبله الولاة إلى جميع أقاليم الحبشة لفتحها وإخضاع أهلها، وجمع الأموال والزكاة، واستقر فى بلده دمبيا، التى اتخذها عاصمة لحكمه فى عام ١٥٤١م، وقد استمرت غزوات الإمام أحمد بن إبراهيم الأشول، ما يقرب من خمسة عشر عاما (١٥٢٨ - ١٥٤٣)، وقدر عدد رجاله بأكثر من عشرة آلاف مقاتل .

وكان لهذه الغزوات أثر كبير فى نشر الاسلام فى الحبشة، وقد أخذت قوته تتعاظم؛ خاصة بعد انضمام الأتراك إليه وشريف مكة المكرمة ، الأمر الذى مكنه من غزو قبائل الجالا، وسائر القبائل الأخرى فى شوا وغندار واكسوم .

ولعل تلك الانتصارات كانت الدافع الأساسى؛ لكى يرسل الإمبراطور أقلاديوس، الذى خلق الإمبراطور لينادنقل فى الحكم (١٥٤٠ – ١٥٥٨م)، إلى إرساله وفداً إلى لشبونة، عاصمة البرتغال؛ لطلب النجدة العسكرية بالرجال والسلاح والعتاد؛ نظراً لحرج موقفه أمام انتصارات الإمام أحمد الاشول، المتكررة والسيطرة على معظم أنحاء الحبشة ، وقد وصف المندوب لملك البرتغال حرج مركز الإمبراطور أمام شعبه ورعيته، وعلى أثر ذلك وجه الملك تعليمات إلى نائبه فى الهند، بإرسال أسطول برتغالى لمقاتلة المسلمين، ومساندة إمبراطور الحبشة، وكان وصول الإمدادات البرتغالية للأحباش المسيحيين مفاجأة لمسلمى الحبشة، الذين لم يستعدوا لقتال هذه القوات المسلحة، والمدربة تدريباً حديثاً، والمسلحة بأحدث أسلحة العصر ، ولقد كان لوصول قوات البرتغال بهذه الصورة المتكررة والفعالة أثر فى هزيمة الإمام وقواته؛ إذ أن البرتغاليين هم الذين كانوا يقودون القوات، ويتصدون للدفاع عن الحبشة، ومن ذلك فإن قوات برتغالية تزيد عن ألف وخمسمائة جندى برتغالى، تقدمت فى فبراير عام ١٥٤٣م، وهاجمت جيوش الإمام واخترقت فصيلة منها بقيادة بدور ليونى الصفوف إلى حيث كان يوجد الإمام، وأطلقت عليه الرصاص، فجرح جرحاً بالغاً، ولما أيقن من الهزيمة انسحب إلى الغابة وحيداً، وهو يقطر دماً فتبعه القائد البرتغالى حتى رأه يسقط ميتا، ومن ثم مثل بجثته، وذهب باجزاء منها إلى الامبراطور قلاديوس، الذى انهى البرتغاليون له المقاومة الإسلامية بعد أن كاد يفقد عرشه، وينهى إلى الوجود المسيحية من أرض أفريقيا قبل أن تنتهى من ارض الحبشة، ولكن هذا قدر الله ولا راد لقضائه وقدره، والبلاء يعلم المسلمين الصبر على الشدائد والقدرة على مواجهة المكروه وتحمل الشدائد .

ولقد كانت تلك المعركة الفاصلة عند ويتاداجا قرب بحيرة تانا، ومات الإمام، وتفرقت جموعه، ونجت الحبشة من كارثة محققة، وهكذا قضى على ثورة الإمام احمد بن إبراهيم، بفعل مساندة البرتغال، التى تدفقت على الحبشة من مراكز البرتغاليين، فى سواحل شرق افريقية والهند والبرتغال نفسها ، والذين أمدوا الأحباش بالقوات المدربة، أحدث تدريب، والأسلحة الحديثة التى هى أحدث ما وصل اليه العصر من مدافع وبنادق وجنود مدربين على استخدامها، وخرج العثمانيون من هذه المحاولة مدحورين، فاكتفوا بذلك بالإشراف على سواحل البحر الأحمر من سلسلة الموانىء التى استولوا عليها. حقيقة حاول العثمانيون بعد سيطرتهم على مصوع العودة للتدخل، وذلك بشد أزر المسلمين فى المقاطعة التى صارت تعرف فيما بعد باسم أرتيريا؛ مما اثار الأحباش، وأدى ذلك إلى حروب بينهم وبين العثمانيين فى عام ١٥٧٨م، كان النصر فيها للحبشة بقيادة النجاشى ملاك صاجاد، الذى نجح فى القضاء على النشاط العثمانى فى بلاده.

وهكذا كان الإسلام ينتشر فى ركاب هذه الحركة الجهادية، التى قادها الإمام أحمد القرين ، حيث إن غالبية سكان الهضبة اعتنقوا الدين الإسلامى عن طريق الاقتناع والرضا والمحبة وليس عن الرهبة ، والمؤرخون الاحباش يؤيدون هذه الأقوال فيذكرون أنه لم يحتفظ بدينه اكثر من فرد واحد من كل عشرة ، فمن استسلم وأحب الاحتفاظ بدينه، فرضت عليه الجزية، ومن اختار المقاومة قوتل ، وكان الفقهاء يسيرون فى ركاب الفتح يحرضون على الجهاد، ويفقهون الناس امور الدين الإسلامى، ويعلمونهم مبادىء الدين الإسلامى .

واذا كانت حركة الجهاد الذى قادها الإمام لم تحقق أهدافها النهائية فى القضاء على مملكة الحبشة نهائيا فى الحبشة، إلا أنها أثبتت أن النظام الحبشى الإقطاعى نظام واهٍ، وأنه لولا تدخل القوات البرتغالية لم قدر لهذا النظام ان يعيش ساعة بعد ذلك ، كما أن تلك الحرب الدائرة بين الطرفين، أثبتت أنه من المستطاع أن يتمكن البدو سكان السهول من فتح هذه الهضبة، إذا اتحدت صفوفهم، وألفت بين قلوبهم أهدافً سامية، وسرت فى نفوسهم روح الجهاد الإسلامى الحقيقية ، وهذه الحركة التى قادها الإمام، تدل على مدى عمق الشعور الإسلامى فى نفوس سكان، وأهل شرق أفريقيا وتمسكهم بالإسلام إلى أبعد الحدود، فقد دأبوا على الجهاد، وأصروا عليه طيلة ستة قرون .

ولقد كانت خسائر الاحباش فى الرجال تفوق الوصف، وإذا كان الأحباش الذين أسلموا كرهاً قد ارتدوا إلى دينهم القديم ودين النصرانية، تحت إرهاب السيف الحبشى ، إلا أنه ليس هناك شك أنهم تأثروا بالعقيدة الإسلامية وتعاليمها، طوال الخمسة عشر عاماً، التى قضاها الإمام (١٥٢٨ - ١٥٤٣م). لكن هذه الحركة الإسلامية التى ارتفع لواؤها فى الحبشة المسلمة لم تمت بموت الامام احمد ، بل استمرت فترة طويلة من بعده ، فقد حاول الوزير عباس احد رجال الإمام ان يكون إمارة من مقاطعات (دواو ، قطجار ، بالى)، لكنه هزم عام ١٥٤٥م، وانتهى دوره من مسرح الأحداث فى المنطقة ، ولكن هرر انتقضت مرة أخرى، والتفت حول أرملة الامام أحمد بن إبراهيم، ابنة الإمام محفوظ صاحب الانتصارات العظيمة، وذلك للأخذ بالثأر، واجتمعت قوات السلطان عمر دين والسلطان على الجراد بن الإمام أحمد، وغزت دوارو، ولكنها هزمت وأسر زعماؤها .

ويبدو أن الأحباش وملكهم لم يعد يكترثون كثيرا بالمسلمين، بعد مصرع الامام أحمد، ولم يعد يخشون أحداً أما عن مسلمى الحبشة فقد تزعمهم بعد وفاة أرملة الإمام أحمد ابن ابراهيم ، قريب له يدعى الأمير (نور الدين بن مجاهد)؛ حيث إن المسلمين، لم يهدأ لهم

بال ، ومن ثم بدأت محاولة جديدة، بقيادة نور بين الوزير مجاهد بن أخت الإمام احمد القرين؛ حيث تم انتخابه إمامًا للمسلمين عام (٩٥٩هـ / ١٥٥١ - ١٥٥٢م)، وقد قاد الأمير حركة جهاد ثانية، أطلق عليها المؤرخون الفتح الثانى، بل أسموه صاحب الفتح الإسلامى الثانى؛ حيث نشبت بينه وبين الامبراطور قلاديوس معركة، استطاع الإمام نور الدين ان يقتله فى هذه المعركة التى نشبت بينهما، وقد سماه المسلمون بصاحب الفتح الثانى على أنه انتهى بموت الأمير نور الدين بين مجاهد بحد سلطنة هرر الإسلامية، واخذ المسلمون يعانون من شدة ضغط الأحباش عليهم .

وقامت هرر قومة اخرى عام ١٥٥٩م، وتزعم حركة الجهاد فيها الأمير نور أمير هرر، بعد أن تحالف فى حركة الجهاد الثانية مع سلطان عدل الأسمى، الذى خلق السلطان عمر دين، واسمه على، وقاما بغزو قطجار، واتخذ الإمام نور الدين لقب أمير المؤمنين ، غير أن هذه الجهود كلها انتهت بالفشل والقتل، فى عهد الإمبراطور سرصادنجل .

وانتهت هرر كقوة سياسية، ذات شأن فى الوقت، الذى استطاع فيه الأحباش أن يبعدوا هذا الخطر الإسلامى، وأن يخلصوا من التهديد العثمانى؛ ذلك لأن العثمانيين فى عام ١٥٧٧م استولوا على مصوع دار كيكو، وتقدموا نحو سهول أرتيريا، وأنشأوا حصنًا فى دباروا، وأخذ القائد العثمانى يمد نفوذ العثمانيين فى هذه الجهات، ولكن زعماء الولايات الشمالية المسيحية هزموا القوات العثمانية، وحالوا بينها وبين احتلال جزيرة بورى ، ثم انتهز الأحباش فرصة انشغال القائد العثمانى، واستولوا على حصن دبارو، واضطر العثمانيون إلى التراجع نحو سواكن ومصوع واركيكو ، ولما انهى الاحباش المقاومة فى هرر ، استداروا للعثمانيين وحلفائهم من الأحباش؛ للثأر من المسلمين وهزموهم ، وقتل الباشا العثمانى فى هذه المعركة، وانتهت هذه المعركة بعقد الهدنة عام ١٥٨٩م .

على أن الظروف التى مرت بها الحبشة كانت مساعدة- إلى حد كبير- على عودة الازدهار للقوى الإسلامية ، ذلك أن البرتغال لم تلبث أن أخذت تطالب الحبشة بثمن مساعدتها ضد المسلمين، بأن تعلن انضمامها للكنيسة الكاثوليكية، بعد أن تقطع صلتها بالكنيسة الارثوذكسية ، ولكن لم يكن بد من مقابلة هذا التحدى لعقيدتهم، إلا باللجوء إلى الكنيسة المصرية التى أمدتهم بالعون الدينى والأدبى والكتب الدينية، ومع هذا.. فإن الإمبراطور الحبشى سوسنيوس قد أدرك أن بلاده بعد كل هذه الانتصارات العسكرية على الإمام احمد القرين، والذين ساروا على خطاه، فإن الحبشة أصبحت محاطة بدول إسلامية،

تعزلها عن العالم الخارجى، فتركيا تقف على الساحل الشرقى لأفريقيا وتسد عليها المنافذ ، كما أن مصر رغم العلاقات الروحية التقليدية لوجود الكنيسة الأم بها، فإنها لا تستطع أن تقدم لها شيئاً بعد أن أصبحت ولاية عثمانية، وبعد أن قامت الحبشة بتصفية الامارات الإسلامية، التى كانت مصر دائما تدافع عن وجودها، والمحافظة على وضعها الراهن، وعقد هدنة بينها وبين الحبشة .

ومن هنا لم يعد امامه إلا البرتغاليين، الذين ساعدوه فى كسر قوة الأحباش المسلمين والاتراك الذين ساعدوهم ، فلم يكن أمام سوسنيوس إلا اعتناق المذهب الكاثوليكى مذهب البرتغال، وقطع كل الروابط الدينية والثقافية بين الحبشة والكنيسة المصرية .

وعندما تولى الإمبراطور فاسيلادوس، وجد الحبشة منقسمة على نفسها بين الكاثوليكية والارثوذكسية ، ومن هنا لم يكن أمامه إلا اليمن، التى كانت أقرب الدول إلى الحبشة فضلاً عن العلاقات القديمة ، بالإضافة إلى أن اليمن استطاعت عام ١٦٣٥م، أن تطرد القوات التركية من بلادها، ولم يكن هناك مدخل أمام الحبشة إلا صداقة اليمن، ولذلك أرسل الإمبراطور فاسيلادوس رسالة إلى إمام اليمن، يبلغه رغبته فى تفهم أمور الدين الإسلامى، لعل الله يهديه إلى اعتناق دين الإسلام.

فما كان من إمام اليمن إلا أن لبى دعوته وطلبه فوراً، وقام من توه بإرسال بعثة إسلامية تضم بعض كبار رجال الدين الإسلامى والفقهاء، وذلك لكى نفقهه فى أمور الدين الإسلامى .

وقد رافق هذه البعثة الإسلامية، أحد رجال الدين اليمنى، ويدعى الشيخ أحمد الحيمى؛ حيث سجل أخبار رحلته التى قام بها إلى الحبشة، وقد اطلق الحيمى على ما دونه فى رحلته هذا كتاب مسماه (حديقة النظر وبهجة الفكر فى عجائب السفر)، وقد قام الدكتور مراد كامل، أستاذ اللغات الشرقية بكلية الآداب جامعة القاهرة سابقًا، بنشر هذه الرحلة، بعد أن عثر على نسخة منها فى المكتبة التيمورية المحفوظة بدار الكتب المصرية بالقاهرة ، إلى جانب انه عثر على نسخة أخرى فى اليمن، قام بمراجعتها على النسخة المحفوظة فى مكتبة لندن .

ويتحدث أحمد الحيمى عن هذه الرحلة قائلاً إنه قام برحلته الى الحبشة، وذلك بعد أن قام الإمبراطور الحبشى فاسيلادوس بإرسال رسول إلى امام اليمن المؤيد بالله، ثم من بعده أرسل رسولا آخر إلى الامام المتوكل على الله ، وطالبا عن أن يرسل إليه الإمام شخصاً يثق

فيه تمام الثقة، وذلك للإفضاء اليه بأمر مهم يتعلق به شخصيا ، ولقد صحب الحيمى هذه البعثة الدينية التى قام بإرسالها إمام اليمن ، ولما أدركت البعثة أن الإمبراطور فاسيلادوس لم يكن صادق النية على الإطلاق فيما أرسل من آجله إلى إمام اليمن، فى رغبته فى اعتناق الإسلام، واتخاده الإسلام دين الدولة الرسمى، ولكنه كان يريد إصلاح ذات البين وقيام علاقات طيبة بين الحبشة واليمن وإصلاح ما عكرته الأيام ، بعد أن شاهد أن كل الطرق التى تصله بالعالم الخارجى قد سدت فى وجهه، ومن هنا لم يجد إلا اليمن منفذاً له للعالم الخارجى، لاسيما أن العلاقات بين اليمن والحبشة علاقات وثيقة وقديمة، عبر التاريخ والعصور.

وقد عاد الحيمى إلى اليمن عندما رأى رأى العين كل ما وقعت عليه عينيه من مشاهد، دونها فى كتابه الذى يصف فيه أحوال الحبشة ، حيث وصف كل شيء وصفاً دقيقًا، ووصفه للقبائل والنظم التى تحكم بها الحبشة، ومما تجدر إليه الإشارة أن القرن الثامن عشر الميلادى قد شهد تحولا بالغاً فى سير الحركة الإسلامية، فى بلاد الحبشة؛ اذ إن الإسلام اخذ يتدعم فى الحبشة، فى ذلك القرن، وذلك عندما اعتنقته شعوب كثيرة من الشعوب الوثنية، التى لم تكن قد وصلت اليها، ومن تلك القبائل التى اعتنقت الإسلام عقيدة لها شعوب الجالا ، حيث إنه فى عام ١٧٨٠م، استولت قبيلة جالا وقبيلة ولوا وايجو على نيجمدار، وعلى قسم من بلاد امجرة؛ حتى أصبح زعيم إقليم ابجو من المسلمين، واستطاع ذلك الزعيم المسلم القوى أن يملى إرادته على نجاشى الحبشة ، ثم أن الإسلام شهد حركة ازدهار واسعة أيضًا فى الحبشة فى القرن التاسع عشر الميلادى، عندما انتشر النفوذ المصرى على سواحل البحرَ الأحمر، وقد اشار كثير من الأوروبيين إلى أن الإسلام يتقدم بخطوات سريعة بين قبائل الصومال، وهكذا كان الوجود المصرى من الأسباب القوية إلى تحول القبائل إلى الإسلام .

إذ إنه كان من أثر الفتح المصرى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى، امتداد النفوذ المصرى إلى السودان ومصوع وزيلع وهرر وهضبة أرتيريا الشمالية، أن ساعد كل هذا على الضغط على الحبشة غربا وشمالا؛ مما كان من شأنه أن يساعد على ازدهار القوى الإسلامية فى الحبشة .

ولقد ترتب على فشل الحملة المصرية على الحبشة، هجرة كثير من المسلمين من الأقاليم الحبشية ، على أنه رغم قوة الإمبراطور منليك وإخضاعه لجميع الممالك الإسلامية، إلا أن سلطنة جما الإسلامية قد بقيت على الرغم من ذلك، محتفظة بنشاطها الإسلامى وازدهارها الثقافى؛ حيث أسلم أهلها فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، بفضل بعض

التجار المسلمين الذين وفدوا عليها ، فاعتنق كثير من قبائل جما الإسلام؛ خاصة بعد أن قدم اليها كثير من العلماء والفقهاء ورجال الدين، الذين كانوا فى زى التجار، وذلك لإرشاد أهلها إلى أمور الدين الإسلامى الصحيح. وقد تولى حكمها فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر (١٨٧٨م) السلطان محمود بن داود، الذى عرف باسم السلطان أبى جفار، إلا أنه رغم أن تلك السلطنة قد حافظت على وجودها، إلا أن الامبراطور متليك فوض استقلالها بما كانت تتملكه نفسه من نزعة صليبية، ضد كل وجود إسلامى سياسى أو دينى، فقام فى عام (١٨٨١م) بالاستيلاء عليها، بعد أن أدخلها تحت حمايته، تاركاً لها استقلالها الداخلى كباقى المقاطعات المسيحية فى الحبشة، وقد أبرم منلبك معاهدة مع سلطان البلاد، يتم بموجبها أن تظل هذه السلطنة، يتوارث الحكم فيها سلالة أبي جفار، وعليها أن تدفع جزية سنوية إلى حكومة أديس أبابا والا تتصرف خارجيا فى أية علاقات، ولكن لها علاقات داخلية مع غيرها من المقاطعات الحبشية المسيحية الأخرى .

لكن على جانب آخر.. فإن حكام الحبشة كانوا يزيدون فى مقدار الجزية السنوية، كيفما يحلو لهم، وذلك على أمل إضعاف تلك السلطنة الإسلامية .

إلا أنه رغم كل انواع القسوة والمعاملة الحبشية غير الإنسانية، فإن المسلمين أخذوا يتغلغلون فى كثير من أقاليم الحبشة؛ حيث الجنوب والشرق ، كما تغلغلت جماعات اسلامية كبيرة فى الغرب، كما استقرت جماعات إسلامية أخرى مهاجرة إلى الغرب من اديس أبابا، وكذلك فى أقاليم شوه وامجرة وتجرى وهرر واجادين ، وقد وصلت نسبة المسلمين فى الحبشة فى بداية القرن الحالى إلى حوالى ٤٠٪ من مجموع السكان، أما حاليا فى الربع الأخير من القرن العشرين، فإنه يذكر أن المسلمين يبلغون حوالى ٦٠٪ من مجموع السكان.

وتسود اللغة العربية غالبية المسلمين فى الحبشة، وقد حافظوا عليها محافظة شديدة؛ باعتبارها لغة القرآن الكريم، وقد شهد كثير من الرحالة الأجانب، الذين جابوا بلاد الحبشة، بأن المسلمين فى تلك البلاد، ذوو نشاط بالغ، وعلى جانب كبير من الذكاء، ولهم التفوق على غيرهم من باقى سكان الحبشة .

وقد استطاع المسلمون فى الحبشة أن يجعلوا بينهم وبين الممالك الإسلامية المجاورة لهم، روابط ثقافية واقتصادية وثيقة كمصر، بلد الجامع الأزهر، قبلة العلم والدين فى العالم الإسلامى ، حيث أمة طلاب العالم الإسلامى أجمع؛ لأخذ العلم والمعرفة عن طريقه، وكان

لأبناء الحبشة المسلمين أروقة مشهورة، منها رواق الجيرت ورواق الزيالعة ، وقد تخرج من أبناء الحبشة عديدون من الجامع الأزهر، والذين تلقوا العلم فى الأزهر؛ حيث عادوا إلى بلادهم، فإنهم كانوا يمارسون أداورهم فى العلم والدين والفقه والقيادة الدينية والسياسية ، كذلك ارتبط مسلمو الحبشة بالسودان الشرقى بروابط ثقافية واقتصادية .

ولقد هاجر كثير من أبناء الحبشة إلى السودان للدراسة والعلم والتفقه فى عديد من المدارس الإسلامية، المنتشرة فى بلاد السودان ، كما ارتبط مسلمو الحبشة بروابط وثيقة منذ قديم الزمن مع اليمن؛ بسبب الجوار والتجارة والمعاملات، كما نشأت علاقات وثيقة بين مسلمى الحبشة والأماكن المقدسة فى الحجاز ، إذ كان كثير من الأحباش يؤدون فريضة الحج سنويا، ومن هنا كانوا يذهبون إلى الأراضى الحجازية؛ لأداء فريضة الحج كل عام.

وقد شهد القرن التاسع عشر الميلادى، وبداية القرن العشرين ازدهار القوى الإسلامية بفضل الدعوة، التى تزعمتها الدولة العثمانية، فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى (١٨٧٦ - ١٩٠٨)، وهى دعوة الجامعة الإسلامية؛ حيث أوفد السلطان عبد الحميد الثانى سلطان تركيا بعثة إسلامية إلى الحبشة فى عهد الإمبراطور منليك؛ لتعرف أحوال المسلمين، وقد عرف الإمبراطور ليدج اباسو الذى حكم الحبشة بعد منليك بتعاطفه مع المسلمين، حتى ظن الكثيرون أنه أسلم لما كان يظهره من المحبة للمسلمين .

وفى عهد الامبراطور هيلاسلاسى، اشتدت وطأة الحكومة المركزية على المسلمين، وأخذت تبالغ فى ذلك التسلط والقسوة حكومة جما الإسلامية؛ خاصة بعد وفاة سلطانها ابى الجعفار عام ١٩٣٤م؛ حيث خلفه حكام ضعاف مما جعل الإمبراطور هيلاسلاسى يضيق الخناق على استقلال جما الذاتى، حتى أعلن صراحة ضمها إلى حكمة مباشرة وبسقوط سلطنة جما الإسلامية، فإنه لم يبق فى الحبشة سلطنة إسلامية مستقلة، بعد أن كانت بها سبع سلطنات إسلامية، لكل منها قوتها العسكرية وإدارتها الخاصة .

وتلك هى قصة الإمارات الإسلامية، أو ممالك الطراز الإسلامى، التى أحاطت بالحبشة من الشرق والشمال والجنوب، وقصة ازدهارها، وتطور الحركة الإسلامية، وكيف شهد القرن الخامس عشر والسادس عشر حركة اسلامية قوية، قاد نضالها الإمام أحمد بن ابراهيم المعروف بالقرين أو الأشول ، وكيف كانت الخطة الإسلامية تسعى لاحتواء الهضبة الحبشية، فى ظل العقيدة الإسلامية، وكيف كانت القوى الصليبية العالمية البرتغالية

والفرنسية، تقف سداً منيعاً؛ لتحول دون وصول الراية الإسلامية إلى أقصى ارتفاع الهضبة، وكذلك تقوض البناء الإسلامي، وسادت الروح الصليبية أرض الحبشة .

وفي حقيقة الأمر لو أن الإمارات الإسلامية تعاونت تعاونًا وثيقًا، واتحدت في مواجهة الخطر الصليبي، وكان الموقف الإسلامي الخارجي مشجعًا ودافعًا لها لما تقوض البناء الإسلامي، ولما عاني إخوة الإسلام في أرتيريا اليوم من تلك السيطرة الحبشية المسيحية، التي تحاول أن تطمس معالم الإسلام في تلك البقاع، ولا تسمح بظهور أي تيار إسلامي أو قيام دولة إسلامية في أرتيريا، بعد أن سلمت الامم المتحدة في وقت ليس بعيداً، أرتيريا للامبراطور العجوز هيلاسلاسي، تلك الأراضي الإسلامية التي يمتد عمق الإسلام والمسلمون بها، منذ القرن الأول الهجري .

ولقد حصلت أرتيريا على استقلالها مؤخراً عام ١٩٩٣م، ولكن تحت قيادة مسيحية بقيادة (أساس انوري)، الذي رفض الانضمام لجامعة الدول العربية، وأقام علاقات سياسية مع إسرائيل، ومنحها قواعد عسكرية في جزر دهلك وغيرها في جزر البحر الأحمر .

* * *



الفصل الثانى

إمارة ساحل الصومال

لم تكن لهذا الإقليم حدود سياسية، كما هو معروف فى الوقت الحالى، وكل ما هو معروف هو حدود قبلية بين مناطق الرعى الفعلية لكل فريق ، وقد قامت حكومات المدن أو الإمارات على الساحل، ولم تتعد سيطرتها حدود المنطقة التى تقوم فيها المدينة، وكان فى داخل الإقليم قبائل رحل، تنتقل من هنا وهناك، وكانت هذه المجموعات من المدن والأقاليم تكون دار الإسلام .

اما اسم صوماليا أو الصومال الذى عرفت به حديثا، فإن هذا الاسم يرجع على وجه التحديد أو التقريب إلى القرن الخامس عشر الميلادى ، فقد ورد الاسم فى قصيدة أثيوبية، بمناسبة انتصار نجاشى الحبشة بسحق على امارة (اوقات) فى ذلك القرن .

غير أن هناك احتمالاً بأن يكون أصل هذا اللفظ يرجع إلى إحد مصدرين، أو إلى الاثنين معًا وهما وادى شمايل الموجود فى عمان فى جنوب شرق الجزيرة العربية، أو وادى صومل الموجود فى اليمن على مسافة من صنعاء، وفى هذه الحالة يكون هذا الاسم فى صورته المحرفة قليلا ، قد جاء مع جماعات عربية، جاءت إلى الإقليم فى فترات سابقة على القرن التاسع الهجرى أو الخامس عشر الميلادى؛ حيث إن الهجرات العربية إلى تلك الأقاليم موغلة فى القدم .

وقد تمكنت هذه الهجرات من تكوين إمارات عربية فى الأماكن الساحلية، ثم ما لبثوا أن توغلوا فى الداخل؛ حيث تقيم قبائل الصومال من العيسى والأعفار وغيرهم، وكونوا هناك إمارة إسلامية عربية كبيرة، عرفت بإمارة هرر أو عدل ، أما الإمارات الساحلية فكانت إمارتا زيلع ومقديشيو، وأشرف على هذه الإمارات جميعا العرب الذين تأقلموا فى البيئة الصومالية .

وما يعنينا هنا فى ذلك الفصل، هو الحديث عن إمارة مقديشيو؛ حيث سبق الحديث فى الفصل السابق عن إمارة هرر وزيلع وعدل، ومن هنا فإن ذلك الفصل خصص للحديث عن إمارة مقديشيو فقط .

وقد استطاع العرب النازحون إلى إقليم الصومال أن يعربوا قبائل هذه البلاد، وسجلوا

حتى القرن السادس عشر الميلادى نجاحا كبيراً فى هذا المضمار؛ الأمر الذى أدى إلى قيام تلك الامارة العربية الإسلامية؛ حيث إن الفضل فى ذلك النجاح يرجع إلى أسلوب الدعوة الإسلامية، الذى اتبعه العرب المهاجرون مع القبائل الصومالية؛ بحيث كان من القوة والإقناع، بحيث استطاعوا أن يجعلوا لدعوتهم أنصاراً ومؤيدين فى الساحل، وفى الداخل على السواء .

ويبدأ هذا الاقليم (صوماليا) من جنوب زيلع فى خليج عدن، وينتهى جنوبا عند رأس شميونى أو كمبولى، وهذا على تقدير الحدود السياسية الحالية ، وقد عرف هذا القسم باسم ساحل البنادر، لقيام مدن تجارية على شاطئه، وعلى القسمين الجنوبيين اسم القرن الأفريقى .

وإمارة مقدشيو التى نحن بصدد الحديث، عنها يطلق عليها الصومال الجنوبى؛ حيث إن الأجزاء الشمالية كانت تدخل فى الإمارات السبع السابق الإشارة إليها، ويرى المؤرخون الصوماليون أن كلمة مقديشيو مركبة من كلمتين الأولى:«مقد» وهى اختصار لكلمة مقعد، والثانية «شو» ، وهو تحريف لكلمة شاة، دون اضافة ياء فى الكتابة بعد الدال والشين، وعلى هذا فإن كلمة مقديشى، بها مقطعان أحدهما عربى والثانى فارسى، ولا تدل هذه التسمية على ارتباط إنشاء المدينة بالفرس، لأن بعض الكلمات الفارسية كانت شائعة فى الجزيرة العربية، وعلى الساحل منذ أمد طويل، ولأن هجرات الفرس كانت فى الغالب إلى الجنوب من مقديشيو فى المنطقة، التى قامت فيها سلطنة زنجبار، والإمارات الإسلامية الأخرى الممتدة حتى سفاله جنوباً.

وقد كانت مقدشيو عاصمة الدولة الصومالية القديمة، ثم تناولها التحريف فصارت متعارفة بذكر مقديشيو بفتح الجيم، وقد تضم، مع سكون القاف وكسر الدال المهملة وضم الشنين المعجمة، مع سكون الواو، وليس إبدال الدال ولا بعد الشين ياء؛ فكتابتها مقديشيو تغير فاحش، سببه الترجمة من الكتابة الأفرنجية .

وكان المعروف حتى الآن أن اسمها حمر أيضاً، وتقول رواية إن جماعة من الحميرين نزلوا فيها يوما ما، وهى خالية من العمارة فسئولوا عن نسبهم، فقالوا نحن حمير فسمى المكان حميرا ، ثم تناولت الاسم عوامل التحريف اللغوى حتى انتهى إلى حمر، ومعناه بالعربية احمر.

وقد اختلف المؤرخون فى تأسيسها، فقد روى أنه تم إنشاؤها قبل مولد سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بمائتى عام، وهى أصح الروايات، ويقال إن جماعة من المسلمين وفدت من نواحى البحرين على الخليج العربى. قراراً من ملك الأحساء، وبنوا مدينة مقديشو،

ومقديشو أو مقديشيو على بحر الهند، يجرى بها نهر كبير يصب فى المحيط الهندى، على مقربة من مقديشيو .

وهناك اقوال تذكر أن مدينة مقديشيو ظهرت فى القرن العاشر الميلادى، بعد أن تم إنشاؤها على يد مهاجرين من العرب، نزحوا من الخليج العربى، بعضهم من أزد، هاجروا من عمان فى أيام عبد الملك بن مروان؛ بسبب صراع القبائل بعضها ضد بعض، وكان هؤلاء المهاجرين بقيادة سليمان وأخيه سعيد الجلنديين، وبعضهم من الزيدية الذين فروا إلى الساحل، عقب القضاء على ثورة زيدين على بن زين العابدين، فى عهد هشام بن عبد الملك ابن مروان ، وقد اندمج هؤلاء فى السكان الأصليين، وبنى أحفاد هؤلاء مدينة مقديشيو، ومدينة براوة وحول مقديشيو، أنشئت مدن متعددة، ولكن مقديشيو كانت تفوقها جميعا، اذا تركزت فيها أعظم الحركات التجارية فى شرق أفريقيا، وكانت لها السيادة السياسية على المدن، التى تحيط بها ، إلى أن انشئت مدينة كلوه فبدأت تنافسها فى مكانتها .

ويمكن أن تطلق على تلك الامارة التى كانت تسيطر على منطقة شرق أفريقيا الوسطى، التى كانت تمتد من خليج عدن شمالا إلى خليج ديلاجو، وقد تكونت تلك الإمارة بفعل الرغبة فى التجارة واستقبالها القادمين، الذين كانوا ضحايا الضغوط السياسية، وفى الوقت نفسه كانت تتحرك القبائل باسم الإسلام، ولقد كانت الهجرة الكثيرة، وهى التى تحققت على يديها بناء مقدشو فى عام ٩٢٠م، وكان ذلك وقت هجرة أبناء قبيلة بنى الحارث، الذين هاجروا من إقليم الأحساء، وكان الصوماليون يسكنون المنطقة الساحلية، المطلة على خليج عدن، وتحتل الجالا المنطقتين الجنوبية والغربية .

وقد كان لمدينة مقدشيو والمدن المحيطة بها- وتقع تحت نفوذها السياسى- صلات تجارية مع الدول المطلة على المحيط الهندى، ومما تجدر الإشارة اليه أن منطقة الصومال كانت الميدان، الذى اتخذته قبائل الجالا لشن غاراتها على شرق أفريقيا، أو ما يطلق عليه ساحل الزنج؛ الأمر الذى جعل سكان الساحل يلجأون إلى أماكن أخرى، فمنهم من دخل إلى منطقة البحيرات، ومنهم من انتقل إلى اثيوبيا وأرتيريا وحوض وادى النيل الأوسط، وكانت هذه المناطق الأخيرة أكثر أمناً واستقراراً، وتساعد على النشاط التجارى .

ولقد كانت إمارة مقديشيو تمارس الأعمال التجارية والصلات الاقتصادية مع حوض

النيل الأوسط بصفة عامة، بالإضافة إلى أنه كانت هناك روابط ثقافية واجتماعية ودينية، تربط بينها وبين ساحل الصومال، عن طريق تجارة القوافل بين المدن الساحلية وداخلية القارة .

وكانت تنظيمات الحكم فى مدن الساحل الشرقى الأفريقى تجعل من الشيخ أو السلطان أو الملك ، الحاكم عن طريق مجلس الشورى، المكون من أعيان المدينة ورجال دينها وكبار التجار .

وقد حافظت مقديشيو على استقلالها؛ فلم يستطع الأمير سليمان أعظم حكام دولة الزنج، الذى مد سلطانه على أكثر بقاع الساحل أن يتسلط على مقديشيو، وكان حكام مقديشيو يخافون عليها من المؤثرات، التى تختفى خلف التجارة، ولهذا لم يسمحوا للتجار الأجانب أن يبيتوا فيها، وكان عليهم أن يغادروها مع غروب الشمس، وقد نمت تجارة مقديشيو فى هذا العهد نمواً واسعاً، وكانت تحكمها ارستقراطية عربية تجارية، لا تتوارث الحكم فيها ، مما جعل الباحثين يشبهونها بجمهورية البندقية .

كما أنه لا توجد معلومات متوافرة عن هذه المدينة، يمكن الاعتماد عليها، ولكن ما نقله البرتغاليون عن أصل تأسيس مدينة مقديشيو، اعتمادا على روايات محلية، يمكن أن يصبح مادة علمية؛ حيث تقول الروايات البرتغالية إن جماعة كبيرة العدد من العرب، أصلها من مدينة مجاورة للأحساء على الساحل الغربى للخليج العربى، على مقربة من البحرين، نزلت فى ثلاث سفن- يقصد الهجرة- بزعامة سبعة أخوة، فروا من جور وجبروت حاكم الأحساء، وهبطت تلك الجماعة الساحل الشرقى لأفريقيا، وكانت مقديشيو أول مدينة عربية، تأسست فى هذا الساحل ثم تلتها براوة ، وعندما وفد البرتغاليون إلى مقديشيو فى النصف الأول من القرن السادس عشر، كان يحكمها اثنى عشر شيخاً، يبدو أنهم من سلالة السبعة أخوة، الذين أسسوها، والجدير بالذكر أن العرب من سكان مقديشيو، الذين كانوا قد أقاموا فى هذه المنطقة قبل مقدم تلك الهجرة، أبوا الخضوع لهم، ويبدو أن ذلك كان بسبب اختلاف المذاهب الدينية بين السكان العرب فى مقديشيو، وكانوا من الزيدية وبين الوافدين الجدد، وكانوا من الشافعية. ولما عجز الزيديون عن مقاومة خصومهم فى المذهب، تركوا المدينة، وتوغلوا فى الساحل إلى الداخل .

وعلى هذا فإنه لا يعرف تاريخ محدد لهذه الهجرة، التى ترتب عليها تأسيس كل من مقديشيو وبراوة، وإن كان المحتمل أن مقدشيو تأسست فى أوائل عهد الفاطميين، فى مصر والذين بدأوا حكمهم عام ٣٦٩هـ .

وقد استطاعت قبيلة الإيجل الصومالية أن تستولى على السلطة فى مدينة مقديشيو، فى القرن الثالث عشر الميلادى. وأول من حكم مقديشيو من قبيلة الإيجل، هو الشيخ عمر جلولة، ورسم نظام التوارث فى حكم مقديشيو بين أولاده، وفى عهد ابنه أبى بكر بن عمر الأجل زار، ابن بطوطة مدينة مقديشيو .

وقد قال ابن بطوطة عنها أن المسافة بينها وبين زيلع خمسة عشر يوماً، وهى مدينة متناهية فى الكبر، وأفاض فى الحديث عن نشاطها التجارى، وأكد اتصالها اقتصاديا بمصر ، إذ تصنع بها الثياب الرقيقة المنسوبة إليها، والتى لا نظير لها، ومنها تحمل إلى ديار مصر وغيرها ، كما ذكر أن القاضى الذى استضافه فى منزله أثناء إقامته بمقديشيو يدعى ابن البرهان، وقال عنه ابن بطوطة إنه مصرى الأصل، ويظهر من روايات ابن بطوطة مدى تحضر امارة مقديشيو، وأن سلطانها يجيد العربية، وإن كان يتكلم المقديشية، ويظهر من وصفه لمدينة مقديشيو أنها وصلت إلى درجة كبيرة من التطور، وأصبحت لها أنظمة وتقاليد خاصة بها. ويتضح ذلك من جلوس السلطان على العرش، وما يحيط به من أمراء ووزراء ووجوه القادة كل حسب مرتبته، وأن الأطيال والاثغار والأبواق كانت تضرب عند جلوسه ، كما تحدث ابن بطوطة عن جلوس الفقهاء، وذوى الرأى والمشورة، وكيفية نظرهم فى شكاوى الناس وتطبيقهم للشريعة الإسلامية ، ثم يصف لنا الحياة الإقتصادية به، ومدى ما وصلت إليه السلطنة من اتساع فى النفوذ، ونمو مطرد فى التجارة. ولقد تحدث عن نظام الشورى، وتقدير العلماء والفقهاء بين الرعية ومع السلطان، وعن الأبنية العظيمة بالمدينة؛ مما يفيد أن مقديشيو آنذاك كانت تنعم بحياة من الرفاهية والازدهار والاستقرار السياسى والاقتصادى .وقد كان المسلمون من مقديشيو يحجون إلى مسجدها الجامع فى مواسم معلومة ، والذى يبدو أنه دفن بجواره أحد الصالحين، و من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو من أسرة زين العابدين بن على بن ابى طالب، أو من آل هاشم أو عبد مناف، أو عبد الدار، أو من قريش.

وقد أعجب ابن بطوطة بما عرف به أهل هذه البلاد من الورع والتقوى ، ويقول ابن بطوطة أنه إذ وصل أحد المراكب الى مقديشيو، خف إليه بعض الشبان من رجال السلطان، فاستفسروا عن كل ما يتعلق بالمركب من أين قدم، وسألوا عن اسم صاحبه واسم ربانه ، وعن حمولته، ووقفوا على أسماء المسافرين، وعرضوها على السلطان يأمر بإنزال من يستحق التكريم فى دار الضيافة ، ويقص علينا ابن بطوطة كيف أن قاضى المدينة وتلاميذه الذين كانوا يدرسون على يديه علوم الدين الإسلامى ، وكيف استقبلوه عند قدومه واستضافوه

بضعة أيام فى دار الطلاب باعتباره ضيف السلطان ، وقدموا إليه أحسن الطعام، وطعامهم الأرز المطبوخ بالسمن، يجعلونه فى صحف خشبية كبيرة، ويجعلونه فوق صحاف فى الكوشان، وهو الأدام (تضم الألف الثانية مع الهمزة) مع الدجاج واللحم والحوت (أى السمك والبقول) ويطبخون الموز قبل نضجه فى اللبن الحليب، ويجعلونه فى صحفه، ويجعلون اللبن المربب فى صحفه، ويجعلون عليه الليمون المصبر (بضم الميم وفتح الصاد وفتح الباء مع التشديد)، وعن قيد الفلفل المصبر المخلل، والمملوح، والزنجبيل، والواحد من اهل مقديشيو يأكل قدر ما تأكله الجماعة منا ، وهم فى النهاية من ضخامة الجسوم وسمنها .

بل لقد ورد ذكر مقديشيو فى حوليات الصين ، ولاسيما فى عهد أسرة منج، ويتحدث المؤرخ الصينى عن جفاف إقليم الصومال وكثرة مرتفعاته وقلة أمطاره ، ويذكر أن الدور مبنية من الحجر، وكانت مقديشيو أهم مدن شرقى أفريقيا وخاصة فى التجارة مع الصين، وقد بلغ أوج عظمتها فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وفى عام ١٤٣٠م زار الأسطول الصينى مقديشيو ، ولما جاء الأوربيون إلى هذه البلاد، التى لم تطأها أقدامهم من قبل، أعجبوا بما بلغه هذا المجتمع العربى الإسلامى من حضارة، لا تقل عما عرفوه فى أوروبا .

وكان شيخ مقديشيو ورجال حاشيته أول من مر بهم فاسكوداجاما، من أهالى هذه البلاد، وكانوا يرتدون عباءات من المخمل والقطيفة المنسوجة بخيوط الذهب والفضة وسيوفهم وخناجرهم مكفتة بالفضة، ولم يستطع دجاما أن ينزل بهذه المدينة، بعد أن شاهد قوة رجالها، انما لاحظ انها مدينة عظيمة، تتكون بيوتها من طوابق عدة وقصور شامخة، تحيط بها أربعة أبراج، وهذا لم يكن المجتمع فى مقديشيو عربياً خالصاً ، فقد كون العرب ارستقراطية حاكمة، وكان الهنود يملكون أغلب سفن المحيط، ويزاولون التجارة ويشتغلون بالشئون المالية، وإلى جانب الهنودكانت طبقة السكان، التى هى مزيج من العرب والأفارقة، وهم يتخاطبون باللغة السواحلية ، وهكذا استطاع العرب ان يسيطروا على هذه الشعوب الزنجية، بفعل روح الإسلام والمحبة والأخوة، وهذه هى طبيعة الجاليات التى استقرت فى مقديشو .

وكانت مقديشيو مدينة أصيلة البناء، فسيحة الأرجاء، شهيرة الذكر، يحكمها سلاطين الصومال ومشايخه بطريق الوراثة، يرث الابن الولاية عن أبيه. وعن أهلها أضاف ابن بطوطة:«أهلها لهم جمال كثيرة، ينحرون منها المائتين فى كل يوم، ولهم أغنام كثيرة، وهم

تجار أقوياء وبها نضع الثياب المنسوبة إليها ، وسكانها أهل إسلام ودين وعفاف، وهى مدينة ذات بهاء، وهى متطورة تبعاً لتطور حضارتها الإسلامية، ويتدفق إليها الآف التجار من أقطار آسيا وأفريقيا، وصارت مركزاً علمياً مهماً، يشع منها نور الإسلام، وكان الطلاب يأتون اليها وفوداً من الأقاليم والمدن الصغيرة والمجاورة والبادية لتلقى العلوم الدينية، بعد أن يكونوا قد أتموا حفظ القرآن الكريم؛ لأنها كانت ذات أثر كبير فى النهضة التعليمية بالمنطقة، وفى سير تعاليم الدين الإسلامى؛ حيث كانت تضم بين جنياتها ومدارسها نخبة من علماء الفقه والشريعة والدين واللغة العربية وآدابها، وهى مجتمع للسفن والقوافل، التى لا تنقطع، وخصوصاً القوافل بينها وبين هرر دائما متصلة ومستمرة، وقد توالى المهاجرون اليها نظراً لمركزها التجارى» .

وكانت مقديشيو قوية الحصون، فاستطاعت أن ترد الغارات، وأن تعيش عزيزة الجانب فترة طويلة، ولم يستطع البرتغاليون أن يسيطروا عليها، عندما سيطروا على الساحل الجنوبى فى القرن السادس عشر الميلادى ، والسبب فى ذلك ما ذكره بعض المؤرخون الأجانب من ان بعض الحكام فى ساحل الصومال، كانوا يدينون بالولاء لدولة المماليك فى مصر ، وبعد المماليك عاون الأتراك العثمانيون مدينة مقديشيو على الاحتفاظ باستقلالها .

وذلك لأنه عندما قدم البرتغاليون فى عام ١٥٠٣ ، بسط البرتغاليون نفوذهم التجارى على ساحل المحيط الهندى الجنوبى، وتطلعوا إلى النزول فى مقديشيو، ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها وعلى مقاليد الحكم بها، ولو أن بعض التجار كانوا ينزلونها تحت حماية العثمانيين، وكانت مقديشيو محتفظة باستقلالها طوال حكم البرتغاليين فى شرق أفريقيا، وكانت محطة لسفن العرب ذهاباً وأيابا من بلاد العرب إلى زنجبار .

ولقد شارك شعب الصومال الأمام احمد بن ابراهيم، المشهور بالشول أو القرين، حركة الجهاد ضد الأحباش، وذلك عندما استنفر قبائل الصومال للجهاد؛ فوصلت إليه القبائل الصومالية، وعلى رأس كل قبيلة منهم زعيمها ، وكان من الذين لبوا نداء الجهاد المقدس (احمد جرى بن حسنين الصومالى)؛ حيث وصولوا إلى هرر بعدتهم وخيولهم وسربهم الإمام أحمد سروراً عظيماً، كما وصل بعدهم منتان بن عثمان بن خالد الصومالى، وغيرهم، كثير من قبائل الصومال، الذين شاركوا فى حركة الجهاد الإسلامى .

وقد كان شعب الصومال والأعفار والجلا من الشعوب البدوية، التى لعبت الدور الأول فى تاريخ النضال من أجل الإسلام ، هذه الشعوب البدوية أيضا، والذى منها شعب الأعفار ويسميهم الأحباش والعرب باسم الدناقل، والذين كانت ظروف بيئتهم ومصاعبها تدفعهم إلى

الخروج فى هجرات موسمية، منطلقين نحو الغرب؛ حيث الاستقرار والطمأنينة فى قلب الهضبة الحبشية، وإلى الجنوب من هؤلاء، نزل شعب حامٍ آخر، هو الشعب الصومالى، والذى اندفع فى هجرات مطردة نحو الجنوب والشمال والغرب .

وبلغت هذه الهجرات أقصاها فى عهد الإمام أحمد القرين، واشترك الصوماليون فى حركة الجهاد، وأشار المؤرخ عرب فقيه إلى القبائل الصومالية، التى شاركت فى الحرب بجانب الإمام، ولبت نداء الجهاد، وقدمت وعلى رأس كل قبيلة قائدها ، كما اشار إلى المغانم الوفيرة من الخيل والبنغال والبقر والدقيق والقماش، التى حازوها بفضل تأييدهم لأحمد بن إبراهيم الغازى .

وكانت هجرات الصوماليين فى القرن السادس عشر الميلادى، قد أخرجتهم من مواطنهم ودفعتهم نحو الغرب، وقد استغلوا فرصة الضعف التى اصابت الحبشة، من جراء غزوات الإمام احمد القرين، وهاجروا إليها وأوغلوا فيها وشاركوا فيها .

وهذا يعطى الدليل القوى على قوة الإيمان، التى تجلت فى انطلاق الصوماليين نحو الغرب؛ للمشاركة فى الجهاد الإسلامى، الذى تزعم حركته الإمام احمد القرين؛ مما يدل على وحدة الترابط الإسلامى بين الصومال والأحباش المسلمين، وكانت توجد فى مدينة مقديشيو أسواق ضخمة يقصدها أبناء البلاد الأصليين من الصوماليين أو الدناقل أو البجه؛ لبيع حاصلاتهم، وشراء ما يحتاجونه، أو بقصد الإقامة والتماس فرص العمل، فكان اختلافهم إلى هذه المدن يتيح لهم فرصة الاحتكاك بالحياة الإسلامية عن كسب ويدفعهم إلى العمل والجهاد فى نشر دين الله الخالد، وهكذا كانوا رسل سلام وإسلام إلى كل المناطق الداخلية .

ولا يعلم عن تطور التنظيمات العربية التى جاء بها العرب إلا ما نجده من آثار ، ومن اقدم هذه الآثار المسجد الكبير، الذى له مئذنة أسطوانية، وكانت بداية العمل فيه أول المحرم من عام (٦٣٦هـ / ١٤ أغسطس ١٢٧٨م). وهناك ايضا مسجدان قديمان، وهما: مسجد فخر الدين ومسجد أربع ركن ، وقد أنشىء جامع فخر الدين فى نهاية شعبان (٦٦٧هـ/ ١٢٦٩م (وقد بناه السلطان أبو بكر فخر الدين، وكان أول سلطان لمقديشيو، كما جاء فى الروايات المحلية، أما مسجد اربع ركن، فقد أعيد بناؤه، ويحمل نقوشًا على مؤسسة خسرو بن محمد الشيرازى.

وقد كانت وفدت خلال القرن التاسع الميلادى جماعة من التجار، تحت قيادة رجل، ينتمى إلى الطائفة الاسماعيلية الشيعية من علماء الطريقة القرمطية، التى زعزعت العالم

الإسلامى عن طريق الحق والصواب، ثم جاء بعدهم جماعة من التجار الشيرازى، وهم الذين بنوا مسجد الأحناف، وجاء بعدهم تجار من العراق .

وهنالك أيضا اثر مهم، وهو أنه قد أنشىء فى مقديشيو حوض جاف للسفن، محفور فى الساحل المرجانى، وحفر له طريق إلى المحيط، وكانت مياه هذا الحوض تندفع إلى المحيط فى حالات الجرز .

وقد حدث خلاف داخلى بين زعماء مقديشيو ، انتقل إلى صراع مرير فى القرن التاسع عشر الميلادى ، وكان القرن الثالث عشر الهجرى قد شهد اختلاف اهل بنادر وتشعبوا؛ حتى قتل بعضهم بعضًا ، مع ابتداء قدوم رواد أوروبا، فكتب بعض الزعماء الوطنيين رسالة إلى سلطان زنجبار فى ذلك الوقت السلطان سيد برغشى بن سعيد، يطلبون منه حمايتهم من غارات قراصنة الأوروبيين، وقد استجاب سلطان زنجبار لهذه الرغبة، ومد نفوذه إلى سواحل الصومال الجنوبية فى عام ١٨٧١م، ولكن لم يتجاوز حكمه أسوار المدينة، مع أنه يدعى حق السيادة ، وفى الوقت نفسه كان الاستعمار الأوروبى يدق أبواب مقديشيو ، وفى الوقت نفسه، كان نفوذ مصر ينساب إلى الجزء الشمالى من هذه المنطقة؛ ليشمل مقديشيو وكسيمابو .

وفى عام ١٨٩١م، تنازل السلطان الزنجبارى عن نفوذه فى ساحل الصومال لإيطاليا، مقابل مائة وأربع وأربعين الف من الروبيات، وبذلك وقعت مقديشيو تحت حماية الإيطاليين، الذين عاملوا اهلها بالذل والاحتقار، واستمرت إيطاليا تحكم ذلك الإقليم، زهاء خمسين عامًا؛ حتى سقطت تحت أقدام بريطانيا فى الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤١م .

وفى يناير ١٩٤١م احتلت القوات البريطانية مقديشيو، واتخذتها قاعدة مهمة؛ لمراقبة المحيط الهندى، حتى عادت إيطاليا لتكون وصية على الصومال من قبل الأمم المتحدة، وتسلمت زمام الحكم فى الصومال من سلطات بريطانيا وأصبحت مقديشيو العاصمة فى عهد الوصاية الإيطالية .

وهكذا كانت مقديشيو فى أقصى شمال الإمارات العربية، تمر فى تطور مشابه من الرقى والحضارة والتقدم، فقد قامت فيها سلطنة إسلامية، ذات نظم ورسوم وإدارة وشورى، وقد أصابت قدراً كبيرا من الثروة والجاه ، وقد تبلورت تقاليدها ونظمها وكيفية تطبيق الشريعة الإسلامية ، بل إنها استطاعت ان تبسط نفوذها على أغلب مدن الساحل الشرقى، طوال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وقد كان لها نشاط صناعى؛ فقد عرفت مقديشيو

صناعة المنسوجات الرقيقة، التى كانت تصدر إلى العالم الإسلامى كله، والتى كان يحمل منها جزء إلى مصر .

وهكذا استطاعت هذه المجتمعات، بعد أن تنوعت مصادر الثروات فيها، على هذا النحو، أن تصل من الغنى والترف ما يقرب من الخيال .

وليس هناك أدنى شك أن مقديشيو قد فرضت نفوذها السياسى، على بعض الأجزاء والمدن المحيطة بها شمالا وجنوبا؛ فقد وصل نفوذها على المنطقة الساحلية حتى راس حافون ، ومدت نفوذها جنوبا إلى براوة وقسمايو، بعد أن أعلن ولاة هذه المدن ولايتهم لمقديشيو وحكامها وتعاونوا معها ، ذلك لأن هذه السلطنات والإمارات كان طابعها اقتصاديا صرفاً، وتاريخها الاقتصادى المزدهر يؤثر فى حضارتها فى حياتها الاجتماعية ، بل يؤثر فى نشاطها الإسلامى .

ولقد كان الحديث عن وسط شرق أفريقيا، باعتبار أن مقديشيو هى المعنية بذلك الاسم، حيث إن هناك الإمارات الشمالية والداخلية، التى تحدثنا عنها فى الفصل السابق ، أما الإمارات الجنوبية فسوف تكون حديث الفصل القادم، ولقد شهد القرن التاسع عشر الميلادى وصول مصر إلى تلك الأنحاء؛ حيث بسطت مصر نفوذها على الصومال الجنوبى، ووصلت إلى جنوب مقديشيو فسيطرت على براوة وقسمايو .

حيث شهد عام ١٨٧٥م- وفى أكتوبر- توجهت البعثة المصرية إلى رأس حافون، الواقعة جنوب رأس جردفون، ووصلتها فى ١٥ اكتوبر ١٨٧٥م، ولما وصلت الحملة إلى رأس حافون، حضر عم سلطانها وبرفقته بعض الأهالى بهذه الجهة وشيوخها؛ لتقديم فروض الطاعة، وتسلموا الأعلام المصرية لرفعها على البندر، وتوجهت الحملة بعد ذلك جنوباً إلى براوة؛ حيث قابلوا أميرها فقدم لهم كل مساعدة ممكنة، ثم حضر مشايخ بندر براوة بدورهم أيضا، فقدموا فروض الطاعة، وقدموا كتاباً إلى المندوب المصرى، يعلنون فيه ولاءهم للحكومة المصرية، وينفرون من حكومة السلطان برغشى بن سعيد ، سلطان زنجبار ، الذى يجبى منهم العشور، دون أن يكلف نفسه الاهتمام بحمايتهم من أعدائهم الذين يغيرون عليهم ، وبعد رفع الأعلام المصرية فى هذه الجهة ، استأنفت الحملة سيرها حتى وصلت نهر الجب، ثم توجهت البعثة المصرية بعد ذلك إلى اكثر من ذلك جنوباً؛ حيث مدينة قسمايو، وكان بندر قسمايو يحكمه حاكم من قبل سلطان زنجبار، ويدعو هذا الحاكم (احمد بن حميد

العدوى)ومعه ستون جنديًا، فلما أطلقت المدفعية المصرية مدافعها احتفالاً بالعيد ، فقد وقع الرعب فى قلوب الحاكم وجنوده، فهربوا بعائلاتهم، قاصدين جهة زنجبار، وقد غير رئيس الحملة اسم قسمايو، فسماها بورت اسماعيل، وهى ميناء جيد صالح لرسو السفن ، وبالبندر عدة مساكن من الخشب، ولا يوجد بها مساكن صحية، وسوقها عامر بالمتاجر؛ إذ يفد اليها تجار الهند ومعهم بضائعهم من الأرز والبصل وقصب السكر ، كما يرد لها التمر من مسقط والذرة من زنجبار، وذلك لمبادلتها بالسفن والصمغ وريش النعام والعاج والأغنام، التى ترد إليها من داخل القارة الأفريقية، ولكن وقوف انجلترا فى وجه التوسع المصرى فى هذه الجهات؛ بدعوى المحافظة على حقوق سلطان زنجبار، قد أدى إلى توقف الحملة المصرية بل إلى انسحابها ، ولقد كان القصد الاساسى من هذه الحملة هو ربط الساحل بالداخل، ولذلك فقد تأهبت الحملة بعد أن وضعت يدها على النقاط الساحلية المهمة؛ للتوغل الى الداخل بقصد الوصول الى بحيرة فكتوريا، وتمهيد ذلك الطريق الذى يربط الجهات الداخلية، التى دخلت حوزة الحكومة المصرية بالساحل الشرقى الأفريقى القريب من مقديشيو .

وهكذا تشير الحقائق التاريخية أنه من رأس جوار دافوى حتى الساحل الشرقى لأفريقيا، إلى أن تاريخ العصور الوسطى لهذه المنطقة، إنما كتبته عناصر العرب، التى استقرت هناك مع بداية العصر الإسلامى، والتى يرجع المؤرخون المسلمون أصولها إلى العرب قبل الإسلام، إلا أن تاريخ الحضارة الإسلامية فى الساحل الشرقى لا يرجع إلا إلى القرن الثالث عشر ، وعلى هذا الأساس فإنه يمكن أن نفهم مسألة استقرار العرب فى شرق أفريقيا فقد كانوا يشاركون فى التجارة العالمية الخاصة بالمحيط الهندى، وكانت العناصر المستقرة الأولى فى القرن الثامن تابعة لمذاهب الجزيرة العربية وشرق أفريقيا، وقد استطاع العرب فى تلك الفترة تأسيس أربعين مدينة مشيدة بالحجارة، وبعيدة عن الساحل الشرقى ، وتروى آثار المنطقة أنه فى منتصف القرن الثالث عشر، حتى وصول البرتغاليين فى نهاية القرن الخامس عشر كان يخيم على ساحل شرق أفريقيا هدوء وسلام شاملان ، وقد استقرت جماعات إسلامية متحضرة فى مقديشيو، وطول الساحل الصومالى الكينى التنجانيقى، فى تشييد بيوتهم من الكتل الصخرية، كما استوردت الفخار من سيام والخزف الصينى ومعادن الصين، وقد سك سلاطين مقديشيو نقودهم النحاسية فى هذه الفترة، فى دور صك النقود؛ ليمكن تداولها فى أى مكان من أفريقيا ، كما أنه يوجد بها مصنع للنسيج، ينتج الأقطان والملابس المصنوعة من وبر الجمال؛ لتباع فى اسواق مصر ، ولقد كان العاج من أهم صادرات هذه

المدن الصغيرة على طول الساحل، ويبدو أن التحول الاقتصادى الذى حدث فى القرن الثالث عشر كان نتيجة لاستغلال الطرق التجارية، التى كانت موجودة من قبل ، وإذا كان التقدم الاقتصادى والمادى واضحاً فعلاً فى مقديشيو وماجاورها ، إلا أن أهم ظاهرة فى القرن الثالث عشر كانت التقدم فى الأمور الثقافية والفنية، التى انعكست على رخاء المنطقة، وقد امتد ذلك الاثر إلى المسلمين فى المحيط الهندى، على الجانب الآخر فى مجال توسعهم .

ولقد انعكس الاثر الدينى فى فترة ازدهار مقديشيو على المساجد والمقابر الإسلامية، على طول الساحل، وربما بدأت اللغة والحضارة السواحيلية تتخذ طابعها، وتنتشر بين مسلمى البانتو على السهل الساحلى، وتشير الوثائق أنه كانت هناك اتصالات بين الحضارة الإسلامية فى مقديشيو على الساحل الشرقى، وبين الداخل الأفريقى من الشرق أيضاً؛ ففى بيئة البانتو مثلا تعيش العناصر الصومالية السواحيلية، الذين عملوا فى التجارة بعد دخولهم الإسلام، فتبادلوها بريا مع الجالا الوثنيين فى جنوب مملكة الحبشة .

وهكذا نرى كيف أن مقديشيو كانت أقوى الامارات العربية الإسلامية على الساحل الشرقى لأفريقيا ، إذ نجد أنه عند قدوم البرتغال إلى هذه السواحل، فإنهم اخضعوا المدن بعد أن رضيت أن تدفع الجزية للبرتغاليين ، ثم جاء دور مقديشيو، وكانت أقوى هذه المدن وأغناها ، ولما ألقى البرتغاليون مراسيهم فى مينائها، وجدوا الساحل يزخر بالمقاتلة، واضطر البرتغاليون إلى مغادرتها؛ بسبب ذلك الموقف العسكرى العربى الإسلامى، وحشد المقاتلة بهذه الصورة، وكذلك بسبب موسم الرياح الموسمية، الذى كان على وشك أن ينتهى، وبهذا وقفت مقديشيو فى وجه البرتغاليين ، بل إن موقف الدفاع الذى وقفته فى وجه الزحف البرتغالى، كان من الأسباب القوية التى أدت إلى تقلص النفوذ البرتغالى فى شرق أفريقيا .

وإذا كان ظهور المندوب العثمانى فى تلك السواحل، قد قوبل بحماس شديد فى مقديشيو، وغيرها من المدن؛ حيث دخلت تلك المدن وأولها مقديشيو فى طاعة السلطان العثمانى؛ حيث وجدوا فى السلطان العثمانى المسلم القوة التى يمكن تلوذ بها مقديشيو .

ولقد ساعد مقديشيو على أن تقف ذلك الموقف، وتكون بتلك الصورة القوية والفتية ذلك؛ لأن هذه الامارة تختلف عن الإمارات الشمالية المجاورة لها، والتى دخلت فى صراع مع الحبشة ، هى أن مقديشيو- قبل قدوم البرتغاليين وسيطرتهم على الساحل الشرقى ومحاولة السيطرة على المدينة- لم تجد دولة مسيحية مجاورة لها، تنازعها لقمة العيش،

وتحاول القضاء عليها؛ مما أعطاها الفرصة والإزدهار، كما تحدث عن ذلك ابن بطوطة، عند رحلته وزيارته لهذه المدينة، ووصفه لها وصفاً تفصيلياً .

ومن هنا لم تقف الحبشة لها بالمرصاد ، ولم تكتب لها صفحة من صفحات الجهاد الإسلامى، سوى مشاركة بعض القبائل الصومالية فى حركة الجهاد الإسلامى، التى قادها الإمام أحمد بن إبراهيم، الشهير بالقرين أو الاشول ، كما أن تاريخها لم يتسم بطابع الفروسية؛ مما جعل بعض القرى والمدن، التى تخضع لسيادتها قد خضعت لسلطان زنجبار، بمجرد إرسال قوات بسيطة العدد إلى هذه المدن ، ومن هنا عاشت فى سلام، تتابع نشاطها الاقتصادى إلى أن كان قدوم الصليبيين البرتغاليين، الذين قدموا اليها من المحيط، وليس من البر، كما جاء الأحباش إلى اخواتهم فى الشمال، واستمرار القتال طوال اربعة أو خمسة قرون متواصلة؛ حيث وقفت البرتغال بمساعدتها للحبشة ضد حركة النضال الإسلامى، فى ممالك الطراز الإسلامى .

وقد سجل البرتغاليون إعجابهم بما رأوه وشاهدوه ووجدوه فى مدن الساحل الشرقى لأفريقيا وبصفة خاصة مقديشيو، التى لم تستطع أن تصل إليها قواتهم ، حيث شاهدوا مدن ومجتمعات متحضرة على ساحل شرق أفريقيا وتجارة مزدهرة، مع الشرق الأقصى والهند، كما سجلوا إعجابهم لخطوة من التناقص الشاسع بين الساحل الغربى والساحل الشرقى من أفريقيا الذى وجدوه يموج بالحياة ، فقد لقى التجار ما لم يكن فى حسبانهم حينما خرجوا يضربون فى البحر ، لقوا مرافىء تطن كخلايا النحل، ومدن ساحلية عامرة بالناس، وفرحوا حين وجدوا بين التجار العرب والهنود، رجالا عبروا المحيط مرات عديدة، ويعرفون من اجل ذلك دقائق أموره ومواعيد الإبحار فيه، والموانى التى يمكن الالتجاء إليها ، رأى البرتغاليون على هذا الساحل مدناً آهلة بالسكان، لا تقل نشاطاً عن مدنهم البرتغالية، كما رأوا تجارة عربية إسلامية بحرية فى الذهب والحديد والعاج والخرز والأقمشة القطنية والحريرية، وغير ذلك من المواد التجارية ، حيث وجدوا عالماً تجارياً، أوسع من عالمهم، الذى جاءوا منه واكثر ثراء من بلادهم، وحتى السفن التى وجدوها، كانت أكبر من سفنهم ، فقد كانت عابرة المحيط الهندى، أكبر آنذاك من السفن البرتغالية التى قدمت بقيادة دى جاما، حتى لقد عجب سكان الساحل من أين أتى البرتغاليون، وكل البلاد عندهم معروفة .

وهكذا كانت الهجرة العربية والدين الإسلامى الحنيف من الأسباب القوية ، بل العامل المؤثر والفعال، بل والوحيد فى ظهور هذه المدن السواحلية، والتى كانت مقديشيو إحدى

المدن، بل الإمارات الكثيرة التى أقامها العرب المهاجرون من أقليم الأحساء؛ حيث هاجر الإخوة السبعة ، وهكذا ظهرت تلك المدينة الإسلامية، التى شاركت أخواتها فى الشمال وفى الجنوب؛ حيث ساحل الزنج ، حركة المد الإسلامى والانتشار الحضارى الإسلامى؛ لكى يتم طبع تلك الأنحاء بالطابع الإسلامى، وقد يكون هناك سؤال لماذا لم يتم تعريب تلك الأماكن، ما دام الإسلام وحضارته قد أخذت تؤتى ثمارها الثقافية والعلمية والحضارية، ونقول إن اختلاط العرب بنسب متفاوتة فى تلك الأقاليم مع سكان الإقليم من شعب البانتو والهنود والفرس، لم يدع فرصة للانتشار العربى الخالص ، لكن ليس فى ذلك أن اللغة العربية لم تكن اللغة الرسمية لهذا الإقليم ، كلا فإن الإقليم الشمالى ــ ساحل البنادر والصومال ــ والقسم الشمالى الممتد من الشمال حتى إقليم ارتيريا قد تعربت جنسًا ولغة وشعبًا وعقيدة، وهكذا كانت صورة مدينة مقديشيو، كما عرضنا لها فى ذلك الفصل .

وقد كان بالإمكان الحديث عن مقديشيو مع بقية الإمارات الجنوبية ، لكن كون مقديشيو عاصمة ساحل شرق أفريقيا الأوسط، جعلنا نفرد لها ذلك الفصل؛ حتى يكون القارىء على بينة من كل هذه المدن العربية الإسلامية، ودور الإسلام فى حضارة تلك الأقاليم ورقيها وتمدينها، والأخذ بيد شعوبها إلى مدارج الحضارة العربية الإسلامية .

* * *

الفصل الثالث

الامارات الإسلامية الجنوبية

إذا كنا قد تحدثنا فى الفصلين السابقين عن الامارات الشمالية والوسطى، فإن الأمر يقتضى هنا أن نتحدث عن الإمارات الجنوبية، التى امتدت من جنوب امارة مقديشيو حتى سفالة جنوباً، مع الإشارة إلى كل إمارة أو ولاية مهمة من هذه الإمارات، ويطلق على تلك الإمارات الجنوبية بر الزنج أو إقليم الزنوج، وهو اسم يطلق على ساحل أفريقيا الشرقى، وتشمل المنطقة التى تمتد من حدود كينيا الشمالية مع بر العجم إلى سفالة جنوبا . وقد لعب هذا الساحل دوراً مهماً فى الحياة السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية مع العالم العربى والإسلامى المجاور؛ حيث كانت منطقة الساحل الجنوبى مركزا وسطا، تلتقى فيه مختلف البضائع التجارية، كما التقت فيه حضارات العالم .

ويبدأ ساحل الزنج أو كما يطلق عليه أيضا ازانيا أو عيزانيا، والذى يتكون من مجموعة الجزائر المعروفة باسم أرخبيل لامو، وكانت جزيرة لامو ، الموطن الأول الذى نزل فيه الأمويون وأنشأوا فيها أول حكومة لهم فى شرق افريقيا ، وقد وجد هؤلاء جماعات من العرب قد سبقتهم إليها ، كما جاءت جماعات متتابعة بعد ذلك ، ويبدو أن جميع الجزائر التى يتكون منها ارخبيل لامو، كانت تحكمها أسرة وراثية، وتأتى بعد هذا الأرخبيل منطقة حوض الاتن المعروفة باسم تانا، وتقع فى هذه المنطقة جزائر الباجون، ويصب نهر الاتن فى خليج انجوانا ، وتقع على هذا الخليج المدينة المسماة باسم الخليج، وكانت من المدن الثلاث الكبرى على ساحل أفريقيا الشرقية ، وكان بها مسجدان كبيران، وعدد آخر، من المساجد، أصغر حجماً، وجاء بعدها ميناء مالندى جنوباً، وقد اشار إلى هذا الميناء الأوروبى الجغرافى المسلم الإدريسى، ثم بلدة جيدى، وتقع شمال ممبسا بحوالى ستين ميلاً، وبها خرائب عدة من مبانٍ، وقصر وجامع ومسجد وتأتى بعد ذلك بعد ممبسا التى هى مدينة قديمة، ولا يعلم أصل اسمها، ويقول البعض إنها جزء من ارض بنت Punt كما يقولون إن بها بلدة رابتا Rhapta، التى أشار إليها بطليموس، ثم فى الاتجاه الجنوبى تأتى بعدها زنجبار، ثم تصل جنوبا إلى كلوه وجزائر الكومورو ومدغشقر وسفالة .

وهناك اقوال تشيد إلى أن ميناء (قنبلو بفتح القاف والباء وسكون النون) كانت من أقدم الموانى والمراكز التجارية، التى انشأها العرب على الساحل، وقد زارها المسعودى، واختلفت الروايات حول موقع هذا الميناء ، فيقول البعض إنها كانت على جزيرة زنجبار، ويذكر آخرون أنها كانت على جزيرة بمبا ، غير أن المسعودى يحدد موقعها على أنها قريبة من سوفالة، كما أن ذلك الميناء جاء فى خريطة ابن ماجد أنها جنوب ممبسا .

كما أن الروايات تشير إلى أنه ظهرت فى تلك الجزيرة حكومة عربية، وتحكمها اسرة حاكمة مسلمة، وأن جماعة من عرب قبيلة الأزد، كانت تعمل فى التجارة، بالاضافة إلى هؤلاء، كانت هنالك جماعات من الأفارقة .

ويعتقد أن قيام الأسرة المسلمة العربية بالحكم فى تلك الجزيرة، يرجع إلى صدر الإسلام؛ أى قبل نهاية القرن السابع الميلادى ، فقد كانت هناك روايات مختلفة عن إنشاء مجموعات من الموانى، على يد الأمويين، الذين جاءوا إلى الشاطىء الجنوبى فى العصرين الأموى والعباسى، ومن ثم جاءت أيضا إلى الساحل جماعات متتالية من هجرات جماعية عربية إسلامية، وانتشر هؤلاء نحو الداخل، وجاءت مع هذه الجماعات العربية صور من الخلافات العقائدية، غير أن هذه الخلافات لم تؤثر على النشاط الاقتصادى، الذى تركزت حوله كل الجهود، الذى لم يترك ارضاً خصبة لبذور الخلافات والفتنة الطائفية والمذهبية والدينية، واستمر هذا الوضع قبل قدوم الاستعمار .

وهكذا إذ كانت قد وفدت على شرق أفريقيا جماعة من نواحى البحرين على الخليج العربى، فراراً من أمير الأحساء، وبنوا مدينة مقديشيو على ساحل المحيط الهندى ببلاد الصومال ، ثم هاجرت جماعة أخرى من الخليج العربى، بزعامة أحد أبناء سلاطين شيراز، وكانت أمه حبشية، فراراً من سوء معاملة إخوته له، وقد رحلت هذه الجماعة إلى مكان على ساحل شرق أفريقيا؛ حيث أسسوا مدينة كلوه (بكسر الكاف وسكون اللام) ، وتقع حالياً فى تنزانيا، وقد أنشأ العمانيون ميناء مسقط على ربوة عالية، تشرف على الخليج العربى، وعن هذا الطريق أخذوا يشتركون فى التجارة الإسلامية فى المحيط الهندى، وفى القرن الخامس الهجرى والحادى عشر الميلادى ، عرف أهل عمان بمهارتهم فى بناء السفن وبلغوا ساحل زنجبار لجلب الأخشاب اللازمة لبناء السفن، كما جلبوا ثمار جوز الهند، وسرعان ما أخذ العمانيون يستقرون فى شرق القارة الأفريقية وينظمون شئونها .

وقد سيطر العرب على براوة وبنت ولامو ومالندى كاليفى، وممبسة وفمبا وبمبا وزنجبار ومافيا وكلوه وموزمبيق وسفالة، وقد انشىء اغلب هذه المدن على جرز ساحلية يبعد بعضها عن الساحل مثل زنجبار، ويقرب بعضها الآخر منه مثل كلوه وممبسة، وهذه المدن عبارة عن موانىء ساحلية، محصنة تحصيناً قوياً، ولكل منها مسجدها الجامع .

وفى عام ١٣٣٥م، استطاعت إمارة بنت Punt أن تستولى على الساحل الشرقى من مالندى إلى كلوه عدا زنجبار ، ثم تبعتها إمارة ممبسا ومقديشيو وزنزبار ، ولكن زعامة كلوه كانت أكثر هذه الزعامات بقاءً، وأكثر هذه الإمارات قوة؛ لأنها كانت تسيطر على منطقة سفالة، وتقوم بالتجارة فى الذهب الذى يستخرج من سفالة منذ القرن الثانى عشر الميلادى. وقد استطاعت كلوه ان تحقق هذه الوحدة المنشودة إلى حد ما؛ حتى جاء البرتغاليون فى القرن الخامس عشر ، فوجدوا أن هذه الإمارات لا تزال تسيطر على الجزء الجنوبى من ساحل كلوه، ولما القى فاسكو دى جاما مراسيه فى موزمبيق، وجد حاكم هذه المدينة الذى عين من قبل سلطان كلوه، يجمع المكوس باسم هذا السلطان .

وقد تحدث المسعودى عن ساحل شرق أفريقيا ، حيث اقام على ساحل شرق افريقيا زمنا وحاول أن يتخطى الساحل إلى الداخل، ولكنه لم يصل إلى ابعاد كبيرة. وعلى الرغم من ان القرن العاشر الميلادى قد شهد تأسيس كثير من المدن والإمارات العربية والإسلامية على الساحل الشرقى، إلا أن الزنوج– كما أدرك المسعودى– ليسوا أمة واحدة، وإنما هم قبائل شتى وشعوب مختلفة؛ وذلك نظرا لاستقلال هذه الإمارات العربية الإسلامية، بعضها عن البعض الآخر ، وقد وصل إلى أقاصى بلاد الزنج-الجنوبية، وهى التى تقصدها المراكب العمانية والبراقية؛ حيث كان قد وصل إلى شرق أفريقيا، بصحبة بحارة من عمان وسيراف، ومن مدينة سنجارة صحار سنجار قضية بلاد عمان فى ذلك الوقت ، حيث بلاد الزنج هى غاية مقاصد السفن العربية، وهى نهاية أسافل بحر الزنج. وقد حدد المسعودى بلاد سفالة بأنها أقاصى بحر الزنج، وقال عنها (سفالة) هى أرض كثيرة الذهب ، كثيرة العجائب، خصبة حارة، ولم يذهب من قبله ولا من بعده من الرحالة العرب خلال العصر الإسلامى، وراء هذه المنطقة. وفى الحقيقة ربما لم يجد العرب بعد سفالة جنوبًا ما يسافرون من أجله؛ فلم يكن لهم أن يكلفوا أنفسهم مشقة الإبحار أكثر من سفالة جنوبا؛ إذ كانت سفالة تمدهم بكل ما هم فى حاجة اليه، وبكل ما تستطيع سفنهم الكبيرة أن تحمله من ذهب وعاج، ومنتجات ذلك الإقليم التى كانت تنوء بحملها السفن، إضافة إلى دورهم فى نشر الدعوة الإسلامية .

فهناك فى لامو جالية سنية كبيرة، ولها مسجد جامع تقام فيه الدراسات الإسلامية الدينية والعربية على نحو ما يحدث فى الجامع الأزهر فى القاهرة ، كما أنه تعيش فى المدينة نفسها جماعة شيعية، إلا أن الخلاف بين المذاهب الدينية لم ير أى نوع من الصراع، كما حدث فى قلب الدولة الإسلامية العربية، أو فى شمال افريقيا، وإنما يربط بين هذه الجماعات روح الوئام والمحبة؛ لأنهم جميعا يهدفون إلى نشر الدعوة الإسلامية، ورفع لواء الإسلام فوق هذه الأراضى الإسلامية، بعد أن كونوا هذه المدن الإسلامية، التى وصل عددها إلى اكثر من أربعين مدينة عربية إسلامية، شيدت بالحجارة والمبانى الفاخرة ، وكذلك العمل من اجل تحقيق الازدهار لهذه المدن بالعمل التجارى الاقتصادى .

وهكذا ظهرت تلك المدن ككيانات سياسية عربية إسلامية، وشهد الساحل الشرقى الجنوبى قيام كثير من هذه الإمارات العربية الإسلامية، وكثر عدد المهاجرين العرب إلى الساحل، ووضح الاستقرار الدائم وظهور هذه الدول الجنوبية شبه المستقلة .

وقد تحدث المسعودى عن أول دولة للزنج الجلعى، وهى غير سلطنة الزنج التى تأسست فى القرن العاشر الميلادى، واتخذت مدينة كلوه عاصمة لها، وأن الزنوج يقتلون ملكهم حينما يجور عليهم (قد يقصد بذلك الإقليم بعض سكان الداخل الوثنيين؛ حيث حاول المسعودى أن يتخطى الساحل إلى الداخل، ولكنه لم يصل إلى أبعاد كبيرة) ويقول عنه إنه يملك ملوك سائر الزنج، وله ثلاثمائة فارس، ودوابهم البقر، وليس فى أرضهم خيل ولا إبل، ولا يعرفونها، وأن تلك المملكة غنية بالذهب، وأن الزنوج بنوا عاصمتهم فى اقصى الجنوب؛ لتكون على مقربة من مناطق استخراجه، وأنهم يصدرونه بكميات وفيرة، ولعل المسعودى يكون بذلك أول من كتب عن مناجم الذهب، التى تشتهر بها المناطق الداخلية (روديسيا الجنوبية) .

وقد أشار المسعودى بمهارة الزنوج فى صناعة المعادن وفى التجارة والزراعة وفى صيد الأفيال، وأنهم يحرصون على الحديد أكثر من حرصهم على الذهب؛ حيث يتخذون حليهم من الحديد، أما الذهب فيصنعون منه سلاسل دوابهم، ولعله ذكره لكثرة إنتاجه فى بلادهم .

وكما سبق القول، فإن المسعودى تحدث عن جزيرة (قنبلو)، فذكر أنها جزيرة حارة، فيها قوم من المسلمين بين كفار الزنوج، وكلهم فى حكم أمير مسلم، إلا أن لغته زنجية،

وذكر أن الإسلام ينتشر بينهم بسرعة، وتتردد على جزيرتهم المراكب العمانية، وأشار إلى أنه وصل إلى قنبلو فى رحلته من مدينة سنجار صحار ، وقد حدد المسعودى تاريخ استقرار المسلمين فى قنبلو بقرن ونصف قرن قبل رحلته ، أى إن الإسلام قد وصل إلى تلك الأنحاء فى القرن السابع الميلادى، أو مع نهاية القرن الثامن الميلادى؛ حيث كانت رحلة المسعودى إلى شرق افريقيا ما بين أعوام (٩١٦ - ٩٢٦م) .

وقد قال عن جزيرة قنبلو إن المسلمين قد غلبوا على المدينة، وأنهم كانوا يشكلون الأغلبية العددية، وذلك مع بداية تأسيس الدولة العباسية ، ولكن التاريخ الذى ذكره المسعودى لا يكاد يوافق تأسيس أية إمارة عربية إسلامية، أو هجرة عربية كبيرة إلى شرق أفريقيا ، ومن الممكن أن يكون نزول العرب إلى جزيرة قنبلو، كان بسبب هجرة الزيديين إلى تلك المنطقة ، ولقد اشار بعض الجغرافيين الأوروبيين، ومنهم الفرنسى المستشرق رينواد Reinaud إلى ان المقصود بجزيرة قنبلو ربما يكون الأقرب إليها مدغشقر وملاجاش؛ حيث تكون هى الجزيرة التى أشار إليها المسعودى ، وأن كان البعض يحددها بكبرى جزر القمر، وهناك من يرى أن جزيرة قنبلو هى جزيرة زنجبار ، كما يستدل فى تاريخ مدينة كلوه على أن العرب وصلوا إلى هذه الجزيرة، قبل زمن طويل من رحلة المسعودى، وربما قد تكون جزيرة قنبلو هى إحدى جزر بمبا أو مافيا أو زنجبار .

ولقد كان زمن زيارة المسعودى إلى شواطىء شرق أفريقيا ، عهداً لتأسيس عدة مدن وإمارات عربية إسلامية، صارت فيما بعد أهم مراكز هذه الشواطىء، وأرفعها شأنا .

وقد اشار إلى مدن شرق أفريقيا، على الرغم من أنه لم يورد معلومات وافية عن هذه المدن، وقد يكون الإدريسى فى كتابه «نزهة المشتاق» أول المصادر، التى تحدثت عن مدن الساحل وجزره، ومن ذلك كلوه التى ذكر عنها أن لها تجارة مهمة مع سفالة ومالندى، التى وصفها بالازدهار، ولا شك أن الفترة التى وضع الإدريسى كتابه «نزهة المشتاق»، كانت فيها تجارة العرب مع شرق أفريقيا مزدهرة ازدهاراً كبيراً ، على أن الإدريسى لم يعن بتجارة العرب فى الذهب والعاج وغيره من منتجات ذلك الإقليم ؛ لأن هذه التجارة كانت معروفة فى العالم العربى التجارى ، إلا أنه ركز على تجارة الحديد، وهو المادة التى كانت تخرج من مدينة مالندى ، ويحدثنا الإدريسى عن أن الزنوج كانوا يمتلكون فيها مناجم الحديد ويستخرجونه ويتاجرون فيه، ويربحون من تجارته هذه أرباحاً كبيرة ، كذلك تحدث

عن ممبسا واشتغال اهلها بتجارة الحديد، أيضا مما يدل على الصلات، التى كانت قائمة بين شعوب الداخل. ومن يفد على الساحل من التجار العرب وغيرهم، خاصة من الهنود؛ اذ كانت السيوف تصنع فى الهند من الحديد المتحصل عليه من شرق أفريقيا ، وقد أكد الإدريسى عن العلاقات التى كانت قائمة بين العرب وساحل شرق أفريقيا، وإن كان قد اقتصر فى حديثه عن العلاقة التجارية، دون أن يعنى بدراسة الإمارات أو الممالك الإسلامية، التى أنشأها العرب على ساحل شرق أفريقيا وفى ذلك يقول الإدريسى عن مدن شرق القارة الأفريقية أن جميع بلاد الزنوج بضائعهم من الحديد وجلود النمور الزنجية، وينقلون أمتعتهم على رؤوسهم، وعلى ظهورهم إلى مدينتى مالندى ، ممبسا فيبيعون هناك ويشترون .

كذلك أشار ابن الوردى إلى بلاد الزنوج، وتلك الإمارات العربية الإسلامية فى القرن الثانى عشر الميلادى، فى كتابه «فريدة العجائب وفريدة الغرائب» ، فتحدث عن شرق أفريقيا من رأس جردفون إلى موزمبيق ، فذكر أن جميع سكان الساحل من المسلمين، وأن فيهم القاضى والإمام .

كذلك أشار ياقوت الحموى فى معجمه المعروف «بمعجم البلدان» ، وتحدث كثيراً عن مدن شرق أفريقيا كمقديشيو والجب وكلوه، وأشار إلى الشعب السواحلى ، وقد تحدث عن مقديشيو، وقال عنها إنها مدينة فى أول بلاد الزنج، وأهلها كلهم غرباء ليسوا سودان، ولا ملك لهم، وإنما يدير أمورهم المتقدمون على اصطلاح حالهم، ومجلس شورى يتكون من المشايخ وعليه القوم، وإذا قصدهم التاجر، فله أن ينزل على واحد من أعيان المدينة، أو علية القوم ويستجير به، فيقوم بأمره، ومن تلك البلاد يجلب الصندل والأبنوس والعاج، وهذه المواد التجارية غير اكثر المواد التى تستورد فى تلك المدن ، ،كما تحدث ياقوت عن كل من مدينة الجب وكلوه وسفالة .

وتحدث عن كلوه فقال إنها موضع بأرض الزنج ، وعلى هذا فإنه يمكن القول أن العرب عرفوا مناطق فى داخلية أفريقيا، لم يصل اليها الأوروبيون إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى .

وتحدث ابن بطوطة عن سلطان كلوه، ويفهم من حديثه أن السلطنة كانت متصلة ببعض البلدان الإسلامية كالعراق والحجاز ومصر ، كما أنها مدينة عظيمة ساحلية أكثر أهلها من الزنوج، ولهم شرطات فى وجوههم، وبينها وبين سفالة مسيرة نصف شهر، وكلوه

مدينة من أحسن المدن، وأتقنها عمارة، وبيوتها من الخشب، والأمطار بها كثيرة، وأهلها أهل جهاد؛ لأنهم فى بر واحد متصل مع كفار الزنوج، والغالب عليهم الدين والصلاح، وهم شافعية المذهب، كما تحدث عن سلطانها «أبو المظفر حسن» والذى كان يكنى بأبى المواهب؛ لكثرة مواهبه وكرمه، وقد ذكر عنه أنه كان كثير الغزوات على أرض الزنوج الكفار ، يغير عليهم ، ويأخذ منهم الغنائم؛ حيث تخرج منها ويصرفها فى الأوجه المعنية فى كتاب الله، ويجعل نصيب ذوى القربى فى خزانة على حدة، فإذا جاءه الشرفاء دفعه إليهم، وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها كما تحدث ابن بطوطة عن امتداد نفوذ كلوه إلى ممبسا اثر معاهدة تمت بين البيتين الحاكمين فى كل من كلوه وممبسا ، وكما أنه تحدث عن كلوه بطريقة لم يسبقه إليها احد من قبله، فإنه لم يتوسع فى الحديث عن علاقات سلطنة كلوه من الناحيتين السياسية والتجارية، بغيرها من المناطق؛ خاصة وأنها كانت فى زمنه من أهم المراكز التجارية والحضارية الإسلامية ، بل المركز الأول فى شرق القارة الأفريقية، وكانت حركة الاستيطان العربى والإسلامى بالغة أقصى حد لها من القوة والاتساع .

والمطلع على حوليات كلوه، يدرك أن صراعاً طويلاً نشب فى هذه المدينة بين الطامعين فى السلطة، وأن المدينة لم تعرف الاستقرار، ولم يطل بها عهد الشيرازيين، بل انتقل الحكم بعد فترة ليست بطويلة إلى أيدى المتمندلين، فإلى أبى المذهب، ثم منه إلى أبى المواهب، واستولى الوزراء فى فترات متقطعة على السلطة، وأحياناً حكموا البلاد عن طريق ما يسمى بحكومة الصبابين؛ حيث كان يوضع فى السلطنة صبى من أبناء السلطان، ثم يحكمون السلطنة عن طريقه، وتسبب عن ذلك اضطراب متصل .

على أن أهم أسباب الاضطراب فى هذه الدولة، هى أنها شريط مستطيل على البحر ، وأن كل مدينة بها كانت تعتبر نفسها سلطنة أو دولة قائمة بذاتها، مرتبطة بالبحر، وبما خلف البحر من عالم فسيح، وكذلك المحاولات لمد النفوذ إلى الداخل بمقدار ما تستطيع أن تحققه الدعوة الإسلامية أو وسائل الاتصال التجارى ، ولعل ذلك كان مصدره الاهتمام بالتجارة اكثر من الاهتمام بالسياسة وتكوين الدولة ، وإن كانت الدعوة للاسلام تأخذ الجهد الأكبر من نشاط الدعاة والتجار ، وقد يكون اختلاف العناصر التى تكون منها خليط السكان فى هذه المناطق من الأسباب القوية، التى لم توحد صفوفهم فى دولة ساحلية واحدة ، حيث كان منهم العرب والفرس، وإن كان الفرس لا يشكلون إلا فئة قليلة، سرعان

ما تمت إذابتها فى خضم الحياة العربية الإسلامية العامة ، إضافة إلى بعض الهنود وجماعات من الأفارقة، كانوا أصلاً يعيشون فى هذه المناطق، أو الذين وفدوا اليها من الداخل، واعتنقوا الإسلام، واتخذوه عقيدة ومنهجًا لحياتهم، وتعاونوا مع النظام الإسلامى الجديد.

ولقد جاءت إلى كلوه هجرات عربية كثيفة، على إثر اجتياح المغول لدار الإسلام فى العراق، ولحق هؤلاء المهاجرون بإخوانهم، الذين سبقوهم إلى تلك المدينة ، ومن هنا جاء المهاجرون الجدد بدماء دافعة، ظهرت آثارهم فى عماراتهم الزاهرة وأسواقهم الباهرة، التى فتنت ابن بطوطة، حين جاء الإقليم، واستطاعت كلوه بعد أن تنوعت مصادر ثروتها، أن تصل إلى درجة عالية من الازدهار، تقرب من الخيال؛ حيث الغنى والترف والرفاهية .

وقد وصف البرتغاليون فى كتابتهم كلوه، فقالوا عنها إنها مدينة إسلامية عظيمة ، بيوتها مبنية من الحجر والجص، وشوارعها نظيفة، وأبواب دورها من الخشب، المنحوت نحتاً بديعاء وتحيط بها البساتين والجنان، ويكثر بها الذهب، أما اهلها فبعضهم بيض الوجوه، وبعضهم سود الوجوه ، يرتدون الملابس الحريرية والقطنية، ويتحلى نساؤهم بالذهب والفضة، ويضعن اللآلئ فوق آذانهن .

ومما هو جدير بالذكر أن كلوه قد ظهرت على مسرح الأحداث السياسية، إثر هجرة كبيرة، قام بها عدد من أهل شيراز، المطلة على الخليج العربى؛ حيث كانت تلك الهجرة من الأسباب المباشرة لظهور كلوه وإمارات إسلامية جديدة ، وقد كانت كلوه فى القرن العاشر الميلادى– وعلى وجه التحديد فى عام ٩٧٥م– لا تزال صغيرة؛ حيث قام المهاجرون الشيرازيون الشيعة، بتأسيس بعض المبانى القليلة، ثم ازداد اتساعها، ولقد كان استقرار ذلك السلطان فى تلك المدينة السبب المباشر لظهور إمارة كلوه الشهيرة؛ حيث كان ظهورها رهناً بهجرته، وقد نمت كلوه فى عهد الشيرازيين هؤلاء نمواً كبيراً، وتوطدت صلتها بزنجبار .

وقد صك سلاطين كلوه تفودهم النحاسية فى القرن الخامس عشر الميلادى، فى دور صك النفوذ، وذلك حتى يمكن تداولها فى أى مكان من أفريقيا على الساحل الجنوبى ، وكانت كلوه قد امتد نفوذها إلى الأكثر بعد فى الداخل، بحيث انها كانت تعيش، كما كانت من قبل على تجارة رودسيا، وربما كاتنجا فى إقليم الكونغو أيضاً؛ حيث تحكموا فى ميناء سفالة، وفرض الضرائب على السفن المارة وعلى حمولتها، وفى كل اتجاه .

وقد فقدت مدينة كلوه أهميتها الكبرى كأكبر سلطنة، بعد أن تحولت تجارة الذهب إلى طريق رأس الرجاء الصالح؛ حيث أخذت طريقها جنوبًا ثم غرباً إلى أوروبا، وذلك بعد

سنوات قليلة من الاحتلال البرتغالى ، وبعد أن فقدت تلك الأهمية، فإن العرب فضلوا الانتقال إلى الشمال منها؛ لكى يندمجوا مع البانتو الساحليين .

ويبدو أن الحياة على الساحل خلقت فكرة، لم توجد عند أولئك الذين هاجروا إلى اماكن داخل القارة، فالحياة على الساحل توحى بالارتحال، لا بالاستقرار؛ فقد كان المهاجرون يتجهون للبحر بوجوههم، ويولون ظهورهم للقارة (آراء غريبة حيث رحل العرب والمسلمون إلى حوض الكونغو واقليم كانتنجا ، ثم إلى الساحل الغربى للقارة؛ حيث كانوا الأدلاء الذين قادوا رواد حركة الكشوف الجغرافية من الأوروبيين) .

ومن هنا كان اندماج المهاجرين بالسكان الأصليين قليلاً من أين جاء الشعب السواحيلى كتاباتكم من تحاربون فى كتاباتكم كل ما هو عربى وإسلامى (آراء ترمنجهام فى كتابه الإسلام فى شرق أفريقيا ترجمة عاطف النواوى وكتابه الإسلام فى الحبشة .

ويعتقد أن سلطنة كلوه هذه التى تأسست فى القرن العاشر الميلادى، قد استطاعت أن تبسط سيطرتها على تجارة الذهب خاصة، وكان هذا الذهب ينقل إليها من المنطقة المعروفة حاليا برودسيا، وليس سفالة كما يذكر فى بعض الأقوال، وقد يكون الذهب، الذى وصل إليها من سفالة ورودسيا فى وقت واحد ما سبباً لها هذا الثراء الواسع ، ومما تجدر الإشارة إليه أن سيطرة كلوه على تجارة الذهب قد كانت فى نهاية القرن الثانى عشر، وهو الوقت الذى كانت تدور فيه الحروب الصليبية على الأراضى المقدسة فى الشام .

بل إن هناك أقوالاً تذكر أن نفوذ مصر المملوكية البرجية، قد وصل إلى بلاد الصومال وشمال كينيا، واستمر ذلك حتى دخول القوات البرتغالية إلى المحيط الهندى فى القرن السادس عشر ، فعملت على اقتلاع جذور النفوذ العربى الإسلامى من الساحل .

ونقول إنه على الرغم من أن سلطنة كلوه قد يعود تأسيسها إلى فرس شيراز، فى أواخر القرن العاشر الميلادى، واستمرت حتى قدوم البرتغاليين فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى، إلا أن السؤال الذى يتبادر إلى الذهن، هو: إلى أى مدى أثر العرب فى ساحل شرق أفريقيا فى هذه السلطنة، التى اعتبرت أول سلطنة إسلامية، قامت فى المنطقة، وأطلق عليها اسم دولة الزنج. حقيقة أننا لا يمكن أن ننكر ما تركه فرس شيراز من تأثير كبير فى الأدب السواحلى والفنون والعمارة، وطريقة المأكل والملبس، ومظاهر الحضارة المختلفة ، ولكن هذه التأثيرات لم تبلغ القدر الذى بلغته السمات والتأثيرات العربية فى ساحل شرق أفريقيا ، وهكذا لم تلبث تلك السمات الفارسية أن ضاعت فى غمار غلبة الحياة العربية على الساحل .

وقد عثر فى كلوه على نقود معدنية نحاسية صينية، يرجع تاريخها إلى عام ٧١٣م، مما يدل على قدرتها التجارية ووصول السفن الصينية، تحمل بضائع الصين ومنتجاتها إليها، وحصولها على منتجات كلوه. وقد توسعت كلوه وضمت إليها عديد من المدن والإمارات، وكونت أول دولة سواحيلية عظيمة، عرفت بدولة الزنج، وقد استمر السواحليون يعترفون بالسيادة العربية حتى قدوم البرتغاليين، الذين استغلوا فرصة التفكك فى هذه الإمارات، ومصارعة بعضها البعض الآخر؛ لتوطيد سيطرتهم عليها، إذ كان هناك نزاع دائم بين الحكومة المركزية فى كلوه، وبين حكام المدن والموانىء، الذين حاولوا دائماً الاستقلال بمدنهم، وإنشاء إمارات صغيرة على طول الساحل، على أن هذه القلاقل التى سادت دولة الزنج، لم تمنع الدولة من أن تحقق ازدهاراً حضارياً عربياً إسلامياً فى جميع ربوعها، إضافة إلى الازدهار المادى، الذى كانت تعيش فيه كلوه، وقد بلغ من ثراء تلك السلطنة؛ لدرجة أن سلطانها كان يخجل فى منح رجال الدين الإسلامى العطاء من الذهب، وذلك لكثرة وجوده فى البلاد. ولقد انتشرت الثقافة والحضارة العربية فى كلوه، ووفد إليها العلماء والفقهاء ورجال الدين والتجار من كل صوب وحدب، بعد أن وسع سلاطينهم بلادهم وصدورهم؛ لإثراء الحركة العلمية الثقافية، حيث كانت تعقد دروس العلم والدين فى المدارس، التى ظهرت فى كلوه، وحيث وفد إليها الطلاب من المدن والموانىء المجاورة؛ حيث كانت تشكل الحكومة المركزية، التى تفرض سيطرتها على أغلب مدن الساحل؛ ليدرس طلابها فى الكتاتيب والمساجد والمدارس.

ومن هنا كانت كلوه مركزاً كبيراً من مراكز الحياة العلمية الإسلامية، بل بؤرة إشعاع فكرى وعلمى فى عالم ساحل شرق أفريقيا، وكذلك كانت مكاناً تنتشر منه الثقافة والعلم والدعوة الإسلامية إلى البقاع المجاورة، إضافة إلى أنها كانت مركزاً، تتجمع فيه المؤثرات الإسلامية الحضارية والثقافية؛ لكى تصل إلى الداخل حيث قلب القارة، وليس بعيدا أن يكون الفقهاء ورجال الدين قد اقتفوا أثر التجار فى نشر الثقافة العربية الإسلامية إلى الداخل؛ حيث إن نفوذ كلوه، كما أشار إلى ذلك كل من رولاند أو ليفر « جون فيج » بأن نفوذها قد وصل إلى رودسيا وكاتنجا فى الداخل، ومن هنا كان ذلك النفوذ بصحبة التطور الثقافى والحضارى، اضافة إلى أن سلطانها «أبا المواهب»، كان كثير الغزو فى بلاد الوثنيين؛ مما يتيح فرصة اكبر لنشر الدعوة الإسلامية والدين الإسلامى، وظهور البلاد بالطابع العربى الإسلامى.

كذلك ظهرت جزيرة ممبسا بمظهر إسلامى وعربى وحضارة عربية إسلامية، والتى ذكر

عنها ابن بطوطة- عند زيارته لها- أنها جزيرة كبيرة بينها، وبين أرض الساحل مسيرة طويلة، وبها أشجار الموز والليمون والأترج، وبها فاكهة تسمى الجامون، أشبه بالزيتون، ولها نوى كنواة إلا أنها شديدة الحلاوة .

كما أن ممبسا كانت من المدن، التى تم تعميرها على أيدى العناصر العربية السنية، والذين استخدموها كميناء تجارى، وقد امتد نفوذ سلطنة كلوه إلى ممبسا، بعد ضمها إليها إثر معاهدة تمت بين الأسرة الحاكمة فى كلوه، والأسرة الحاكمة فى ممبسا، وقد تحدث ابن بطوطة عن أحوالها وعادات أهلها وتقاليدهم وثقافتهم، وإنتاجهم الزراعى وعن نشاطهم التجارى .

ويعد تاريخ مدينة باتا أو بات من أغنى ما حفظته الروايات المحلية؛ حيث إن مدينة بات فى الأصل تأسست فى عهد فترة حكم عبد الملك بن مروان الذى شهد (٦٥ - ٨٦هـ) عهدة تأسيس العرب لعدة مدن على الساحل الشرقى الأفريقى، كماليندة وزنجبار وممبسا وكلوه وبات ، وعندما حلت الدولة العباسية محل الدولة الأموية فإن الخليفة هارون الرشيد اعتمد على وجود رعية عربية إسلامية فى مدن شرق أفريقيا، بثت نفوذها فى عهد الدولة الأموية، وقد كان ذلك مشجعاً لتدعيم الوضع العربى الإسلامى العباسى فى ممتلكات شرق افريقيا، ومن ثم عملت الخلافة العباسية على تشجيع كثير من العناصر؛ وخاصة من الفرس على الهجرة والإقامة فى تلك المراكز الحضارية الإسلامية، التى تم ظهورها على الشاطىء الأفريقى .

وكانت أسرة آل نبهان، وهى الأسرة الحاكمة فى عمان، قد قاموا بمغادرة عمان، فى القرن السادس الهجرى ، عندما قام النبهانيون بالهجرة إلى جزيرة بات؛ حيث كان وصولهم أيضا قد سبقته إليها هجرات عربية فارسية؛ حيث كانت الهجرات الأولى من هذه العناصر قد اقامت بالجزيرة ، وقد استقبل العرب الذين كانوا يقيمون بالجزيرة، وكان معظمهم من إقليم عمان ، استقبلوا الأمير النبهانى استقبالاً طيباً ، وتزوج الأمير النبهانى ابنة حاكم الجزيرة، وتولى بذلك الحكم بعد أن تنازل له الحاكم السابق عن حكم بات؛ نظراً لكبر سنه، ومن ثم يبدأ حكم آل نبهان والأسرة النبهانية لحكم جزيرة بات .

ولقد كانت الهجرة النبهانية إلى بات قد تمت عام ٦٠١هـ، ومن هنا.. فإن ظهور الحكم العربى الإسلامى العمانى النبهانى فى بات قد يكون بالتقريب حوالى عام ٦٠٥هـ

وهكذا لجأت الأسرة النبهانية إلى سواحل شرق أفريقيا لكى تبدأ مرحلة جديدة فى تاريخ شرق أفريقيا حيث دخلت الأسرة النبهانية فى صراع أسرى حول السلطنة، إلا انها استطاعت أن تحقق انتعاشا كبيرا فى الساحل الشرق لأفريقيا، وأصبحت جزيرة بات مركز السلطة النبهانية التى شملت- إلى جزيرة بات- عدة موانىء ومدن مهمة على الساحل الأفريقى، ومن هنا كان ظهور بات بهذه الصورة الفعالة والقوية والمؤثرة فى شرق افريقيا يكاد يشابه من عدة وجوده ظهور كلوه، بهذا المظهر؛ حيث كانت تسيطر على الساحل جنوبًا حتى سفالة .

وقد وصلت بات فى القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى إلى درجة عالية من التقدم والتطور والرقى والتطور العسكرى؛ بحيث ضمت إليها بعض المدن مثل قسمايو ، براوة، مقديشيو ، كما أنها فى بعض الفترات التاريخية استطاعت أن تمد نفوذها جنوبًا؛ حيث شهد عهد السلطان محمد شانجا امتداد نفوذ بات فى عهده وعهد أبنائه إلى مالیندی، وكلوه وممبسا، وبهذا استطاعت هذه الأسرة العربية العمانية أن تخضع معظم الساحل الشرقى تحت لوائها، بعد أن تلقب سلاطينها بلقب يوانا فومادى، وهو لقب سواحيلى تقليدى، قد يعنى السلطان فيما يبدو، أو الكبير أو العظيم أو السيد.

وقد نشطت فى ظل حكم الأسرة النبهانية الحركة الاقتصادية والتجارية فى شرق أفريقيا، وتوافد على الساحل الذى بسطت عليه نفوذها التجار العرب والهنود والفارسيون، كما أدخلت الزراعة فى بقاع كثيرة، وترتب على ذلك ازدياد العلاقات بينهم وبين موانئ الجزيرة العربية والخليج والمحيط الهندى، وقد تعرضت جزيرة باتا كما تعرضت بقية الموانئ والإمارات العربية الإسلامية فى شرق أفريقيا لخطر البرتغاليين، وكان من الطبيعى أنه تساند أمارة بات ، تلك الحركات التحررية التى قادتها الإمامه فى دولة اليعاربة فى عمان؛ لتخليص شرق أفريقيا من أيدى البرتغاليين (انظر دولة اليعاربة فى عمان وشرق افريقيا ، للباحثة عائشة على اليسار، رسالة ما جيستير ، كلية البنات جامعة عين شمس عام ١٩٧٠م) .

وقد بعث السلطان محمد الرابع ، سلطان بات فى عام ١٥٧٤م إلى شيوخ حضرموت يستنجد بهم ضد البرتغاليين ، وكذلك أرسل إلى سلاطين اليعاربة، طالبًا ذلك ، حيث إنه لم يمض وقت طويل من السيطرة البرتغالية فى مناطق الخليج ، حتى بلغت أخبار هذا النجاح سكان شرق أفريقيا المسلمين، ولا سيما أهالى ممبسا، الذين سارعوا بطلب النجدة من الإمام سلطان بن سيف، وقد أرسل الإمام عددًا من السفن العمانية عام ١٦٥٥م؛ لمهاجمة المستعمرات البرتغالية فى زنجبار وباتا، وقد دمرتها، وقتلت عددا من البرتغاليين، واستولى

المهاجمون على كل أملاك البرتغاليين، وأعادوا مسجدها القديم إلى وضعه الطبيعي وعاملوا رجال الدين بالمحبة والمودة، بعد أن أعلنوا دخولهم في الإسلام عن رضا وطاعة .

وقد امتد نفوذ بات شمالاً أكثر منه جنوباً؛ حيث إن نفوذ كلوه كان يمتد شمالاً إلى بمبا؛ حيث إن أسرة الشيخ الفارس على بن الحسن الشيرازى، قد امتد نفوذها على ساحل شرق أفريقيا، بحيث لم يقتصر على كلوه فقط، وإنما امتدت إلى عدة موانىء وجزر أخرى، تقع إلى الجنوب من دولة الزنج، التى كانت كلوه عاصمة لها، وتمتد شمالاً إلى بمبا، وجنوباً إلى سفالة، وهكذا كانت حدود بات تقف عند بمبا جنوبا ، غير أن تلك السلطنة كان ينقصها الارتباط؛ بمعنى أنها لم تكن سلطنة أو دولة متماسكة، فضلاً عن أنها تعرضت للمنازعات التقليدية، وتحولت إلى مدن مستقلة؛ حيث خرج القسم الشمالى مقديشيو ، براوة، فسمايو عن طوعها ونفوذها ، ولكن مع كل هذا فإن باتا قد احتلت مكاناً بارزاً بين إمارات الساحل الشرقى لأفريقيا، فيما بين القرنين الثانى عشر والخامس عشر الميلادى .

وقد شهدت ممبسا كما شهدت كلوه وبات نهضة عربية إسلامية، حتى سقطت فى أيدى البرتغاليين، الذين اتخذوا من أساليب الإثارة والخلافات بين الحكام وإثارة العدوان وسيلة لإخضاع الساحل إليهم، ونجح البرتغاليون فى تشييد قلعة عسكرية فى ميناء ممبسا، اعتبرت من أشهر وأقوى قلاعهم، وعرفت باسم قلعة المسيح، لا تزال آثارها باقية فى ممبسا حتى الآن، تشهد حركة الاضطهاد المسيحى والتبشير المسيحى بين المسلمين، ولكن ممبسا- وقد كانت تعانى من ضغط البرتغاليين- اضطرت إلى طلب العون من عمان؛ مما شجع البرتغاليون على ازدياد حركة الاضطهاد ، ولكن العمانيين بعد أن طردوا البرتغاليين من هرمز، فإنهم عملوا على طرد البرتغاليين من شرق أفريقيا (يذكر بعد عدة صفحات)، وفى القرن الرابع عشر الميلادى ١٣٣٥م استطاعت امارة بات أن تستولى على الساحل الشرقى الأفريقى من مالندى إلى كلوه عدا زنجبار ، ثم تبعتها إمارة ممبسا ومقديشيو بعد ذلك .

وقد شهدت باتا نظاماً إسلامياً شورياً فى الحكم والنظم والإدارة، ومن ذلك نجد أن باتا فى عهد السلطان عمر الأول قد كانت باتا داراً للشورى، ومقراً للحكومة المركزية للبلاد، التى خضعت لهؤلاء السلاطين، وكان السلطان النبهانى يتخذ له عاملاً فى كل مدينة من المدن التى خضعت له ، ويشاركه مجلس شورى محلى، كما أن هذا الوالى كان عليه أن يستعين بالأعيان وكبار رجال المدينة فى إدارة البلاد .

وهكذا ظهرت سلطنة باتا النبهانية، وبرزت على هذا النحو، الذى كانت فيه كلوه تمارس ذلك الدور، واستطاعت هى الأخرى أن تخضع عدداً كبيراً من مدن الساحل الأفريقى. وعلى الرغم من توسع نفوذ كلوه ، إلا أنه لا يمكن أن ينكر أن بعض هذه السلطنات مثل– سلطنة بنى نبهان فى باتا– استطاعت أن تبسط نفوذها على أغلب مدن الساحل الشرقى طوال القرنين الثالث عشر والرابع عشر، واستطاعت كلوه أن تحقق ذلك النفوذ ، غير أن هذه الجهود لم تتمخض عن إيجاد وحدة سياسية لجمع شمل هذه المدن التجارية ، وقد يكون العجز عن تحقيق هذه الوحدة العربية الإسلامية فى امارات الساحل الجنوبى – شأنها فى ذلك شأن امارات الساحل الأوسط أو اقليم إمارات الطراز الإسلامى– أن هذه الامارات ترجع إلى أن حكامها ينتمون إلى بطون عربية مختلفة ، لم تتحد فى شبه الجزيرة العربية؛ فكيف تندمج فى وحدة واحدة فى شرق أفريقيا ، فضلاً عن اختلاف المذاهب الدينية من شيعة وخوارج وسنة ومعتزلة وغيره من المذاهب، التى لم تتآلف فى قلب العالم الإسلامى ، ومن ثم فإنه لم يكن لها أن تتألف أو تتحد أو تقترب فى بلاد شرق القارة ، ثم أنه لم تكن عبر الشريط الساحلى دولة عربية واحدة تجمعه، بحيث تستطيع أن نفرض عليه نفوذها السياسى، فى ظل الظروف السائدة فى العصور الوسطى، لاسيما وأن ذلك الساحل فى العصور الحديثة مقسم بين أربع دول، وهى: الصومال ، وكينيا ، وتنزانيا، وموزمبيق، إضافة إلى دولة ملاجاش فى مدغشقر ، مما جعل تلك الإمارات والمدن تقع لقمة سائغة فى القرن السادس عشر الميلادى فى أيدى البرتغاليين ، وهكذا كان التوجيه الجغرافى للمدن نفسها، لم يمل عليها أن تندمج فى ظل نظام سياسى واحد.

كانت مدن هذه المجموعة من الإمارات السابق الإشارة إليها– والتى وصل عددها إلى أكثر من خمسة عشر مدينة مطلة على الساحل، غير المدن العربية الداخلية، التى وصل عددها إلى اربعين مدينة، بما فيها مدن الساحل–تستقل كل منها عن الأخرى فى ممارسة نشاطها التجارى، ورغم أنه كانت هناك ثلاث إمارات فى بعض الحقب التاريخية، استطاعت أن تفرض نوعاً من السيادة على ذلك الساحل كباتا وكلوه ، وزنجبار ، إلا أن هذه المدن تكاد تتخصص كل منها فى تجارة أو نوع معين من التجارة . فهى أشبه بالمدن الفينقية، التى تناثرت على ساحل الشام، أو ساحل شمال افريقية. ولقد كانت العدوات لا تفتأ تشتعل بين هذه المدن المختلفة مذهبيًا وجنسيًا ، مثل النزاع المعروف بين مالندة ، وممبسا، الذى استمر حتى قدوم البرتغاليين، وسارت مالندة فى ركابهم مع اختلاف الدين رغبة فى الانتقام من

ممبسا ، وهكذا كانت هذه المدن والإمارات والسلطنات ذات طابع اقتصادى، مع الأخذ بالجهاد فى نشر الدعوة الإسلامية بين الزنوج فى الساحل والداخل، وتاريخها الاقتصادى، الأساس الذى تترتب عليه الأحداث التاريخية فى المنطقة، ويؤثر فى حضارتها وفى حياتها الاجتماعية، بل ويؤثر فى نشاطها الإسلامى .

كذلك إذا كانت كلوه وباتا وممبسا وقنبلو قد مارست نفوذها على الساحل الشرقى للقارة الأفريقية ، فإن هناك مدينة أخرى، ظهرت بالمظهر الإسلامى العربى والحضارى والثقافى، من ذلك مدينة مالندى، التى خضعت للنفوذ السياسى لباتا فى بعض الفترات؛ حيث كان سلطانها يعيش فى الرفاهية والرخاء والثروة الواسعة؛ حيث كان قصر السلطان مفروشاً بالأبسطة الفاخرة ومقاعده من العاج والذهب، وقد أهداه السلطان المالندى لمبعوث فاسكودى جاما استقبالاً حافلاً فى قصر السلطان .

وممبسا يقول عنها مبعوث البرتغال إنها مدينة عظيمة، ترسو فيها السفن الكبيرة، التى تبحر إلى جزر زنجبار ، أما الجزر الصغرى مثل مافيا وبمبسا وزنجبار ، فإن أهلها يعيشون عيشة قوامها البذخ والترف ، ويرتدون الملابس الحريرية، ويخرجن النساء إلى الأسواق، وعليهن حلى من الذهب والجواهر .

وهكذا نرى مدناً عربية أخرى، تأخذ فى الظهور على طول الساحل الشرقى لقارة الأفريقية من خليج عدن حتى مدار الجدى على حافة المنطقة، التى كان جغرافيو العرب يطلقون عليها اسم الزنج، وذلك بسبب اختلاف جموع كبيرة من العرب إلى هذه البلاد الساحلية .

وقد كانت أسرة المعمورى تحكم مدينة ممبسا، وتلتها فى حكم الجزيرة أسرة المزروعى، وقد كانت هذه الاسر جميعها خاضعة خضوعًا اسميًا لأئمة عمان ، إضافة إلى أن باتا حكمها آل نبهان، الذين ظلوا يحكمون الشطر الأكبر من الساحل الشرقى لأفريقيا حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى ، وبذلك استطاعت الأسرة النبهانية أن توحد معظم الساحل الشرقى لأفريقية تحت لوائها، وفى عهد ازدهار سلطنة باتا نشطت الحركة التجارية فى الشرق الأفريقى؛ حيث توافد على الساحل كثيراً من العرب والهنود والفرس .

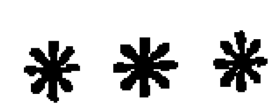
وهكذا ظهرت تلك الإمارات العربية الإسلامية الممتدة من براوة وسيوة وباتا ، لامو ، زنجبار ، مافيا ، كلوه سفالة بالمظهر العربى الإسلامى؛ حيث ساعدت الهجرات العربية المتوالية على طمس معالمها الفارسية؛ وصارت مدنًا عربية .

على أن أهم ما يلاحظ أن العرب الذين استوطنوا تلك المراكز الإسلامية- كما سبق القول- قد نقلوا معهم خلافاتهم المذهبية ومنازعاتهم الأسرية والقبيلية ، ولذلك ظهر العداء سافراً بين هذه المدن والإمارات بعضها بالبعض الآخر؛ حتى أصبح من المستحيل قيام وحدة سياسية اتحادية تجمع بينهم عن طواعية ورضا وتآلف ، إلا أن ذلك لا ينبغي كما سبق القول قيام بعض الوحدات السياسية الكبرى في ذلك الساحل الطويل ، حيث كانت تقوم عدة وحدات سياسية، كانت تستند على التفوق أو توسع إحدى الامارات أو السلطنات على حساب غيرها، ومثال ذلك نجاح ممبسا مثلاً في السيطرة على كثير من مدن الساحل، خلال بضع سنوات في القرن الثاني عشر الميلادى، أو كما فعلت باتا أو بات في سيطرتها على معظم مدن الساحل من ماليندة شمالا إلى كلوه جنوبا، فيما عدا زنجبار التي فشلت في بسط نفوذها السياسي عليها. وكما حاولت مقديشو وبمبا وزنجبار في أوقات متفرقة أن تفرض قيام وحدات من ذلك النوع ، أما دولة الزنج فعلى الرغم من أن الساحل كان يتبعها، إلا أن هذه التبعية لم تتعد كونها تبعية اسمية فعلية ، وتتضح لنا صورة هذه الوحدات السياسية في نهاية القرن الخامس عشر الميلادى، حينما جاء البرتغاليون إلى شرق أفريقيا حيث وجدوا لسلطنة كلوه السيادة على الجزء الجنوبي من ساحل شرق أفريقيا، إذ أنه عندما وصل فاسكودى جاما إلى موزمبيق، وجد أن حاكم المدينة كان نائباً عن سلطان كلوه، وكان يجبى الضرائب لحسابه على كل السفن التجارية، التي كانت ترد إلى الميناء، كما كانت هناك علاقات مصاهرة، وإن كان ذلك لم يمنع كل مدينة من هذه المدن أو إمارة عربية أن تستقل بشئونها الداخلية؛ مما حدا ببعض المؤرخين أن يشبهوا هذه المدن بدول المدن المعروفة في التاريخ اليوناني القديم أو المدن الفينيقية .

ومع ذلك فإن دولة كلوه يرجع إليها الفضل في أنها استطاعت أن توحد معظم المراكز الإسلامية، في ساحل شرق أفريقيا، وبلغت ذروتها في عهد سليمان بن على ثاني، فلم تستعص عليه من مدن الساحل، سوى مدينة مقديشيو، التي كما سبق القول كانت تحكمها أسرة ارستقراطية عربية تجارية، وقد ضمت دولة الزنج إليها كل من جزيرة بمبا وزنجبار، وإن كان هناك ما يؤكد أنها سيطرت على بمبا اكثر من زنجبار ، هذا فضلا عن صلاتها التجارية الواسعة مع جزيرة مدغشقر وجزر القمر، وبواسطة دولة الزنج دخل الإسلام هذه الجزر فأصبح دين الغالبية في جزر القمر ، كما اعتنقه عديد من القبائل في جزيرة مدغشقر، ونجح العرب في تأسيس مملكة عربية في شمال جزيرة مدغشقر، وكذلك حكمت إحدى جزر القمر أسرة عربية .

وهكذا شهدت جزر القمر أحداثًا إسلامية كثيرة؛ حيث امتزجت الجاليات العربية بالسكان الأصليين، وقد نشأ من هذه الأجناس جنس مختلط من السامى الخالص إلى الاسود النبتو والملجاش، ويعرفون بالجنس القمرى، ويتردد التجار العرب على جزيرة نجازنجا والعرب فى انجوان، يعتزون ويتفاخرون بأصولهم العربية، وقد امتزج السود بالدم العربى، ونشأ عن هذا الاختلاط ما يعرف بالجنس الماهورى، ويسير القمريون وفق الشريعة الإسلامية، ويتكلمون اللغة السواحيلية، التى تمتزج ببعض عبارات ملجاشية، وهم مسلمون سنيون شديدو التمسك بدينهم، ويبنون دورهم من الحجر والجص، ويشتغل العرب منهم بالزراعة، ويشتغل بعضهم بصناعة الحصر والحبال والسيوف والحراب واستخراج السكر، ويتكلم بعضهم العربية، ويلتحق اطفالهم بالمدارس الأولية، التى يتعلمون فيها القرآن الكريم واللغة العربية .

وقد استوطن العرب اقليم سفالة جنوبى موزمبيق بين أعوام (٥١٠ - ١٢٢٠م)، وقد قيل إن سكان جزيرة مدغشقر جاءوا من أفريقيا وبلاد العرب، وقد اختلط بعض ملاحى العرب الذين كانوا يترددون على الساحل الأفريقى الشرقى، منذ زمن بعيد بسكان هذه البلاد ، كما اختلطوا بجنس الملايو، الذين لا يستبعد أن تكون الرياح قد طردتهم، وألقت بهم السفن التى كانت تقلهم على سواحل هذه الجزيرة، وتدعى قبيلة انتيموروناً أنهم عرب، جاءوا إلى هذه الجزيرة من مكة المكرمة، وأن تحولهم إلى الإسلام لابد أن يكون على أيدى دعاة عرب، كما يقول ارنولد توماس فى كتابه «الدعوة إلى الإسلام».





الباب الخامس

الاستعمار البرتغالي في شرقي أفريقيا



الفصل الأول

البرتغاليون والصراع الدموى

إذا كان قد قدر للإمارات الحبشية الإسلامية، أن تواجه خط الزحف الحبشى الهضبى الذى انحدر من الهضبة لكى يحتوى السهل الإسلامى، وذلك بمساعدة القوات البرتغالية التى تدخلت فى القتال الدائر بين القوى الإسلامية، بقيادة احمد القرين المشهور بالأشول أيضا ، حيث إن القوات البرتغالية والأسلحة البرتغالية هى التى حسمت القتال لصالح الأحباش النصارى، فإن تلك الإمارات الجنوبية قدر لها أن تواجه الزحف البرتغالى الزاحف من البرتغال لمحاصرة المد الإسلامى، بعد أن كانت تلك الإمارات قد قدر لها أن تمارس سيادتها، وتنعم بالاستقرار والهدوء والازدهار فى ظل بعدها عن أى صراع خارجى ، إلا ما ندر من صراع بين الإمارات بعضها البعض .

ولقد كانت حركة الكشوف الجغرافية التى استهلها الملاح هنرى، الذى كان كارهاً حاقداً ومتعصباً ضد الإسلام، هى التى مهدت الطريق إلى البرتغاليين لرأس الرجاء الصالح، ومن ثم فبدأت الدعوة الإسلامية تصطدم بالحقد الصليبى، الذى خرج من بلاده ليقود حربا دينية ضد الإسلام ورجاله .

وكان فاسكودى جاما قد وصل إلى نهاية القارة عام ١٤٩١م، ودار حول القارة الأفريقية حتى وصل إلى الساحل الشرقى ، ورسا فاسكو دى جاما بأسطوله عند مصب نهر، اطلق عليه اسم نهر الرحمة، وقضى به عشرون يوماً، أبحر بعدها حتى وصل إلى ثغر موزمبيق فى مارس ١٤٩٨م؛ حيث وجد أربع سفن راسية فى الميناء، محملة بالتوابل والفضة والحرير قادمة من الهند، ولكنهم تعجبوا حين شاهدوا سكان هذه المدن فى شرق أفريقيا، على غير ما ألفوا فى شواطىء غرب أفريقيا؛ حيث السكان عراة الأجسام، ولكنهم هنا يرتدون الملابس القطنية الملونة، ويرتدى بعضهم الحرير، وقد تدلت سيوفهم وخناجرهم من أحزمتهم العريضة ، واتصل البرتغاليون بحاكم المدينة، وأعلموه عن عزم البرتغال على صداقتهم ، وقام حاكم موزمبيق بالكتابة إلى صهره حاكم ممبسا، ليكون هو الآخر صديقا لهم ويبذل لهم، العون والمساعدة .

وأبحرت الحملة إلى مالندى؛ حيث استقبلت استقبالاً طيباً؛ حيث كان الدليل الهندى قد تكلم عنهم كلامًا طيباً مؤكداً لحاكمها أنهم مسالمون ، كما استقبل رجال الحملة الحاكم استقبالاً وديًا ، وكذلك حصلوا منه على إذن بإقامة عمود يسجل وصول الحملة .

وبعد فاسكو دى جاما، تم تعيين فرنسيسكو الميدا بدلاً منه، ولقد كان كل همه موجهاً إلى القضاء على العرب بسفنهم الصغيرة وقلة وسائل دفاعهم ، ولذا عزم على تخريب القواعد العربية والإسلامية فى شرق أفريقيا فبدأ الميدا بالهجوم على كلوه، وكانت مدينة عربية زاهرة آمنة فأستولى عليها بعد قتال عنيف فى الشوارع والطرقات وداخل المنازل، وفوق سطوحها، وبعد أن شبع البرتغاليون سلبًا ونهبًا وذبحًا وتقتيلاً ، نقلوا إلى السفن كل نفيس فى المدينة من ذهب وفضة وعاج وحرير وافاويه، وأشعلوا النار فى المدينة، وتركوها حفرة من الجحيم .

ثم سار الميدا إلى موزمبيق، وهى مدينة عربية أخرى، فعل فيها مثل ما فعل فى كلوه ، ولذا فقد استمر الصراع فى موزمبيق وشرق أفريقيا بين البرتغاليين والعرب والمسلمون زهاء قرنين من الزمان ، لكن البرتغالين توصلوا إلى عقد اتفاق مع أحد الزعماء، سواء من الأفارقة أو العرب، يبطل استعمال السلاح، وبدأت ظاهرة استعراض القوة البرتغالية عن قيام سفن حربية برتغالية لزيارة الموانىء وإقامة زعيم موالٍ لها فى كل بلد ، على الرغم مما قدمه العرب من كرم الضيافة وحسن الاستقبال للبرتغاليين ، إذ نجد أنه عندما قام دى جاما بقدومه إلى شرق أفريقيا ، لم يجد من يحسن استقباله غير أهل مالندى وسلطانهم، ولم يحاول البرتغاليون الاتصال بالأهالى الأفريقيين فى الداخل، سوى فى المنطقة الواقعة بين سوفالى ولكيمان ، وذلك خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، أما فيما عدا ذلك من المناطق، فقد اكتفوا بالتعامل مع السواحيليين سواء من العرب أو غيرهم ، فقد أطلق عليهم البرتغاليين لفظ Moors أى المغاربة ، وقد وجد البرتغاليون فى هذه المدن الحكومية. درجة عالية من الحضارة، لم يكونوا يتوقعونها ، اذ وجدوا بيوتاً مبنية فى الحجر، وجواً من الرقة فى المعاملة فى الأسواق المحلية .

وكانت كلوه صاحبة السيادة البحرية وحضارة شرق أفريقيا تمتد إلى ألف عام سالفة، وسكان المدن خليط من العرب والبانتو والفرس والهنود، وقد تفرق فى هذا الخليط من السكان، على الرغم من بقاء السيادة السياسية فى يد العرب، الذين كونوا الطبقة الارستقراطية، وعمل السكان السواحليون فى الوساطة التجارية بين الهند والشرق الإسلامى .

وكانت المنسوجات القطنية والخرز وبعض المعادن مادة هذه التجارة، مقابل ما يحصلون عليه من الذهب والعاج ومنتجات الإقليم ، وقد تركز اهتمام البرتغاليين على موزمبيق، بسبب ما كان يشاع عن ثروتها من الذهب، ثم في ميناء موزمبيق، التى أصبحت سريعاً ملجأ للسفن القادمة، التى تسير بين الهند والبرتغال .

ولقد كان لاحتلال البرتغال لساحل زنجبار من الآثار العميقة على الساحل كله، بل انعدم تماماً فى الداخل ، إذ كانت أهداف البرتغاليين السيطرة على التجارة البحرية، وأخذها من أيدى التجار العرب، ولم يجعلهم هذا الهدف فى السنوات الأولى من القرن السادس عشر يذهبون إلى الهند جزر الهند الشرقية فقط ، بل إلى الساحل الشرقى لأفريقيا، وإلى مفتاح البحر الأحمر والخليج العربى؛ فشيدوا قواعدهم فى سفالا وكلوه وهرمز ، وهكذا استقر البرتغاليون على شواطىء موزمبيق وزنجبار وبمبا وممبسا، ومجموعة جزر لامو، ولقد اقتصر هدفهم الأساسى فى محاربة الإسلام، والقضاء على قوته، وإجهاض الإمارات الإسلامية، وكسر حدة الإمارات الشمالية؛ حيث استطاعت البرتغال عام ١٥٤٢م أن تساعد الحبشية المسيحية، وأن تمنع القوة التركية الموجودة فى سلطنة عدلٍ الصومالية من دخول المملكة الحبشية المسيحية ، وكذلك كان هدفهم فى المنطقة أيضا الحصول على ذهب الزميزى وقاعدة موزمبيق البحرية .

وقد حدث أن تحولت تجارة الذهب، فأخذت طريقها إلى أوربا، وذلك بعد سنوات قليلة من الاحتلال البرتغالى هناك، عن طريق رأس الرجاء الصالح، وغرب أفريقيا وصولاً إلى أوروبا .

ولقد كان البرتغاليون والإسبان قد تبعوا المسلمين فى بعض ممتلكاتهم، بعد أن تخلصوا من حكمهم فى شبه جزيرة ايبيريا (الأندلس) ويرتبط مجىء البرتغاليين إلى شرق أفريقيا بحركة قدومهم الأولى إلى البحار الشرقية ، مع دوران فاسكو دى جاما الأول حول القارة الأفريقية، ووصوله إلى مدينة سفالة، أول مدينة عربية إسلامية فى شرق القارة .

وقد رحب بقدومه حاكم المدينة من قبل سلطان كلوه، ظنّا منه أن الاسطول يتبع الأتراك العثمانيين المسلمين، أو مسلمى الغرب (الأندلس)، ولكن عندما وصل إلى كلوه كان قد افتضح أمره وعرف مقصده فتلقته المدينة بإطلاق النار، وبدأت مرحلة من الصراع الطويل العنيف بين البرتغاليين والإمارات الإسلامية، الواقعة على سواحل أفريقيا الشرقية؛ بحيث يمكن القول أن مسرح الحرب الصليبية قد انتقل فى القرن السادس عشر من البحر

الأبيض المتوسط إلى المحيط الهندى، وانتقلت معه جميع الفظائع التى تميزت بها تلك الحروب فى إحراق المدن واسترقاق للسكان، والاستيلاء على السفن التى تحمل الحجاج إلى مكة المكرمة وحمل ركابها اسرى حرب .

وكانت تجارة الشرق يومئذ فى يد العرب من عمان واليمن، وبقية البلاد العربية الغربية، فصارعهم البرتغاليون فى عنف وقسوة، واستطاعوا أن يحتكروا التجارة لأنفسهم، ويضعفوا ما كان للعرب فيها من نشاط ظاهر، واتسم الصراع الذى نشب بين العرب والبرتغاليين بنزعة دينية قوية وتعصب صارخ ، بعد أن كانت هذه المدن الساحلية الإسلامية الجنوبية الممتدة من مقديشيو شمالاً حتى سفالة جنوباً، تختلف عن المدن الشمالية، فهى لم تجد دولة مسيحية تنازعها لقمة العيش وتقف لها بالمرصاد ، ومن هنا أتاها الصليبيون (البرتغاليون)، ليس عن طريق البر، كما كان يفعل الأحباش فى الشمال ، إنما عن طريق البحر فى ركاب البرتغاليين، الذين ظهروا فى المحيط الهندى، فنحن نعلم أنه قبل فاسكو دى جاما، كان دياز البرتغالى قد استطاع الوصول إلى رأس الرجاء الصالح عام ١٤٨٦م ، ثم كان فاسكو دى جاما- كما سبق القول- قد وصل إلى المدن الغربية على ساحل المحيط الهندى (ساحل شرق افريقية) فى موزمبيق ومالندة ، ثم بدأ الهجوم الصليبى البرتغالى من الجنوب، واستغل الفاتحون الصراع التقليدى بين مالندا و ممبسا؛ فأخذوا يقاتلون هذه المدن الواحدة إثر الأخرى، ولكن هذا الميدان الجنوبى لم يشهد ولم تظهر به شخصية قوية، تكبح جماح البرتغاليين، كما ظهر الإمام احمد بن إبراهيم (القرين)؛ لكى يوحد جهود المسلمين ويزكى الحمية فى نفوس المجاهدين لمواجهة هذا العدو الصليبى الحاقد المتعصب .

ولقد كان ظهور البرتغاليين بداية صراع دموى عنيف، استمر أكثر من قرنين من الزمان، ولم يكن البرتغاليون يريدون الاستقرار السلمى والتجارة ، إنما كانت أغراضهم صليبية واضحة، وهى محاربة الإسلام والقضاء عليه فى كل مكان، ومنعه من تحقيق ادنى تقدم ، كما أن الحصول على اكبر قدر من ذهب سفالة، والسيطرة على المحيط الهندى، وطرد المسلمين من المحيط والبحر، وانكماشهم داخل بلادهم والقضاء على احتكار المسلمين لتجارة الشرق، كان من اهدافهم الأساسية .

وكان البرتغاليون يحقدون على المسلمين أشد الحقد ، كما كانوا يبحثون عن الذهب والثراء الواسع وتوابل الشرق، وقد وجدوا فى هذا الساحل العربى الإسلامى هدفهم، الذى يسعون إليه، دولاً وإمارات إسلامية، يحكمون رقعة واسعة وطويلة من الساحل ودولة فسيحة،

كما وجدوا مظاهر للثراء الغنى والثروة فراحوا يحتلون الساحل ويسيطرون عليه ، وقد ساعدهم على ذلك بعض انحرافات من القادة، الذين أرادوا أن يستعينوا بهم فى صراعهم ضد سلطان الحكومة المركزية، صاحبة السيادة فى ذلك الوقت على الساحل، وهى سلطنة كلوه، وانتهى الامر بأن خضعت أكثر الإمارات الإسلامية إلى البرتغاليين واعترفت بسيادتهم، ودفعت لهم الجزية .

وهكذا استطاعت البرتغال أن تحقق أهدافها من أثر العوامل التى حركتها للكشف الجغرافى، فى رغبتهم فى إحكام تضيق الخناق على المسلمين؛ اذ إنه كان الانتقام من المسلمين الذين حكموا الأندلس وشبه جزيرة أيبريا فترة طويلة من الزمن، والبحث عن مواطن الذهب والإتصال بالمملكة المسيحية فى الحبشة من العوامل التى دفعت البرتغاليين إلى المساهمة بدور وافر فى حركة الكشوف الجغرافية ، ومن هنا كانت منطقة شرق أفريقيا الشرقية المواجهة للجزء الجنوبى الغربى من المحيط الهندى، تحقق جميع هذه الأهداف بالنسبة للبرتغاليين فالامارات التى تنتشر على سواحلها عربية كانت أو سواحيلية مسلمة، ومناجم الذهب موجودة خلف هذه الإمارات، وقد ظهر أن العرب يستفيدون من هذه المناجم، ثم أن مملكة القس يوحنا تقع قريبة منها فى بلاد الحبشة، كما تصور البرتغاليون ذلك.

واتجه البرتغاليون فى بداية الأمر إلى اتخاذ ساحل شرق أفريقيا، بمثابة قاعدة ملاحية فى الطريق إلى الهند ، ثم تحول هدفهم إلى السيطرة الكاملة على ساحل شرق أفريقيا، وهكذا قام البرتغاليون باحتلال الساحل وعزله عن الداخل، الذى كان يمده بسلعه التجارية، والتى كانت تصدر بدورها إلى موانىء الخليج العربى والهند والشرق الأقصى، وكذلك اتجاه البرتغاليين إلى إثارة الحروب والمنازعات الأسرية بين حكام الساحل، والهدف من ذلك إضعاف الزعماء والرؤساء ليؤول للبرتغاليين السيطرة فى نهاية الأمر .

وهكذا كانت من أبرز نتائج ذلك الوجود البرتغالى، أن تحولت التجارة الشرقية عن طريق الخليج العربى والبحر الأحمر وغيرها من الطرق البحرية والبرية التقليدية، إلى ذلك الطريق البحرى المباشر عن طريق رأس الرجاء الصالح مباشرة إلى أوروبا، وكانت تجارة الشرق بين أيدى، العرب فصارعهم البرتغاليون بالعنف والقسوة، واستطاعوا أن ينتزعوا منهم تلك التجارة، وأن يضعفوا ما كان لهم فيها من نشاط ظاهر ، بالإضافة إلى أن العرب كانوا يسيطرون على تجارة المحيط الهندى منذ عدة قرون، فلم يكن يترامى إلى ذهنهم بأن تلك السفن القليلة القادمة من أوروبا من الممكن أن تشكل خطراً لثروتهم، أو على النفوذ الذى كان يتمتعون به

على تجارة الشرق، ولكن لم يلبث أن اتضح لهم بعد ذلك بقليل أن رحلة فاسكو دى جاما تبعها تسلط عسكرى، واحتكار اقتصادى بالغ .

وكما سبق القول.. فقد لقى البرتغاليون ترحيباً من العرب والسواحيلية فى بداية الامر، إلى أن وضح لهؤلاء حقيقة ما يضمرون، وأدركوا أنهم يريدون الانقضاض على تجارتهم والاستيلاء على بلادهم، فتحول الود إلى عداء وثورة. وعلى كل حال فقد تمكن البرتغاليون من الاستيلاء على الساحل فيما بين عام ١٤٩٨ - ١٦٩٨؛ أى فى خلال قرنين من الزمان، وآلت إليهم تجارته وموارده، واستفادوا من مصادر ثرواته من الذهب والعاج والرقيق الذى جلبوا منه الشيء، الذى لا يقدر. وقد اختارت البرتغال لهذا الغرض رجالاً أعدوا اعداداً تامًا؛ بحيث كانوا من الضباط البرتغاليين، الذين يمتازون بالقسوة والطغيان والعنف والطمع، ويتظاهرون بالحكمة والتعقل فى الحصول بسهولة على كل ما يريدون، وإذا ظهر الرفض تحولوا إلى وحوش كاسرة مفترسة .

لقد بدأ احتكاك البرتغاليين بجنوب الساحل الشرقى فى موزمبيق وسفالة؛ حيث اعتقد السكان فى بداية الأمر أن القادمين أتراك مسلمين ، وقد كان معظم شرق أفريقيا فى ذلك الوقت، تابعًا لسلطان كلوه، وأنه كان يعين الحكام من قبله ولاة على مقاطعات الساحل. وقد نجح فاسكو دى جاما فى الوصول إلى معظم هذه الموانىء كسفالة وكلوه وزنجبار وماليندة ، ولكن عندما تبين لأهالى موزمبيق حقيقة البرتغاليين، برزوا لهم بالعداء حتى اضطر فاسكو دى جاما إلى مغادرة موزمبيق، بحثًا عن مكان آخر، فاتجه إلى مالندة، وهناك وجد حاكماً عربيًا يدعى « وجى راج »، لم يستطع الخروج إليه من مقره لكبر سنه، وإنما أوفد إليه أحد أبنائه، وطلب فاسكو دى جاما الإقامة فى مالندا بعض الوقت .

وهكذا كان البرتغاليون هم الرواد الأوائل فى حركة الاستعمار الأوروبى لشرق أفريقيا، فقد استطاعت هذه الإمارة البحرية الصغيرة أن تستولى فى وقت قصير على الطريق التجارى المؤدى إلى الهند، وأن تحتكر تجارة الشرق كله .

وقد أخذ البرتغاليون ينشئون على ساحل أفريقيا مستعمرات ومحطات تجارية وحصوناً وثغوراً وكان البوكيرك القائد البرتغالى، الذى اعتقد أن الطريق إلى الهند لن يكون آمنا إلا بإنشاء هذه المستعمرات، كما رأى أن تأمين التجارة يقتضى الاستيلاء على ثلاثة مواقع استراتيجية مهمة، هى.. ملقا وعدن وهرمز، وذلك لخنق المسلمين وتحويلهم عن مناطق شرق

أفريقيا، حيث كانت هي المواقع الثلاث هي باب الخروج للعرب إلى شرق أفريقيا، وكانت تعد المفاتيح للطريق إلى البحر الأحمر والخليج العربي وجزر الهند الشرقية. اما ساحل شرق أفريقيا، فقد رأى البوكيرك ضرورة احتلاله وإخضاعه للسيادة البرتغالية، والسيطرة على نشاطه التجارى، فألقت سفنه مراسيها عند كلوه عام ١٥٠٢م، وأرغم سلطانها على الاعتراف بالسيادة البرتغالية، ودفع جزية مقدارها ألف وخمسمائة مثقال ذهب سنوياً .

وقد استفاد البوكيرك من نجاح فاسكو دى جاما؛ حيث كان ذلك النجاح حافزاً لملك البرتغال عمانويل على تجهيز حملة كبيرة؛ ليست بهدف الكشف هذه المرة، وإنما يهدف السيطرة التامة ووصلت الحملة البرتغالية فعلاً إلى موزمبيق وكلوه، وحاول قائدها أن يعقد معاهدة مع سلطان كلوه، ولكن السلطان رفض مصادقة البرتغاليين ومحالفتهم، وأخذ يستعد للدفاع عن بلاده، فاتجه القائد البرتغالى إلى مالينده؛ حيث سلم شيخها الهدايا التى كان قد بعث بها الملك عمانويل ردا على بعثة حاكم مالينده ، وقد رأى حاكم مالينده أن يستعين بالبرتغاليين فى القضاء على مناقشة شيخ ممبسا، وكانت العداوة لا تنقطع بين مالندى وممبسا، فشيخ مالندى يحاول أن يؤكد لنفسه أصلاً السيطرة على مشايخ الموانىء الساحلية جميعاً، مدعيا أنه من سلالة حكام حكموا المنطقة الساحلية قديما ، أما شيخ ممبسا، فقد كان من أقوى مشايخ الساحل سلطة ونفوذاً بعد سلطان كلوه .

ولم تقتصر المنافسة على مالندى وممبسا، إنما انتقلت عدوى التنافس وعمته إلى جميع الموانى الساحلية، إذ انطوت تحت زعامة هذه المدينة، أو ذاك معظم الموانىء والجزر فى ساحل شرق افريقية .

ويذكر أنه عندما تقدم البرتغاليون إلى ميناء أوجه شمال مالينده ، فإن حاكم الميناء اعتذر لقائد الاسطول البرتغالى، بأنه لا يستطيع أن يدفع جزية له أو لملك البرتغال؛ لأنه يخضع للسلطان المملوكى الذى يحكم مصر فى القاهرة .

وعلى كل حال.. فإنه فى الوقت الذى وصل فيه البرتغاليون إلى شرق أفريقيا أن هذه الموانىء والمدن والإمارات والجزر، فإنها كانت فى منازعات ومنافسات مستمرة، وكان يحركها فى ذلك الدوافع العرقية والأسرية والمذهبية والدينية والاقتصادية والتجارية ، فضلاً عن دوافع السيادة والرغبة فى السيطرة على الساحل، ومن المؤكد أن هذه المنازعات كانت قائمة قبل مقدم البرتغاليين بوقت طويل .

وفى عام ١٥٠٢ تم إخضاع كلوه والسيطرة النهائية عليها عام ١٥١٢م، وبين أعوام ١٥٠٣ ، ١٥٠٥م تم تأكيد السيطرة البرتغالية على معظم موانى الساحل ، حيث جاء دور السيطرة على زنجبار، فدخلها البرتغاليون، وفرضوا السيادة البرتغالية عليها، وجزية سنوية مقدارها مائة مثقال من الذهب، وفى عام ١٥٠٥م خرج أسطول برتغالى، يتألف من عشرين سفينة؛ بقصد إنشاء مستعمرات فى ستة مراكز حربية، تمتد من جنوب شرق أفريقيا إلى جنوب غربى الهند، وكذلك السيطرة على سفالة والسيطرة على مناجم الذهب ، ثم جاء دور مدينة ممبسا، التى دافع المسلمون عنها دفاع الأبطال، ولكنهم هزموا آخر الامر، ونهبت مدينتهم وخربت ثم أحرقت. وقد أرسل سلطان ممبسا يحذر أهل مالندى، الذين كانوا يضمرون لبلاده الكراهية، أكثر مما كانوا يضمرون للبرتغاليين. وفى عام ١٥٠٦م أبحر إلى شرق أفريقيا أسطول برتغالى من موزمبيق، حتى بلغ الساحل الغربى من مدغشقر ، ثم يمم شطره نحو كلوه ومالندى ، وأخضع مدن لامو واوجا وبراوة، التى رضيت أن تدفع الجزية للبرتغاليين، ثم جاء دور مقديشيو، وكانت أقوى هذه المدن وأغناها. ولما ألقى البرتغاليون مراسيهم من مينائها، وجدوا الساحل يزخر بالمقاتلة، واضطر البرتغاليون إلى مغادرتها، وساروا إلى جزيرة سقطرة واستولوا عليها، وأنشئوا بها قلعة برتغالية، تتحكم فى مدخل البحر الأحمر، ولم يبق أمام البرتغاليين إلا خطوة واحدة لاتمام سيادتهم، فاستولوا على موزمبيق عام ١٥٠٧م، واتخذوها قاعدة عسكرية، وأنشئوا فيها قلعة ومستشفى وكنيسة ومستشفيات للجند، وغدت موزمبيق أهم مدن ساحل أفريقيا فى العهد البرتغالى .

وبذلك تم للبرتغاليين فتح شرق أفريقيا فى أقل من عشر سنوات، وخضعت لهم كل المدن الساحلية إما بقبولها السيادة البرتغالية ودفع الجزية، وإما بالقضاء عليها، ولم ينج من هذه المذبحة إلا مدينة مالندى حليفة البرتغاليين. وفى عام ١٥٠٩م عين ملك البرتغال حاكماً عاماً للمستعمرات البرتغالية فى أفريقيا الشرقية، وساحل بلاد العرب، ولم يبق لإتمام هذه السيادة إلا مقديو ومدغشقر، اللتين ظل البرتغاليون يتطلعون إليها، لولا انشغالهم بمشروعاتهم فى الخليج العربى بعد أن نهبوا مسقط وهرمز، وبعد أن هزموا الأسطول المصرى فى موقعة (ديو البحرية عام ١٥٠٩)، فإنه لم يبق أمامهم إلا ثغر عدن، وهكذا تحقق مشروع البرتغاليين الذى رسمه البوكيرك، فاستولى على ملقة ومات، وبذلك انتهت سيطرة العرب على شرق أفريقيا والمحيط الهندى وانتقلت إلى البرتغاليين ، على أن البرتغاليين لم يقضوا على العرب قضاءً مبرماً فإنهم لم ينشئوا إلا ثلاث مستعمرات رئيسية فى كلوه

وموزمبيق وسفالة، وإن كانوا قد انشئوا مستعمرات أخرى فرعية فى زنجبار وبمبا ، أما سائر المدن الساحلية فقد احتفظت بحكوماتها ونظمها المحلية مقابل دفع الجزية، وكانت المدن الشمالية شمال كلوه تتمتع بحرية التجارة، أكثر مما كانت تتمتع به المدن الجنوبية، على حين ظلت التجارة البرتغالية على ما كانت عليه، وكانت قوافل العرب تسير إلى الداخل .

وبمثابة ذكر سير قوافل العرب للداخل فى ظل الاستعمار البرتغالى.. فإن هناك حقيقة تاريخية مهمة وهى أنه قد صحب الغزو البرتغالى لمدن ساحل شرق أفريقيا انتشار الإسلام بين القبائل الداخلية؛ بسبب فرار العرب والمسلمين إخوانهم من الفرس والهنود والسواحيلى من الساحل إلى الداخل؛ خوفاً من بطش البرتغاليين بهم، بعد أن شاهدوا عوامل التنكيل والحرق والتدمير ، وهذا الانتشار الواسع للاسلام داخليًا تلحظه أكثر بالنسبة لاعتداء البرتغاليين على المدن الصومالية لمقديشيو وزيلع وبربرة، واتجاه المسلمين للداخل؛ حيث انتشر الإسلام بين القبائل الصومالية بصفة خاصة .

ويكفى أن نقول إنه لم تنج مدينة من هذه المدن المزدهرة من عبث الطغاة، فقد أحرقت ممبسة خمس مرات، ووضعوا السيف فى رقاب الناس، ومن بقى أسروه، وأعملوا السيف فى كلوه، وطردوا اهلها من ديارهم، ودمروا مساجد لامو وباتا، وقتلوا الشيوخ والأطفال والنساء، وفرضوا الغرامات الباهظة، واستطاعوا فى سنوات قلائل بالسيف والحديد والنار والتعذيب وإراقة الدماء أن يقضوا على كل مراكز الحضارة العربية الإسلامية وثقافتها الزاهرة، وأن يقضوا أيضا على كل الوكالات والمؤسسات التجارية، التى انشأها العرب فى تلك البقاع .

وصفوة القول أنه لم تكن للمشروعات البرتغاليةنتائج ايجابية فى الميزان السياسى الواضح؛ ذلك لأنهم أشعلوا حربًا صليبية ضد الإسلام ورجاله؛ حيث كان ذلك الخطر الصليبى البرتغالى مدعماً بالأسلحة الحديثة، وكان يملأه حقد دفين على الإسلام، بعد أن شاهد مظاهر الحضارة الإسلامية الراقية على أرض الأندلس، وكان هذا الهجوم البرتغالى على شرق أفريقيا تحدوه الروح الصليبية المتعصبة، فخربوا المدن الإسلامية بالقنابل والمدافع، وهكذا كان ظهور البرتغال فى شرق أفريقيا بداية صراع دموى عنيف، استمر اكثر من ثلاثة قرون؛ لأنهم كانوا يهدفون إلى القضاء على كل أثر إسلامى، وتدمير قوته الحضارية والروحية، كما حدث فى الأندلس، والحصول على ذهب امارة سفالة، والسيطرة على المحيط الهندى، وطرد المسلمين من البحر الأحمر، والقضاء على قوة المسلمين الدينية والتجارية.

وقد كان رجال البرتغال يمتازون بالحقد الدفين والطمع والقسوة، وتملأ صدورهم كراهية شديدة للاسلام، ويكفى -كما سبق القول- أنه لم تنج مدينة من مدن شرق أفريقيا الزاهرة من كراهيتهم، حتى أنهم أحرقوا مدينة ممبسا خمس مرات، وواصلوا استعمال السيف فى رقاب الناس، ومن بقى من أهلها أخذوه اسيراً ، وكذلك أعملوا السيف فى أهل كلوه، واستطاعوا فى سنوات قلائل بالسيف والحرق والتدمير وإراقة الدماء أن يقضوا على هذه المدن الإسلامية .

ولقد كان مخططهم هو تكثيف الدعوة للإنجيل وللمسيح، والقضاء على كل أثر للإسلام فى تلك الديار، وذلك لقرب هذه البلاد من البلاد العربية الإسلامية والجزيرة العربية والشرق الإسلامى؛ وذلك لإقامة جدار مسيحى ، قوى وعازل يمنع الدعوة الإسلامية والمد الإسلامى من اختراق القارة الأفريقية من هذا الساحل الشرقى، والوصول بالقرآن الكريم ويرسالة الإسلام ووقوع المصحف الكريم فى أيدى الزنوج الأفارقة، وذلك لمحاصرة الإسلام فى دياره؛ تمكيناً للقضاء عليه ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾،﴿وكلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون فى الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين﴾.

وعلى هذا فما أن تمت الفتوحات، حتى شرع البرتغاليون فى نشر الدين المسيحى وتأسيس الأسقفيات، وبناء الكنائس، والأديرة والمراكز التبشيرية، وإرسال الرهبان والقساوسة، وأخذوا يبشرون بالإنجيل واتخذوا مركزاً لهم فى موزمبيق، وكذلك مراكز فى ماليندى، وفى جزيرة سوقطرة، وبمبا وزنجبار، وامتدت البعثات التبشيرية إلى ممبسا والساحل كله .

بل أنهم قاموا ببناء أكبر قلعة على الساحل، عرفت باسم قلعة السيد المسيح ، وبذلك فإنه لم يبدأ القرن السادس عشر، ومع نهاية القرن السابع عشر إلا وظهرت رعية مسيحية سوداء فى شرق أفريقيا وأثمرت جهود البرتغال الصليبية التبشيرية، بعد أن انحسرت الدعوة الإسلامية وانكسر المسلمون أمام الخطر الصليبى البرتغالى .

وهكذا ركز البرتغاليون فى شرق أفريقيا على القسم الجنوبى من الممتلكات الإسلامية، واكتفوا من الجزء الشمالى بالاعتماد على محالفة حكام ماليندى، الذين كانوا يتلقون المساعدات العسكرية من البرتغاليين ، وهكذا توافد على هذه المنطقة رجال الدين البرتغال والمتعصبين للصليبيين ، كما وفد بعض التجار وبعض المستوطنين، الذين كونوا مستعمرة

موزمبيق، بينما توقفت حركة الهجرة الإسلامية العربية والصلات العربية الإسلامية مع الساحل، وترك المنطقة الجنوبية كثير من المسلمين، الذين اتجهوا للشمال والداخل، ولذلك نلاحظ أنه عندما تخلص العرب فى القرن الثامن عشر الميلادى من الحكم البرتغالى، بقيت موزمبيق مستعمرة برتغالية، حتى حصولها على استقلالها عام (١٩٦٨).

على أنه منذ عام ١٥٠٩ وحتى تدخل عرب عمان فى أواخر القرن السابع عشر، اضطرت معظم الإمارات الإسلامية فى القسم الشمالى من ممبسا حتى رأس جردافون إلى دفع الجزية للبرتغاليين، والاعتراف بسيادتهم أحياناً وارتاح البرتغاليون لهذا النظام المالى؛ لأنه كان من بين أهدافهم الاستقلال المالى والاحتكار التجارى؛ لذلك جلبوا على أنفسهم كره السكان الأصليين، كذلك فإنه مما يلاحظ على الوجود البرتغالى فى شرق أفريقيا إذ انظرنا إلى الأحداث، ذلك الاتفاق الذى تم بين البرتغاليين وشيخ ممبسا على عدم الاتصال بالأتراك العثمانيين؛ مما يدل على أن الدولة العثمانية فى ذلك الوقت لم تكن لتهمل شأن الدفاع عن الديار الإسلامية، ولا سيما تلك المنطقة القريبة من الأراضى الحجازية المقدسة، وهذا يعطى الدليل على إحساس الأتراك المسلمين بالخطر الصليبى المسيحى البرتغالى فى هذه الأرجاء البعيدة.

ومن المعروف أن الأتراك كانوا قد بسطوا نفوذهم الإسلامى إلى عدن عام ١٥٣٨م؛ ليتخذوا منها قاعدة لمهاجمة البرتغاليين فى المحيط الهندى، ويقال إنهم سيطروا على سوقطرة عام ١٥٣٥م، ولكنهم لم يلعبوا دوراً فعالاً فى دفع البرتغاليين عن شرق أفريقيا إلا فى أواخر القرن السادس عشر، كما أن ذلك لم يتم فى أول الأمر بصورة مباشرة، بل عن طريق أحد رؤساء البحرية على ميرال بك الذى اتخذ مدينة جدة قاعدة له وعندما ظهر امام شواطىء أفريقيا الشرقية عام ١٥٨٥م، انبعث روح الأمل بين سكانها المسلمين، وأعلن أمراء الموانىء من مقديشيو حتى ممبسا أنهم يدينون بالولاء للسلطان العثمانى مراد بك الثالث، لفيليب الثانى ملك إسبانيا، وذلك لأن هناك ظروفا كانت قد هددت سلطان البرتغال، بسبب منافسة الدول البحرية لها، ثم بسبب أن البرتغال نفسها فقدت استقلالها، حين ضمها الملك فيليب الثانى إلى عرش إسبانيا عام ١٥٨٠م، بحيث بدأت البرتغال تفقد مستعمراتها الأخرى بعد ضم البرتغال لإسبانيا، وأخذت دول أوربية أخرى تسلك الطريق نفسه الذى سلكه البرتغاليون من قبل.

وقد شجع على ميرال سكان السواحل الشرقية والمسلمين جميعًا على الثورة ضد الوجود الإسبانى، ولكن هذا الوالى لم يعد لهم، كما وعدهم بأن قوة إسلامية تركية سوف

تأتى قريبًا لهم، وفى مثل هذه الظروف تستطيع الإمارات الإسلامية أن تواصل الثورة ضد الحكم البرتغالى، وسرعان ما استسلمت مرة أخرى، وقبلت التبعية لملك البرتغال وإسبانيا، وقد اتخذت ممبسا وحدها من بين الامارات الإسلامية الصغيرة موقفا مغايراً ورفضت التبعية للبرتغاليين، واستنجدت بعلى ميرال بك عام ١٥٨٨م، فأسرع إليها إلا أنه لسوء حظه خرجت عليه فى هذه الأثناء القبائل آكلة لحوم البشر من حوض الكونغو، ونزلت بالمنطقة الساحلية وأحاطت بمدينة ممبسا فى الوقت الذى وصلت فيه الأساطيل البرتغالية، وألقت القبض على (على ميرال).

وكانت قد خرجت من داخل شرق القارة الأفريقية؛ حيث حوض الكونغو جموع من زنوج الوازمبا، وأطبقت على المدن الساحلية، وأغاروا على ممبسا، وهاجموا الناس وأكلوهم فى المنازل والطرقات ، وفى الوقت نفسه رست السفن البرتغالية فى ميناء ممبسا لتضربها بالقنابل، وهرب الناس من المدينة بعد أن اجتاحها قوم آكلى لحوم البشر، وألقوا بأنفسهم فى البحر هرباً منهم، وذلك لكى يصلوا إلى السفن الراسية بالميناء ليحتموا بها، ولكن البرتغاليين حصدوهم بالرصاص .

وهكذا قضى على آمال مسلمى شرق أفريقيا للتخلص مرة ثانية من الحكم البرتغالى، فعادت جميع الموانىء للخضوع، باستثناء مقديشيو، التى حافظت على استقلالها، وقد يكون ذلك نظراً لقربها من عدن؛ حيث الأتراك العثمانيين، وبعدها عن موزمبيق مقر الحكم البرتغالى. ونتيجة لهذه الثورات المتكررة وتدخل الأتراك فى هذه الأنحاء ، قرر البرتغاليون بناء قلعة ممبسا، التى عرفت باسم قلعة يسوع المسيح ١٥٩٢م، والتى استغرق بناؤها عامين كاملين، سخروا فى بنائها العرب المسلمين والسواحيلية، وكل ما وصلت إليه أيديهم من أفراد وأموال وممتلكات إسلامية ، وقد كافأ البرتغاليون سلطان مالندى، ويدعى الشيخ حسن على ولاءه لهم، فمنحوه إمارة ممبسا إضافة إلى ولايته، وذلك فى العام نفسه، الذى تم فيه بناء قلعة يسوع المسيح .

ويدل اطلاق اسم يسوع المسيح على الرغبة الحقيقية فى نشر المسيحية، وقيادة حرب صليبية ضد المسلمين، إلا أنهم لم يتركوا له الانفراد بإدارة ممبسا؛ فقرروا مرابطة حامية من جنودهم فى القلعة، قدرت بنحو مائة جندى مسلحين بالبنادق، ومعهم بعض المدافع، وعلى رأسهم قائد يسيطر على الساحل كله، من براوة حتى راس دلجادو، وصار لهذه الحامية الإشراف على الساحل الشمالى؛ مما أوشك أن يحول ممبسا إلى قلعة صليبية مسيحية مثل موزمبيق .

ويبدو أن ثورات المسلمين المتكررة واستنجادهم بالأتراك، جعل البرتغاليين يميلون إلى تعميم الإدارة المباشرة؛ مما حداهم إلى تدبير مؤامرة قتل حليفهم الأول فى المنطقة، وهو سلطان مالندى، وحملوا ابنه يوسف وهو لايزال صغيرا فى السابعة من عمره إلى جوا بالهند، وعمدوه نصرانيا وتنشئته تنشئة برتغالية، وغرسوا فى قلبه حب يسوع المسيح والمسيحية والبرتغال، ولقبوه لقب جيرينمبو شيسنجوليا، وفى عام ١٦٣٠ عينوه حاكماً على عرش ممبسا؛ مما يعطى الدليل القاطع، الذى لاجدال فيه ولامراء فى أن الرغبة الحقيقية للسيطرة والاحتلال البرتغالى لشرق أفريقيا، كان محاربة الإسلام والقضاء على كل ما هو إسلامى أو عربى فى تلك المناطق .

وهكذا استخدم البرتغاليون السلاح نفسه الذى فعلوه مع يوسف حسن (سلطان مالندى)، ومع جميع الرؤساء الأفارقة فى المناطق الجنوبية، وهكذا ظهرت صيغة أفريقيا حاكمة مسيحية، وقد لقيت تلك السياسة قدرا لا بأس به من النجاح، إلا أنهم فى هذا الصدد قد تناسوا حقيقة مهمة، وهى أن ابناء الرؤساء الأفارقة ممن كانوا لا يدينون بالإسلام، وكانوا على الفطرة والوثنية، كان من السهل جذبهم إلى المسيحية، وامتصاصهم فى الحضارة البرتغالية، إلا أنه مع الأمراء المسلمين فى الشمال أو الجنوب.. فإن الأمر يختلف كل الاختلاف؛ حيث فشلت جهودهم فى هذا الصدد. ولكن لم يمض وقت طويل على تلك السياسة؛ حتى تأكدت حقيقة قوة الإسلام ومدى تعمقه فى النفس البشرية والإيمان، الذى يضفيه على كل من سمع القرآن يتلى، والمؤذن يؤذن للصلاة ، إذ إن خلع سلطان ممبسا ابو يوسف بن حسن، سابقاً الرداء الذى ألبسه أياه البرتغاليون؛ ففى اغسطس عام ١٦٣١م، واثناء الاحتفال بمرور عام على تولية العريش ، وبعد أن كان قد رتب كل شيء، أعطى إشارة الانتقام بأن رد تحية القائد البرتغال بضربة مفاجئة من خنجره، وقد فعل كل اتباعه الذين معه من الأسرة الحاكمة وأفراد الحاشية وبقية الشعب، الذين حضروا هذا الاحتفال- حيث إن كل السكان كانوا يتسلحون جميعا بهذه الخناجر- هذه الطريقة فى أن يضرب كل واحد منهم واحداً من البرتغاليين، فما هى الا فترة وجيزة حتى كان كل رجل وامرأة برتغالية قد قتل، ماعدا الذين اعلنوا دخولهم فى الإسلام، وخربت الكنيسة بمحتوياتها ، وأخذت الثورة تشتعل فى اغلب المدن الإسلامية، بعد أن علموا بما حدث من امر الحاكم فى ممبسا، والذى عاد إلى دين الله الخالد ، ما عدا زنجبار وباتا .

وفى نهاية العام ظهرت كتيبة فى ست سفن، آتية من جوا بالهند، عليها ستمائة برتغالى جاءت؛ لتعاقب السلطان يوسف على جريمته، وحاصروا القلعة التى كان يتحصن بها مع حاشيته من جنوده العرب والسواحيلية وبعد ثلاثة أشهر فك البرتغاليون الحصار عن

قلعة ممبسا وعادوا أدراجهم إلى الهند ، غير أن نائب ملك البرتغال فى جوا الهندية، لم يتوقف عند هذا الحد ، بل أرسل حملة ثانية لممبسا فى العام التالى ١٦٣٣م، وقد دهش البرتغاليون عندما وجدوا أن القلعة قد أزيلت وصارت حطاماً، ويرجع ذلك إلى أن السلطان يوسف قد شعر بعدم قدرته على مواصلة الحرب النظامية التقليدية ضد البرتغاليين، فآثر اتباع أسلوب جديد هو أشبه بحرب العصابات، وظل يتنقل بين القبائل والقرى السواحيلية التى تقع تحت سيادته، ويحث المسلمين على رفع لواء الجهاد الإسلامى المقدس، إلى أن قضى نحبه، دون أن يتم رسالته فى تحريض المدن والموانى على قتال البرتغاليين، وطردهم من ساحل شرق أفريقيا، وكان ذلك عام ١٦٣٨.

وقد نبهت ثورة السلطان يوسف بن حسن سلطان ممبسا؛ اذ أدرك البرتغاليون ضرورة تشديد قبضتهم على القسم الشمالى من ساحل شرق أفريقيا فأعادوا بناء قلعة يسوع عام ١٦٣٩م، واتخذوا منها عاصمة للشمال كموزمبيق بالنسبة للجنوب، وحرموا على الأمراء المسلمين تلقى مهاجرين جدد من العرب والمسلمين ، وهكذا ازداد نفوذهم فى شرق أفريقيا فى الوقت الذى تداعوا فيه كقوة عالمية بحرية ، وأصبح الوجود الإسلامى العربى فى موزمبيق مهدداً بالزوال فى الشمال، كما حدث فى الجنوب؛ أى فى موزمبيق، لولا أن قيض الله للاسلام والعروبة أن تصونه دولة عربية إسلامية ناشئة، وهى دولة اليعاربة فى عمان، أن تخرج البرتغاليين من هذه المنطقة من أفريقيا .

وتقول إنه قبل أن تتدخل دولة اليعاربة فى شرق افريقية ، فإن النفوذ البرتغالى كان قد تقلص فى شرق افريقية، واستردت ممبسا العربية ثراءها القديم وشهرتها السالفة ، على أنه قد ظهر عامل لم يكن فى الحسبان؛ إذ رأى البرتغاليون أن قاعدتهم العسكرية فى موزمبيق لا تكفى لصد الأخطار الإسلامية وثورات الأهالى، فأنشأوا قاعدة أخرى فى ممبسا، وأخذوا يشجعون المتقربين الغربيين، ويمدونهم بالمعونة لزراعة الأراضى الصالحة للزراعة، كما استقروا فى مدينة زنجبار، وثبتوا أقدامهم فيها؛ لمنع غارة الأتراك العثمانيين، وبدأت الطوائف المسيحية كالدومنيكان والجزويت يبشرون بالمسيحية، وينشئون المدارس، ويقيمون الكنائس وذلك لخلق رعية مسيحية (راجع كتابنا . أخطار التبشير فى العالم الإسلامى ، فصل التبشير فى شرق أفريقيا)

وقد انتقل مركز النفوذ البرتغالى من مالندى إلى ممبسا، ونقل سلطان مالندى ويدعى الشيخ حسن بن أحمد حاضرة ملكه إلى ممبسا، وبدأ نفوذ الأسرة المالندية الموالية للبرتغاليين ينمو فى ظل الحكم البرتغالى ، بل لقد اخذ يطغى على نفوذ البرتغاليين الذين أحسوا بالخطر.

ولكن ليس معنى هذا أن البرتغاليين قد نجوا من الأخطار ، فقد أخذت البرتغال تفقد ممتلكاتها فى المحيط الهندى، وبدأ الهولنديون يحلون محلهم، ولم يبق أمامهم إلا شرق أفريقيا، فأرسلت ممبسا إلى سلطان عمان اليعاربة السلطان (سلطان بن يوسف) تدعوه إلى إنقاذ المسلمين، كما انقذ أبناء وطنه من قبل .

وعلى هذا فإنه مهما يكن من شيء، فإن الاستعمار البرتغالى فى شرق أفريقيا لم يترك أثرا يذكر، ولا يمكن أن يعزى ذلك إلى سوء المناخ ، فقد كان البرتغاليون غرباء عن البلاد، ولم يبق حكمهم فيها إلا عن طريق القوة العسكرية، كما أنهم لم يحتلوا شرق أفريقيا كله، وإنما أقاموا محطات قليلة، لا يتجاوز عدد سكانها فى كل محطة عن مائة جندى ، وكل ما تركه الاستعمار البرتغالى من أثر هو أنه أساء إلى العرب والمسلمين، الذين استقروا فى هذه البلاد، وأن ضعفهم قد زاد على مر الزمن .

ومن هنا فإن أسلوب البرتغاليين المتعسف ونزعتهم الاحتكارية العنيفة وطريقتهم فى الحكم، قد تركت آثارها السيئة فى مجال العلاقات العربية الأفريقية، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، فقد كان التأثير هنا فى شرق أفريقيا مباشرة، فى ذلك الاصطدام العنيف الذى حدث بين البرتغاليين، وبين المراكز العربية الإسلامية التجارية، والمدن والإمارات التى أسسها العرب، قبل عدة قرون من الغزو البرتغالى .

ولم تكن هذه المدن والإمارات العربية هى التى عانت بمفردها من الغزو البرتغالى، بل لقد عانت من ذلك الغزو البرتغالى أيضاً القوى العربية، التى كانت تعيش فى أطراف العالم العربى؛ خاصة فى سواحل الخليج العربى والجزيرة العربية؛ اذ استهدف البرتغاليون من سيطرتهم على هذه السواحل، التحكم فى الطرق البحرية والتجارية لعملياتهم الاحتكارية، إزاء تجارة الشرق .

وقد استمرت السيطرة البرتغالية على أطراف العالم العربى ما يقرب من أكثر من قرنين من الزمان، تعرضت خلالها الإمبراطورية البرتغالية فى الشرق لعوامل كثيرة من التدهور والإنهيار؛ نتيجة ظهور قوى أوربية جديدة، نازعت البرتغاليين سيادتهم، أو لسبب الانهيار الذى دب فى البرتغال نفسها كدولة؛ نتيجة خضوعها للحكم الإسبانى (١٥٨٠ - ١٦٤٠م) هذا بالإضافة إلى ضعف الموارد البشرية للبرتغال، وهى دولة صغيرة محدودة المساحة والسكان، وعدم قدرتها على السيطرة التامة على هذه الإمبراطورية الساحلية الكبيرة، التى بسطت نفوذها عليها .

الفصل الثاني

عُمان وإنهاء الوجود البرتغالي في شرق أفريقيا

وقد ساعدت هذه الظروف الحرجة التى مر بها الاستعمار البرتغالى على ظهور دولة عربية فتية، فى الجزء الجنوبى الغربى من الخليج العربى، وهى دولة اليعاربة فى عمان (١٦٢٤ - ١٧٤١م)، التى تولت الصراع العربى ضد البرتغاليين. لقد خاض العرب والأفريقيون كفاحاً مشتركاً لتحرير شواطىء هذه المنطقة من شرق أفريقيا من الغزو البرتغالى، ونتيجة للمحاولات الدائبة التى بذلها البرتغاليون؛ لاستعادة سيطرتهم على هذه الشاطىء، ومن هنا كان التجاء سكان الساحل الشرقى لأفريقيا إلى عمان لحمايتهم من البرتغاليين حيث تم وضع الأساس لحكم عربى، امتد على جزء كبير من سواحل شرق أفريقيا .

ومن هنا فإنه لا عجب أن يتطلع سكان الساحل الأفريقى إلى أبناء عمومتهم بمنطقة عمان ومسقط؛ لينقذوهم من سطوة البرتغاليين .

ولقد ساعد العرب على التحرر من السيطرة البرتغالية أنه قد استجدت ظروف عالمية، شجعت الإمارات الإسلامية الجنوبية على التحرر من السيطرة البرتغالية، ولفظ النفوذ البرتغالى المتحكم فى رقابهم ، ذلك أنه قد ظهرت قوى بحرية أوروبية تنافس البرتغاليين فى السيادة البحرية فى شرق أفريقيا والمحيط الهندى، وتحاول الانتقاص من سيادتهم؛ حيث كانت السفن الفرنسية والإنجليزية قد تدخلت فى ذلك الميدان البحرى، وظهرت كذلك سفن هولندا ، وبدأت كل من هولندا وإنجلترا ترسلان سفنهما التجارية المسلحة؛ لتنتشر فى تلك المناطق ، وقد كانت تلك الأحداث من الأسباب المباشرة، التى مهدت الطريق لتجرؤ العرب على البرتغاليين، بعد أن شاهدوا سطوة هذه القوى البحرية الجديدة، ومن هنا انتقصت السيادة البرتغالية ، بل إن ذلك ادى إلى القضاء عليهم ، وأخذ الإنجليز يوطدون لأنفسهم مكاناً على الساحل، وفقد البرتغاليون مستعمراتهم وشركاتهم فى الشرق كله والمحيط الهندى وسواحل الهند والخليج العربى .

وهكذا أدت هذه الجهود الأوروبية إلى القضاء على البرتغاليين، الذين لم يبق من إمبراطوريتهم الواسعة إلا مستعمرة جوا الصغيرة بالهند ، وأصبح الإنجليز والهولنديون والفرنسيون فى صراع مستمر؛ من أجل السيادة لمدة قرن من الزمان ، فقد تفوق الهولنديون على الإنجليز، وفى نهاية القرن السابع عشر انتشرت المستعمرات والشركات الهولندية فى الخليج العربى، وعلى سواحل الهند .

وقد أخذ الإنجليز والفرنسيون يدعون وراثة أملاك البرتغاليين ، بالإضافة إلى أن أفريقيا الشرقية لم يرد لها ذكر فى الصراع المرير فى المحيط الهندى، بسبب تحكم البرتغال فى شئونها، وانصراف القوى الكبرى إلى الشرق الأقصى، وظلت ثغور أفريقيا الشرقية مثل ممبسا وكلوه ومالندى، تزاول التجارة بين شرق هذه القارة وبين الهند، وكانت السفن البريطانية تزور موانى شرق أفريقيا فى طريقها إلى الشرق الأقصى؛ طلبا للمؤنة والزاد وتبادل السلع التى تحملها من الهند أو إليها ، لكن بدأ الإنجليز يهتمون بهذه البلاد، ويقدرون أهميتها التجارية، وما تحويه من ثروات قد تدر على بلادهم الربح الوفير، كذلك تطلعت فرنسا إلى وضع أقدامها فى تلك البقاع، أسوة بما تقوم به إنجلترا، وهكذا بدأ النفوذ البرتغالى يتقلص فى تلك الأرجاء .

ولقد ظهر فى ميدان الجهاد الإسلامى شعب فتى عربى، حمل لواء التحرر الإسلامى، فقد تحرر العمانيون منذ عام ١٦٥٠ من السيطرة البرتغالية فى عهد السلطان بن سيف؛ حيث كان عام ١٦٥٨ هو العام الذى تم فيه طرد البرتغاليين نهائيًا من مسقط، ومن الساحل العربى الجنوبى، وكان ذلك على يد عرب عمان، وقائدهم سلطان بن سيف. وقد شجع ذلك الانتصار سكان شرق أفريقيا على أن يطلبوا مساعدة بنى دينهم وبنو عمومتهم، وفعلا بعث حكام كل من زنجبار وممبسا وغيرها إلى إخوانهم عرب عمان، يطلبون منهم المعاونة وأرسلت ممبسا أيضا إلى العمانيين، وهكذا بدأ تدخل عمان فى الصراع العربى البرتغالى، الذى تدور رحاه فى شرق أفريقيا، ودخل العثمانيون فى ميدان الجهاد عام ١٦٥٢ ؛ حيث استطاعت دولة اليعاربة أن تقضى على سيطرة البرتغاليين فى شرق أفريقيا؛ حيث استطاعت تلك القوة الفتية أن تهزم البرتغاليين فى زنجبار، وفى عام ١٦٦٠م استولى الإسطول العمانى على ممبسا ، وفى آخر أيام سلطان بن سيف دخل العمانيون موزمبيق، وظل العمانيون يحملون علم الجهاد الإسلامى والمقاومة العربية فى عهد سلطان بن سيف، وهزم البرتغاليون سادة الأمس هزيمة ساحقة عند ممبسا، وذلك بفضل مساعدة سكان ممبسا المسلمين، الذين قدموا كل عون ممكن للأسطول العمانى .

وكان العمانيون قد تحركوا لتلبية طلب إخوانهم، قبل أن يتم للعمانيين تحرير بلادهم، فقد ظهرت السفن العمانية أمام سواحل أفريقيا فى عام (١٦٥٠ ، ١٦٥٢)؛ فقد أرسل الإمام سلطان بن سيف عدداً من السفن العمانية لمهاجمة المستعمرات البرتغالية فى زنجبار وباتا، فدمرتها وقتلت عدداً كبيراً من البرتغاليين، واستولى المهاجمون على كل ما وقع تحت أيديهم، فحولوا الكنائس إلى مساجد؛ حيث كانت قد أقيمت على أرض كانت عبارة عن مسجد قديم، وعاملت رجال الدين المسيحى بالحسنى، والذين أعلنوا إسلامهم انطوا تحت لواء الإسلام، وقبلت حاكمة زنجبار والتى كانت زوجة أحد الأمراء أن تعلن ولاءها لسلطان عمان، وهكذا استطاعت دولة اليعاربة أن تقضى على سيطرة البرتغاليين فى شرق أفريقيا، كما قضت على هذه السيطرة فى كل من عمان والخليج العربى.

ويقترن كما سبق القول نجاح عرب عمان والخليج العربى فى إنهاء السيطرة البرتغالية بالضعف، الذى أصاب الإمبراطورية البرتغالية، وكان سقوط الإمبراطورية البرتغالية بمثابة تلاشى نفوذ السيطرة البرتغالية على الخليج العربى؛ مما مهد السيطرة لائمة عمان اليعاربة على المعاقل البرتغالية، وتقوية أركان دولتهم الناشئة ، ولقد صادف ذلك كما سبق القول طلب ممبسا، التى كانت فى صراع دائم مع البرتغاليين، بعد أن وطئت أقدامهم أرض شرق أفريقيا، وكانت تثور دائما على حاكم البرتغال فطلبت العون من عمان؛ مما شجع العمانيين على مواصلة كفاحهم ضد البرتغاليين ، ولقد كان دور عمان هو العامل الأساسى والمحرك الأول فى تحرير منطقة شرق أفريقيا من السيطرة البرتغالية .

فقد قام مؤسس دولة اليعاربة الإمام (ناصر بن مرشد) (١٦٢٤ - ١٧٤١) بحركة تحريرية كبرى، تبعه بعدها خليفته (سلطان بن سيف) (١٦٤٩ - ١٦٦٨م)، الذى لم يكتف بالقضاء على البرتغاليين فى مسقط وعمان ومطرح ، وإنما تتبعهم فى مستعمراتهم بالهند وشرق أفريقيا والثابت فى تاريخنا أنه قد وصل الإسطول العمانى فى عهده إلى بومباى، وحاصر بعض المراكز البرتغالية فى سواحل مليار، ولم يلبث أن اغتنم فرصة استنجاد أهل ممباسا، فقام بمحاصرة تلك المدينة حصاراً طويلاً، استغرق أكثر من خمس سنوات فى بعض الأقوال (١٦٦٠ - ١٦٦٥م)، وعاد البرتغاليون بعد استيلاء العمانيين عليها؛ حيث استقر لهم الأمر وتعاونوا مع الأهالى من منطلق حق الأخوة الإسلامية .

وقد اتجه الأسطول العمانى بعد حصاره لمدينة ممبسا إلى حصار جزيرة زنجبار وبمبا، وتمكن من تخليصها من أيدى البرتغاليين، الذين استبد بهم الغضب إثر هذا الانتصار العربى

الإسلامى الحاسم؛ فقام القائد البرتغالى (كابريرا) بمهاجمة سكان هاتين الجزيرتين (زنجبار وبمبا) لمساعدتهم العمانيين، وترحيبهم بإخوانهم فى العقيدة والأهل، ولكنه لم يستطع مواجهة العمانيين أنفسهم، الذين استطاعوا خلال النصف الثانى من القرن السابع عشر الميلادى إقصاء البرتغاليين عن مستعمراتهم فى شرق أفريقيا، وتصفية وجودهم، والذى كان يمتد من جزيرة سوقطرة شمالاً إلى خليج دلجادو جنوباً .

ولقد كان نتيجة هذا النجاح العربى الإسلامى العمانى المبكر فى تصفية ذلك الوجود، أن اشتعلت ثورة عارمة فى كل المدن الساحلية، ضد حكم البرتغاليين من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب؛ مما أفزع حكومة البرتغال فى لشبونة ، فأرسلت قائدها فرنسيسكو سيكساس كابرا، وهو القائد السابق الذى أرسلته البرتغال سابقًا لثورة يوسف بن حسن بن أحمد، سلطان ممبسا ، أرسل هذه المرة لقمع الثورة الجديدة، وقد بادر بإعداد حملة مكونة من مائة وعشرين جنديًا برتغاليًا وأربعمائة جندى مجند فى الجيش البرتغالى، من الهنود، ومائة وعشرين جنديا احتياطياً من عرب ممبسا ، وسار بهذه القوة إلى جزيرة زنجبار؛ حيث ضرب قلاعها بالمدافع، واستولى البرتغاليون فى طريقهم إلى بمبا على عشر سفن، كانت عائدة من كلوه ومافيا ، ثم انتقل كابرا إلى الشاطىء، ونزل باتا، واستقر بها شهرين، واستطاع أن يخلص منها اربعمائة من أسرى البرتغاليين، عاد بهم إلى ممبسا، كانت قد أسرتهم القوات العربية العمانية، إلا أنه لم يكن من القوة بحيث تمكنه من متابعة نشاط العمانيين البحرى أنفسهم، أو تتبعهم الى مسقط. وكانت التعزيزات التى تأتى من جوبا بالهند ضئيلة جداً، ولم تستطيع أن تقرر مصير البقاء البرتغالى لمدة أطول .

واشتد التعصب الدينى المسيحى، بعد أن تم لهم ذلك الانتصار فكان البرتغاليون يلقون الحجارة على المصلين المسلمين، ويسبون النساء وينهبون البيوت والدور والوكالات التجارية، ويختلقون الأعذار لكى يبتزوا الأموال من السكان، فإذا حدث أن وقع أحد البرتغاليين وهو سائر فى الطريق أمام منزل أحد المسلمين ، حمل صاحب المنزل المسئولية وطلب منه تعويضا من أملاكه .

وقد أدت كل هذه الأنواع القاسية فى المعاملة ، إلى استنجاد السكان مرة أخرى بإمام عمان؛ لدفع الاضهاد والظلم البرتغالى الواقع على الأهالى، وعندما وصل ذلك إلى الإمام سلطان بن سيف.. فإنه سارع إلى تلبية طلب إخوة الإسلام؛ حيث أعد أسطولاً صغيراً عام

١٦٦٠م هاجم مدينة فازا وممبسا، واستولى عليها، ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء على قلعة يسوع؛ إذ كانت دفاعاتها قوية، بالإضافة إلى عودة الإمام سلطان إلى عمان؛ نتيجة لحدوث بعض القلاقل الداخلية في البلاد، أثناء وجوده في شرق أفريقيا لتحريرها من حكم البرتغاليين .

وقد انتهز البرتغاليون فرصة عودته، فأستولوا مرة ثانية على ممبسا عام ١٦٦١م، كما حاول البرتغاليون استرضاء السكان؛ فقاموا بتعيين حاكم مسلم على ممبسا، هو ههنا انمو؛ ليكون حلقة اتصال بينهم وبين السكان، ولكن رغم ذلك فقد واصل البرتغاليون سياسة الاضطهاد الديني، والتنكيل برجال الدين والفقهاء، وكبار التجار ممن تعاونوا مع العمانيين أثناء قدومهم إلى شرق أفريقيا ، لذلك ازدادت كراهية السكان للإدارة البرتغالية، وتكررت الثورات المحلية ، وفي ذلك الأثناء مات الإمام سلطان بن سيف وخلفه على عرش عمان ابنه بلعرب بن سلطان بن سيف، الذي نَهَجَ نَهْجَ والده، وسار على سياسته في ضرورة القضاء على الوجود البرتغالي في عمان، ومحاربة البرتغاليين (١٦٦٨ - ١٦٩٢م)- وبعد توليه السلطة بفترة قصيرة فإنه تلقى فيضاً من الرسل، الذين وفدوا من شرق أفريقيا يحملون رغبة زعمائهم في ضرورة الإسراع إليهم؛ لتحرير ديار الإسلام من أعدائه، كما فعل أسلافه الذين كانوا يهبون لنجدتهم عند كل طلب ، وبناء على تلك الرسائل والرسل العاجلة، فقد أقسم الإمام بلعرب أن يدمر ممبسا ويسوى بيوت وأماكن البرتغاليين بالتراب، أو يموت دونها، وهو يدافع عن الإسلام .

ففي عام ١٦٦٩م أعد الإمام أسطولاً مكوناً من ثمانية وعشرين سفينة حربية، وعدد كبير من الرجال، أبحرت في يناير من العام نفسه إلى ممبسا ، ويبدو أن اتساع ثورات المسلمين في شرق أفريقيا جعلت إمام يعاربة يتطلع إلى شرق القارة على نقاط برتغالية، أبعد في الجنوب، فاتجهوا إلى قلب موزمبيق، التي عرفوا أنها ضعفت بسبب الحروب، التي قامت على نهر الزمبيزى وحاصروا قلعتها، ولكن استطاعت الحامية البرتغالية بقيادة جاسبار دى سوسة دى لاكيردا أن تصد المحاصرين؛ فأضطر العرب إلى رفع الحصار، وقام البرتغاليون بعد ذلك بمحاولة لإعادة سيطرتهم على الساحل؛ حيث أبحر نائب الحاكم بيدرود الميدا عام ١٦٧٨م من جوا بقوة عظيمة، وبعد أن استأنف مسيرة من قاعدتهم في موزمبيق، وجه الهجوم على باتا التي كانت تحتل في ذلك الوقت مكانة رئيسية بين القواعد العربية في الساحل الشرقي، وللأسف الشديد فقد وجد لميدا أعوانا من بين السكان المسلمين في إحدى المدن الساحلية، وهي مدينة قاز، فصار موقفهم يشبه إلى كبير الموقف، الذي اتخذه

سلطان مالندى من قبل حين تعاون مع البرتغاليين ضد ممبسا، وهكذا تمكن البرتغاليون فى نهاية الأمر من إخضاع باتا فى أواخر عام ١٦٧٨م، وشجعهم ذلك على تتبع القواعد الإسلامية الأخرى ، فأستولوا على سيو ولامو وماندا، التى قاومت بشدة وعنف وعناد، وكعادة البرتغاليين استخدموا كل وسائل القمع القاسية، فقتلوا حكام المدينة التى استولوا عليها، بالإضافة إلى مائتين من الرجال ذوى المراكز المهمة ، كما اتخذ القائد البرتغالى من مسجد باتا مقراً لقيادته، وحول مساجد أخرى إلى اسطبلات للخيول، ونهب البرتغاليون ثروات هذه المدن، التى كانت تتكون أساساً من العاج والذهب .

ولكن إزاء هذا حدث رد فعل سريع فى عمان؛ حيث ما كادت الأنباء والأعمال التى قام بها البرتغاليون تصل إلى أسماع السلطان فى مسقط، حتى أمر الإمام سيف بن سلطان الشهير بلعرب، بإرسال حملة تمكنت من تحرير باتا، وأسرع البرتغاليون بالانسحاب من المناطق الأخرى، وعادوا جنوباً إلى موزمبيق فى يناير عام (١٦٧٩م)

والذى لا شك فيه أن اشتباكات عام ١٦٧٨ - ١٦٧٩م، التى حشد لها البرتغاليون أعداداً كبيرة من الجنود والسفن، قد جرت على نطاق واسع، بدليل أن نائب الملك فى الهند والميدا هو الذى قاد تلك الاشتباكات بنفسه، وهذا ربما يعطى الدليل القوى على عزم البرتغال على إعادة نفوذها، وتصحيح الصورة التى اهتزت لدى سكان الساحل الشرقى، وكذلك فإن مقدار الغنائم التى استولى عليها البرتغاليون من المدن الإسلامية، والتى أرسل معظمها إلى خزينة لشبونة نفسها، ولما كانت لشبونة فى ذلك الوقت تعانى من التدهور، فلابد وأن المسئولين فى الإمبراطورية البرتغالية قد سروا كثيراً بالحصول على هذه الغنائم، ومع ذلك فإن البرتغاليين لم يتوقفوا عن المغامرة السابقة ، بل واصلوا هجماتهم من حين إلى آخر على جيرانهم فى الشمال؛ ففى عام ١٦٨٦م قاموا بغارة أخرى على باتا، وعادوا إليها فى العام التالى؛ حيث استطاعوا أن يوفقوا فى الاستيلاء على المدينة، وأسروا حاكمها وقد حملوه مع اثنى عشر فرداً من كبار رجاله إلى الهند، وهناك اجبروه على توقيع وثيقة، تعهد فيها بطرد العمانيين من المدينة، وأن يقيم البرتغاليون فى بلاده قلعتين لمرابطة حاميتين برتغاليين بصفة دائمة .

وقد فعل البرتغاليون ذلك مع حاكم باتا؛ لأجل أن يمنعوا أى اتصال بين مسلمى شرق أفريقيا وعرب عمان ، كما أن البرتغاليين كانوا على استعداد لإبقاء الحكام المسلمين المحليين

من المسلمين، على اختلاف أجناسهم، وخاصة السواحيلية كانوا شديدى التعلق بعرب عمان ، ويؤكد ذلك تعاونهم مع الحملة، التى قدمت مباشرة عقب استيلاء البرتغاليين على باتا، وكانت تضم أربعمائة عمانى وثلاثمائة سواحيلى، قدمت من مسقط، وتمكنت من القضاء على القوة البرتغالية فى باتا .

ولسنا بحاجة إلى القول أن التفوق البحرى العمانى كان له أثر كبير فى إحراز هذه النتائج العسكرية والسياسية فى شرق أفريقيا ، يضاف إلى ذلك تزعزع مركز البرتغاليين فى شرق أفريقيا الإسلامية؛ بسبب وجودهم الهامشى على الساحل وعدم تغلغلهم فى الداخل ، إذا كان هدفهم هو الحصول على الغنائم أو تأمين طريق الملاحة إلى الهند، كما أن قسوتهم نفرت منهم السكان المحليين الأفارقة من غير المسلمين .

ومن هنا فإنه يمكن القول أن نجاح العمانيين كان يرتبط بعدة عوامل، منها: قوة عرب عمان وشدهم إيمانهم بالقضية، التى يناضلون من أجلها، وهى نصرة إخوانهم فى العروبة والإسلام وكذلك تفوقهم البحرى ، بالإضافة إلى حالة الضعف والظروف التى جابهت البرتغاليين أنفسهم ، هذا إلى جانب أن البرتغال كان من ضمن أهدافها الأساسية، هو التثبت باسلوب الاحتكار وليس الاستعمار، وإنشاء قواعد بحرية؛ لضمان سلامة الطريق المؤدى إلى مستعمراتهم فى الهند، وتأمين الطريق بين لشبونة والهند، ومن هنا كان التمسك بأسلوب الاحتكار التجارى قد دفعهم إلى انتهاج أساليب عنيفة، اتسمت بالاستبداد والعنف والقسوة والإجرام وإلقاء المظالم على السكان، والاضطهاد فأثارت ثائرة الأهالى عليهم .

وتمثلت أكبر مأساة للوجود البرتغالى فى أفريقيا فى سقوط قلعة يسوع المسيح فى يد عرب عمان، فقد أخذت السيادة العمانية فى التزايد فى المحيط الهندى، فى عهد الإمام سيف بن سلطان، فبعد أن كانت هناك اشتباكات متفرقة مع البرتغاليين فى باتا، فإنه ما كاد القرن السابع عشر يقترب من نهايته، حتى أخذت المدن الواقعة شمال راس دلجادو تتخلص تدريجياً من الحكم البرتغالى، وهكذا كان أعظم انتصار حققه العمانيون على البرتغاليين فى شرق أفريقيا، هو نجاحهم فى إخضاع ممبسا فى ١٤ ديسمبر ١٦٩٨م، بعد حصار عنيف دام ثلاثة وثلاثون شهراً، وأنه بسقوط حصن يسوع المسيح فى مبسا، تم وضع نهاية للتفوق البرتغالى فى شرق أفريقيا، ويعيب بعض الباحثين على نجاح العمانيين فى انتزاع ممبسا، بأنه كان من الممكن أن يقوم سيف بن سلطان، وهو الذى خلف أباه سلطان بن سيف فى عام ١٦٦٩م، بتأسيس امبراطورية عربية عمانية على انقاض الإمبراطورية البرتغالية، ويبدو أن تلك الفكرة قد داعبت خياله فى يوم من الأيام، ولكن ضعف مركزه فى الداخل جعله يهمل

تنفيذ هذا المشروع، وبذلك تأخر تأسيس الإمبراطورية العمانية فى شرق أفريقيا إلى نيف ومائة عام، حينما قام بتأسيسها سعيد بن سلطان (١٨٠٦ - ١٨٥٦م) .

يحاول الكتاب والمؤرخون الأوربيين التقليل من شأن الإسلام فى استرداد شرق أفريقيا، ومن ذلك نجد مثلاً أن جيوان يذكر أن العمانيين حاولوا إسقاط موزمبيق، بعد نجاحهم فى الاستيلاء على ممبسا، ولكنهم أسرعوا بالتراجع بعد أن عمد البرتغاليون إلى إرهابهم، عن طريق تفجير لغم كبير، وضعوه هناك .

كما يذكر كويلاند عن تلك الحكاية أن المسلمين عندما حاصروا موزمبيق، فإنهم كانوا يقومون بشق حفرة فى مكان معين، تحت متاريس واستحكامات القلعة، التى تقع فى قلب موزمبيق؛ وذلك بغرض الوصول إلى قلب الحامية عن طريق هذا السرداب ، وقد بلغ هذا النبأ البرتغاليين، الذين قاموا بوضع أوانٍ مليئة بالماء على طول أعلى السور، ومن اهتزازات المياه استطاعوا بالضبط أن يحددوا المكان، الذى يجرى فيه الحفر تحت الأرض، وقاموا بدورهم بوضع شحنات، انفجرت بقوة هائلة، أثارت الذعر فى نفوس المهاجمين، فرفعوا الحصار عن القلعة .

وكان سقوط ممبسا هو العامل الحاسم، الذى أنهى الوجود البرتغالى فى هذا القسم الشمالى من ساحل أفريقيا الشرقى، وقد كلف هذا الانهيار للوجود البرتغالى جهدًا كبيراً؛ بحيث يمكن القول أنه من الإنجازات البارزة التى تسجل تاريخ دولة اليعاربة ، وكانت قد بدأت محاولات الإمام سيف بن سلطان؛ للاستيلاء على ممبسا منذ (مارس ١٦٩٦م) ، حين أرسل أسطولاً مكونًا من سبع سفن حربية، وعشرة قوارب، وحوالى ثلاثمائة رجل لمهاجمة ممبسا، وما إن علم البرتغاليون باقتراب الأسطول العربى العمانى، حتى أسرعوا فى تخزين المؤن فى قلعة يسوع المسيح، وأصبحت القلعة هى مأوى المسيحيين والوثنيين، وعدد قليل من المسلمين الموالين للبرتغاليين .

وهكذا ما إن وصلت السفن العمانية إلى القرب من القلعة والشاطىء، حتى بدأت فى إطلاق النيران، فانطلق كثير من السكان، تاركين المدينة، ولجأوا إلى القلعة حتى تكدس بها نحو ألفين وخمسمائة رجل وامرأة، ولكن يلاحظ أن عدد الجنود البرتغاليين كان ضئيلاً، فلم يتجاوز الخمسين فرداً بين ضابط وجندى ومستوطن.

ولقد كان من الأسباب التى زادت فى ضعف مركز الحامية، انقطاع صلتها بالبر الغربى

الأفريقى (الساحل الشرقى)، فقد كانت القلعة تقع على رأس لسان برى صغير، فى حين وقع الشريط الضيق، الذى يصلها بالبر تحت رحمة المدافع العمانية، كما أخذت كميات الطعام تتناقص وانتشرت الأمراض، وتناقص عدد اللاجئين فى القلعة؛ حتى إنه لم يعد هناك سوى عشرين جندياً برتغالياً، والف وخمسمائة آخرين. وفى مثل هذه الظروف كان الأمل الوحيد هو مجىء عون خارجى ، وبالفعل وصلت حملة إنقاذ من جوا الهندية، فى نهاية عام ١٦٩٦م، وكانت تضم أربع سفن وسبعمائة وسبعين رجلاً، ونجحت بعد نضال شديد فى إمداد الحامية ببعض الغذاء والذخيرة، التى تمكن مائة رجل منهم من دخول القلعة ، غير أنه مع بداية عام ١٦٩٧م، أصاب الحامية الطاعون، وأخذ يحصدهم حصداً. وفى نهاية شهر يناير من العام نفسه، لم يبق من أفراد الحامية إلا عشرين رجلاً من الرجال المسلحين، ولكنهم أصروا على عدم الاستسلام، وفضلوا الموت بالطاعون، وهذا ما انتهى إليه أمر العدد القليل الباقى من الجنود ، وفى سبتمبر من العام نفسه وصل قائد برتغالى ومعه قوات من موزمبيق ونجح فى دخول القلعة إلا أنه مات فى نوفمبر من نفس العام قبل بضعة أسابيع، فى محاولة أخرى فاشلة للهجوم من جوا، واستمر الحصار سنة أخرى. وفى منتصف ديسمبر عام ١٦٩٨م، لاح للأسطول البرتغالى الثالث القادم من جوا بالهند ، العلم العمانى الأحمر يرفرف على القلعة؛ فلقد تمكن العمانيون من الاستيلاء عليها، بعد حصار دام ثلاثة وثلاثين شهراً؛ أى من ١٣ مارس ١٦٩٦ حتى ١٤ ديسمبر ١٦٩٨م .

وهكذا كان لسقوط قلعة يسوع المسيح ومدينة ممبسا على يد سيف بن سلطان، إمام دولة اليعاربة فى عمان، أثره الكبير فى إرغام البرتغاليين على الجلاء عن جميع الساحل، الذى يقع شمال خليج دلجادو، وفشلت محاولاتهم فى إعادة سيطرتهم على ذلك الجزء .

وهكذا فإنه بسقوط ذلك الحصن المنيع، وضعت دولة اليعاربة نهاية لتفوق البرتغاليين فى شرق أفريقيا كذلك فإن هذا النجاح الذى حققه العمانيون فى انتزاع مدينة ممبسا، قد كان من الممكن أن يؤدى بالسلطان سيف بن سلطان الذى خلف أباه سلطان فى عام ١٦٩٢م بتأسيس إمبراطورية عربية عمانية على أنقاض إمبراطورية البرتغاليين ، وهكذا كان لسقوط ممبسا أثر كبير فى زيادة حماس العمانيين؛ لتطهير كل مناطق شرق أفريقيا، من الاحتلال البرتغالى، وإجبارهم على اخلائها؛ ففى العام التالى نجح الإمام سيف فى طردهم من بمبا وكلوه وباتا وزنجبار، وعين ناصر بن عبد الله حاكماً لمدينة ممبسا، وقد انضمت كلوه وزنجبار للحكم العمانى فى ممبسا، كما حدثت مذبحة للبرتغاليين على طول الساحل .

وهكذا يرجع النجاح الذى أحرزه العرب العمانيون إلى عزمهم وتصميمهم على النصر، بالإضافة إلى انهيار القوة البرتغالية ذاتها فى المحيط الهندى، وعدم استطاعتها الاحتفاظ بأهم موقع لها على الجزء الشمالى من الساحل، ولم يكن سقوط قلعة يسوع المسيح فى يد العرب هينًا على البرتغاليين، الذين لم يكفوا عن محاولة استرجاعها، وقد جاءت إليها الحملات من لشبونة رأسا، وتكررت تلك المحاولات فى عام ١٦٩٩، ١٧٠٣م، ١٧١٠م. ولكن أخطر تلك الحملات هى التى قامت عام ١٧٣٨م، فقد تقدم البرتغاليون بأسطولهم جنوب ممبسا، منتهزين فرصة الاضطرابات، التى وقعت بها نتيجة للصراعات، التى قامت بينها وبين زنجبار، بالإضافة إلى ترددت فيه دولة يعاربة فى عمان من حروب وفتن داخلية وغزوات فارسية متكررة، وقد نجح القائد البرتغالى لويس سامبيو فى إعادة سيطرة البرتغال على بعض مدن الساحل، وجزيرة كيات وكلوه، ولكن لم تستمر سيطرة البرتغاليين كثيراً؛ اذ قام أهالى هذه المدن بطلب المساعدة من عمان، التى كانوا ينظرون إليها باعتبارها الدولة الأم، وتمكن سيف بن سلطان، على الرغم من المشكلات المتعددة، التى كان يواجهها فى بلاده من طرد البرتغاليين من تلك السواحل ، وكما سبق القول بأن قسوة البرتغاليين من حكمهم هى التى دفعت الأهالى للثورة، وتقويض مراكزهم فى شرق أفريقيا؛ حينما قابل سكان ساحل شرق القارة أسلوب قهر البرتغاليين بالذبح والقتل، واستعملوا خناجرهم وسيوفهم فى أعناق الحامية فى ممبسا، كما حذت حذو ممبسا كثير من المدن ومقاطعات الساحل .

وهكذا اذ كان الحقد الصليبى قد استطاع أن يوقف الدعوة الإسلامية، ويحارب رجالها فى شرق أفريقيا فترة من الزمن، نجح فيها فى خلق قواعد صليبية، إلا أن الإرادة الإلهية شاءت أن يخرج أبناء جنوب شرق الجزيرة العربية للجهاد الإسلامى ومدافعة الخطر الصليبى البرتغالى، فكان دخول العمانيين فى ميدان الجهاد الإسلامى؛ من أجل إعادة راية لا إله إلا الله محمد رسول الله إلى الساحل الأفريقى مرة أخرى، واستطاعت الدعوة الإسلامية أن تهزم البرتغاليين فى زنجبار، وأن يستولى أسطول عمان على ممبسا، ودخل المسلمون موزمبيق، واستطاع إمام اليعاربة، سيف بن سلطان، أن يحرر الساحل الشمالى من شرق القارة، من كل أثر من آثار الخطر الصليبى البرتغالى، وكان هذا نذيراً بانطلاقة إسلامية قوية، ودعوة رجال الدعوة الإسلامية إلى أن يعودوا إلى قواعدهم، التى طردوا منها، وأن يمتد الإسلام عبر الغابات والأدغال والاحراش؛ حتى وصل إلى حوض الكونغو، وبدأ الدعاة ينتشرون فى سفالة وموزمبيق، ونفذ الاسلام إلى وسط القارة إلى (روديسيا زمبابوى، ونياسلاند ، وملاوى).

ولازال إلى اليوم أثر هذه الدعوة القوية، ودخل الإسلام فى أوغندة وهضبة البحيرات وكينيا وتنجانيقا، وظهرت فى الداخل رعية إسلامية، وكذلك ارتفعت فى الأعالى مآذن المساجد فى كل القرى الواقعة على الطريق الساحلى، والموصل إلى بحيرات نيساسا وتنجانيقا ، بل إنه لا توجد قرية من تلك القرى، إلا ووجد بها عدد كبير من المسلمين العرب والأفارقة السواحيلية، والذين أخذوا ينشئون المساجد لهم لإقامة الشعائر الدينية .

وهكذا قلب رجال الإسلام ودعاته الهزيمة إلى نصر، وحقق هذا النجاح الذى قاده أبطال عمان ما لم تحققه الدعوة الإسلامية، فى تلك الأنحاء، فى القرون الأربعة الأولى، على الاستقرار الإسلامى؛ إذ استطاعت القوى الإسلامية أن تطوى تحت لوائها كل تلك الأراضى، وبدأ الإسلام يوطد نفوذه ويرسخ أقدامه ويوطد دعائمه ، وبدأ الأفارقة يقبلون على الإسلام جماعات وافراداً ، بعد أن شاهدوا الرجل العربى المسلم يخلصهم من سيطرة واستغلال وحكم الرجل الأبيض، الذى امتص دماءهم، وأحرق قراهم، وخطف أبناءهم وأخذهم أسرى ليباعوا فى أسواق الرقيق فى أوروبا وأمريكا .

وتلك هى الدعوة الإسلامية معاملة إنسانية، وروح إسلامية، وأخوة مؤمنة، ومساواة وعدالة، وحق وصدق، ومودة وصفاء وإيمان ونقاء ، وهكذا أخذ رجال الدعوة الإسلامية يسعون؛ من أجل الوصول بدعوتهم إلى كل مكان، وحملوا معهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، نشروها فى كل مكان، وبدأت انطلاقة إسلامية قوية فى تلك الأماكن، وبدأ الأفارقة يقبلون من جديد على الإسلام، ويدعون له ويشاركون إخوانهم العرب والمسلمين فى القيام بالدعوة بين القبائل الوثنية، وهكذا ارتبطت ثورة ممبسا على البرتغاليين بالعلاقات والصلات الأخوية الإسلامية، التى كانت تربط بين الساحل الشرق الأفريقى؛ وبصفة خاصة مدينة ممبسا؛ التى عارضت الوجود البرتغالى، منذ أول لحظة قدم فيها إلى شرق القارة، بينما رحبت به مالندى. وقد أدرك عرب عمان اليعاربة وغيرهم من أبناء الإسلام فى جنوب شرق وغرب الجزيرة العربية أن أهالى ممبسا قد ادركوا أنه من الأفضل أن يحموا أنفسهم من البرتغاليين، وذلك بالتجائهم إلى قوة كبيرة يعتمدون عليها، ومن ثم كان من الطبيعى أن يلجأوا إلى سلطان عمان ودولة اليعاربة؛ نظراً للعلاقات الوثيقة التى قامت بينها، وأن يطلبوا من السلطان والإمام سيف بن سلطان وضع بلادهم تحت حمايته .

لم ينتظر أهالى ممبسا المدد إليهم من عمان، بل عمدوا إلى الحيلة، فأشاعوا أن سفناً كثيرة يرسلها الإمام لنجدتهم ستصل قريبا إليهم، فاستولوا بهذه الخدعة على محصول الأرز

والذرة والحبوب المخزونة؛ بحجة العمل فى درسها وتجهيزها، لتكون صالحة عند الحاجة إليها، ثم انتهزوا فرصة عيد البرتغاليين، حيث كان السواد الأعظم من رجال الحامية قد خرجوا إلى الكنائس واجتمعت أفواجهم ، ثم انتشروا فى أرجاء المدينة يقضون على البرتغاليين، ويمعنون فيهم القتل والأسر، وانتشروا فى أرجاء المدينة، يقضون على البرتغاليين، وعلى كل أثر لهم، فمن نجا من السيف وقع فى الأسر، أما الذين كانوا لا زالوا يتحصنون فى الحصن- بعد أن شاهدوا من ثورة الأهالى، وقضائهم على كل برتغالى خارج الحصن- فإنهم استسلموا للأهالى بشرط عودتهم إلى موزمبيق، وهكذا انتهى هذا الاحتلال البرتغالى، الذى كان قد استمر عامين ، بعد أن كان البرتغاليون قد عادوا إلى ممبسا، إثر الانقسام، الذى حدث بين زعيم طائفة العيادتين، وبين حاكمها من قبل الإمام .

وهكذا تم لسكان ممبسا الاستيلاء على الحصن، وجعلوا به حامية مؤلفة بأن اختاروا من كل قبيلة رجلاً واحداً، وشكلوا حامية جماعية، تمثل كل سكان المدينة، وتحصنت تلك الجموع الشعبية فى القلعة، وأرسلوا إلى سلطان عمان وفداً، يسأله أن يمد حمايته عليهم، ويرسل لهم القوات والأسلحة الحديثة، وأن يقبل منهم طاعتهم، وأن يعمل بذلك ما استطاع، وكانت هذه خير فرصة انتهزها الإمام سيف بن سلطان؛ فبعث بأحد رجاله، ويدعى محمد بن سعيد المعمورى ، وكان ذلك فى عام ١٧٢٨م ، وكان وفد ممبسا الذى وصل إلى مسقط، مؤلفاً من شيوخ القبائل والعشائر، ومن وكلاء عن كل القرى وأرسل السلطان إلى ممبسا ثلاث سفن، مشحونة بالعتاد والرجال بقيادة الحاكم الجديد، من قبل السلطان؛ لكى يحكم ممبسا وهو (محمد بن سعيد المعمورى)، واستولى رجالها بمجرد وصولهم على الحصن، ثم عينوا المعمورى نائباً للإمام فى حكم ممبسا ونجح ذلك القائد بعد ذلك فى اخضاع زنجبار ، كما خضعت للامام كل المدن والجزر، وأصبحت تقدم له الجزية السنوية، وهكذا أصبحت زنجبار وغيرها من مدن وجزر الساحل؛ فأصبحت من توابع عمان، ولم تلبث أن ظهرت السيادة العمانية بصورة واضحة على الساحل الشرقى لأفريقيا؛ حيث امتدت من مقديشيو شمالاً إلى خليج دلجادر جنوبا، وهكذا أتم العمانيون العمان السيطرة التامة؛ بحيث عينوا أسرة الحارث لحكم جزيرة زنجبار واسرة النبهانيين لحكم باتا، واسرة المعمورى لحكم ممبسا، ثم تلتها فى حكم الجزيرة أسرة المزروعى.. وهكذا كان هذا التحرر الإسلامى من الكابوس الذى جثم على صدر المسلمين، فى ذلك الجزء من القارة الأفريقية، نحو قرنين من الزمان، كان نذيراً بانطلاقة عظمى للمد الإسلامى، فقد عاودت

حركة المد الإسلامى نشاطها، وبـدأ المسلمـون يعوضون ما فاتهم تحقيقه فى السنوات الماضية، وبدأ الإسلام يتوغل توغلاً حقيقيًا إلى الداخل، وبدأ الدعاة ينشرون الإسلام فى موزمبيق وسفالة ، ونفذ الإسلام إلى الداخل بقوة ، وهكذا بعد اختفاء الخطر البرتغالى، تعمق الدعاه والتجار ورجال الإدارة فى توغلهم إلى الداخل، فنفذوا كما سبق القول إلى هضبة البحيرات، ودخلوا أوغندة.. دخلها تجار زنجبار، ودخل الإسلام إلى كينيا وتنجانيقا .

وهكذا ترتب على السيادة العربية الإسلامية العمانية اليعاربية انطلاقة جديدة للإسلام؛ مما يجعلنا نؤكد حقيقة تاريخية مهمة، وهى أن تدخل عرب عمان فى شرق أفريقيا لم يكن عاملاً مهمًا فى القضاء على السيطرة البرتغالية، فى ساحل شرق أفريقيا فحسب ، بل إن أهمية هذا التدخل تكمن فى أنه أتاح للدعوة الإسلامية والدين الإسلامى، المناخ الصالح والملائم للانتشار دون عقبات، فمن المفروض أن البرتغاليين قد تمكنوا فى خلال المائتى عام، التى قضوها فى التمكن للعقيدة الكاثوليكية المسيحية ، ولذلك يعتبر كثير من المؤرخين أن سقوط قلعة يسوع المسيح البرتغالية فى ممبسا عام ١٦٩٨م، إشارة مهمة إلى بداية انطلاق الدعوة الإسلامية؛ بحيث لم يكن ذلك الحدث يشكل القضاء على السيطرة البرتغالية، وإنما فى إتاحة فرصة ملائمة لانتشار الإسلام .

على أن سيطرة عمان على ساحل شرق أفريقيا فى أعقاب انهيار السيطرة البرتغالية، لم تكن سيطرة فعلية؛ فحقيقة الامر أن أئمة عمان لم تكن لهم إلا آثار طفيفة فى ممارسة الحكم فى تلك الجهات، والواقع أن المشكلات الداخلية التى تردت فيها دولة اليعاربة من تنازع حول الحكم، ومحاولة أئمة تلك الدولة توطيد مركزهم فى الجزيرة العربية والخليج العربى، وحملاتهم ضد البرتغاليين، كانت من أهم العوامل، التى جعلت السيادة العمانية على ساحل شرق أفريقيا تكاد تكون سيادة اسمية، اكثر من كونها سيادة فعلية .

ومع كل ذلك.. فقد استطاع سلاطين دولة اليعاربة فى عمان أن يرثوا البرتغاليين فى تأسيس دولة عربية، لها سيادة إسلامية، امتدت على جزء كبير من ساحل شرق أفريقيا، وقد يعود عدم وجود السيادة الفعلية فى ساحل شرق أفريقيا إلى ضعف دولة اليعاربة، التى استنفذت معظم جهودها فى الصراع ضد البرتغاليين، بحيث لم تعد لديها القدرة بعد طرد البرتغاليين أن تمارس سيطرتها الكاملة والفعلية فى شرق أفريقيا وإنما قنعت بطرد البرتغاليين وتحرير أخوة الإسلام فى تلك الأنحاء، وكذلك قنعت بالفتح، وتركت للأمور تثبيت ما قاموا به من فتح ، أضف إلى ذلك ما سبق القول أن دولة اليعاربة تعرضت لصراعات داخلية

ومشكلات عميقة الجذور، بسبب الثورات الأهلية والغزوات الفارسية (انظر - عايشة اليسار، دولة اليعاربة فى عمان وشرق أفريقيا) .

ولم تترك تلك المشكلات الداخلية أدنى فرصة لسلاطين اليعاربة أن يوجهوا الاهتمام الكافى لما قاموا به من فتوح، ولذلك كان من الطبيعى أن ينتهز حكام هذه المدن الأفريقية، الذين تولوا الحكم فى مقاطعات الشرق الأفريقى هذه الفرصة، وتلك الحالة من الفوضى والتفكك، التى ترد فيها دولة اليعاربة، وخاصة فى نهاية حكمها، الذى اتصف بالانحلال المطلق؛ مما كان له أثر كبير فى سقوطها. وهكذا فإن أئمة عمان لم تكن لهم إلا آثار طفيفة لممارسة الحكم فى تلك الجهات؛ ذلك لأن المشاكل الداخلية التى تردت فيها دولة اليعاربة جعلت سيادة عمان على الشرق الأفريقى اسمية أكثر منها فعلية .

وهكذا نرى أنه بعد أن نجح سيف بن سلطان فى انتزاع شرق أفريقيا من أيدى البرتغاليين بسط أئمة مسقط سلطانهم على تلك الأنحاء، نحو قرن من الزمان، وقد رحب المسلمون فى شرق أفريقيا بالعمانيين، باعتبارهم مخلصين لهم من أعدائهم البرتغاليين، فلما توفى سيف بن سلطان عام ١٧١١م وضعفت عمان ومزقتها الفتن الداخلية ، بدأ حكام شرق افريقية يستردون استقلالهم؛ حيث إنه تتفق المراجع على اعتبار عام ١٧٤٤م، هو العام الذى تولى فيه أحمد بن سعيد الإمامه فى عمان، وسقطت فيه الدولة اليعربية، إلا أن سقوط الدول فى شرق أفريقيا ربما كان قد تحقق عمليا قبل ذلك .

وفى معظم الأوقات.. كان حكم اليعاربة فى شرق أفريقيا اسمياً، وتمثل فى الولاة ممن ظل أئمة عمان يعينونهم، تاركين لهم جميع مقاليد الأمور ، ولقد كان لانتقال الحكم من دولة اليعاربة إلى دولة البوسعيدية رد فعل قوى فى شرق أفريقيا، فاذا كان حكام شرق أفريقيا قد تولو الحكم من قبل دولة اليعاربة، فماذا يمنعهم بعد أن سقطت تلك الدولة، وزوال حكمها أن يستقلوا بما تولوا عليه من مقاطعات واستقلال شرق أفريقيا عن عمان .

* * *

الفصل الثالث

استقلال شرق أفريقيا عن عمان

لقد كان من أعظم ولاة عمان فى شرق أفريقيا محمد بن عثمان المزروعى، الذى أسس الأسرة المزروعية عام ١٧٣٩م، حيث إنه بعد وصوله الى ممبسا، انتزع الحكم من أحمد بن سعيد المعمورى؛ حيث حدث أن تزعمت ممبسا الحركات الانفصالية، التى ظهرت فى ذلك الوقت فى كثير من المقاطعات الأفريقية وقد تزعم الحركة الانفصالية فى ممبسا محمد بن عثمان المزروعى، الذى أسس الأسرة المزروعية فى عام ١٧٣٩م، بعد وصوله إلى ممبسا، وانتزاعه الحكم من أحمد بن سعيد المعمورى. وكانت الأسرة المعمورية إحدى الاسرات، التى أقامتها عمان فى حكم الساحل الشرقى من أفريقيا وكان سقوط دولة اليعاربة فى عام ١٧٤٤م، فرصة انتهزها محمد بن عثمان المزروعى؛ لكى يعلن استقلال ممبسا من التبعية العمانية، ووضح ذلك حينما رفض الاعتراف بولائه للدولة الجديدة، التى خلفت دولة اليعاربة، وهى دولة بوسعيد .

وقد كان محمد بن عثمان المزروعى قد جاء فى الوقت الملائم للقضاء على القلاقل والفتن، وأنه حكم البلاد دون أن يلقى معارضة مِن أحد،كما أن شيوخها وسكانها كانوا يحبونه ويقدرونه، فلما وصل هذا الوالى تبأ جلوس الإمام الجديد احمد بوسعيد فى كرسى الإمامة أبى أن يعزله، ولم تقف أطماع المزروعى عن حد حلوله فى السيادة محل حاكم أو والٍ آخر؛ إذ كان يهدف إلى الاستقلال التام والتصرف المطلق، فى تلك المقاطعة، التى توصل إلى الولاية عليها، فما كاد يصل الى الحكم ،حتى آخذ يمهد السبيل لإحداث انقلاب فى البلاد ، وبدأ بتوطيد الأمن فى مقاطعته، التى انهكتها الحروب وأجهدتها الملاحم والمعارك الدامية، التى حفل بها تاريخها الطويل، وسار فى الناس بالعدل والمساواة، فأحبه الشيوخ والرؤساء، واستطاع أن يضمن بذلك تأييدهم لحكومته والتمهيد لنفسه ولبلاده السبيل للاستقرار .

ولم تلبث الظروف أن سنحت له للانفراد بالسلطة على ممبسا، وهى وقوع عمان فى

سلسلة من الأزمات والمشاكل، التى لم تترك لحكامها وقتاً للتفكير فى الشرق الأفريقى ، كما أن سقوط دولة اليعاربة فرصة انتهزها محمد بن عثمان المزروعى؛ لكن يعلن استقلال ممبسا عن التبعية العمانية، ظهر ذلك حينما رفض المزروعى الاعتراف بولائه للدولة الجديدة، التى خلقت دولة اليعاربة، وهى دولة البوسعيد، وكان عدم اعترافه بالإمام أحمد الذى أسس تلك الدولة، هو حجر الزاوية فيما سارت عليه العلاقات بين هذين الرجلين .

ولقد كانت هناك عدة مبررات، برر بها محمد بن عثمان المزروعى استقلاله عن عمان، إذ ظل باقياً على ولائه للدولة اليعاربية، حتى سقطت، ولم تكن تبعيته لعمان معناها استمرار ولائه للقيادة السياسية فى البلاد، حتى بعد سقوط أسرتها الحاكمة التى عينته حاكماً على ممبسا ، فضلاً عن أن مؤسس الدولة الجديدة، وهو الإمام أحمد بن سعيد لا ينتمى إلى أصل يستوجب احترامه، وإنما لا يعدو كونه رجلاً عادياً، توصل إلى الحكم بطموحه الشخصى، وليس هناك ثمة ما يدعو إلى التمسك بالولاء له؛ بمعنى أنه إذا كان الإمام أحمد بن سعيد حاكم صحار، إحدى مقاطعات عمان، فقد استطاع أن يصل إلى زمام الحكم فى بلاده، فماذا يمنع المزروعى- وهو حاكم ممبسا- من الاقتداء بما فعله حاكم صحار، أو ماذا يحول دون امتلاكه للمقاطعة، التى يحكمها أو يستقل بها استقلالاً تاماً .

لقد نقلت هذه العبارة إلى الإمام أحمد بن سعيد، الذى أدرك ما يرمى اليه المزروعى من سياسة انفصالية عن الدولة الأم عمان ، فقد يكون لها أثر كبير فى مستقبل العلاقات بين ممبسا وعمان، بل وبين عمان ومقاطعات الشرق الأفريقى بصفة عامة، ومن هنا كان تفكيره الجدى فى إخضاع ممبسا، وتأكيد سيطرته على تلك المقاطعات، التى ورثها عن أسلافه اليعاربة .

وهكذا اختطت دولة البوسعيد- منذ أن قامت- سياسة أفريقية، فلم تكن المشاكل التى واجهها أحمد بن سعيد، سواء فى داخل بلاده أو فى الخليج العربى، وصراعه ضد فارس أو جهوده؛ لتوطيد نفوذه وترسيخ دعائم بيته؛ لتشغله عن ممتلكات دولته فى شرق أفريقيا .

ولعل الإمام أحمد بن سعيد قد أدرك- كما أدرك كثيرون غيره من الحكام- مساوىء حدوث انفصال بين بلاده وبين الساحل الشرقى لأفريقيا لما بين الإقليمين من روابط اقتصادية وصلات وثيقة، ولكن دولة البوسعيد فى عمان فى حكمها الأول، لم تستطع أن

تقضى على الثورات الانفصالية، التى تزعمها المزرعيون فى ممبسا، والنبهانيون فى جزيرة باتا؛ فمما هو جدير بالذكر أنه قد وافق قيام الحركات الانفصالية فى ممبسا حركات انفصالية، تزعمها النبهانيون فى جزيرة بات، وأصابت من النجاح ما أصابته ثورة ممبسا، وإزاء ما يحدث فى شرق أفريقيا من الثورات.. فإن الإمام أحمد بن سعيد قد صمم على إخضاع حكام ممبسا المزروعيين لسلطته، ولهذا بعث بستة من أعوانه المخلصين، برئاسة سيف بن خلف إلى ممبسا يوم أن وصلوا إليها؛ حتى عمدوا الى الحيلة والدهاء لمقابلة الحاكم ، فلما التقوا به أفضوا إليه أنهم خصوم الإمام وأعداؤه، وأنهم فروا من عمان فى طلب الخلاص منه ومن جوره، وانهم إذ آثروا الحضور إليه، فما هو إلا ليخدموه ويعاونوه ضد خصمه أحمد بن سعيد حاكم عمان، إذ إنهم ما كادوا يعرفون أن حاكم ممبسا يقوم بحركة عدائية ضد هذا الرجل، حتى تسارعوا بالمثول بين يديه؛ لكى يتعاونوا معه فى انتزاع الحكم من إمام عمان وإعطائه له. ولكى يمثلوا دورهم بمهارة، طلبوا من المزروعى أن يساعدهم فى الرحيل إلى المقاطعات والأقاليم المجاورة لممبسا ككلوه وباتا وبمبا؛ ليجمعوا الانصار والمساعدين، لإنجاح حركتهم، ورحب المزروعى بهذا الاقتراح، وأنس من هؤلاء الرجال الذين أظهروا الإخلاص. وقبل اليوم المحدد لرحيلهم، قصدوا القلعة بحجة ظاهرها الرغبة فى توديع محمد بن عثمان المزروعى، فقابلهم هذا منفردا، وبينما هم فى حضرته يحدثونه إذ انقض عليه أحدهم، وضربه ضربة مميتة، ثم قام سيف بن خلف بالقبض على رجال المزروعى وحاشيته، وأعمل فيهم الذبح والتقتيل .

وهكذا واجهت الدولة البوسعيدية تلك الحركة الانفصالية، التى ظهرت فى ممتلكاتها الأفريقية بالحزم والقوة، وإذا كانت عمان قد لقيت مقاومة شديدة فى كل من ممبسا وباتا؛ فإنها كانت على أية حال اكثر توفيقاً ونجاحًا فى المقاطعات الأفريقية الأخرى، التى لم تصل إليها الثورة مثل باتا وممبسا ، كما دبت فى هاتين المقاطعين؛ إذ لقيت ولاءً من بعضها وخضوعا اسميا من بعضهما الآخر ، فزنجبار ظلت على ولائها لعمان، واعترفت بالدولة الجديدة، وتولى زمام الحكم فيها قائد القوات التى بعث بها الإمام أحمد بن سعيد، لتأكيد سيطرة دولته على تلك الجزيرة ، كذلك أعلنت مركة ولاءها وطاعتها للإمام أحمد حاكم عمان ، أما كلوه فقد أعلنت ولاءها للدولة الجديدة، وان كان ذلك ولاءً اسمياً .

أما ممبسا التى تم السيطرة عليها من قبل مندوب السلطان سيف بن، خلف فقد كانت

تزعمت حركة المعارضة، وتجاهد في سبيل تكوين تحالف من المقاطعات الثائرة، وتوجيه الشعور في الشرق الأفريقي للثورة ضد عمان؛ لتكوين إمبراطورية مزروعية إسلامية، مستقلة استقلالاً تاماً عن السلطنة الأم في عمان .

وقد نجحت ممبسا في إثارة المدن التابعة لها كمقديشيو وبراوة وبقية المدن الواقعة إلى الجنوب حتى كوافي، فطرحت تلك المدن تبعيتها عن عمان، وذلك عقب نجاح محمد ابن عثمان المزروعي في توكيد سيطرته عليها، وفي تقديرنا أن الامر لم يكن رغبة تلك المقاطعات في الثورة والانفصال عن عمان، الذي كان يؤدي الاتصال بها- بطبيعة الحال- إلى ازدهار وتقدم كبير من ناحية العلاقات التجارية، قدر ما يرجع ذلك إلى جنوح تلك المقاطعات للثورة والتمرد؛ نتيجة لتحريض ممبسا واستجابة لما يقوم بها حاكمها محمد بن عثمان المزروعي من ثورة على عمان، وخاصة عندما نجح في أن يضم تلك المقاطعات إلى حكمه .

والحقيقة ان ثورات المزروعيين لم تقف عند حد؛ إذ حاولوا تأليب مقاطعات الشرق الأفريقي للانفصال عن عمان، وظهر ذلك في غاراتهم على زنجبار، وانتزعوها من أيدي عمان، وقد حدث ذلك في الوقت، الذي كانت فيه عمان منغمسة في مشاكلها الداخلية والخارجية.

لقد كان ما قام به سيف بن خلف من قبل الإمام أحمد بن سعيد من اغتيالات في ممبسا، لم يكن ليؤدي إطلاقاً إلى معالجة المشكلة التي هددت عمان ، حقيقة أن قتل المزروعي كان له أثر كبير في تخلص أحمد بن سعيد من خصم عنيد، كان في إمكانه لو قدرت له الحياة أن يكون من أكبر المنافسين لحكمه والمناوئين للسلطنة ، لكن اغتيال محمد بن عثمان المزروعي لم يحقق أهداف عمان؛ إذ سارع إخوة علي بن المزروعي بإعلان الثورة ضد سيف بن خلف، وبادر إلى تعبئة شعب ولايته للوقوف ضد البوسعيد ، وقد استعان علي بن عثمان المزروعي، في صراعه ضد الدولة بأحد التجار الإنجليز، ويدعى كوك، وكان يعمل بالتجارة في ممبسا، وبذلك دخلت إنجلترا طرفاً جديداً في الصراع الدائر في شرق أفريقيا بين الوطن الام عمان وبين ممبسا ، ولقد كانت هناك عوامل، دفعت كوك الإنجليزي لمعاونة علي بن عثمان المزروعي؛ حيث إنه يبدو أن ذلك التاجر لم تكن علاقته طيبة مع عمان، أو أنه كان ينفذ مخططًا لوضع أقدام بريطانيا في تلك الأنحاء ، ذلك لأنه مما لا شك فيه أن

انفصال شرق أفريقيا عن عمان، وما يمكن أن يترتب عليه من قطع الاتصالات البحرية بين البلدين، وبالتالى ضعف التجارة العمانية؛ مما يؤدى إلى ترك الميدان خالياً للتجارة الإنجليزية وبسط النفوذ البريطانى .

ولقد ظهرت رغبة بريطانيا فى أن يكون لها نفوذ فى شرق أفريقيا فيما قام به كوك لمعونة على بن عثمان المزروعى فى مواصلة الحركة الاستقلالية عن الدولة العمانية، وظهر نشاط ذلك الرجل عقب نجاح سيف بن خلف فى القبض على شقيق القتيل محمد ابن عثمان المزروعى، وإلقائه فى السجن، واستطاع بفضل المساعدات والإمدادات التى تلقاها من رؤساء وشيوخ المقاطعات الموالية له من إطلاق سراح على بن عثمان المزروعى، الذى لم يلبث ان واصل صراعه ضد قوات سيف بن خلف مندوب إمام عمان، أحمد بن سعيد حتى اجلاه عن البلاد، كما تمكن فى آخر الأمر من اغتيال سيف بن خلف، أخذ بالثأر لمقتل أخيه محمد .

وهكذا تأكد استقلال ممبسا عن عمان، حينما ولى على بن عثمان المزروعى شئون الحكم عام ١٧٤٦م، وقد اتجه الحاكم الجديد إلى الاعتماد على تأييد القبائل الأفريقية ومعاونتها له؛ وخاصة فى طرد العمانيين، وقتل سيف بن خلف، وتوطيد حكم آل مزروعى فى ممبسا؛ وخاصة قبيلة الكنديني والوانيكا؛ فمنحهم كثيراً من الامتيازات، التى لم يسبق لهم الحصول عليها فى أى وقت من الاوقات، وقد حدث ذلك فى الوقت الذى كانت فيه عمان تعانى مشاكل داخلية عديدة، فكان الإمام أحمد بن سعيد يعمل على توطيد دعائم حكمه؛ ولهذا اضطر الإمام أحمد بن سعيد إلى الاكتفاء بذلك القدر من الجهد، الذى بذله فى شرق أفريقيا على الرغم من الجهود التى بذلها من محاولات الاحتفاظ بما كان لأسلافه من ممتلكات فى تلك الجهات ، على أن نجاح أحمد بن سعيد لم يكن نجاحاً تاماً إذ لم تكن له سوى سيطرة واهية على المقاطعات العمانية فى شرقى أفريقيا .

على أنه مهما يقال عن ضعف تلك السيطرة العمانية البوسعيدية، فإن الأمر الذى لا شك فيه أن اتجاه أحمد بن سعيد إلى شرق أفريقيا كان بالقدر، الذى سمحت به ظروفه، وبمثابة تأكيد لمطالب عمان فى تلك الجهات، ولذلك كان ما قام به الإمام أحمد ابن سعيد- بصفته مؤسسا لدولة البوسعيد- هو الدعامة، التى ارتكز عليها خلفاؤه فيما بعده من

تمسكهم وإصرارهم على ضم مقاطعات شرق أفريقيا حتى نجح سعيد بن سلطان فى تأسيس إمبراطورية عربية اسلامية فى شرق أفريقيا .

على أن أكثر ما امتاز به حكم الإمام أحمد بن سعيد هو إنعاش العلاقات التجارية بين عمان وشرق أفريقيا ولا شك ان انتماء ذلك الرجل إلى أسرة من التجار واشتغاله بالتجارة لسنوات كثيرة، قبل وصوله إلى الحكم فى عمان، كان له تأثير كبير فى اهتمامه بالناحية الاقتصادية. وقد اتصف حكام دولة البوسعيد بحرصهم البالغ على ترويج التجارة، وأن استمرارها بين عمان وشرق أفريقيا فقد كان الامام يرسل فى كل عام مجموعة من سفنه؛ لتأتى له بالموارد الاقتصادية من المقاطعات، التى كانت تعترف له بالسيادة، أما المقاطعات التى لم تعترف بسيادته فقد حرص على ألا يفرض سيادته عليها بالقوة خوفا من انقطاع الصلات التجارية بينها وبين بلاده .

وقد كان للاحداث التى وقعت فى عمان بعد وفاة الإمام أحمد بن سعيد فى عام ١٧٧٥م أثر كبير فى مقاطعات شرقى أفريقيا؛ إذ كان للمنازعات الأسرية التى قامت فى عمان خطورتها، بالنسبة للممتلكات فى تلك الجهات، ذلك أن الأمور لم تتسب لابنه سعيد ابن احمد (١٧٨٣ - ١٨٢٠) وهو الذى خلف أباه فى الحكم، إذ برز له أخوه سيف ابن احمد بن سعيد منافساً له، ولكن سيفاً آثر أن يقوم بنشاط فعال فى شرق أفريقيا بعد ان رأى ان عمان قد خرجت كلية من يديه، بعد عقد البيعة لأخيه سعيد بالإمامة من قبل جميع القبائل، ولذا سافر سيف الى شرق أفريقيا على آمل ان تواتيه الفرصة؛ ليتمكن عن طريقها من الوصول إلى قلب الإمامة فى عمان .

هذا بالإضافة إلى انه عندما تقلد السيد سعيد بن سلطان إمامة عمان، استنجد به المسلمين فى شرق أفريقيا؛ لينقذهم من أطماع المزروعيين الذين بسطوا نفوذهم على المناطق الداخلية؛ لذا كان ذلك دافعاً له بأن يرسل قوات كبيرة إلى شرق أفريقيا ليس بقصد القضاء على محاولات أخيه سيف فحسب، وإنما بهدف تأكيدة للسيطرة العمانية على شرق أفريقيا وكللت جهود عمان بالنجاح، حينما أعلنت ممبسا بتبعيتها عام ١٧٨٥م لإمام عمان، ولقد أعقب ذلك توالى المقاطعات فى تلك الأنحاء فى تقديم ولائها، وبذلك تأكدت السيطرة العمانية من جديد على الشرق الأفريقى، بعد أن كانت تلك السيطرة على وشك الانهيار بسبب نفوذ أسرة المزروعى .

ومع ذلك فانه يجب أن نلاحظ أنه رغم جهود سعيد بن أحمد فى شرقى أفريقيا، وتأكيد السيطرة العمانية، ورغم اتجاه عمان إلى الشرق الأفريقى.. فإنه لم يثبت وجود سيطرة عمانية قوية فى تلك الجهات، وقد يكون ذلك من منطلق ان الإمامة البوسعيدية قد وجهت جل اهتمامها إلى توطيد اقدامها، وترسيخ نفوذها فى عمان، وتمسكهم بعاصمتهم الدينية مدينة الرستات، وعدم تفكيرهم فى الابتعاد عنها أو الانصراف إلى المناطق الأخرى. ومن هنا كان اتجاههم فى بادىء الامر إلى شرق أفريقيا لم يكن إلا اتجاهًا، ينحصر فى محاولة بسط السيادة العمانية على تلك الجهات، وبقاء العلاقات والصلات التجارية مع تلك الأنحاء إلى ما كانت عليه. ولذا فإن النفوذ العمانى لم يصل إلى الاعتبار، الذى يجعله يصمد للأحداث والإضطرابات، التى كانت لا تكاد تنقطع فى المقاطعات الأفريقية؛ فقد كانت ممبسا تتزعم الثورة والانفصال فى كل مرة، هذا حسب طبيعة تلك الإمارة؛ حيث كانت تتزعم الثورات منذ قدوم البرتغاليين إلى تلك الأنحاء ، ثم يتوالى انفصال المقاطعات والإمارات الأخرى، بعدها، بل واحدة تلو الأخرى، كما حدث فى عهد الإمام احمد بن سعيد، ثم فى عهد خلفه سعيد بن أحمد .

حتى اذ ما تولى سلطنة عمان الإمام سلطان بن أحمد، شقيق سعيد بن أحمد، حتى بدأت الدولة البوسعيدية العمانية تأخذ بعداً جديداً فى الاتجاه بقوة وحزم، نحو شرق أفريقيا، وذلك لممارسة السيطرة التامة فى تلك الأنحاء بطريقة فعالة وقوية ، بيد أن الظروف التى واجهها سلطان بن أحمد فى معالجة المشكلات، التى نتجت عن الطابع الجديد، الذى تحولت اليه الدولة، والتى لم تترك له الوقت الكافى للتفرغ تفرغاً تاماً لشرق أفريقيا، وإنما كان انصرافه للعلاقات الخارجية والسياسية لدولته اكثر وضوحاً .

وعندما تولى إمامة سلطنة عمان، السلطان سعيد بن سلطان بن احمد بن سعيد (١٨٠٦ – ١٨٥٦م)، واشتد التحول من الناحية الدينية إلى الناحية السياسية، فإنه بدأ يخطط لسياسة أفريقية واضحة ، وكان سعيد بن سلطان الذى بلغ الثلاثين من عمره صاحب عمان القوى، دون منازع، وبلغت بلاده أوج مجدها وقوتها، واستطاع للمرة الأولى عام ١٨٢٤م أن يخرج لأداء فريضة الحج فى مكة؛ حيث أرسل محمد على والى مصر بعثة لاستقباله، واسترعى حاكم عمان اهتمام العالم الإسلامى كله، واعتبره الناس أعظم حكام

عمان جميعًا، ولكن أطماع سعيد بن سلطان لم تقف عند حد ساحل بحر العرب، او عند حدود عمان، وإنما بدأ ينظر إلى ما وراء البحر إلى المجتمع العربى الإسلامى، فى شرق أفريقيا وشعر أنه اصبح من القوة؛ بحيث يستطيع أن يبسط نفوذه فى هذه الأرجاء. وعلى الرغم مما ذهب اليه بعض المؤرخون من ان اتجاه سعيد بن سلطان إلى شرق أفريقيا، كان محاولة منه للتخلص من المشكلات المتعددة، التى كانت تواجهه فى عمان، ولكن تلك الآراء لم تكن على جانب من الصواب؛ ذلك لأن اتخاذ سعيد بن سلطان لنفسه سياسة أفريقية، لم يكن لتبعده عن المشكلات العمانية، التى كان يفرغ لها جزءاً كبيراً من جهده، وإنما اتجاه سعيد ابن سلطان إلى شرق أفريقيا، كان يكمن فى حرصه البالغ على هذا الجزء من دولته بكثرة موارده، ووفرة خيراته، وزيادة فرصة استغلاله، إضافة إلى فرصة نشر الدعوة الإسلامية فى تلك الأرجاء، فضلاً عن أن الظروف التى آلت إليها الدولة فى عهده أو ازدياد تحولها من الناحية الدينية الزمنية، لم تكن مضطرة، كما اضطرت أسلافه من أئمة الدولة على البقاء فى إقليم عمان، ذى الطابع التقليدى، ووضح ذلك عند إقدامه على نقل العاصمة من الرستات إلى مسقط، ثم من مسقط إلى زنجبار عام ١٨٣٢م، وتفرغه إلى تكوين إمبراطورية عربية إسلامية فى شرق أفريقيا؛ ذلك لأنه فى الوقت الذى كان يؤدى فيه فريضة الحج فى مكة المكرمة، أعد السيد سعيد بن سلطان حملة إلى ممبسا، وكان واثقًا من أن القوى الأوروبية لن تعترض سبيله؛ فالفرنسيون الذين كانت تربطه بهم علاقة مودة، قد تحقق نفوذهم فى شرق أفريقيا، والبريطانيون قد اشتدت صلته بهم، بعد زوال الخطر الوهابى السعودى، ولكن سعيداً كان واهماً فيما تخيله عن سكوت البريطانيين عن مشروعاته، إذ كانوا فى هذا الوقت بالذات قد أخذوا يرنون بأبصارهم إلى شرق القارة الأفريقية، وإلى اهميتها الاقتصادية والاستراتيجية، وكان اهتمامهم راجعاً إلى محاربتهم تجارة الرقيق، التى أخذوا يتعقبونها فى القارة الأفريقية .

وهكذا فتح استيلاء السيد سعيد على ممبسا عام ١٨٣٧م عهد جديد فى تاريخ كل من عمان وزنجبار؛ ذلك لأنه نقل حاضرة إمامته إلى زنجبار، وبنى لنفسه قصراً فيها، ونقل بلاطه إليها عام ١٨٤٠م، وهكذا انتقل العرب بملكهم وسلطانهم إلى شرق أفريقيا، على مسافة تقدر بحوالى ٢,٥٠٠ ميل، بعيداً عن سواحل عمان، وتقف هنا عند عام ١٨٤٠، ونكتفى بهذا القدر من الحديث عن انتشار الإسلام فى منطقة شرق القارة الأفريقية

الجنوبية، أو ما أطلق عليه ساحل إقليم الزنج، والتى استطاعت أن تضم إليها جميع الموانى المهمة والجزر الساحلية، كما أنه استطاع أن يفرض العشور على التجارة الداخلية والخارجية ، وعلى هذا فقد صادف السلطان سعيد نجاحاً كبيراً فى شرق أفريقيا، على الرغم من أن عصره كان عصر الاستعمار الأوروبى الحديث، ومن ثم اتجهت الدول الأوروبية: ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وبريطانيا جميعها، إلى مصارعة السلطان المسلم فى هذه المنطقة، إضافة إلى النفوذ البلچيكى فى الداخل ، وبذلك اجتمعت خمس دول اوروبية؛ لكى تقضى على النفوذ الإسلامى العربى، فى شرق القارة الأفريقية؛ لكى تزيل الوجود العربى الإسلامى، الذى يشد رجاله رحالهم منذ آلاف السنين؛ لكى يختلطوا مع إخوانهم الآفارقة، سكان تلك الأنحاء من شعب البانتو، ولكى يظهر إلى الوجود ذلك الشعب، الذى اطلق عليه الشعب السواحيلى، الذى يعمر ويسكن تلك الأنحاء .

وتلك هى قصة الوجود العربى الإسلامى، وكيف سعى شعب الجزيرة العربية وإخوانه سكان فارس والهنود، إلى تلك الأنحاء، يرفعون راية الإسلام؛ لكى ينشرونها فى تلك الأرجاء، ولكى يدعو للدين الخالد بين هؤلاء الأقوام الأفارقة .

وهكذا إذا كانت الدعوة الإسلامية قد استطاعت ان تقيم دعائم الإسلام بين الأرجاء الواسعة من شرق القارة، قبل قدوم البرتغاليين.. فإن الوجود البرتغالى زهاء قرنين من الزمان، استطاع أن يحد من انطلاقة الدعوة الإسلامية، ولكن فوض الله سكان عمان؛ لكي يرسوا دعائم الدعوة الإسلامية من جديد، إلا أن هذه الانطلاقة الثانية لم يكتب لها النجاح أو التوفيق البعيد المدى ، فقد جاءت أساطيل الدول الأوروبية الحديثة: فرنسا ، ألمانيا ، إنجلترا؛ لكى تنضم إلى الوجود البرتغالى فى موزمبيق، وهكذا بدأت مرحلة جديدة من مراحل الضغط والوعد والوعيد، وأصبح مسلمو سلطنة زنجبار بين إنجلترا فى الشمال، والبرتغال فى الجنوب، وسيطر البرتغاليون على موزمبيق.. وهكذا انفسح المجال أمام التيار الصليبى الحديث؛ لكى يمارس دوره من جديد .

الباب السادس

انتشار الإسلام في
مدغشقر وجزر القمر

الفصل الأول

انتشار الإسلام في مدغشقر

إذا كان الحديث فى الفصول السابقة عن الإسلام فى الإمارات الإسلامية، الممتدة فى ساحل شرق أفريقيا الشمال وساحل إمارات الطرز الإسلامى الحبشية ، ثم ساحل الصومال (مقديشيو وساحل الزنج) فإن الامر يقتضى– ما دام ذلك البحث عن حركة المد الإسلامى فى شرق أفريقيا– أن نتحدث عن جزر القمر وجزيرة مدغشقر ، وبالنسبة لجزيرة مدغشقر، فقد ذكروا أن سكان الجزيرة جاءوا اليها من أفريقيا وبلاد العرب، وقد اختلط بعض ملاحى العرب، الذين كانوا يترددون على الساحل الأفريقى الشرقى– منذ زمن بعيد– بسكان هذه البلاد ، كما اختلطوا بجنس الملايو، الذين لا يستبعد أن تكون الرياح قد طردتهم، وألقت بهم السفن التى كانت تقلهم على سواحل هذه الجزيرة، كما أنه توجد فى الجزيرة قبيلة قوية تسكن الساحل الجنوبى الشرقى من البلاد، وتدعى قبيلة انتيموررونا، يُذكر أن أجدادهم وأسلافهم القدامى قدموا إلى ذلك الجزء من مدغشقر من مكة المكرمة، وأنهم ينسبون إلى أشراف مكة ، ويذكر فى ذلك المجال أرنولد توماس فى كتابه «الدعوة إلى الإسلام»، أن تحول هذه الجزيرة إلى الإسلام، لابد أن يكون قد تم على أيدى دعاة من العرب ، وأن الوقت الذى تحولت فيه هذه القبيلة إلى الإسلام، لا يمكن تحديده بالضبط: هل كان فى أى قرون من القرون الهجرية الأولى، على الرغم من أن هناك بعض الأساطير التى يرويها سكان الجزيرة من أن إسلامهم يرجع إلى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل إن تلك المعلومات تكاد تكون موثوقة تاريخيا ، ذلك لأن الرحالة الأوروبيين من البرتغاليين والإيطاليين، الذين زاروا الجزيرة فى القرن السادس عشر الميلادى قدروا فى كتاباتهم عن سكان الجزيرة، أن إسلامهم قديم، قدم الدعوة الإسلامية فى عهدها الأول، أى إن إسلام أسلافهم قد تم فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وربما قد يكون فى عهد الشيخين (أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب) .

وينتشر الجنس العربى فى مدغشقر، لاسيما فى الجزء الشمالى الشرقى من الجزيرة

والجنوب الغربى، ولا يستبعد أن يستبق الأسرة الحاكمة من سلالة العرب الأوائل، الذين اختلطوا مع السكان الأصليين بالمصاهرة والزواج، وقد تكون من الأفريقيين والعرب والملايو فى مدغشقر ما يعرف بالجنس الملجاش أو الملجاشى؛ حيث يتكلمون اللغة الملجاشية، التى تمتزج ببعض الكلمات السواحيلية ، وهم شعب يميل إلى الشعر والموسيقى، ويشتغل الرجال بالزراعة، وتقضى النساء أوقاتهن فى نسج وغزل الخيوط، وقد مهر الرجال فى أعمال البناء، وفى صناعة الحديد والنحاس والسلاسل الذهبية والفضية والفخار، ويعرف الملجاش بالفصاحة، وتنتشر بينهم الخرافات، ويشتغل كثير منهم بالعرافة .

وقد تكون تاريخ انتشار الإسلام فى بلاد خط الاستواء الأفريقية والجزر المجاورة لها، والتى منها جزيرة مدغشقر، بحيث لا يعرف عن تاريخ الإسلام والمسلمين بها إلا القدر اليسير؛ حيث إن الكتابات الأولية للمواطنين العرب والمسلمين القدامى، الذين كانت كتاباتهم المصادر الأساسية فى كتابة التاريخ، لم تتناول الحديث عن تلك الجزر، وإن كان ياقوت الحموى فى كتابه «معجم البلدان» قد أشار إلى مدغشقر، على أنها من أكبر جزر القمر فى وسط بحر الزنج، وليس فى ذلك البحر جزيرة أكبر منها والحقيقة التاريخية تؤكد تلك الأقوال؛ حيث إن مدغشقر هى أكبر جزيرة فى ساحل شرق أفريقيا، وإن كان ياقوت الحموى قد أشار إليها، على اعتبار أنها أكبر جزر القمر، وقال عنها إن فيها عدة مدن وملوكًا، يخالف كل واحد منهم الآخر ، وان كان العرب قد أشاروا عن مدغشقر بأدنى المعلومات؛ حيث قالوا ان بها شعبًا يعرف بالهوفا، وأنه لم يعرف الكتابة إلا منذ فترة وزمن قصير ، أما قبيلة الأنتيموروانا التى تسكن الجنوب الشرقى، فقد استعملت الكتابة والخط العربى، منذ زمن طويل، قبل الهوفا وصار عندهم بعد دخولهم الإسلام شىء من الأدب اللغوى العربى .

وقد انتشر المسلمون فى أجزاء عديدة من جزيرة مدغشقر، فنجد مثلاً فى أحد ثغور الجزيرة وهو ميناء بهاجونجو، التى توجد به جالية عربية عظيمة من المسلمين السنيين، الذين ينهجون مذهب الإمام الشافعى مذهبًا دينيًا لهم، ويتخذون فى جميع أحوالهم اللغة العربية حديثًا لهم، بل إنهم يستخدمونها فى جميع أمورهم، ويكتبون لغتهم بالحروف العربية، بل إنه يوجد من بينهم من يتكلمون اللغة العربية ويتحدثونها بطلاقة جيدة ، وإن كان سكان ذلك الميناء يعرفون بأنهم من أصول عربية، قبل انتشار الإسلام اليهم، وأن لهجاتهم هى إحدى اللهجات السواحيلية الأصل، التى تغيرت عن اصلها السواحيلى باختلاف اللفظ وباختلاط سكان جزر القمر مع أهالى مدغشقر؛ ذلك لأن أهالى مدغشقر منذ عصور طويلة،

وهم على صلة مستمرة ومتصلة مع سكان جزر القمر .

ومدغشقر جزيرة كبرى واسعة الأطراف ، بعيدة الأكناف، وهى من جزر العالم المشهورة، يمتد طولها أكثر من الف وستمائة كيلو متر، وعرضها قرابة ستمائة كيلومتر ، ويقدر علماء الجغرافيا مساحتها بحوالى ٥٠٠,٢٢٨ خمسة آلاف واثنين وثمانية وعشرين كيلومتراً مربعاً، وموقعها فى أسفل ساحل شرق أفريقيا، وسكانها قبائل متنوعة، وأكبرها قبيلة هوفا وتبسلو وسمهدت وغيرها، وأكبر مدنها العاصمة تناناريف ، ثم تأتى بعدها ثلاث مدن كبرى أخرى، وهى: تمتناف، أكبر ميناء لرسو السفن الكبيرة ومدينة مجنكا ، ومدينة دانيو، وهذه المدن الثلاث يكثر فيها المسلمون، وتكثر فيها مساجدهم، وتوجد كذلك كثير من القبائل الإسلامية ، التى تقطن الساحل الشمالى الغربى فى مدغشقر وكذلك توجد بعض الاسر العربية والسواحيلية ، التى استقرت فى الجزيرة، بالإضافة إلى أنه يوجد عديد من القبائل الكبرى، التى تغطى الجزيرة، ومنها: قبائل تنالا Tanala ، وقبيلة انتانكارانا Antankarana ، وقبيلة اتسنى هانكاAntsihanaka ، وقبيلة ساكالفا Sakalava ، وقبيلة بستى ساراكا -Besti sa raka، بالإضافة إلى قبيلة الهوفا المشار إليها، وقبيلة الأنتامورونا Antamorona. ويقال إن تلك القبائل- مع اختلاف اصولها العرقية والسلالية والجنسية- فإنها تمثل امة واحدة، ولقد كان العرب من الجماعات التى قدمت زرافات؛ فقد أدخلوا فيها عاداتهم وعقائدهم، ولكن لم يطل بهم الزمن حتى اختلطوا وامتزجوا بالأهالى الأصليين، وتزوجوا منهم وتصاهروا، ولم يبق من عاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم القديمة إلا الشيء اليسير .

بل إنه حاول بعض المؤرخين الفرنسيين، ومنهم الفرنسى جبرال فـــراند -Gubril Fe rand أن ينكر دور العرب بقوله إن العرب والمسلمين لم يتركوا تأثيرهم العقائدى، إلا فى قبيلة الأنتامورونا ، التى أعلنت دخولها فى الاسلام، وحتى إسلامهم كان ضعيفًا، وإن كان الإسلام قد تأثرت به بعض القبائل الأخرى، ولكن كان إسلامها حقيقياً فى بادئ الأمر، ثم تعمق الشعور الإسلامى فيما بعد. وتسكن قبيلة الأنتامورونا الإسلامية الساحل الجنوبى الشرقى من مدغشقر بين مصب نهر المانجارا، ومدينة مازيندانو؛ اى على طول مائتين وخمسة وعشرين كيلو متراً، ويسكن إلى الشمال من هذه القبيلة، قبيلة اليتمزراكا، وعاصمة قبيلة الأنتامورونا الإسلامية، هى مدينة ماتيا نانا على ضفة النهر المسمى باسمها، وتوجد فروع كثيرة من الأنتامورونا، مستقلة بعضها عن بعض، ولكنها خاضعة من الوجهة الدينية والحكومية لقبيلة لاتاكارا، الذين فيهم بيت الحكم؛ حيث هى فروع منهم، ولهم

التقدم على جميع قبائل الجزيرة .

ولا يتزوج بعضهم إلا من بعض فكأنهم قريش الأنتاموروونا، ومنهم ملوك القبيلة كلها، وهم أمناء الدين الإسلامى، وفى ايديهم ادارة المساجد التى يقرضون لأجل نفقاتها وإنارتها وإصلاحها نفقات زهيدة على أبناء ملتهم. ويزعم الأنتامورونا أن أصلهم من مكة المكرمة ويحتفظون بأصولهم العرقية بكتب خطية عربية، متناهية فى القدم، وألوانهم نحاسية، وأبصارهم حادة، وشعورهم مجعدة، ولكنهم هم وحدهم الذين سبقوا كل القبائل إلى الإسلام، كما أنهم سبقوا كل القبائل فى تعليم أولادهم حفظ القرآن الكريم، ودراسة العلوم الإسلامية، واللغة العربية ، حيث إن الكتاتيب- كما ذكر بعض الذين زاروا تلك القبيلة- منتشرة على نطاق واسع، وتوجد عندهم بكثرة؛ حيث يقوم الفقيه أو شيخ الكتاب بتعليم الاولاد حفظ القران الكريم، ومبادئ القراءة والكتابة .

ولقد كتب جميع الكتابات الرسمية فى قصور ملوك الهوفا، رجال من قبيلة الأنتامورونا باللغة العربية؛ حيث كانت هى اللغة الرسمية لمدغشقر، طوال عصور تاريخية طويلة، قبل قدوم رجال الاستعمار الغربى. وهذه القبيلة المسلمة الأنتامورونا تعتبر من أولى القبائل، التى تسكن مدغشقر، وتبدى عناية تامة بأولادهم. وهذه هى تعاليم الإسلام التى تحض على الاهتمام بتربية الأبناء تربية صالحة، وهم رجالا ونساء شديدى التمسك بالإسلام، وهم يطبقون الشريعة الإسلامية فى كل أمورهم كالميراث والزواج والسرقة والقتل والزكاة والعشور، وكانت قبيلة الأنتامورونا قبل الدخول فى الإسلام واعتناقه تعيش فى الجاهلية، شأنها شأن القبائل الأخرى؛ حيث كانت لها عاداتها وتقاليدها الوثنية .

ولقد كان وجود هذه القبيلة الإسلامية فى مدغشقر، من الأسباب القوية لمعرفة تاريخ وأصول تاريخ هذه الجزيرة؛ حيث انه لا توجد فى مدغشقر تواريخ عن أصول الأهالى، ولكن تقدم ورقى قبيلة الأنتامورونا- بسبب اعتناقها للدين الإسلامى، ومعرفتها بالكتابة والقراءة، ووجود الكتابة العربية عندهم- ساعد على معرفة العالم ببعض الأمور عن الجزيرة؛ فقد ساعد اختلاط العرب بالقبائل المدغشقرية بالمصاهرة والزواج، أن نتج عن ذلك الاختلاط قبيلة الأنتامورونا، كما نتج عن اختلاط العرب بسكان ساحل شرق أفريقيا من البانتو ، الشعب السواحيلى، إلا أنه يذكر أن قبيلة الأنتامورونا قبل دخولها الإسلام، كانت تعتقد فى إله واحد أزلى أبدى، خالق الكون كله، بيده كل شىء. وفى تلك الأثناء جاء العرب المسلمون إلى الجزيرة، يدعون لدينهم الخالد، دين التوحيد وعبادة. الواحد القهار، ولما كانت

العقيدة الإسلامية مؤيدة لما بين أيديهم فقد أسلمت جميع العائلة، التى كانت بها أصول عربية، قبل وصول تيار الدين الإسلامى إلى جزيرتهم ، بل إنه بالإسلام ازداد هؤلاء القوم سناء ورفعة ورقيـا. أما الفترة التى اعتنق فيها الانتامورويون الدين الإسلامى، فهى غير معلومة تاريخيا، والمعروف أن هذا التحول الجماعى إلى عقيدة الإسلام، لم يلاق معارضة من أحد بالجزيرة، بل تلقى هؤلاء القوم الدين الإسلامى الجديد بالفرح والنشاط ، كما أنهم نشطوا بالدعوة له بين القبائل الوثنية الأخرى المجاورة لهم، سواء كانت فى الشمال أم الغرب أم الجنوب .

وهم ينطقون بالحروف والجمل العربية، مثلهم مثل العرب؛ فيقولون مثلا إن شاء الله مكتوب الله وأن جميع كتاباتهم تبدأ بحمده الحمد لله وحده، ويكتبون بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولا يبدأون بأى عمل من الأعمال إلا بعد تلاوة هذه الجملة السابقة (بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله، محمد رسول الله) .

وتنطق أيام الأسبوع كلها فى جميع أنحاء مدغشقر، وليس بين هذه القبيلة من لاينطق باللغة العربية مع اختلاف بسيط فى النطق فالسبت سبت، والأحد احد ، والاثنين اثنين، والثلاثاء ثلاثاء ، والأربعاء ربوع ، والخميس خميس ، والجمعة زمعة . وهم يحافظون على الصلوات الخميس، ويؤدونها فى مواعيدها ، كما أنهـم يمتنعون عـن أكل الحيوانات النجسة، ويقومون بختان اطفالهم وطهارتهم.

ومن العادات الإسلامية عند فرع من قبيلة الأنتاموروونا، وهم الانتاكارا الذين فيهم بيت الملك، أنهم يقرأءون أمام كل عمل صلاة تناسبه؛ فمثلاً إذ أرادوا ذبح حيوان، قالوا اللهم اجعل لحمه صالحاً ولهم عادات. قال أحدهم هذه عادات قديمة جداً عندنا، جاءتنا من مكة. والمدينة، ويقولون للمدينة (مدينازى ، واحيانا) مدينانى ويقولون لمكة والمدينة المدينتين، ويدعى فرع الانكار، الذى به الحكم، أنهم من سلالة الإمام على بن ابى طالب، رابع الخلفاء الراشدين، وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزوج ابنته فاطمة. ولقد رضى الله عن السلف الصالح من هذه الامة الإسلامية والرواد الأوائل، الذين حملوا الإسلام والدعوة الإسلامية بقوة الإيمان والإخلاص، الى تلك الجزيرة؛ حيث خرجوا من جزيرتهم العربية من الحرمين الشريفين مكة والمدينة، ومن اليمن وحضرموت، وغيرها من أرجاء الجزيرة العربية، وجابوا وساحوا فى البحار يجوبونها؛ حتى وصلوا إلى شرق أفريقيا وموزمبيق وجزر القمر ومدغشقر، ونشروا بها الإسلام، وجاهدوا فى الله حق جهاده حتى اتاهم اليقين؛ فلقد

دخل الإسلام هذه الجزيرة منذ عصوره الذهبية الأولى، فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، او عصر الخلفاء الراشدين؛ حيث كانت قبيلتا هوفا والانتامورونا الكبيرتين، قد اعتنق أكابر رجالها الإسلام الحنيف، وبقيت مدغشقر بسكانها الذين يربو عددهم- حالياً- على ثمانية ملايين نسمة، وترتع بنعمة الإسلام العظمى، وتعيش على مبادئه، وتؤمن بعقيدة التوحيد الخالص، ويظهر أن بعد الشقة وانقطاع الجزيرة فى ذلك المحيط الهندى، وضعف همم المسلمين فى عصورهم المتأخرة، وعدم اهتمام كثيرين منهم بإخوانهم المسلمين، فى مثل هذه المواطن النائية.. هذه الأسباب وحدها وغيرها قطعت معين الخير وازدياد اندفاع حركة المد الإسلامى عن هذه الجزيرة، فأخذت تتدرج نحو الجهالة بالإسلام، ومن ثم تركه من حيث يدرى القوم أو لايدرى؛ حيث قل عدد رجال الدين، وانقطع المدد العربى الشرقى الإسلامى، الذى كان يساعد على تعمق المفاهيم الإسلامية .

وفى ذلك المضمار فإنه يمكن القول أن قبيلة الأنتامورونا، عندما اعتنقت الإسلام فقد كان إسلامها صرفاً؛ حيث تابع القادمون شرح وتوضيح الأمور والمسائل الإسلامية، أما فى بعض الفترات التاريخية فقد اختلطت بعض العادات والتقاليد الوثنية .

ولقد دخلت فى فترة الانحلال والتدهور والانحطاط بعض المفاهيم الخاطئة، فقد بدأ المسلمون المالاغشقريون يعتقدون فى المشايخ والأولياء، وجعلوا لها مقامات يذهبون إليها ، كما أن الانتامورونا شأنهم شأن إخوانهم المسلمين من الهوفا لهم كثير من العادات والتقاليد التى تخالف الشريعة الإسلامية، وما جاء فى الكتاب والسنة ، وإن كانت هذه الامور توجد بدرجة أخف عند الانتامورونا؛ بسبب معرفتهم بالخط العربى والقراءة والكتابة العربية، مما شجعهم على قراءة أمهات الكتب العربية والإسلامية ، وقد كان ذلك من أسباب تفوقهم على سائر سكان جزيرة مدغشقر .

ولقد ذكر البحارة «ماركو بولو» الذى مر بالجزيرة عام ١٢٨٠م، فى القرن الثالث عشر الميلادى ، السابع الهجرى، أن الجزيرة ينتشر فيها الدين الإسلامى، على نطاق واسع، وأنها تخضع لحكم أربعة من المشايخ، كلهم يدينون بالإسلام، وهم جميعا مسلمون يعبدون الله رب العالمين .

كما ذكر القس المبشر الإنجليزى هوكت Huckett- والذى ساح فى الجزيرة إلى الشمال، على طول الساحل فترة طويلة- أنه تقابل مع قوم، يقطنون تلك الأجزاء الشمالية

من العرب يقال لهم (انتيموورون)، أو (تتيموررون)، والذى لا شك فيه أنهم جالية عربية كبيرة، وأن اسلاف هؤلاء القوم كانوا من العرب الذكور؛ حيث قذف بهم البحر إلى هذا الساحل، وعندهم نسخة من القرآن الكريم مع التفسير، وتراهم يعتزون ويفتخرون بأنسابهم وأصولهم العربية، ومتمسكين جدا بكتابهم الكريم؛ فهم يرجعون إلى كتاب الله فى كل أمر من أمورهم؛ أى إنهم يطبقون الشريعة الإسلامية فى كل امر من أمورهم، ويرجعون إليه عندما يشتد عليهم أمر من الامور .

وكما سبق القول فى البداية: فإن جغرافيى العرب كانوا يجعلون على ما يظن جزيرة مدغشقر فى جملة جزر القمر، ويرونها كبرى هذه الجزر، كما أن بعضاً من يطلق على مدغشقر ، جزيرة القمر الكبرى ، كما أن المسلمين الذين يستقرون على الساحل الغربى من مدغشقر، يسمونها الانجازيجية، وأن الحكومة الفرنسية عندما سكت النقود لسلطان جزيرة القمر الكبرى، كتبت عليها عبارة سيد على بن سيد عمر سلطان نجازيجة، حفظه الله تعالى، وتسمى مدغشقر جزيرة القمر عند أهل عمان، كما أن الجغرافيين الأولين يظنون كذلك ، واما باللغة السواحيلية فيقال لها يوكينى، وهى مركبة من يوكى التى معناها غريب ومن«نى» وهى حرف بمعنى فى، أى إنها يطلق عليها فى بلاد الغريب .

وقد تحدث الجغرافى ابن سعيد فى كتابه «المسالك والممالك» عن جزيرة مدغشقر، ولو أنه أدخلها فى جزر القمر، فقال عنها إنها جزيرة طويلة عريضة، طولها مسيرة أربعة أشهر، وعرضها مسيرة عشرين يوماً، ومن مدنها كدينة (ليران)، وقال إنها هى وماغداشو تحت حكم المسلمين، ولكن أهلها من جميع الأجناس. وقد تحدث الدمشقى عند حديثه عن بحر الزنج أنه به جزراً عديدة منها مدغشقر، وهى جزيرة قنبلو، التى فيها الأبنوس ومعادن الذهب ، إضافة إلى ان البرتغاليين كانوا يعرفون مدغشقر باسم جزيرة القمر .

وعندما دخل الاستعمار الفرنسى الجزيرة، كانت الطامة الكبرى على المسلمين هناك؛ إذ دخل المبشرون مع رجال الاستعمار، بل دخلوا كل بيت، واستطاعوا بعد جهود طالت عشرات السنين أن يدخلوا مليونين من السكان فى الكاثولكية كما يوجد نصف مليون بروتستانت ، اما المسلمون بقى منهم على الدين الصحيح، قرابة ثلاثة ملايين نسمة، وهناك قبائل كبيرة يطلقون عليهم الصقالبة، وآخرون يطلقون عليهم الفلانة ، ولا تزال هذه القبائل تختن أولادها على الطريقة الإسلامية، كما أنهم يدفنون موتاهم حسب الطريقة الإسلامية، ولا يأكلون لحم الخنزير، وأسماء الشهور عندهم كلها عربية، وأزياء نسائهم أزياء اسلامية، وكان هناك مسجد بقرب قصر الملكة بتناناريف، حوله الاستعمار الفرنسى والعياذ بالله إلى

كنيسة، علاوة على هذا؛ فقد بنى المبشرون فى العاصمة وحدها مائة وخمسين كنيسة للكاثوليك، وسبعين كنيسة للبروتستانت .

أما المسلمون فبقى لهم فى تناناريف العاصمة، إحد عشر مسجد، أكثرها بنى حديثاً، والمسلمون سنيون شافعية، وإن كان يوجد بينهم بعض الشيعة، وحركة بناء المساجد قائمة فى أوساطهم بنشاط ملحوظ .

وعندما نقل سلطان عمان، سعيد بن سلطان، مقر حكمه إلى زنجبار فى شرق أفريقيا، فإنه أخذ يرنو يبصره إلى جزيرة مدغشقر، وعمل على ضمها إلى ممتلكاته فى شرق القارة، بعد أن كانت تلك الممتلكات قد امتدت، حتى بلغت حدود الحبشة الجنوبية، وجنوبا فى موزمبيق، وهكذا ضمت إليه مدغشقر عام ١٨٣٣م، عندما تزوج من ملكتها، والتى قامت بفتح الطرق التجارية أمام العرب، مما ساعد على انتشار الإسلام فى ارجاء الجزيرة، بل إنها دفعت له ثلاثين ألف ريال سنويا . ومن ثم أخذ اهالى زنجبار يستقرون فى هذه الجزيرة، فى الوقت الذى أخذ فيه النفوذ الإسلامى يمتد إلى الجنوب .

وفى عام ١٥٢٩م كان اسم مدغشقر قد صار معروفاً لدى الغربيين؛ لاسيما أنهم أشاروا فى كتاباتهم إلى العرب المورو، الذين سيطروا على بعض أجزاء الجزيرة؛ حيث إنه فى عام ١٥٠٦م ثار مورو الجزيرة على البرتغاليين، وكان قد وصل إليها البرتغاليون فى العام نفسه؛ حيث رسا بأسطوله القبطان البرتغالى ترستيان داكوتبا، فى أحد الموانى التى يسكنها المسلمون العرب المورو؛ حيث ثاروا عليه، وعلى البرتغاليين، وحاولوا منعهم من دخول الميناء، زاعمين أنهم يعارضونهم فى دخول ديار إسلامية، بعد أن شاهدوا سفنهم ترفع الصليب فوق الصوارى. وحقيقة الأمر أن هذه الثورة كان هدفها بعد ذلك إخراج المسيحيين من الجزيرة، والذين كانوا يضمرون أشد العداوة للإسلام ، لكن حاكم موزمبيق أرسل بارجة حربية، معلناً الحرب على شعب المورو المسلم، فيما لو استمر المورو فى المعارضة ، ولكن بعد ضرب بلادهم بالمدافع، مال المورو إلى السلم، ولكن البرتغاليين لم يأمنوا شرهم ولم ينزلوا إلى البر، ولكن بعد ذلك وردت سفينة كبيرة من مكة المكرمة، فيها بعض من المورو، فلما علموا بما حدث لإخوانهم انتقموا من الراهب، بعد أن رفض إعلان إسلامه ، بل أخذ يدعو القادمين من مكة المكرمة إلى ترك الإسلام، واعتناق المسيحية، لكن انتهى خبره بعد فترة ، إلا أن البرتغاليين انتقموا لما حدث، وخربوا ديار المورو ورجعوا إلى موزمبيق ، ثم جاءت سفن أخرى من مكة ومن ثم تعزز الوجود الإسلامى .

وقد اتفق المؤرخون على أن مدينة ماتانان هى المدينة الأولى فى شمال غرب مدغشقر،

التى نزلتها الجالية العربية، التى استقرت بها، ومن ثم فإنها اتسعت حتى صارت عاصمة القبائل المدغشقرية التى اتبعت الإسلام، واهتدت بنور القرآن، ولاتزال تلك المدينة حتى الوقت الحاضر هى العاصمة السياسية والأدبية والدينية للمسلمين المدغشقرين فى الساحل الشمالى الشرقى من الجزيرة، وبها يقيم أشهر الفقهاء ورجال الدين والدعوة والقضاة ورجال العلم والفكر والمعرفة؛ بحيث يمكن القول إنها كعبة العلم، ومقصد الفكر، وركن الدين، ومنارة الحضارة الإسلامية لشعب الانتامورو.

وكما سبق القول فإن الرحالة الشهير ماركو بولو الإيطالى البندقى، كان قد أشار إلى انتشار الإسلام فى أنحاء مدغشقر، وذلك فى أواسط القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى؛ حيث تحدث عن قبائل الانتامورو المسلمين، كما أشار بعض المؤرخين والرحالة الغربيين ومنهم جوشى ، فراشو ، عند زيارتهم للجزيرة عن المسلمين فى الجزيرة، فقال عنهم ان الدين الإسلامى يدين به أهالى وسكان سواحل الجزيرة، وكذلك السواحل المواجهة لمدغشقر وأن الدين الإسلامى لا شك أنه وصل إلى الجزيرة من هذه السواحل الغربية ، كما أشار إلى الأهالى أنهم يختنون أولادهم (الطهارة) ، ولا يشتغلون يوم الجمعة وقت الصلاة، ولا يأكلون لحم الخنزير والحيوانات النجس، وكذلك أهالى جزر القمر الغربية منهم، أكثرهم من العرب والفرس، وجميعهم يدينون بالإسلام، ويتبعون نبى الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم، ويكتبون كتاباتهم باللغة العربية؛ حيث هى اللغة الرسمية فى الجزيرة، ولا يأكلون الحيوانات إلا ما كان مذبوحا، ويتلى عليه اسم الله، لا يقومون للصلاة إلا بعد الاغتسال (الوضوء) ، بل إن اللغة العربية معروفة عندهم، منذ القرن الثالث عشر الميلادى .

وقد أشار بعض الأوربيين دومانداة، الذى زار مدغشقر فى القرن الثامن عشر الميلادى، وقد أضاف فى حديثه عن المسلمين فى الجزيرة ، بأنه توجد أدلة قاطعة بأن جالية عربية وصلت إلى مدغشقر فى اوائل القرن السادس الميلادى، كما قال ان الرهاندوبان أصلهم عرب، جاءوا إلى الجزيرة منذ مائتين وخمسين سنة وعندهم معرفة بالكتابة، ويستعملون الحروف العربية ، وكلنه اضاف بأن الجزيرة كلها لا تعرف اللغة العربية، ولا تدين بالدين الإسلامى، وأن الإسلام والعروبة منتشرة فى الجزء الشمالى الغربى، وأضاف أن العرب أسسوا ممالك عظيمة على ساحل أفريقيا المقابل لمدغشقر، ثم استولوا على جزر القمر، وأنهم يتاجرون مع عمان ومسقط وعدن وحضرموت وسواحل اليمن والخليج العربى، وأن سفن هذه البلاد تتاجر وتتردد إلى مدغشقر ، وأن سكان الجزء الشمالى الغربى توجد لديهم

ثم يضيف المؤرخ الرحالة نفسه أن القبائل المسلمة أيضاً فى الجزيرة، فى الجنوب الشرقى منها، تزعم أنها سلالة قوم من العرب الأشراف المسلمين من أهل مكة المكرمة، الذين هاجروا إلى مدغشقر، وهذه الرواية والانتساب إلى العرب، أو الاسر الشريفة كالعلويين والهاشميين والعباسيين والقرشيين ظاهرة معروفة فى عديد من قبائل أفريقيا، فقد ادعى الفولانى فى غرب أفريقيا أيضاً أنهم قدموا من مكة المكرمة ، بل ان قبائل مدغشقر- زيادة فى ربط الصلة القرشية، مع قدم اعتناقهم للاسلام- يزعمون أنهم قد أسلموا فى زمن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، بل إن دعوة الانتساب إلى آل البيت فاشية ومنتشرة عند مسلمى السواحل الجنوبية الشرقية والشمالية الغربية من مدغشقر، وتوجد فى مدغشقر خمس قبائل باقية حتى وقتنا إلى حد ذكر أنهم أبناء الذين هاجروا إلى مدغشقر من مكة المكرمة، والقوم يعتقدون فى هذه الروايات وصحتها، ويتمسكون بها، وأنها ليست خرافة، ولكن حقيقة كما يزعمون، بل أنهم يذكرون أن رامنيا الذى هو عبد الرحمن قد هاجر هو وزوجته من مكة إلى مدغشقر، على اثر المظالم، التى وقعت على آل البيت، وأن هذا الرجل كان صهراً للرسول صلى الله عليه وسلم ، بل إن هناك روايات أخرى تذكر أن بعض القبائل التى لازالت تتمسك بالإسلام حتى الوقت الحاضر، منها: الاو نجاشى ، والاناكارا، الزافيكار وبميامبو، والزاتيماتو يقولون إن أجدادهم رافقوا رامينا (عبد الرحمن) جد الانتاميا هواكا، فى هجرته من مكة المكرمة، وهذه القبائل تميل بشرتها إلى الحمرة، وشعورهم طويلة، وأنهم أهل شجاعة وبصائر بالحرب .

وتقول بعض روايات المسلمين من الأنتامورو أن الذين هاجروا من مكة إلى مدغشقر، كانوا خمسة أمراء وأنهم: راما كارارو ، دراجوزوفا إندرباما روهالا ، دراليفوازيرى ، واندريابنوا، ويربيه، وأن هؤلاء اضطروا إلى الفرار بسبب ثورة، أسقطت الأول عن عرشه، وثلاثة من هذه الأسماء عربية، وهى دراجوزوفا، وهى محرفة عن الأصل العربى يوسف دراليفرازيرى، وأنها محرفة عن على الوزير ، واندريانبوا وهى اندريانا باللغة المدغشقرية، تعنى الأمير، ثم الوزير، ثم الأمير الصدر الأعظم .

وهناك أقوال تذكر أن هؤلاء القوم قد ذكروا أنهم يزعمون أن أصولهم القديمة من مكة وفى مانجال، وأنهم جاءوا من الهند، بعد ان كان أسلافهم قد قدموا من مكة المكرمة، ووطئوا شاطىء الجزيرة الشمالى، ثم انتشروا إلى الجنوب، وكانوا يذكرون أصولهم إلى أهالى الجزيرة، وينسبون أصولهم العرقية إلى عرب قريش، ومنها ما عرفوا إلى ١٧ سبع عشرة بطناً، ومنها إلى أربع عشرة بطناً، وهم موروا وسوليما، وهم مسلمو الساحل الغربى من مدغشقر،

فإنه يقال لهم أيضاً سوليما، وأغلب الظن أنها محرفة من إسلام، وعندهم القرآن الكريم مكتوباً باللغة العربية، ولهم فقهاء ومشايخ وعلماء يعلمونهم القراءة والكتابة، وهم يصومون رمضان، ويحجون إلى بيت الله الحرام، ويزورون الأماكن المقدسة فى الحجاز، كما أنهم يؤدون الزكاة، ولا يأكلون لحم الخنزير، ويختنون أولادهم، ومنهم من يتزوج بأكثر من واحدة، وألوانهم كألوان مسلمى الهند والجاوى، وأنهم يحافظون على عقيدتهم وأصولهم، ويحفظون أنسابهم مع عدم وجود صلات قوية وثيقة مع سائر بلاد المسلمين إلافيما ندر .

كما أن هناك رؤية أخرى أنه توجد فى مدغشقر طبقة أخرى من البيض، واستقر الرأى على أنهم أرسلوا من مكة المكرمة لأجل هداية أهل مدغشقر إلى الإسلام، فاستولى هؤلاء على مدينة ناتانا، ومهنتهم تعليم اللغة العربية، ويقال لهم زافى كازيمامبو، ولا يستبعد أن يكون مع بداية الدعوة الإسلامية قد ذهب قوم من أهل مكة أنفسهم؛ للدعوة لله فى أرضه الواسعة؛ فاختاروا مدغشقر داراً للهجرة والدعوة ، وعلى هذا فإن الإسلام قد وصل إلى مدغشقر فى القرن الأول الهجرى، وإن كانت هناك أقوال تذكر أن الإسلام وصل واستقر، ورسخت أقدامه فى الجزيرة منذ عشرة قرون؛ أى إن القرن الرابع الهجرى قد شهد بعداً جديداً فى انتشار الإسلام فى الجزيرة ، صحيح أنه لا يوجد أدنى شك أن الإسلام قد وصل إلى مدغشقر فى القرن الاول الهجرى، ولكن دعائمه لم تتوطد إلا منذ القرن الرابع؛ حيث وجدت هناك رعية إسلامية كبيرة، يمكن أن يطلق عليه مجتمع إسلامى فى تلك الجزيرة .

ويتحدث المؤرخون عن انتشار الإسلام فى الساحل الغربى من مدغشقر، وعن وجود المسلمين فى تلك الأرجاء، فنجدهم يذكرون أنهم خمس فرق فى مدغشقر ، وهم الذين يسكنون فى أعالى رأس القبر من شرقيه إلى غربيه، وهم قبيلة الأنتكانكارانا، وهى تعتبر أكبر القبائل عدداً، وأهلها متمسكون بالتعاليم الإسلامية، ويسيرون على النهج الإسلامى، ويعملون فى مجال الدعوة بين غيرهم وإخوانهم من المسلمين، وكذلك توجد قبيلة الأبيوانا، والذين يتخذون من مدينة موجانجا عاصمة لهم؛ حيث يتمركزون حولها، وكذلك قبيلة الساكالافا، وهم أصحاب بلاد الأبونجو والذين من رؤوسائهم الملكة (بارة رافون)، التى تزوجها السلطان سعيد بن سلطان، سلطان زنجبار؛ عام ١٨٣٣م وهى صاحبة خليج (مارامیسی) وتصل إليهم سفن الهند ومسقط وزنجبار حيث تكثر هذه السفن فى التردد إلى الساحل الغربى .

وعلى هذا تبقى حقيقة علمية مهمة وتاريخية، هى أن هناك قوماً من بنى أمية، قد وصلوا إلى جزيرة قنبلو عام ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، عند سقوط دولتهم، وأنهم فتحوا هذه

الجزيرة، فلابد لهم أن يكون فاتحو هذه الجزيرة قد وصلوا إلى مدغشقر؛ نظراً لقربها من جزر القمر، وعلى هذا يكون الإسلام قد وصل إلى تلك الأرجاء فى النصف الأول من القرن الثانى الهجرى ، الثامن الميلادى .

وهكذا يكون قد مضى على الوجود العربى الإسلامى بالجزيرة أحد عشر قرناً من الزمان، وهم يعملون ويجاهدون فى سبيل نشر عقيدتهم، والعمل على التمكين لها فى الجزيرة؛ بالإضافة إلى قيامهم بالأعمال التجارية، وربط الصلات الروحية والاقتصادية والثقافية مع إخوانهم فى البلاد العربية، ومن ثم، فإنهم قد وصلوا إلى المكانة الرفيعة فى جزيرة مدغشقر بفضل الدور، الذى لعبوه فى نشر الدعوة، وحركة نشر الثقافة العربية الإسلامية، ونشر اللغة العربية، وتعليم الأبناء اللغة العربية، وتحفيظ القرآن الكريم، والقيام بالأعمال التجارية بين أنحاء الجزيرة وجزر القمر والساحل الأفريقى الشرقى .

وقد لعبت شعوب الساكالافا دوراً لا يقل عن دور اخوانهم فى الإسلام (الأنتامورو) ، فنراهم يحفظون الشهادتين: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ويقرأون القرآن الكريم، ولكنهم غير متمكنين من اللغة العربية، وغير ضليعين فيها مثل إخوانهم الأنتامورو، إلا أنه مع كل هذا فإنه توجد فى بعض مدن الساكالافا مثل مدينة موجونجا، الجوامع الكبيرة والمدارس الإسلامية، التى لعبت دوراً لا يقل عن غيرها من المدارس الإسلامية العربية، فى إثراء الحركة الثقافية والفكرية والحضارية فى تلك المدينة، وغيرها من المدن الغربية والقرى المحيطة، وتقام الصلاة خمس مرات يوميا، والآذان عندهم مسموعاً ، وتقام مبانيهم على الساحل من الحجارة، وهى لا تقل جمالاً وروعة وهندسة وتنظيمًا عن غيرها من المدن العربية الإسلامية، المطلة على ساحل البحر الأحمر، وساحل المحيط الهندى، وكذلك يوجد بعض الهنود الذين هم على المذهب السنى، والبعض الآخر على المذهب الشيعى، الذين يؤدون الصلاة فى مسجد الشيعة ، ولست أعرف سبباً لماذا يقال مسجد السنة والشيعة؛ ذلك لأن المساجد لله، والإسلام لا يعرف المذاهب لا سنة ولا شيعة، ولكن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ،كذلك يوجد فى تلك المناطق الغربية، والذين ساعدوا على نشر الإسلام فى تلك الأنحاء بصورة أكثر فعالية، وهم بعض المسلمين من عمان وزنجبار وأهل جزر القمر، الذين يأتون للدعوة لدين الله الخالد، والقيام ببعض الأعمال التجارية ، والأولاد يذهبون إلى المدارس؛ لدراسة علوم الدين الإسلامى واللغة العربية، وجميعهم أبناء المسلمين، الذين يعملون على نشر الإسلام، وتعميق مفاهيمه فى نفوس أبنائهم الصغار وعقولهم .

وينتشر العرب فى بعض القرى مثل اندامونى ، سوالالا ، بالى، وهى القرى التى يأتى إليها البانتو المسلمون (السواحلية) .

وقد وصف بعض رجال الدين المسيحى من رجال الكاهنوت قبائل الساحل الغربى بالتعصب الإسلامى، ولكن هذا لم يكن صحيحا؛ ذلك لأنهم كانوا يحافظون على عقيدتهم الإسلامية فى مواجهة الخطر الصليبى، الزاحف إليهم؛ لمحاولة الانقضاض على عقيدتهم الغراء، وقد يقصد المؤرخون بعض القبائل الوثنية ، أما القبائل الإسلامية الأخرى مثل الأنتامورو ، الانتامباهواكا ، فقد تلطفت طباعهم كثيراً، وهذّب الإسلام مشاعرهم وطرق تعاملهم، ومن هنا كان الرجل الأوروبى المتعصب للمسيحية يسافر بين بلادهم وقراهم دون وجل، ولقد أحسن المسلمون معاملة الرجل الأوروبى، بعكس الوثنى الذى كان يحاول الاعتداء عليهم ، وللحقيقة: فإن قبائل الساكالافا المسلمة كانوا يكرهون الغريب الأبيض؛ ذلك لأن كل جاسوس لابد ان يكون أبيض، وكانوا يظنون أن الرجل الأبيض إنما هو جاسوس مملكة تناناريف، التى كانت تكره كل الكره استغلال قبائل الساحل الغربى المسلمة، وقد تكون هذه الكراهية مبعثها الرجل الأوروبى نفسه؛ ذلك لأن البرتغاليين منذ القرن السادس عشر وقعت بينهم وبين الساكالافا حروب؛ حيث كان البرتغاليون يقومون بغزوهم من موزمبيق ، ومن هنا نجد بعض المراكز الإسلامية فى مدغشقر، مثل: ماتيرانو عاصمة إقليم ميتاب، كان أهلها يكرهون الأوروبيين؛ لما تعرضوا له من اعتداء على أيدى البرتغاليين ، ومن هنا فإن الإسلام والمسلمين لم يعرفوا الكراهية والبغضاء مثلما يعرفها الرجل الأوروبى .

ولقد كان الوجود الإسلامى العربى مكثفاً فى الجزء الغربى من الجزيرة؛ حيث كانت أعدادهم تفد من زنجبار وجزر القمر، وصفوة القول إن مسلمى الساحل الجنوبى الشرقى للجزيرة قد ائتلفوا وتخالطوا مع الأوروبيين، وأصبحوا لا ينفرون منهم بخلاف أهالى الساحل الغربى، فهم الذين منهم الساكالافا والانتيوانا المسلمون والمنياب ، أما المازيكورو فإنهم كانوا يكرهون الأوربيين نظراً لبشاعة الأعمال، التى كانوا يقومون بها، ومحاولة التبشير بالمسيحية والإنجيل بينهم، ودعوتهم إلى ترك عقيدة الإسلام الخالدة .

ولقد كانت أعمال القسس والرهبان وبناء الكنائس هى التى خلقت العداء مع الأوربيين، فإن الإسلام والمسلمين يعرفون التسامح، ولكن عند الاعتداء وعلى القرآن والعلماء والمساجد ومحاولة الطعن فى رسول الإسلام.. فإن المسلم فى تلك الحالة لا يعرف التسامح، وهو يرى قرآنه الكريم يحرف، ولابد من الدفاع عن المقدسات الإسلامية، وهذا ما حدث مع

الأوروبيين فى الساحل الغربى، ولقد بسط الإسلام لواءه فى أجزاء عديدة من الجزيرة، ولقد ساعد على ذلك تلك الصورة المستمرة والدافعة للحركة الإسلامية، والتى كان يدفعها مسلمو عمان وصور ومسقط والمكلا وحضرموت وزنجبار ، وأهل جزر القمر الأربع ، وإن كان عددهم قليلاً؛ حيث إنهم يجيئون ويرجعون، ولكنهم كانوا يتركون بصماتهم القومية والواضحة فى كل ركن من أركان الجزيرة ، بل إن أكثر الذين كانوا يهاجرون إلى الجزيرة من المسلمين هم المسلمون البانتو (السواحيلية)، الذين كانوا يهاجرون من زنجبار وجزر القمر ، فهؤلاء كانوا يظهرون بمظهر عظيم من الإصلاح والصلاح والتقوى والإيمان، يلازمون المساجد، يدعون إخوانهم للإسلام ودراسة العلوم الإسلامية، وشرح المفاهيم الأخرى المتعلقة بالدين، كما أنهم- كما ذكر الأوروبيون- كانوا يحملون المسابح، ويكحلون عيونهم، ويخضبون أيديهم وأرجلهم بالحناء، ويلبسون الملابس الواسعة، ويطوفون فى الأسواق، ويحثون الناس على العبادات، ويذكرونهم بالثواب والعقاب والجنة والنار، وأخيراً تصير لهم الكلمة العليا عند قبائل الساكالافا، الذين يأخذون منهم التعاويذ والتمائم. وسبب معرفتهم بالقراءة والكتابة والعلوم الإسلامية والفقه والتفسير... أنهم يتفوقون على باقى أبناء مدغشقر، بل إنهم يتزوجون ببنات زعماء البلاد، وأحيانا بالملكات اللاتى يحكمن أجزاء من الجزيرة، ومن ثم تصير لهم الكلمة النافذة فى البلاد، ويأخذون من العوائد والمكوس، وأحياناً يعير منهم الوزراء عن الملوك وسلاطين الساكالافا، وأهل الرأى والمشورة فى البلاد، وذلك يؤدى إلى انتشار الإسلام على نطاق واسع .

ولهذا.. فإن الإسلام قد رسخت دعائمه، وتوطدت أركانه منذ أكثر من أحد عشر قرناً من الزمان، فى تلك الديار، ولا يزال سكان جزر القمر والزنجباريون يذهبون إلى مدغشقر، يدعون للإسلام، ويعلمون المدغشقرين عقائدهم الإسلامية ، إلا أنه مع كل تلك الجهود التى يقوم بها أهل عمان وصور ومسقط والمكلا وحضرموت والقمريون والزنجباريون، إلا أنه لازالت هناك بعض التأثيرات غير الإسلامية، التى لا زالت عالقة بعقول بعض أفراد الشعب، فإننا إذا نظرنا إلى قبائل مثل قبائل الساكالافا والانتامورو والانتامبا هوكا ، نجد أنهم قد تقبلوا الإسلام دون ان يتعمقوا فى دراسة مفاهيمه الخالصة النقية، كما لازالت بعض الافكار الوثنية عالقة بهم ، وكذلك لا توجد كثرة من المساجد والجوامع، وان كانت توجد بعض المساجد فى موجانجا وماتيرانو، والتى بناها العرب والسواحيليون والهنود .

كذلك فإن رجال الدعوة الإسلامية يبذلون جهوداً مكثفة، منذ عدة قرون لهداية

القبائل الكثيرة المنتشرة فى الجنوب الشرقى والشمال الغربى، وغيرها من الأنحاء، وكذلك فى الجنوب والجنوب الغربى والجنوب الشرقى ، بحيث إنه يمكن القول أن رجال الدعوة الإسلامية لم يتركوا شبراً واحداً فى الجزيرة إلا وحملوا فيه لواء الدعوة الإسلامية، ينشرونها بين الاقوام .

ولكن منذ عام ١٨٢٠م شهدت جزيرة مدغشقر جهوداً مكثفة من عمل جماعات التبشير، الذين وصلوا إليها من كل مكان فى أوروبا، من الجزويت وجمعية لندن التبشيرية وأخوات العقيدة المسيحية ، وراهبات ماريوسف، وراهبات التبشير بالإنجيل، والمبشرين النورنجيين، والأمريكيين واليعازريين الفرنسيين ، وبشروا البروتستانت الفرنسيين ، كل هذه الجمعيات أرسلت جيوشاً من الرهبان والقساوسة والراهبات؛ للتبشير بين المدغشقريين. وكما سبق القول، حققوا أكبر نجاح لهم، إذ يوجد أكثر من اثنين مليون من الكاثوليك، ونصف مليون من البروتستانت، نجح هؤلاء المبشرون فى تنصيرهم وتحويلهم إلى المسيحية .

لكن بقيت بقية من المسلمين، يحافظون على دينهم الإسلامى الصحيح، ويقدر عددهم بقرابة مليونين ونصف من السكان، هؤلاء يعملون بأوامر القرآن الكريم ونواهيه، ويتمسكون بكل ما جاء فى الكتاب والسنة ، كما أنهم يؤدون الصلاة والزكاة والحج والصوم والفقه ، وإن كان بعضاً منهم لا يعرفون من الإسلام سوى الاسم .

وخلاصة القول الذى اهتدى اليه هؤلاء، الذين جابوا الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها إن الإسلام دخل إلى السواحل الشمالية الغربية والجنوبية الشرقية، من مدغشقر على أيدى العرب أو المسلمين المتكلمين باللغة العربية؛ مما يستدل على أن الكلمات العربية كثيرة ومنتشرة فى اللغة الملجاشية، ويوجد بكثرة فى لغة مدغشقر ، فلا شك أن العرب كانوا فى الساحل الشرقى من أفريقيا الشرقية منذ القرن السابع الميلادى ، ونشروا دعوة الإسلام فى بحر الزنج منذ القرن الثامن الميلادى، فجزيرة قنبلو التى فتحها المسلمون الأمويون عام ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، ليست إلا على مسيرة ستين ميلاً من جزيرة مايوت ، وثلاثمائة وخمسين ميلاً من خليج يومياتوك، فى مدغشقر، وهى جزيرة أنجوان الحالية، أى ان العرب نزلوا فى موجانجا ووصلوا إلى مانتانا .

وإن كنا نرى أن العرب قد تكشف وجودهم ووصولوهم إلى الجزيرة، منذ القرن الثانى أو الثالث الهجرى، وأن تلك الحكايات التى يروونها عن مسلمى مدغشقر، وأصلهم من مكة المكرمة، هى فى مجملها الاعتزاز بالاصل العربى، ولكن لم يكفهم أن يجعلوا أنفسهم عرباً،

ولكنهم أضافوا إلى أنفسهم نسبًا قريشيًا شريفًا، بل انهم من آل البيت، على أنه لا يوجد مانع من أن يكون هناك أفراد من قريش، .وصلوا إلى مدغشقر، كما سبق القول، وربما يكونوا من الطالبيين، أحفاد على بن ابى طالب، حيث شهد عصر الخلافة العباسية اضطهاد للطالبيين، دون غيرهم من أبناء قريش، لاسيما فى العصر الأموى، وذلك يكون دافعاً على هجرة مبكرة، فى النصف الأول من القرن الأول الهجرى .

اما ما يقال عن سر تخلف المسلمين فى جزيرة مدغشقر، وبقاء بعض العادات والتقاليد الوثنية عالقة فى نفوسهم وتصرفاتهم.. فإن ذلك قد يكون بسبب بعد الشقة والمسافة بينهم، وبين بقية أنحاء العالم الإسلامى، وقد تكون بسبب الظروف التى ألمت بالعالم الإسلامى من جراء غزو المغول والتتار وهجوم الصليبيين ، كما يعود إلى دور مسلمى مدغشقر أنفسهم فى التقصير فى الدعوة الإسلامية، وذلك شأنهم شأن غيرهم من المسلمين، فى سائر الاقطار الإسلامية .

ولو أن ذلك لا ينفى وجود مدارس وكتاتيب وطرق صوفية منتشرة، تمارس دورها فى إرساء دعائم الإسلام، ولكن كل ذلك لم يكن بالصورة المثلى والقوية والأرسخ؛ مما سهل لرجال التبشير أن ينشطوا فى دعوتهم للمسيحية بين أبناء الجزيرة؛ حتى تمكنوا من تنصير تلك الأعداد الهائلة المشار إليها .

إن عدد سكان مدغشقر يزيد عن ثمانية مليون نسمة، يوجد منهم ٢,٥ مليون مسلم ، ٢مليون كاثوليكى، ونصف مليون بروتستاتى، ومن هنا فإنه لازالت هناك ثلاثة ملايين، يعيشون على الوثنية، بل إنهم يدينون بديانة يطلقون عليها (اندياماتيران أو زاناهدى)، ومعناها الخالق الواحد أو الله منبع الحياة، وعلى هذا فإنه من الممكن دعوة هذه الملايين إلى الإسلام، بل إن الإسلام من الممكن أن يغطى كل الجزيرة، لو أن هناك خطة اسلامية موضوعية وعلمية، تعمل على إرسال الدعاة والوعاظ والكتب، ومنح المنح الدراسية فى الجامعات العربية والإسلامية لأكبر عدد من أبناء الجزيرة، وتعليمهم فى المعاهد الإسلامية والجامعات أيضًا، ثم إرسالهم إلى بلادهم؛ لكى يقع عليهم عبء القيام بنشر الدعوة الإسلامية، ودعوة القوم إلى أصولهم الإسلامية الأولى .

إن تعميق المفاهيم الإسلامية ونشر اللغة العربيــة لغة مدغشقر الأولى، هو الطريق الى بذر بذور الإسلام فى تربة مدغشقر؛ لكى تؤتى ثمارها المرجوة؛ حيث إن هناك بعض المدارس

والمعاهد العربية الإسلامية، التى تعلم اللغة العربية والعلوم الإسلامية، وأنهم يعملون على نشر دين الله والإسلام، ونشر لغة القرآن الكريم، والتى عمل المستعمر على مطاردة اللغة العربية، وحرمها على أهلها، وحاصر الإسلام حتى كاد أن يقضى على كل أثر للإسلام، ولكنه دين الله الخالد جاء ليبقى « انا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » لا لكى ينسخ كل ما قبله من معتقدات، ولكن لكى يعود إلى الإسلام قوته واصالته فى الجزيرة، فلابد من عمل علمى وموضوعى؛ لكى تشد أزر أخوة الإسلام، الذين يعيشون فى هذه الجزيرة .

لا شك أن هناك عملاً إسلامياً، ونشاطاً تقوم به الجماعات والجمعيات الإسلامية فى مدغشقر، لا سيما من الجالية اليمنية، والجالية القمرية، والتنازنية، والذين يبذلون جهوداً مكثفة فى سبيل نشر الإسلام، وانشاء المدارس التى تقوم بتعليم الأبناء اللغة العربية، وتحفيظ القرآن الكريم، وهى مقامة فى المساجد نفسها ، ومن هنا فإن الواجب الإسلامى يقتضى تجاه إخوة العقيدة الإسلامية أن نأخذ بأيديهم؛ حتى يقفوا على حقائق العلوم وحقائق الاسلام التى جعلت العلم جزءاً من حياة المسلم .

وهكذا كانت قصة انتشار الإسلام والعروبة فى مدغشقر؛ حيث دخلها الإسلام منذ القرن الأول الهجرى، والتى كانت علامة من علامات المد الإسلامى إلى شرق القارة الإسلامية، وكيف عمل الإسلام على نشر حضارته وثقافته العربية الإسلامية فى هذه البقاع، التى أخذت بيد شعوبها إليها... إلى الإسلام والهداية والإيمان .

* * *



الفصل الثاني

انتشار الإسلام في جزر القمر

لقد كان اول من اطلق اسم القمر على هذه الجزر، هم العرب الأولون، حيث تكون القمر، بضم القاف وسكون الميم، وقد تحرك الميم فتنطق قمراً، ومنها قول الأجانب الأوربيين قومور، وقد ذكر المسعودى فى كتابه «مروج الذهب»، أن جزيرة أنجوان أو قبالو قد فتحت عام ٨٢٤م، على أيدى عرب الأزد من الاباضيين العمانيين، وهناك أقوال تذكر أن ذلك الفتح قد تم فى عام ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، وإن كانت المصادر الأوروبية تحاول أن تقلل من البعد الزمنى للانتشار الإسلامى فى تلك البقاع، ومن ذلك نجدهم يذكرون أن تاريخ الفتح العربى الإسلامى لهذه الجزيرة غير معلوم، وإنما كل ما يعرف أو الثابت تاريخياً أن رجلاً عربياً امتاز بالبطولة والكفاءة والشجاعة والإقدام قد وصل إلى تلك الجزيرة، ومن ثم جعل نفسه سلطاناً على جزيرة القمر الكبرى بسلطة واسعة، والذى لا شك فيه أن أحفاد هذا الرجل، هم الذين اشتبكوا فى حروب طويلة مع البرتغاليين، عندما قدموا إلى تلك الديار، ثم وفد بعد ذلك قوم فارين من شيراز العجم، نزلت تلك الجالية الفارسية على سواحل بر الزنج (شرق أفريقيا)، وكان إن وصل إلى جزر القمر، زعيم لهم اسمه محمد بن عيسى، فاستولى على جزيرة القمر الكبرى، وعلى جزيرتى هنجوان ومحلى، وجعل فيها أبنية ملكتين. وجزر القمر هذه أربع جزر تقع فى الجنوب الشرقى للقارة الأفريقية، وهى كالأعلام الإسلامية الهادية فى المحيط الهندى، وكبرى هذه الجزر (جزيرة مرونى)، وفيها العاصمة، وتسمى مرونى أيضا، وطول هذه الجزيرة مائة وستة وثمانية كيلو متر، يزيد وعرضها عن خمسة وعشرين كيلو متراً، يتوسطها جبل شامخ فى العلو، يزيد ارتفاعه عن سبعة آلاف قدم، وعلى سفوحه الممتدة إلى المحيط التى تتلاطم حولها الأمواج، تقع المدن والقرى والمزارع الجميلة، والجبل ممتد على طول الجزيرة. وفى اعلى قمة فيه بركان نارى كبير، دائم الاشتعال وألسنة اللهب تتصاعد فى وسطه، ولكنها لاترى فى المدينة .

وسكان الجزيرة كلهم مسلمون؛ حيث يشكل الإسلام مائة٪ فى المائة، والمذهب الشافعى هو المذهب السائد فى هذه الجزر، ويسكن الجزر الأربعة أكثر من نصف مليون نسمة، واللغة العربية منتشرة بينهم ويعرفها كثير من السكان.

ولقد كانت جزيرة مايوت أو مرونى تابعة فى بعض العصور التاريخية لأمراء جزيرة انجوان، بحسب قول هؤلاء، ولكن سكان الجزيرة لم يكونوا يذكرون اسم أمير جزيرة انجوان فى خطبة الجمعة، إلا فى بعض الفترات؛ مما يجعل التبعية اسمية، وليست لها صفة الدوام والاستمرار. ولكن لما آل امر السلطنة فى القرن الثامن عشر الميلادى إلى السلطان أحمد الذى ملك كبرى جزر القمر فى الفترة (١٧٦٠ - ١٧٨٥م)، فإن سكان جزيرة مدغشقر من قبائل الساكالافا قد أكثرت من الغارة على هذه الجزيرة، وكذلك أدت تلك الغارات إلى كثرة الفتن الداخلية والحروب الأهلية؛ مما زعزع ملك سلطان انجوان، فاضطرب حبل الأمن فيها ولم تعد الأمور مستقرة، أو تساعد على انتشار رجال الدعوة الإسلامية؛ للقيام بواجبهم الإسلامى .

وكان السلطان أحمد هذا الذى يسيطر على جزيرة مايوت، ينتمى إلى عائلة وأسرة عمانية عريقة، أقامت فى بلدة تشيخونى؛ حيث كانت تلك المدينة حاضره جزيرة انجوان القديمة، وكانت تلك الأسرة العمانية الأصل التى تحكم انجوان، أسرة ذات ثروة طائلة، وذلك بسبب قيامها بالأعمال التجارية والاتصالات الاقتصادية، مع عديد من بلدان العالم الإسلامى والهند ، وقد ساعدت تلك الثروة الطائلة وحسن الإسلام والعمل فى وجوه الخير والبر، وبناء المساجد، والقيام بالواجب الإسلامى نحو نشر الثقافة العربية ، مما يساعد على أن يقوم أحد أفراد هذه الأسرة العمانية، وكان يدعى صالح بن محمد بن بشير المنظارى العمانى؛ حيث كان واسع الثروة والجاه بأن تزوج ابنة سلطان جزيرة مايوت، والذى كان عربيا عمانيا.

وعندما توفى سلطان مايوت عام ١٧٩٠م . فإن صهره وزوج ابنته صالح بن محمد بن بشير آل إليه حكم الجزيرة، وأنه اضطر إلى المذهب الأباضى، الذى هو احد فروع مذهب الخوارج ، الاباضية ، الصفرية ، الأزارقة وغيرها من فروع الخوارج، وهو المذهب الذى كان عليه اهل عمان، واتخذ مذهب السنة والجماعة منهجاً له؛ حيث اتخذ مذهب الامام الشافعى أحد المذهب الأربعة السنية منهجاً له، وهو المذهب الذى كان يسير عليه أهل جزر القمر.

وقد كان أهل جزر القمر قد جاءوا من ساحل البحر الأحمر الغربى، ثم جاء إليها فى بعض الفترات التاريخية زنوج من زنجبار، وكانت تفد إليها بكثرة سفن العرب منذ عصور قديمة، وقبل ظهور أنوار الإسلام. ولكن النفوذ العربى الإسلامى لم يتوطد فى جزيرة مايوت وانجوان إلا منذ القرن الخامس الهجرى؛ حيث ظهرت رعيه إسلامية كبيرة العدد فى تلك

الفترة، ولقد شهد القرن السادس عشر الميلادى قدوم البرتغاليين إلى تلك الجزر؛ حيث فتحوها ولكنهم مروا عليها كعابرى سبيل. وبعد انصرافهم من هناك، جاءت جماعات من الفرس الشبرازين.

أما جزيرة محلى ثالثة مايوت، انجوان فغاية ما يعرف عنها أن سكانها قوم زنوج، جاءوا من أفريقيا، ثم جاء بعدهم العرب المسلمون وأهل مدغشقر، وفى القرن السادس عشر الميلادى ومع بدايته ١٥٦٠م، قدم قوم من فارس من الشيرازيين، تحت قيادة أحدهم، الذى هو أحد أبناء محمد بن عيسى. وتشارك جزيرة انجوان ومحلى التاريخ الإسلامى المشترك نفسه؛ حيث شهدت قدوم وفود من الزنج والعرب، ثم المدغشقريين، ولما وصل محمد بن عيسى الشيرازى إلى جزيرة القمر الكبرى فإنه ارسل ابنه حسن بن محمد بن عيسى الشيرازى ومعه جماعة من الشيرازيين، الذين قدموا معه وكانت معهم بعض الأسلحة؛ مما اتاح لهم السيطرة على جزيرة انجوان .

والغريب أن الجزيرة الكبرى مروت أو مايوت ليس فيها نهر ولاعيون ولاآبار؛ حيث تنزل عليهم الأمطار متواصلة لاتنقطع طول العام، وتأتى بعدها جزيرة هنزوان، وهى تأتى بعد جزيرة مروت فى السعة والأهمية وكثرة السكان، ويطلق عليها جزيرة انجوان، أما اسم هنزوان فهو اسم أوروبى.

وقد جزى الله السلف الصالح من هذه الأمة المباركة، التى حملت دعوة الإسلام الى هذه الشعوب فى تلك الجزر الصغيرة النائية، حيث بذلوا الصعاب فى حمل الأمانة بإخلاص ونقلها إلى ارجاء المعمورة، والتى بذلت من أجل وصول نداء الله اكبر لا إله إلا الله محمد رسول الله بالدماء والأموال، وباعت كل شىء لله، وفى سبيل الله عز وجل .

وقد ذكر أنه فى أوائل القرن الثانى الهجرى ، نزل العرب هذه الجزر الأربع للدعوة، ونشر الإسلام؛ بجانب أننا لاننكر أن العمل التجارى كان من أهداف بعض دعاة الإسلام، وقال بعض المؤرخين أن نزول العرب هذه الجزر كان ميلاداً صادف ليلة مقمرة، مضاءة بأنوار القمر الفضية الجميلة، فسموها جزر القمر، وقد ذكر العلامة الشيخ برهان مكلا القمرى فى كتابه المحفوظ أن معنى جزائر القمر هو قمر السماء، الذى تشاهده ليلاً، وهى عبارة عن مجموعة من جزر جنوب شرق أفريقيا، وتمتاز هذه الجزائر بمناظرها الطبيعية الخلابة ومياهها العذبة وهوائها العليل الصحى.

ويتكون هذه الجزر من مجموعة عناصر سلالية وعرقية وجنسية متفرقة، ولكنها اندمجت بعضها في بعض حتى اصبحت أمة واحدة، تجمعها وحدة الدين والعقيدة والمحبة والأخوة الإسلامية، وعاش هذا الشعب قروناً طويلة في وحدة متآخياً معتصماً متمسكاً بدين الله القويم، دين الإسلام.

وقد ذكر الرحالة ابن بطوطة أنه لما ساح في أفريقيا، وقصد مدينة كلوه، كان فيها آنذاك سلطان يسمى الحسن أبا الظفر، ويكنى بأبي المواهب، وذكر أن تحت ملكه جزائر القمر، ومن هنا يتضح أن الإسلام قد ازدهر في هذه الجزر، وتدعمت أركانه ورسخت قواعده؛ مما ساعد على تطبيق الشريعة الإسلامية في كل أمر من امور الرعية، وهكذا ظهرت في الجزر حكومات إسلامية، دانت من يوم بدء دخول الإسلام إلى هذه الجزر القمرية الجميلة، إلا أنها بعد ذلك ضعفت ووهنت، وكانت المأساة بدخول الاستعمار الفرنسي إلى هذه الجزر العربية الإسلامية، والذى عمل من جانبه على إبعاد هذه الجزيرة وغيرها من جزر القمر عن جيرانها وأخوة الإسلام في البلاد العربية الإسلامية، وعمل على إفساح المجال أمام رجال التبشير المسيحي؛ لكي يقوموا بدورهم في نشر الديانة المسيحية والدعوة لها، ومحاربة التيار الإسلامي بقوة: وكما فعل رجال التبشير في الساحل الشمال وبلاد الصومال، فعل رجال الاستعمار الغربي في جزر القمر؛ لأن الوجود الإسلامي كان قد رسخت أقدامه، وتوطدت دعائمه وقيمه؛ حتى خلقت قاعدة إسلامية البلاد؛ حيث توجهت الدولة وجهة إسلامية عربية، وكانت جزر القمر إحدى الدول، التي انضمت مؤخراً للجامعة العربية، وصارت الدولة الثامنة والعشرين في الجامعة العربية، وبدأت تعمل على تعميق الروح الإسلامية العربية .

جزيرة القمر الكبرى نجازيجه

يطلق على جزيرة القمر الكبرى، التى هى إحدى الجزر الأربع، بل أكبرها من حيث المساحة والسكان. وقد أشار إلى ذلك عديد من الكتاب والمؤرخين الفرنسيين، الذين كتبوا ، وأرخوا لهذه الجزر، التى وقعت تحت سيادتهم وسيطرتهم الإستعمارية؛ حيث كانت الكتابات العربية عن هذه الجزر تكاد تكون ضئيلة بل نادرة، ومن ذلك ما كتبه أحد الفرنسيين، الذى يدعى انيقولا دوبلاية فى كتابه «القومور الكبرى» la grand comore؛ حيث قال إن أرخبيل جزر القمر يتألف من أربع جزر معروفة، هى جزيرة مايوت السابق الإشارة إليها، وجزيرة محلى، وجزيرة انجوان، ثم الجزيرة الكبرى: هذه التى تعتبر أكبرها، وكل هذه الجزر الأربع واقعة فى مضيق موزمبيق، وتبلغ مساحتها نحو مائتى وخمسة وأربعين كيلو متراً، مع انحراف من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى ، فالقمور الكبرى مابين خطى ٥٥,٤٠ و ١٢,٤١ من الطول الشرقى ، ١٣,١١ من العرض الجنوبى، بينها وبين شاطىء شرق أفريقيا مائة وستون (١٦٠) ميلاً، وبينها وبين جزيرة محلى ثمانية وعشريون ميلاً (٢٨ ميل)، وبينها وبين جزيرة انجوان خمسون ميلا (٥٠ ميل) بينها وبين جزيرة مايوت مائة وتسعة وستون ميلا (١٦٩ ميل)، وطول هذه الجزيرة ٦٦ كيلو متراً، وعرضها أربعة وعشرين كيلو، واكبر ميناء بها ميناء مرونى فى الغرب، وهو العاصمة أيضاً، التى تحكم منها جزر القمر الأربع .

وبها مدينة ميتسامولى فى الشمال الغربى، وشنفيدنى فى الجنوب الشرقى ، وتسليمانى فى الجنوب الغربى، وهى جزيرة مرتفعة فيها جبل، يقال له جبل « الكارتالا »، ويبلغ ارتفاعه الفين وخمسمائة متر، وأن بها عينين أحدهما فى مقاطعة بادجينى، والأخرى فى مقاطعة ميتسامولى.

ويبلغ عدد سكان جزيرة القمر الكبرى مائتى وخمسون الف نسمة، وتبلغ نسبة النساء أكثر من الرجال، ويرجع نقص الرجال بسبب الحروب التى كانت قد وقعت بين سلاطينها مع كثرة المهاجرين إلى زنجبار، إذا انتقل منهم حوالى ١٥ خمسة عشر ألف رجل إلى زنجبار عام ١٨٩٩م .

ويذكر أن العرب قدموا إلى جزر القمر الكبرى، فى القرن العاشر الميلادى، وحطوا رحالهم بهذه الجزر القمرية، بعد أن كان قدومهم من مسقط بعمان وغيرها من البلاد

العربية الأخرى، وقد كان مع العرب أعداد كبيرة من الزنوج، ووجدوا فيها عند حضورهم عدد كبير من قبائل الكفر، لم يعلم عددهم وقت مجيئهم. وباختلاط هذه الأجناس العربية الإسلامية، التى هى من السلالة السامية الخالصة مع المدغشقريين ومع البانتو ، تكون الجنس القمرى الحالى، وكذلك قدم الهنود والعرب إلى هذه الجزر فيما بعد.

ويمتاز الإنسان القمورى بأنه طويل القامة، ويحملون فى أوساطهم خناجر معقوفة بقبضات من ذهب أو فضة، أما النساء فيلبسن الحرير ضافياً، ويجعلن على أكتافهن ورؤوسهن منديلاً من حرير .

وأما المساكن فهى مبنية من الحجر والجير، وأكثرها ذات طبقة واحدة وسطوحها مستوية، وسقوفها ودورها بالخشب والأبواب والنوافذ مصنوعة بالخشب المنقوش المخرم، وهم يقضون اوقات فى الجوامع للصلاة، أو فى ساحات البلدة مستأنسين للراحة والأحاديث، وكل واحد سبحته فى يده .

وجميع القومورييين شديدو التمسك بدينهم الإسلامى، وإن كانت الطبقة العالية المتعلمة أكثر تمسكاً بتعاليم الإسلام ومبادئه الخالدة، أما اهل الطبقات الدنيا فإنهم يميلون إلى الخرافات والجوامع والمساجد كثيرة فى المدن والقرى، ففى مروتى عاصمة جزيرة مايوت اثنا عشر مسجداً مع أن اهل البلدة لا يزيدون عن ٣٥ خمسة وثلاثين الف نسمة، ويقوم المشايخ والفقهاء ورجال الدين بتعليم الأولاد مبادىء القراءة والكتابة، وحفظ القرآن الكريم، ودراسة العلوم الإسلامية الفقهية والشرعية، مع بعض مبادىء الحساب، وجميع السكان يراعون تطبيق الشريعة، ثم مراعاة ذلك فى جميع أمورهم الحياتية، كما أنه توجد مدارس تعلم العلوم العربية الإسلامية واللغة العربية، وهى منتشرة فى كل المدن والقرى ، أما لغتهم فهى نوع من اللغة السواحيلية الزنازيارية وتكتب بالأحرف العربية ، أما لغة دواوين السلطان فهى اللغة العربية العظمى . ومدينة مرونى عاصمة جزر القمر، وهى مدينة جميلة هادئة، أكثر بيوتها تغيب تحت ظلال الأشجار الكثيفة، وبيوتها بيضاء، وذات طابق واحد أو طابقين، وليس فيها العمارات الكبيرة، ذات الأدوار والطوائف المتعددة؛ فهى مدينة ذات طابع شرقى إسلامى .

وعندما خضعت الجزيرة للاستعمار الفرنسي– عندما سيطر على الجزيرة– فقد كانت جزيرة القمر الكبرى مقسمة إلى اثنتى عشرة مقاطعة لكل مقاطعة، منها سلطان يحكمها،

وأكبرهم اسمه سلطان تيبه، ويخضع له جميع السلاطين، وكان السلطان الرئيسى، الأعلى هو السيد على بن السلطان السيد عمر، صاحب مقام كبير فى الجزيرة، وقد كان والده السيد عمر سلطان جزيرة انجوان .

وقد حدث صراع فى الجزيرة بين سلاطينها، أدى إلى وضعها تحت الحماية الفرنسية؛ ذلك لأن سلطان تيبه القمر الكبرى، قد أوصى قبل وفاته أن يكون السلطان أحمد خلفاً له، فلما مات احمد، وأراد السلطان على أحد سلاطين الولايات الاثنتى عشرة تسليم الملك، اعترض عليه بقية السلاطين، وأبوا طاعته والتفوا حول الامير موسى فومو، سلطان إحدى هذه المقاطعات، والذى طمع فى أن يكون سلطان تيبه ، فوقعت الحرب، ودارت رحاها على الامير موسى؛ وذلك بسبب تدخل سلاطين الجزر القمورية المجاورة للجزيرة الكبريك حيث عاونه فى تلك الحرب الدائرة ، سلطان انجوان وسلطان جزيرة محلى، وسكان مدينة بادجينى الكبيرة للسلطان على، وانتهى أمر السلطان موسى. وبعد ذلك قدمت لميناء مورونى بارجة من قبل سلطان زنجبار، تقل القنصل العام الإنجليزى، الذى جاء يعرض على السلطان على أن يدخل تحت حماية السلطات البريطانية، فرفض على حماية بريطانيا، وأرسل إلى قائد مايوت يعرض دخوله تحت الحماية الفرنسية، فلم يحصل يومئذ على جواب، ولكن بعد ثلاث شهور.. ثم وضع الجزيرة تحت الحماية الفرنسية .

وكان السلطان موسى فومو قد طلب حماية إنجلترا، وأرسلت له أسلحة وذخيرة كثيرة؛ لكى تساعده فى صراعه ضد السلطان على ، ومن هنا بادر السلطان على إلى طلب حماية فرنسا؛ حيث عقدت معه فرنسا فى ٦ يناير ١٨٨٦م معاهدة، تتضمن أن يكون لفرنسا الوضع الأول فى جزر القومر الكبرى، دون سائر الاجانب، وأن السلطان لا يتنازل عن شىء من الأراضى لأية دولة أجنبية، ولا يعقد معاهدة مع أية دولة اجنبية إلا برضى فرنسا ، وأن السلطان لا يعزل أحد السلاطين، ولا يعلن حرباً إلا برضى الحكومة الفرنسية، وعند موت السلطان يكون لفرنسا وحدها الحق فى تعيين خلف له، أو تعيين مجلس لإدارة البلاد .

ولكن هذه المعاهدة مع فرنسا أثارت ثائرة القومورييين الذين اتهموا السلطان على بأنه با ع جزيرتهم للفرنسيين، وخرب ديارهم، وصاروا عبيداً للاستعمار الفرنسى، وكان أن بدأت الثورة عام ١٨٨٩م فى مقاطعة بادجينى الكبرى، وتولاها أمير اسمه (اواشيبون) فأرسلت فرنسا قوة قتلت أواشيبون، ولكن الثورة ازدادت ضد الفرنسيين؛ مما ادى إلى قتل القنصل الفرنسى بالجزيرة .

أما الإدارة الوطنية قبل حصول جزر القمر على استقلالها من الاستعمار الفرنسى، كانت فى أيدى ثمانية قضاة ومائة واحد وأربعين شيخ قرية؛ فالقاضى يفصل فى الدعاوى وينفذها، ويصدق المعقود، وفى حالة استئناف الدعاوى يوجد مجلس مشكل ومكون من كل القضاة، أما شيخ القرية فيجبى الأموال، ويقوم بالضبط والربط فى القرية، وله أعوان يساعدونه فى مهمته. ولقد أدى الاستعمار رسالته؛ حيث قلب اللغة العربية، التى كانت سائدة إلى لغة فرنسية؛ حيث إن الثقافة الفرنسية هى السائدة، رغم عروبة سكانها، وهكذا حرمت المخططات الاستعمارية على العرب حد التكلم بلغتهم الحبيبة إلى قلوبهم؛ ولذا نشأ الجيل الجديد وهم لا يعرفون لغتهم الأصلية، وهكذا عمل الاستعمار جاهداً على حرب الإسلام واللغة العربية بكل الوسائل .

ويتطلع سكان جزيرة القمر الكبرى إلى عناية ورعاية البلاد العربية والإسلامية لبلادهم؛ حيث إنهم يحسون بالعزلة وعدم توطيد العلاقات والصلات معهم، وهم على حق فى هذا؛ فمثل هذه البلاد تسكنها فئة مسلمة كبيرة، قلوبها وعواطفها وأرواحها مع مسلمى بلاد الشرقى الإسلامى .

جزيرة انجوان

هذه الجزيرة هى أيضاً إحدى جزر ارخبيل القمر، ولها سلطان مستقل، وهى تقع إلى الشمال من جزيرة مايوت إلى الغرب بحوالى عشرين مرحلة، وكذلك تسع مراحل إلى الشرق من جزيرة محلى، و١٥ مرحلة من جزيرة القمر الكبرى، ومساحة جزيرة انجوان ثلاثمائة وثمانية وسبعين (٣٧٨ كيلومتراً، وأعلى قمة جبلية فيها ارتفاعها ١٥٧٨متراً) وهى جزيرة بديعة، كثيرة الأشجار، غنية بالنباتات؛ لاسيما المقاطعة المسماة مورنى، وإلى الشمال الغربى منها جزيرة صغيرة، اسمها جزيرة السرج. وفى أكثر جزيرة انجوان، تجد مياه جارية تفيض بين الاودية، وفى جزيرة انجوان مراسى وموانى صالحة للسفن ورسوها، وهى: انجوان ، فومبانى ، بوزينى ، باجى ، بانس ، ومرفأ دومونى يصلح لرسو البوارج والسفن الكبرى، وتنقسم الجزيرة إلى عدة أقسام .

وأكبر المدن بها مدينة موتسامودو؛ حيث كانت هذه فى عهد سلاطين الجزيرة الذين سوروها بجدران عالية، وحصنوها بقلعة، وهذه المدينة يوجد بها قصر السلطان والمحكمة ودار الخزانة القديمة، وبعض الدور القديمة الباقية، كما يوجد بها الجامع الأعظم بمنارته السوداء ذات المصابيح، وفى الخارج من السور، على طول نهر مورو جامجى، وبها أكواخ السكان .

أما القلعة فهى شاهقة مبنية على صخرة عالية، لها برجان عاليان مربعان، وبرج آخر يرتفع عليه العلمَ السلطانى الأبيض والأ حمر فى الأعياد . وهناك عاصمة ثابتة، اسمها دومونى واقعة فى الجزيرة، ولكن هذه العاصمة لم يبق منها سوى بعض المساجد، وبعض منازل الإشراف. وفى أحد هذه المساجد صومعة منحوتة فى الحجر، داخلها زخارف ونقوش عربية، وهى من الآثار المعمارية العربية ، وإلى الجنوب تقع مدينة صغيرة اسمها مويا ، وفى الجزيرة كلها ثمانين قرية، أكثر أهلها من جنس الماكوا الزنوج .

وجميع سكان هذه الجزيرة أكثر من مائة وخمسين ألف نسمة، وهم يعودون فى أصولهم التاريخية إلى ثلاثة أجناس، هم العرب والماكوا والبوزمنى، ويقال إن أول من عمر هذه الجزيرة هم البوزمن، ثم جاء بعدهم العرب، ومعهم الماكوا والبوزمن، الذين ربما جاءوا من مدغشقر، وقد دخلوا فى الدين الإسلامى فى القرن السادس عشر وإسلامهم خالص؛ فهم يعملون بالأوامر والنواهى القرآنية، ويحرصون على التمسك بالشريعة، وقد رفضوا

الخضوع للسيطرة العربية عند قدوم العرب إلى تلك الجزيرة، ولكن عند دخولهم عقيدة الإسلام: فإنهم تألفوا وتعاونوا وتضامنوا مع إخوانهم العرب؛ حيث صار الجميع إخوة مسلمون .

أما العرب فأصلهم من سواحل الخليج العربى وعمان والبحر الأحمر، وتبدو عليهم سحنة أهل اليمن ، وكل العرب يدعون أنهم أشراف، وأنهم من ذرية الرسول ﷺ وأكثرهم يدعون أنهم طالبيون هاشميون قرشيون، وهم يحافظون على الصلاة، ويؤدونها فى المساجد فى أوقاتها ، وهو يبدون المعارضة والكره للمستعمر الأبيض المسيحى الفرنسى، الذى حاول أن ينشر المسيحية بينهم .

وأما الجنس الثالث بعد البوزمن والعرب، فهم الماكوا وأصلهم من موزمبيق، ومن سواحل شرق أفريقيا، وقد قدموا بصحبة إخوانهم العرب، وفضلوا العمل فى الزراعة، وهم أهل مودة، كما أنه يوجد بعض الهنود فى انجوان، إضافة إلى المدغشقريين . أما لغات انجوان مع صغر الجزيرة، فهى أربع لغات، أكثرها شيوعاً هى اللغة العربية، لغة القرآن الكريم والإسلام، واللغة السواحيلية التى تشكل العربية نحو ٦٠٪ من مفرداتها ثم الانجوانية ، ثم اللغة الماكوية .

واللغة العربية هى اللغة الرسمية قبل قدوم الاستعمار الفرنسى، فهى لغة الدين والديوان والمعاملات، وبها تصدر الأوامر السلطانية ومضابط القضاة وجميع الرسميات إلى اليوم ، أما اللغة السوحيلية فهى لغة التجارة، وكثيراً ما تكتب بها الأوراق الرسمية؛ لا سيما بعد عهد الاستعمار وأثناء احتلاله، حيث عمل على إبدال حروفها العربية إلى الحروف اللاتينية ، أما اللغة الانجوانية فهى خليط من اللغة العربية والسواحيلية والماكوى والبرتغالى والفرنساوى والانجليزى ، ويتكلمون بها فى كل الجزيرة ، أما الماكوية فهى لغة الزنوج، وهذه اللغة تتلاشى أمام اللغات الأخرى .

وينتشر الزى العربى فى الجزيرة، فهى الملابس العربية الفضفاضة مع الكوفية على الرأس والخنجر فى الوسط، ويطبق سكان جزيرة انجوان الشريعة الإسلامية تطبيقًا تاماً، ويعملون بجميع أوامرها ونواهيها، وإن كانت توجد بعض العادات، التى تتنافى مع بعض المبادىء الإسلامية ، وكذلك تسود المفاهيم الإسلامية؛ حيث انهم يحكمون عن طريق السلطان، ولكنهم يرون أن تملكهم للأراضى الزراعية هو لله تعالى ومنه، وينتشر بينهم المذهب السنى الشافعى حيث يقوم حكم القضاء بناء علي ما جاء بالمذهب الشافعى والكتاب والسنة، والكتب التى يعتمدون عليها بعد القرآن الكريم والسنة كتاب «نهج الطالبيين» و«الفتح العربى».

وللجزيرة قاضٍ واحد كبير، هو قاضى مدينة آمو تسامودو، وكان السلطان فى الماضى يبلغ الحكم، عن طريق مجلس شورى مشهود من الأعيان والقضاة، أما الآن فإنه لم يبق للسلطان إلا إعطاء النصائح، والقاضى الكبير موضع احترام وتقدير وحب الجميع حكومة وشعب؛ حيث يعمل على جمع الرباط الأخوى بين المسلمين، ويحرص سكان الجزيرة على تعليم أولادهم وتحفيظهم القرآن الكريم والعلوم الإسلامية؛ وذلك لكى يشبوا متمسكين بالإسلام وتعاليمه، وتكون لديهم القدرة على مواجهة التحديات، فنجد أنه فى سن السادسة يرسلون أولادهم إلى الكتاب ذكوراً وأناثاً، ولا يفصلون بين نوعيهم إلا فى سن البلوغ، ويقوم الشيخ أو الفقيه بتعليمهم القراءة والكتابة والحساب والتقويم، وكل ما له صلة بالإسلام وتشريعه والفقه وعلوم اللغة العربية، ويكتب لهم آيات القرآن الكريم، على ألواح بيضاء التى لا بد للأولاد أن يحفظوها، وإذا حفظوها يتم مسحها وكتابة غيرها حتى يتم حفظ القرآن الكريم كاملاً .

ويواظب أهل جزيرة انجوان على تأدية الصلوات الخمس فى مياقاتها وفى يوم الجمعة يخرج السلطان إلى صلاة الجمعة وأمامه اثنان، يحملان العلم السلطانى والمظلة السلطانية، ويصحبه بعض القوم فى ذهابه لصلاة الجمعة .

وجميع الأهالى حريصون على صوم شهر رمضان المعظم؛ حتى أن بعض الزنوج من غير المسلمين يقوم بصوم رمضان، مراعاة لشعور اخوانهم المسلمين، كما أنه يوجد بعض الأوقاف التى توقف على المساجد ودور العلم، ومربوط فيئها للصرف على هذه الأغراض الدينية، وإن كانت تلك الأوقاف بصورة قليلة. وبالإضافة إلى المساجد ودور العلم، يوجد بعض القوم، يقفون ممتلكاتهم على وجه البر وصرفه فى سبيل الله، وجعل نظارته فى ذريته حفظاً لثروة البيت، وذلك حرصاً على عدم بيع الوقف فيما بعد، ولا شك أن الوقف كان معمولاً به أولا فى مصر، وقد يكون وصل إليهم مع المذهب الشافعى من مصر .

والصناعات فى جزيرة انجوان قليلة؛ فهم يعملون فى الفخار والحصر والزنابيل، وعندهم مطاحن على الهواء، ويستخرجون عصير السكر، ويقوم العرب بزراعة قصب السكر والكاكاو، وعندهم كثير من زراعات البن، التى قدموا بها من اليمن. أما التجارة فلهم بها باع طويل، فهم تجاراً وبحارة ومنذ القرن السابع عشر الميلادى، كان أهل انجوان يقومون بنقل البضائع إلى مدغشقر وبلاد شرق افريقيا، وإلى الخليج العربى وعمان واليمن ومسقط .

وتاريخ انجوان الإسلامى والوجود العربى يشكل حلقة فى سلسلة حلقات تاريخ سائر جزر

القمر ، فقد استولى البرتغاليون على انجوان فترة من الزمن، ثم ثار الأهالى فى وجوههم واضطر البرتغاليون إلى تركها ، ثم قدم إليها من شيراز بفارس الشيخ محمد بن عيسى الشيرازى مع جماعته، ونشروا فيها الإسلام، واستقر بها ابنه حسن بن محمد بن عيسى الشيرازى، فتلقاه أهلها بالبشر والترحاب، ونصبوه سلطاناً عليها، وقام ببناء المساجد فى جميع القرى، وعمل على نشر التعاليم الإسلامية، ونشر حضارة الإسلام فى ربوع الجزيرة، وأسس بنفسه سلطنة انجوان؛ إذ كان زعيم بلدة موتسا موندو، الذى كان يدعى فانى على، قد زوجه ابنته فتزوجها، وتلقب بالسلطان، ثم خلفه ابنه محمد، وتزوج بابنة حاكم جزيرة مايوت، فألحق بهذا الزواج مايوت بحكم انجوان، ثم أضاف إلى ملكه جزيرة محلى، واطاعة ملوك القمر الكبرى، وعلى هذا أصبح السلطان محمد بن حسن بن محمد بن عيسى الشيرازى سلطاناً، على جميع الجزر القمرية الأربع المشهورة، وأيضا الجزر الصغرى المجاورة لها، والتى تخضع لنفوذه الإسلامى .

لكن هذه السلطة الواحدة على جميع الجزر لم تظل طويلا ، إذ انقلبت الطاعة الفعلية إلى طاعة اسمية فى عهد ابنه عيسى بن محمد بن حسن ، ثم مات عيسى، وعهد بالإمارة إلى امرأته مولانة، فأعلن أهالى جزيرة مايوت الخروج عن طاعتها، وأعلن أحد الأمراء ويدعى مواتيا فانى الثورة عليها؛ مما اضطرها إلى الفرار إلى مدينة دوبرنى، وقد وصلت إليه سفن هولندا؛ حيث زار احد بحارة هذا الاسطول تلك الجزيرة .

وقد توسع سكان الجزيرة فى بناء المساجد؛ حيث تم إنشاء الجامع الكبير فى عام ١٦٧٠ فى مدينة موتسامودو، ولكن بعد فترة دخلت جزيرة انجوان فى صراع مع مدغشقر؛ مما اضطر اهالى مدغشقر للغارة على انجوان، والسيطرة عليها، وأحرقوا قراها، واستباحوا حرمتها، وأسروا رجالها وقتلوا أسراها؛ فقام بعض الأمراء أحفاد السلاطين القدامى فى وجوههم، ودفع غارات المدغشقريين، ثم خلفه الشيخ سليم وتسلطن حتى عام ١٧٩٧م، فمات وبويع ابنه أحمد، وهو دون سن البلوغ، فقام عمه علوى بثورة؛ لكى ينفرد بالملك ففشل والتجأ إلى زنجبار، ثم عاد بعد سنين، وخلع السلطان احمد، وتولى مكانه، وبقى فى الملك حتى عام ١٨٢٠ . وبعد موته خلفه السلطان عبد الله الأول، وقضى معظم وقته فى قتال زعيم مدغشقر راباناتيكا. وكان هذا الملك هو ابن عم راد، أما ملك الهوفا أكبر قبائل مدغشقر ، فبعد موت الملك فر مع جماعته من مدغشقر والتجأ إلى انجوان .

الصراع فى الجزيرة : كان السلطان عبد الله الأول يمتاز بالكرم والنجدة وحسن

الضيافة؛ فلجأ إليه أحد زعماء قبائل الهوفا، ولكن ذلك المضيف لم يقابل كرم الضيافة إلا بالتمرد؛ حيث قام وصحبه من الهوفا بالثورة وأعلن الحرب على السلطان عبد الله الأول، فدارت الدائرة على المدغشقرى الهوفى : راماناتيكا ولكنه فر من جزيرة انجوان إلى جزيرة محلى؛ حيث استولى عليها ومن معه من قوات ، فأخذ السلطان عبد الله يجهز القوات؛ لكى تخلص جزيرة محلى من سيطرته، واستطاع السلطان عبد الله أن يسترد محلى؛ حيث كانت تلك الجزيرة تحت حكم سلطان من قبيلة الساكالاف المدغشقرية، والذى عمل على طرد زعيم الهوفا، وطارده عبد الله الأول من جزيرة مايوت، وطرده منها، ونصب الأمير السوكالافى أميراً عليها .

وقد تولى السلطة بعد السلطان عبد الله ابنه علوى، ولكن الفتن اشتعلت بين علوى ابن عبد الله وعمه سالم، الذى طمع فى الإدارة والإمارة، ثم اشتعلت الفتنة بين العم وابن أخيه، فزحف سالم برجاله، وتمت محاصرة علوى بن عبد الله؛ مما ساعده على الوقوف فى وجه الحصار، الذى فرضه عمه سالم عليه لمدة أربع سنوات ، لكن سالما عمل من جانبه على عدم وصول الإمدادات من أهل مايوت، وحال دون وصولها إلى علوى ، ثم تحالف مع سلطان جزيرة محلى، وتعاونا سوياً على مهاجمة مدينة موتسامودو، ولكن علوى تسلل من تحت الحصار، وذهب إلى جزيرة القمر الكبرى، ومنها إلى موزمبيق؛ حيث أخذه الإنجليز أسيراً إلى كلكتا بالهند؛ حيث مات هناك عام ١٨٤٢م، وانفرد سالم بالجزيرة والحكم، ودفعه الإنجليز بعد القبض على ابن اخيه علوى، بمقاومة الاحتلال الفرنسى، وذلك على اعتبار أن جزيرة مايوت تابعة لسلطان انجوان. لكن بعد موت سالم تولى الحكم بعده ابنه عبد الله بن سالم الملقب بالكبير، وكان صديقاً للإنجليز فوقع معهم معاهدة صداقة، وقد حدثت فى عهده ثورة، قام بها عام ١٨٥٤م علوى حسينى، ولكن تلك الثورة فشلت ، إلا أنه فى عام ١٨٨٢م قام محمد بن سالم شقيق السلطان عبد الله بالثورة ضد أخيه، ولكن السلطان هزمه مرتين، ثم عفا عنه. ولكن تلك الثورات والحروب الداخلية ساعدت على انهيار حالة الجزيرة؛ مما اضطر السلطان عبد الله بن سالم الملقب بالكبير أن يطلب فى ١٥ اكتوبر ١٨٨٧م حماية فرنسا، التى أصدرت أوامرها بفرض الحماية .

وهكذا عملت السياسة الفرنسية- عن طريق ارسالها المقيم الفرنسى فى انجوان- إسقاط النفوذ العربى، والإقلال من سلطة السلطان، ولكن حدثت اعتداءات من جانب العرب؛ نظراً لتدخل المقيم الفرنسى فى الشئون الداخلية، ولكن المقيم الفرنسى انسحب إلى جزيرة

مايوت؛ حيث جاء بسفن حربية، وفى تلك الفترة مات السلطان عبد الله بن سالم، وقيل مات مسموماً أو مخنوقاً .

وفى ذلك الوقت بايع الزنوج السيد عثمان بن سالم شفيق عبد الله ، وبايع أهل مدينة ماتسامودو السيد سالم ابن عبد الله، فهاجم الزنوج المدينة، وأجبروا سالم والعرب الذين معه إلى ان يهربوا وينسحبوا إلى مدينة دوموني، وسار عثمان إلى تلك المدينة خلفهم، وقتل كثيراً من أعيانها، ونهبها، وقبض على اخيه سالم ورهطه، وجاء بهم إلى موتسامودو .

وفى ذلك الوقت قدم الأسطول الفرنسى، وسلم سالم الأمر، أما عثمان فبقى شهرين يقاومهم إلى أن فرغ ما عنده من سلاح، واضطر فى النهاية إلى التسليم؛ فنفى عثمان وسالم معاً إلى جزيرة كبدونيا الجديدة فى المحيط الهادى، وهكذا خضعت الجوان للسياسة والسيطرة الفرنسية الاستعمارية .

وتلك هى قصة الإسلام وتاريخه وانتشاره فى جزر القمر الأربعة، وكذلك فى بقية أنحاء شرق القارة الأفريقية، منذ العصور الأولى لظهور أنوار الدعوة الإسلامية، وسيراً مع الأحداث فى العصور الإسلامية، حتى قدوم حركة الاستعمار الحديثة الأوروبية: الإنجليزية والفرنسية والألمانية فى القرن التاسع عشر الميلادى .

الخاتمة

إنه من خلال تلك الدراسة عن حركة المد الإسلامى فى شرقى أفريقيا والقاء الظلال الإسلامية فى تلك البقاع القريبة من الاراضى العربية الإسلامية فى آسيا وجنوب غرب هذه القارة فإنه يتضح لنا كيف تم الانتقال البشرى من آسيا إلى افريقية عبر باب المندب وبحر العرب حيث كانت تلك الظاهرة لاتزال آثارها ظاهرة ترى رأى العين فى الساحل الشرقى الأفريقى حيث كان طريق باب المندب اهم طرق الهجرة وكذلك اهم طرق التبادل التجارى والحضارى قبل الإسلام حيث ترك عرب الجزيرةفى الجانب الأفريقى أثرهم الحضارى والثقافى والعمرانى ،ذلك لأنه من المعروف تاريخياً أن عرب اليمن وجنوبى الجزيرة وساحل عمان قد هاجروا إلى الحبشة والساحل الشرقى (ساحل صوماليا ، ساحل الزنج) ونشروا ثقافتهم العربية فى وقت يرجع إلى عهد بعيد ايضا وفى حقيقة تلك الدراسة أن نقطة انطلاق التاريخ فى تلك المنطقة متصل اتصالا وثيقا بجنوب الجزيرة العربية ، إذا تدفق الساميون غزاة احيانا وتجاراً احيانا أخرى .

وبذلك كان العرب على صلة وثيقة بل عميقة الجذور بأفريقيا منذ القدم عن طريق التجارة والهجرة وخاصة إلى السواحل الشرقية من القارة ولا تزال آثارهم خير شاهد على ذلك . حيث كانت هذه المنطقة بحكم موقعها على الساحل المقابل لجنوب غرب الجزيرة المجال الحيوى للجماعات التى خرجت من بلاد العرب بصفة عامة وبلاد اليمن وجنوب الجزيرة العربية بصفة خاصة للتجارة وطلب الرزق أو لاتخاذ مواطن جديدة هرباً من حالات الذعر .

ومن المؤكد أن العرب كان لهم تأثيرهم الواضح فى شرق أفريقيا ، يدل على ذلك أن الاغريق والرومان اطلقوا عليه اسم ساحل عزانيا نسبة إلى احدى الممالك القديمة التى كانت فى جنوب شبه الجزيرة العربية فى فترة سابقة على ظهور الإسلام لم تحدد تحديداً قاطعاً وجدير بالذكر، أنه على الرغم من معرفة الاغريق والرومان لساحل شرقى أفريقيا، إلا أنهم لم يتصلوا به اتصال العرب .

ولقد أقام العرب بعض المراكز التجارية على الساحل؛ حيث كان يصل إليهم رجال القبائل الأفريقية، يحملون إليهم الذهب والصمغ وغيره من منتجات بلادهم، ويقايضونهم بما لدى العرب من بضائع، وقد اضطرد نشاط حركة التعامل التجاريك فوصلت تجارة الذهب إلى درجة كبيرة من الانتعاش .

وقد شهد شرق القارة الافريقية حركة هجرة واسعة، على أثر انهيار سد مأرب باليمن؛ حيث خرجت من جنوب الجزيرة العربية هجرات عربية إلى مختلف الأنحاء الشرقية الأفريقية؛ حيث كان القرب الجغرافى، والمعرفة السابقة للساحل، والإخوة وأبناء العمومة قد سبقوا بالهجرة إلى تلك الأماكن فى أزمان سحيقة فى القدم ، وقد كان ربط الهجرات القديمة بالهجرات الحديثة اللاحقة بعد انهيارسد مأرب؛ مما زاد فى التأثير العربى فى سكان الساحل من قبائل البانتو ، وقد كانت هناك هجرات عربية شملت أعداداً كبيرة من التجار، قد استقرت على الشاطىء الغربى للبحر الاحمر فى منطقة الحبشة، وبمرور الزمن تزايدت أعدادهم، وكونوا مراكز تجارية فى مناطق متفرقة بطريقة تشبه- إلى حد كبير- ما حدث فى ساحل الزنج؛ فتكونت مراكزحضارية، فظلت لفترة طويلة على صلة بالوطن الام .

ويشير بعض المؤرخين إلى عدم توافر المعلومات الكافية عن حالة العرب، فى ساحل شرق أفريقيا، فى الفترة السابقة لظهور الإسلام ، إلا أن الذى لا شك فيه أن الصلات كانت قائمة لاتكاد تنقطع حتى ظهور الإسلام ، كما أنه يمكن القول أنه لم تكن للعرب قبل الإسلام اتصالات دائمة ومكثفة بشرق أفريقيا لاسيما الجزء الجنوبى المعروف بساحل الزنج، الذى يصل إلى سفالة من موزمبيق جنوباً، إنما كانت الصلات تقتصر فقط على عمليات التبادل التجارى ، وهكذا فإنه لم يكد القرن الاول الميلادى ينقضى، حتى كان هؤلاء العرب قد انطلقوا من مرحلة الرحلات الخاطفة إلى مرحلة الاقامة والاستقرار، فقد أنشأوا مراكز على طول هذه السواحل، وأقاموا فيها، وجلبوا أهلهم وذويهم، وطاب لهم المقام؛ حيث كانت هذه المراكز القديمة تنشأ على جزر قريبة من البر، يمكن الدفاع عنها، إذا اراد السكان الوطنيون المنتشرون فى الساحل أن يتعرضوا بسوء لها .

وليس من شك فى أن نتائج هذا التأثير العربى قد أدت إلى انتشار الدماء العربية، ممتزجة فى الأغلب بدماء من البانتو، حيث تكون الشعب السواحيلى.

وهكذا كان من الطبيعي أن تزداد تلك الصلات بظهور أنوار الإسلام، وتبدأ صفحة جديدة فى تاريخ العلاقات العربية الأفريقية، وفى هذه الفترة قام العرب والمسلمون بالدور الإيجابى فى هذه العلاقات. وبالنسبة للجزء الشمالى من الحبشة، كانت قريش تتخذ أرض الحبشة متجراً لها . ولهذا كانت هجرة المسلمين الاوائل إلى تلك الديار؛ حيث أرسل الرسول ﷺ في العام الخامس من البعثة النبوية عام ٦١٤م، وقدم إلى ملك الحبشة، وذلك إثر العلاقات الطيبة التى كانت بين الرسول ﷺ وملك الحبشة . وهكذا تبلورت العلاقات بين العرب والحبشة فى العصر الإسلامى إلى دور جديد، فكثر توافد العرب المسلمين على الحبشة؛ من أجل التجارة، بعد أن دانت شبه الجزيرة العربية للإسلام، وأصبح المسلمون يتحكمون فى التجارة الشرقية؛ حيث عبرت مجموعات إسلامية الساحل الغربى للبحر الأحمر، وأسسوا لهم مراكز استقرار دائمة، وكان أول اتصال واحتكاك بين الدولة الإسلامية والحبشة، فى عهد الخليفة الراشد الثانى عمر بن الخطاب على ٢٠هـ / ٦٤٠م؛ حيث أرسل الخليفة سرية إلى الحبشة، وربما إلى جزر دهلك القريبة من شواطىء إلى الحبشة؛ لدفع أذى الأحباش وحماية شواطىء البلاد العربية من أى خطر يأتى من ناحية الأحباش، وقد وجدت فى تلك الجزر القريبة من الشواطىء نقوش عربية إسلامية، يعود تاريخها إلى منتصف القرن الثامن الميلادى .

وقد كان الانتشار العربى الإسلامى ما هو إلا طور من أطوار الاتساع العربى الإسلامى؛ حيث كانت نتيجة نشاط الإمارات القريبة على ساحل حضرموت وعمان واليمن والحجاز ، بل ربما يرجع إلى جماعات كانت تفد إلى المنطقة، بقصد الاستقرار أو الاندماج والتجارة، وهكذا ظهرت لسكان شبه الجزيرة دوافع لمحاولة الاستقرار الدائم فى سواحل أفريقيا الشرقية، وإقامة كيان سياسى وعربى إسلامى . وبالتالى زادت الروابط بين العرب وشرق أفريقيا، ولم يقتصر الأمر على عرب شبه الجزيرة ، بل زاد أيضاً اتصال شرقى أفريقيا بكافة الدول العربية الإسلامية .

ولقد كانت الهجرات العربية للساحل الشرقى لأفريقية تزداد؛ بسبب المنازعات العربية والسياسية والمذهبية، كما كانت تجلب معها صوراً من صور الحضارة العربية الإسلامية من إقليم الأحساء والبحرين ، وعمان وحضرموت واليمن إلى شرق أفريقيا .

كذلك.. فإن المراكز العربية الإسلامية فى الحبشة- شأنها فى ذلك شأن بقية المراكز العربية على طول الساحل الشرقى- قد اتسمت بالطابع الإسلامى العربى التجارى، ومع كل هذا فإن الساحل لم يطبع انطباعاً تاماً بالطبعة العربية، ويرجع ذلك إلى اختلاف السكان وتباين اجناسهم وتعدد عناصرهم، وإن كان قد ترتب على ظهور الإسلام وهجرة المسلمين إلى شرق أفريقيا، انتشارالدين الإسلامى .

وقد أدى التطور الحضارى لظهور المدن العربية الإسلامية ، أن تحولت المراكز التجارية إلى إمارات عربية إسلامية، يسكنها المهاجرون العرب ، على أنه يلاحظ أنه فى بداية الامر أن الثقافة واللغة، التى انتشرت على يد هؤلاء لم تتعد الساحل والجزر القريبة منه، ولكن بمرور الزمن امتد ذلك التأثير إلى الداخل؛ حيث أسلم المقيمون بها من الزنوج والمختلفون إلى الساحل، وهكذا..كان ذلك سبباً جوهرياً لظهور هذه المدن فى سماء الحياة العربية الإسلامية .

وقد كان العرب يمثلون الطبقة الارستقراطية فى هذه المدن، وغلب الطابع الإسلامى وازداد بعد ذلك تدفق الموجات الإسلامية المهاجرة من الخليج العربى والجزيرة العربية، وهكذا كادت المنطقة الممتدة من ارتيريا شمالاً حتى موزمبيق جنوباً -من أثر الدعوة الإسلامية والدعاة- أن تكون جزءاً من العالم العربى الإسلامى الخالص، وهكذا كانت تلك المناطق تشبه فى تطورها الحضارى والإسلامى مناطق مسقط وعمان وحضرموت والإحساء وعسير والحجاز .

وهكذا أحدث الإسلام وما تبعه من مظاهر حضارته إسلامية، واستيطان عربى إسلامى أثره الكبير، كما أحدثت التجارة أثرها الكبير فى ساحل شرق أفريقيا، وهكذا كان ذلك الاستقرار سبباً له أثر كبير، ومؤثراً فعالاً؛ إذ إنه كان من أسباب استقرار العرب، قيام العلاقات على أساس من الود والأخوة الصادقة؛ حيث وجد أهل البلاد فى هؤلاء القادمين، نوعاً من الحماية، فازداد تقريبهم إليهم واندماجهم فيهم، وارتبطوا معهم برباط المصاهرة والزواج، وهكذا كان جيل المولدين السواحيلية هو عماد الحياة فى المراكز الإسلامية فى شرق أفريقيا والحبشة، التى ارتبطت بالعرب ارتباطاً وثيقاً، تمثل فى الدين الإسلامى واللغة العربية (السواحيلية)، ثم رابطة الدم ايضاً .

ولقد أحس الوطنيون البانتو ، أن العرب جاءوا من أرض النبى، وأن كثيراً منهم لهم صلة نسب بالرسول ﷺ، ومن هنا تقربوا إليهم وتعاونوا معهم فى نشر الإسلام ، حيث لقى المهاجرون ترحاباً وبسطة فى العيش، وحسن معاشرة، وهكذا طاب لهم الاستقرار فى تلك البقاع .

ولقد حدثت منذ القرن الاول الهجرى ، السابع الميلادى، هجرات واسعة، أشرت إليها فى صلب ذلك البحث، والتى كانت تؤتى ثمارها فى ظهور إمارات عربية كمدغشقر وباتا وممبسا وزنجبار وبراوة وكلوه وموزمبيق وسفالة، وإمارات الطراز الإسلامى فى الحبشة ، حيث كانت تموج تلك المدن بالعناصر العربية؛ حيث ازداد الترابط بين عناصر السكان العرب والأفارقة ، وعلى هذا فقد كان استيطان العرب يمتد حتى سفالة جنوبى نهر الزمبيرى ،على الرغم مما قيل من أن استيطانهم الحقيقى يرجع إلى القرن الثامن الميلادى ، فى حين كان ذلك قبل هذا بقرون عدة .

وهكذا أصبحت المنطقة الشرقية للقارة الأفريقية، توصف بأنها سلطنات عربية إسلامية، وهكذا نعمت الشعوب الأفريقية الإسلامية بالحكم الجديد، وتعاونت معه فى ظل الأخوة الإسلامية .

ولقد ازداد تدفق الهجرات العربية عبر القرون إلى شرق أفريقيا، حيث كان له أثر كبير فى نشر رسالة الإسلام على نطاق واسع، بل امتد أثر هذه الهجرات إلى أن تصبح تلك المدن مدناً عربية إسلامية خالصة، بل إنه كان من آثر وأبرز معالم الدور الإسلامى، أن الدعوة الإسلامية استطاعت- بما حملته من قيم إسلامية ومبادىء روحية وتعاليم ومفاهيم إنسانية وحضارة عربية- أن تؤثر فى حياة هذه الشعوب البدائية أثراً بعيداً، وهكذا شارك الأفارقة عن طريق الإسلام فى بناء الحضارة العربية الإسلامية الأفريقية، فى ذلك الجزء من القارة، وهذه نقطة مهمة فى تاريخ الاستقرار العربى الإسلامى؛ حيث أدى ذلك إلى سهولة الاتصال بداخل القارة.

وهكذا برزت معالم الحضارةالإسلامية فى فن البناء والمدن والعمارات الزاهرة والمساجد ومبانى الإدارة السلطانية؛ حيث استطاعت هذه المجتمعات- بعد أن تنوعت مصادر الثروة- أن تصل إلى درجة عالية من الثراء والازدهار الحضارى .

كما أنه كان من ابرز مظاهر الحضارة الإسلامية قيام العرب باستغلال المناجم فى الساحل الشرقى الأفريقى ، كما أن العرب أدخلوا إلى شرق أفريقيا المحاصيل الزراعية، التى لم تكن معروفة، وكذلك تربية الماشية والأغنام والإبل التى أصبحت من أهم صادرات المنطقة .

كما أنه مع تزايد وتطور العلاقات، انتشر الإسلام واللغة العربية بين الطرفين، ولعب العرب دوراً كبيراً فى تحفيظ القرآن الكريم، وشرح تعاليم الشريعة وعلوم اللغة العربية، وكل ما يتعلق بالدين الإسلامى .

ومن هنا فإن الثقافة العربية الإسلامية تأثرت بموقع المدن الإسلامية، وطبيعة الحياة فيها؛ حيث ترك الاتصال المستمر بالعالم الإسلامى أثره فى الحياة الثقافية فى البلاد ، كما كان فقهاء بلاد اليمن وعمان والخليج وعلماؤها أكثر المسلمين وفوداً إلى هذه الجهات؛ حيث طبعوا الحياة الثقافية بطابعهم الإسلامى وآثروا فى الحركة الإسلامية .

ولقد كان هذا التطور الحضارى فى بناء المساجد يعنى غلبة الطابع الدينى على الثقافة العربية الإسلامية، ومن هنا فإن مدن شرق أفريقيا جميعها قد ظهرت بالمظهر الإسلامى، وقد لعبت الحركة التعليمية الأسلامية دورها كمظهر من مظاهر التطور الحضارى والثقافى الإسلامى فى هذه البلاد ، ومن هنا فإنه يمكن القول أن النشاط التعليمى فى علوم الدين واللغة العربية كانا يتقدمان بمدى انتشار الإسلام بين الأفارقة، ومدى استجابتهم لتلقى العلوم الإسلامية، التى كانت تلقى إقبالاً وترحيباً من سكان البلاد، بمجرد إعلان إسلامهم؛ إذ كانوا يسعون إلى حفظ القرآن الكريم ومعرفة العلوم الإسلامية .

وهكذا فإن تلك الشعوب الأفريقية التى اختلطت بالعرب، أدت إلى ظهور جيل للمولدين، مسلمى العقيدة، وتعربوا لساناً وامتزجوا جنسياً ينظرون إلى الخلافة الإسلامية فى دمشق أو بغداد أو القاهرة، باعتبارها الوطن الأم، مركز الخلافة، فضلاً عن كونها موطن الحضارة والثقافة والفكر والعلم والدين فى ذلك العصر .

ومن هنا كان بانتو أفريقيا الشرقية قد تأثروا بالاختلاط بالعناصر العربية، منذ عصور قديمة، ولكن هذا التأثير لم يكن بدرجة واحدة، وهو أشد ما يكون على الساحل ومنطقة البحيرات، وما يليها شرقاً من إقليم السافانا والجهات شبه الصحراوية، وامتدادها على سواحل المحيط الهندى .

كما كان أثر المظهر الحضارى واضحاً فى اللغة السواحيلية، التى انتشرت انتشاراً واسعاً فى شرق أفريقيا كلها، وذلك نتيجة ازدياد الدور الإسلامى الحضارى والثقافى ، وهكذا ترى كيف أن اللغة السواحيلية كانت أحد المظاهر القوية للمظهر الحضارى الإسلامى؛ حيث ساعد الإسلام وأهله بما ملكوا من صفات وخصائل حضارية عريقة وثقافة إسلامية عربية، فى ظهور تلك الديار بالمظهر الحضارى المتطور، وقد ذهبت شعوب الشاطىء الشرقى للقارة الأفريقية فى مدارج الحضارة الإسلامية، بالإضافة إلى أن ابناء شرق القارة الأفريقية كانوا قوة بشرية كبيرة، داخل نسيج الحياة العربية، كما أن تلك المدن هى المراكز الحقيقية للحياة الإسلامية؛ حيث عمل الفقهاء على إنشاء الكتاتيب لتحفيظ القرآن الكريم، وإلى هؤلاء الفقهاء يرجع الفضل فى نشر الإسلام والثقافة العربية ، كما أنه صحب انتشار الإسلام والثقافة العربية تطبيق الشريعة الإسلامية؛ حيث كان عديد من الحكام، شديدى الحرص على تطبيق أمور الدين الإسلامى، فى كل ما يمس الحياة اليومية .

كما ساعد تنقل طلاب العلم والمعرفة من ساحل شرق أفريقيا إلى كل من القاهرة ومكة المكرمة والمدينة المنورة، ومدن جنوب الجزيرة كحضرموت وصنعاء والحديدة، وبغداد ودمشق على طبع البلاد بالطابع العربى الإسلامى ، وأدى ذلك إلى انتشار حركة العلوم والتعليم فى جميع ارجاء شرق افريقية .

وهكذا لعب الإسلام والمسلمون دورهم المهم والأساسى، فى ظهور الشعب السواحيلى المسلم العربى؛ حيث تجلت معالم الحضارة الإسلامية، فى أجمل صورها فى تلك البقاع .

ولقد كانت بالنسبة للإمارات الإسلامية الحبشية سلطنة شوا، أول المراكز الحضارية الإسلامية، التى ظهرت فى وسط الحبشة، وظهرت كقوة سياسية فى القرن الثالث الهجرى- وقد استمرت تلك الولاية الإسلامية تحكم أنحاء جنوب شرق الحبشة، حوالى أربعة قرون، كما ظهرت سلطنة أوقات، وهى احدى كبرى سبع سلطنات، وقد سبقت سلطنة شوا فى الظهور، وقد أسسها قوم من قريش، وأصبح سلطانها أقوى السلاطين المسلمين فى تلك الأرجاء؛ حيث استطاع حاكم «أوقات» القوى أن يفرض سلطانه على الإمارات الأخرى، التى كانت تجاور أوقات .

وعلى هذا فإنه نتيجة لظهور تلك السلطنات الإسلامية، وانتشار الإسلام فى الحبشة

والمناطق المحيطة بها ، فإن ابناء الحبشة قد شدوا الرحال إلى بر اليمن؛ للتزود من مدارسها الإسلامية المنتشرة، وكذلك إلى الحجاز؛ حيث الأماكن المقدسة. وقد شهد القرن السابع الهجرى ازدياد دور الإسلام، وتوسع رقعة تلك الامارات، حتى دخل الهضبة الحبشية؛ حيث أسلم كثيرون من أهلها، وهكذا أخذت سلطنة أوقات تتسع داخلياً؛ حيث أخذ مسيحيو الحبشة يعتنقون الدين الإسلامى، وقد وقع عبء مقاومة الاعتداء الحبشى المسيحى على اوقات ، حيث كان العامل الدينى هو المحرك الأساسى، فى تلك الحرب الدائرة بين الامارات الإسلامية والحبشية، بعد أن ازداد نشاط الدعاة المسلمين ، كما أن الاحباش كانوا على اتصال وثيق بالحركة الصليبية، والصراع الذى يدور على أرض الشام .

كما ظهرت إمارات أخرى إسلامية غير شوا وأوقات، منها إمارة بالى وهرر؛ حيث كانت هرر فى بعض الأوقات التاريخية أقوى هذه السلطنات، ولكن هذه الإمارات رغم صدق إيمانها، لم تكن قادرة على مواجهة الأحباش، الذين اتحدت كلمتهم، كما أن زيلع قامت بدور كبير فى حركة الجهاد الإسلامى، ولعبت دوراً مضاداً أقوى، وكانت إمارة عدل تشكل خطراً على النفوذ والقدرات المسيحية فى تلك الجهات .

ولقد كان تدفق النفوذ الإسلامى إلى بلاد الحبشة مشجعاً للعناصر العربية، التى كانت تعيش هناك ظاهرة أو متخفية ، ولكن الأحباش المسيحيين تغلبوا على هذه الحركات الإسلامية، وخرجوا من الصراع ظافرين، وذلك بفضل المساعدات البرتغالية. ولكن القرن السادس عشر شهد ظهور الأمير محمد بن إبراهيم، الملقب بالأشول أوالقرين؛ حيث أراد الإمام أحمد أن يسير إلى قلب الحبشة، بعد أن انتصر عليهم، ويجهز على الجيش الباقى. ولكن المسلمين لم يتابعوا حركة الغزو، ووقعوا فى خطأ فادح، واستنجد الأحباش بالبرتغاليين، بعد أن كان المسلمون قد سيطروا عام ١٥٣٥ على أراضٍ جديدة وواسعة داخل الحبشة، ولم تعد هناك رقعة ضيقة يحكمها نجاشى الحبشة، وخرجت الأقاليم عن طاعته ، ولكن ملك البرتغال أرسل قوة برتغالية كبيرة، قوامها أربعمائة جندى، ومعها الأسلحة الحديثة والمدافع .

ولكن فى عام ١٥٥٨م أرسلت البرتغال قوات كثيرة جداً، ومعها أحدث الأسلحة العصرية، انتصر بعدها الأحباش، وقتل الإمام احمد بن ابراهيم، وخمدت حركة الجهاد الإسلامى؛ حيث إن الأتراك لم يقوموا بالدور الواجب عليهم تجاه إخوة الإسلام، فى ذلك

الصراع، وانتهت هرر كقوة أساسية اسلامية وسياسية، فى الوقت الذى استطاع فيه الأحباش أن يبعدوا هذا الخطر الإسلامى، وأن يتخلصوا من التهديد العثمانى ، إلا أنه رغم كل أنواع القسوة والمعاملة الحبشية غير الإنسانية.. فإن المسلمين استطاعوا أن يتغلغلوا فى كثير من الأقاليم الحبشية؛ حيث الجنوب والشرق، كما استقرت جماعات مهاجرة بالقرب من أديس أبابا .

وفى حقيقة الأمر لو أن الامارات الإسلامية تعاونت تعاوناً صادقاً، وكان الموقف الإسلامى الخارجى مشجعاً ودافعاً لما تقوض هذا البناء الإسلامى، ولما عانى أخوة الإسلام فى أرتيريا وغيرها من الأقاليم الإسلامية من تلك السيطرة الحبشية المسيحية، التى تحاول أن تطمس معالم الإسلام ومعالم الحضارة العربية الإسلامية بكل قوة .

وكما شهدت ممالك الطراز الإسلامى هذا التحول والنمو السياسى والاقتصادى والحضارى ، فإن ساحل الصومال مر بهذه الظروف، ولو أنه لم يدخل فى صراع طويل مع القوة المسيحية ، حيث كانت إمارة مقديشو أو ساحل البنادر أو اقليم صوماليا، تسيطر على منطقة شرق أفريقيا الوسطى، كما كانت تمتد من خليج عدن شمالاً إلى خليج ديلاجو جنوباً . وقد حافظت مقديشو على استقلالها؛ فلم يستطع سلاطين الزنج أن يسيطروا عليها، وقد ظهر تحضر و رقى هذه الإمارة العربية من روايات ابن بطوطه، كما ورد ذكر مقدشيو فى حوليات الصين؛ حيث إنها مدينة عظيمة، وكون العرب بها طبقة ارستقراطية حاكمة، كما شارك شعبها والشعب الصومالى الإمام أحمد القرين حركة الجهاد ضد الأحباش .

كما أن هجرات الصوماليين فى القرن السادس عشر قد أخرجتهم من مواطنهم، ودفعتهم نحو الغرب؛ حيث استغلوا فرصة الضيق والضعف، التى تعانى منها الحبشة، وهاجروا إليها وأوغلوا فيها، وهذا يعطى الدليل لانطلاق الصوماليين؛ للمشاركة فى حركة الجهاد الإسلامى.

كما أنه ليس هناك شك فى أن مقديشيو فرضت نفوذها السياسى على بعض الأجزاء والمدن المحيطة بها شمالاً وجنوباً؛ فقد مدت نفوذها فى رأس حافون، ومدت نفوذها جنوباً إلى براوة وقسمايو، بعد أن اعلن حكام هذه المدن ولائهم لمقدشيو وحكامها وتعاونوا معها .

وقد انعكس الأثر الدينى الإسلامى على المساجد على طول الساحل، وبدأت اللغة

والحضارة الإسلامية تنتشر بين مسلمي البانتو، وهكذا كانت مقديشيو أقوى الإمارات الإسلامية على الساحل الشرقى لأفريقيا ، حيث إننا نجد أنه عند قدوم البرتغاليين إلى هذه السواحل، فإنهم أخضعوا المدن جميعها ، ثم جاء دور مقدشيو، ولما رأى البرتغاليون موقفها العسكرى فإنهم تراجعوا عنها، وكان موقفها من الأسباب القوية، التى أدت إلى تقلص النفوذ البرتغال فى الساحل الشمالى لشرقى أفريقيا .

وقد ساعد مقدشيو على أن تقف ذلك الموقف، وتكون بتلك الصورة القوية، أن هذه الإمارة تختلف عن الإمارات الشمالية الحبشية، والتى دخلت لفترة أربعة قرون، فى صراع مع الحبشة المسيحية ، حيث إن مقدشيو لم تكن بجوارها دولة مسيحية لها تنازعها السيادة، وتحاول القضاء عليها؛ مما أعطاها الفرصة للازدهار، كما تحدث عنها بذلك ابن بطوطه عند زيارته لهذه المدينة، ووصفها وصفاً تفصيلياً .

ولقد كانت إلى الجنوب من مقدشيو، تمتد سلسلة من الإمارات حتى سفالة جنوباً، كان أقدمها ميناء أو جزيرة قنبلو، التى أنشأها العرب، وتشير الروايات إلى أنه ظهرت فى تلك الجزيرة حكومة عربية، وأن جماعة من عرب الأزد، كانت تعمل بالتجارة وتسكن معهم جماعات من الأفارقة ، كما أنه ظهرت إمارة نبت، واستطاعت أن تستولى على الساحل من مالنده إلى كلوه ثم تبعتها إمارة ممبسا ومقديشو وزنجبار، ولكن زعامة كلوه كانت أكثر هذه الزعامات بقاء وأكثرها قوة؛ لأنها كانت تسيطر جنوباً فى منطقة سفالة، وتقوم بالتجارة فى الذهب ، ويعتقد أن كلوه استطاعت أن تبسط سيطرتها على تجارة الذهب؛ خاصة وأن الذهب كان ينقل إليها من المنطقة المعروفة حالياً برودسيا (زمبابوى) .

وقد انتشرت الثقافة والحضارة العربية الإسلامية فى كلوه، ووفد إليها العلماء ورجال الدين؛ حيث كانت تعقد دروس العلم والدين فى المدارس، التى ظهرت فيها، وحيث وفد إليها الطلاب . ومن هنا كانت كلوه مركزاً كبيراً من مراكز الحياة العلمية الإسلامية، بل بؤرة اشعاع فكرى وعلمى فى عالم شرق أفريقيا، وكذلك كانت مكاناً، تنتشر منه الثقافة والعلم والدعوة الإسلامية إلى البقاع المجاورة، إضافة إلى كونها مركزاً، تتجمع فيه المؤثرات الإسلامية والحضارية والثقافية؛ لكى تصل إلى الداخل؛ حيث قلب القارة .

كما ساهمت باتا بدورها فى ظل أسرة آل نبهان، وكذلك ممبسا ، كما أن باتا وصلت

إلى درجة عالية من التقدم والتطور العسكرى؛ حيث ضمت إليها بعض المدن مثل قسمايو ، براوة ، ومقدشيو ، كما أنها استطاعت أن تمد نفوذها جنوباً، ولكن نفوذها كان إلى الشمال أكثر منه إلى الجنوب .

وشهدت ممبسا- كما شهدت كلوه وباتا- نهضةعربية إسلامية حتى قدوم البرتغاليين، وهذه المجموعة من الإمارات الإسلامية السابق الإشارة إليها، قد وصل عددها إلى اكثر من خمس عشرة مدينة مطلة على الساحل، غير المدن العربية الداخلية، التى وصل عددها جميعها إلى اربعين مدينة عربية إسلامية .

إلا أن دولة كلوه يرجع إليها الفضل فى أنها استطاعت أن توحد معظم المراكز الإسلامية، فى ساحل شرق أفريقيا، وبلغت ذروة قوتها فى عهد سليمان بن على ثان، فلم تستعص عليه من مدن الساحل، سوى مدينة مقدشيو كما استوطن العرب إقليم سفالة جنوب موزمبيق .

وإذا كان قد قدر لسلطنات الطراز الإسلامى أن تواجه خطر الأحباش، فإن إمارات ساحل الزنج وساحل البنادر قد واجهت خطر الزحف الصليبى البرتغالى ، حيث كان البرتغاليون قد تبعوا المسلمين؛ حين قدموا إلى شرق أفريقيا، ووصلوا إلى سفالة، أول مدينة عربية إسلامية فى جنوب شرق أفريقيا، حيث انتقل مسرح الصراع الصليبى من البحر المتوسط إلى المحيط الهندى؛ حيث كانت تجارة المحيط فى أيدى العرب، وكان ظهور البرتغاليين بداية صراع دموى عنيف، استمر أكثر من قرنين من الزمان، وقد استطاعت البرتغال أن تحقق أهدافها فى تضييق الخناق على المسلمين، والانتقام من المسلمين، والبحث عن مواطن الذهب والتوابل، والاتصال بالمملكة المسيحية فى الحبشة .

وهكذا كان من أثر الوجود البرتغالى، أن تحولت التجارة الشرقية عن طريق الخليج العربى والبحر الاحمر إلى المحيط الاطلسى؛ حيث الوصول إلى أوروبا مباشرة، واتخاذ ساحل شرق أفريقيا، بمثابة قواعد ملاحية فى الطريق إلى الهند ، وأخذ البرتغاليون ينشئون على الساحل مستعمرات ومحطات تجارية وحصوناً وثغوراً، بعد أن استخدموا أقصى الوسائل الوحشية فى السيطرة على كل هذه المدن والسواحل، بحيث إنه لم تنج مدينة من هذه المدن، واستطاعوا أن يقضوا على كل مراكز الحضارة العربية الإسلامية وثقافتها الزاهرة، وأن يقضوا أيضاً على

كل الوكالات والمؤسسات التجارية، التى أنشأها العرب فى تلك البقاع، وكذلك كان من أولى مخططاتهم الدعوة لتكثيف النشاط المسيحى، والقضاء على كل أثر للإسلام فى تلك الديار ، وعلى هذا فما أن تمت تلك الفتوحات، حتى شرع البرتغاليون فى نشر الدين المسيحى، وتأسيس الأسقفيات والكنائس والقلاع المسيحية، وإرسال أبناء شرق أفريقيا إلى جوبا بالهند، أو لشبونة عاصمة البرتغال، بينما توقفت حركة الهجرة العربية الإسلامية والصلات العربية الإسلامية مع الساحل .

ولقد رفض العرب والمسلمون تلك السيطرة البرتغالية، وقاوموا هذا الوجود وقاموا بالثورة، ورفضوا التبعية للبرتغاليين، لكن الأسطول البرتغالى وخروج آكلى لحوم البشر من الداخل استطاع أن يقضى على آمال المسلمين، فى التخلص من الحكم البرتغالى .

وقرر البرتغاليون إقامة قلعة فى ممبسا، أطلقوا عليها اسم يسوع المسيح؛ مما يعطى الدليل القاطع على أن الرغبة الحقيقية فى السيطرة والاحتلال البرتغالى لشرق أفريقيا، كانت محاربة الإسلام، والقضاء على كل ما هو إسلامى أو عربى فى تلك المناطق .

لكن امراء ممبسا قاوموا كل هذه الأعمال، وانتقموا من البرتغاليين، وطردوهم من المدينة، وأخذت الثورة الإسلامية تشتعل فى أغلب المدن الإسلامية، وقد نبهت تلك الثورة البرتغاليين إلى ضرورة تشديد قبضتهم على القسم الشمالى من شرق أفريقيا فأعادوا بناء قلعة يسوع المسيح، بعد أن كان أهل ممبسا قد ساووها بالأرض .

ولكن الله هيأ للإسلام قوة دافعة، رفع لواءها عرب اليمن من اليعاربة، الذين عملوا على تقليص النفوذ البرتغالى من شرق أفريقيا، ومن ثم أخذوا يشجعون الأفارقة ويمدونهم بالسلاح والعتاد والقوات، وعلى هذا فإنه قد تطلع سكان الساحل الأفريقى لأبناء عمومتهم فى عمان ومسقط؛ لإنقاذهم من سطوة البرتغاليين ، وهكذا بدأ تدخل عمان فى الصراع العربى البرتغالى الذى تدور رحاه فى شرق أفريقيا، حيث استطاعت دولة اليعاربة العمانية عام ١٦٥٢م أن تقضى على سيطرة البرتغاليين فى شرق أفريقيا .

وهكذا كان من نتيجة هذا النجاح الإسلامى العمانى تصفية الوجود البرتغالى، واشتعال ثورة عربية إسلامية، فى كل المدن الساحلية، ضد حكم البرتغاليين، من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، ويبدو أن اشتعال واتساع ثورات المسلمين فى شرق أفريقيا جعلت إمام

اليعاربة يتطلع إلى إنهاء الوجود البرتغالى فى أقصى الجنوب؛ حيث اتجه إلى قلب موزمبيق وحاصر قلعتها، إلا أن العرب اضطروا لرفع الحصار لظروف داخلية فى سلطنة عمان .

ولسنا بحاجة إلى القول إلى أن التفوق البحرى العمانى، كان له أثر كبير فى إحراز هذه النتائج العسكرية والسياسية فى شرق أفريقيا، يضاف إلى ذلك تزعزع مركز البرتغاليين فى شرق أفريقيا، الإسلامية؛ بسبب وجودهم الهامشى على الساحل، وعدم تغلغلهم فى الداخل. كذلك كانت قوة العمانيين وشدة إيمانهم بالقضية، التى يناضلون من أجلها، وهى نظرة إخوانهم فى العروبة والإسلام .ولقد كان سقوط ممبسا هو العامل الحاسم، الذى أنهى الوجود البرتغالى فى هذا القسم الشمالى من ساحل أفريقيا، وهكذا فإنه بسقوط ذلك الحصن، وضعت دولة اليعاربة العمانية نهاية لتفوق البرتغاليين فى شرق أفريقيا، وهكذا قلب رجال الإسلام الهزيمة إلى نصر وحقق هذا النجاح، الذى قاده أبطال عمان ما لم تحققه الدعوة الإسلامية فى القرون الأربعة الأولى على الاستقرار الإسلامى، وهكذا ارتبطت ثورة ممبسا على البرتغاليين بالصلات والعلاقات الأخوية الإسلامية، التى كانت تربط بين الساحل الشرقى الأفريقى وبين عرب عمان، ومن هنا.. فإنه تم على أثر السيادة العربية الإسلامية العمانية انطلاقة جديدة للإسلام؛ مما يجعلنا نؤكد إن ذلك التدخل العمانى قد أتاح للدعوة الإسلامية المناخ الصالح للانتشار، ومع ذلك استطاع سلاطين اليعاربة أن يرثوا البرتغاليين فى تأسيس دولة عربية، لها سيادة إسلامية، امتدت على جزء كبير من ساحل شرق أفريقيا .

ولكن قامت عدة ثورات فى هذه الإمارات، قام بها حكام الولايات الإسلامية، أمثال آل المزروعى فى ممبسا، وآل نبهان فى باتا؛ مما جعل سلطان عمان، أحمد بن سعيد، يدرك مدى خطورة حدوث انفصال بين شرق القارة، وبين عمان. وعلى هذا قرر السلطان ضرورة القضاء على حكام ممبسا المزروعيين والنبهانيين فى باتا، وهكذا واجهت الدولة البوسعيدية تلك الحركة الانفصالية، التى ظهرت فى المناطق الأفريقية بالحزم والقوة ، على أنه مهما يقال عن خفض تلك السيطرة العمانية البوسعيدية، فإن الذى لا شك فيه أن اتجاه احمد بن سعيد إلى شرق أفريقيا، كان بالقدر الذى سمحت به ظروفه؛ لتأكيد حقوق عمان فى تلك الجهات ، وقد امتازت فترة حكم أحمد بن سعيد بنمو العلاقات التجارية بين عمان وشرق أفريقيا، واستمرارها؛ مما ساعد على تنمية الموارد الاقتصادية.

وعندما تولى سلطنة عمان السلطان سعيد بن سلطان، فإنه عمل على بسط نفوذه بقوة إلى هذه الأرجاء؛ مما دفعه إلى الاستيلاء على ممبسا عام ١٨٣٧م، ثم كان عام ١٨٤٠م عام نقل مقر السلطنة إلى شرقى القارة؛ بحيث استطاعت أن تخضع هذه المنطقة وجميع الموانى المهمة والجزر الساحلية ، وعلى هذا فقد صادف السلطان سعيد نجاحاً كبيراً فى شرق القارة، على الرغم من أن عصره كان عصر الاستعمار الأوروبى الحديث ، ومن ثم اتجهت الدول الأوروبية ألمانيا وفرنسا وإنجلترا وإيطاليا جميعها إلى مصارعة السلطان المسلم فى هذه المنطقة، إضافة إلى النفوذ البلجيكى فى الداخل، وبذلك يكون الحديث قد انتهى عن تلك الإمارات الساحلية، ويبقى بعد ذلك جزيرة مدغشقر وجزر القمر، التى انتشر فيها الجنس العربى منذ فترات طويلة؛ حيث اختلط العرب المسلمون مع الأفارقة، الذين زحفوا من شرق القارة إلى هذه الجزر، واختلطوا سوياً، وتكون الشعب المدغشقرى والشعب القمرى، وانتشرت معالم الحضارة العربية الإسلامية، وسادت ثقافة إسلامية، تجلت فى أحلى صورها، فى تلك الأطر، التى كانت عليها هذه الجزر والسواحل، وهكذا فعل الإسلام وأهله والعروبة وأهلها- قبل ظهور الدعوة الإسلامية- دوراً فى انتقال تلك المنطقة من حالة البدائية والهمجية والانعزالية إلى حالة الترقى والتطور الحضارى، والاتصال مع شعوب العالم، بظهور تلك الإمارات الإسلامية وظهور اللغة السواحيلية، وهذا ما شهد به أعداء الإسلام من كتاب الغرب فى كتاباتهم .

***

المصادر والمراجع

١- العمرى : ابن فضل الله ت ٧٤٢هـ مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٥٩ معارف عامة .

٢- الإدريسى : محمد بن عبد الله : ت٥٦٠هـ نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق . ليدن. ١٨٩٣م .

٣- الاصطخرى : (ابو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى) ت ٣٤٦هـ المسالك والممالك. القاهرة ، ١٩٦١م .

٤- ابن بطوطة : ابو عبد الله محمد بن اللواتى ت ٧٧٩هـ. تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، جزء، القاهرة ١٨٣٩م .

٥- ابن حوقل: ابو القاسم النصيبى ت ٣٥٠هـ : صورة الأرض .ليدن ١٩٣٨م.

٦- ابن اياس (ابو البركات محمد بن محمد ت ٩٣٠هـ : بدائع الزهور فى وقائع الدهور : القاهرة ١٣١١هـ .

٧-ابن خرداذبة (ابو القاسم عبد الله بن عبد الله : المسالك والممالك . ليدن ١٨٨٩م .

٨- ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٩هـ، العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ، القاهرة ١٢٨٤هـ .

٩- ابن سعيد المغربى ت ٦٨٥هـ : بسط الأرض فى الطول والعرض . نطوان ١٩٥٨م.

١٠- البكرى : ابو عبد الله بن عبد العزيز البكرى : ت ٨٤٧هـ.المغرب وذكر بلاد أفريقيا والمغرب ، الجزائر ، ١٨٥٧م .

١١- القلقشندى: أبو العباس أحمد بن على ت ٨١٢هـ صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ١٤ جزء ، القاهرة ١٩٢٢هـ .

١٢- المسعودى : أبو الحسن : مروج الذهب ومعادن الجوهر . القاهرة . ١٩٤٥م .

١٣- القزوينى أبو زكريا : آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت. ١٩٦٠م .

١٤- ابن الفقيه الهمذانى. البلدان .

١٥- المقدسى: محمد بن محمد ت ٣٨٠ هـ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم : ليدن ١٩٠٩م .

١٦- المقريزى : الإلمام بأخبار عما بأرض الحبشة من ملوك الإسلام . القاهرة ١٩٠٨م

١٧- الطبرى ابو جعفرمحمد بن جرير : تاريخ الامم والملوك . ليدن ١٨٩٣م .

١٨- ابن تفرى بردى : جمال الدين يوسف : النجوم الزاهرة . القاهرة . ١٩٤م .

١٩- الوردى . سراج الدين عمر : زبدة العجائب وجريدة الغرائب ، بيروت . ١٩٦٤م .
٢٠- ابو الفداء إسماعيل : ت ٧٣٢هـ : تقويم البلدان . الجزائر ١٨٣٩م .
٢١- ياقوت: أبو عبد الله ياقوت الحموى ت ٦٢٦هـ : معجم البلدان . القاهرة ١٩٠٦ .
٢٢- اليعقوبى : أحمد بن أبى يعقوب ت ٨٢٠هـ : كتاب البلدان ، ليدن ١٨٩١م.
٢٣- الصوافى : عبد الله بن مصبح : كتاب السلوة فى أخبار كلوه عن أوراق الشيخ محيى الدين الزنجبارى ، تحقيق آرثر ستروغ ، لندن. ١٨٩٥م.
٢٤- عرب فقيه . أحمد بن عبد القادر شهاب الدين : فتوح الحبشة . نشرة رينيه باستة . باريس ١٩٠٩م
٢٥- زين الدين . محى الدين : تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتغاليين : مخطوطة عربية حققها دافيد لويس لشبونة ، ١٨٩٨م .
٢٦- الحيمى : سيرة الحبشة ـ حديقة النظر وبهجة الفكر فى عجائب السفر . تحقيق مراد كامل . القاهرة . ١٩٥٨م .
٢٧- السالمى : نور الدين : تحفة الأعيان بسيرة آل عمران . تحقيق أبو إسحاق إبراهيم طفيش. القاهرة . ١٣٣٠ .
٢٨- الوزان ، الحسن : وصف أفريقيا . ترجمة عبد الرحمن حميدة . الرياض . ١٣٩٥هـ .
٢٩- إبراهيم على طرخان : دولة مالى الإسلامية . القاهرة ١٩٧٢م .
٣٠- أحمد شلبى : التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ، القاهرة ١٩٦٧ .
٣١- أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية . القاهرة ١٩٨٣ .
٣٢- أحمد سويلم العمرى : الأفريقيون والعرب . القاهرة ١٩٦٧م .
٣٣- أنعام الله خان : تقويم العالم الإسلامى : كراتشى ١٩٤٢م .
٣٤- السيد يوسف نصر : جهود مصر الكشفية فى أفريقيا . القاهرة ١٩٧٤م .
٣٥- توفيق ميخائيل : غرائب الأخبار عن شرق أفريقيا وزنجبار . القاهرة ١٩٠١م .
٣٦- جامع عمر عيسى الصومالى : الصومال فى العصور الوسطى والحديثة .القاهرة ١٣٨٥م.
٣٧- جمال حمدان : العالم الإسلامى المعاصر ، القاهرة.١٩٧١م .
٣٨- جمال زكريا قاسم : الروابط العربية الأفريقية، قبل حركة الكشوف الجغرافية(فصل) القاهرة ١٩٧٧م
٣٩- جمال زكريا قاسم : تفكك العلاقات العربية الأفريقية، خلال العصر الاستعمارى . تصل ، الفاوة ، ١٩٧٨ .

٤٠- جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية ، القاهرة ١٩٧٥م .
٤١- جمال زكريا قاسم : دولة بوسعيد فى عمان وشرق أفريقيا . القاهرة ١٩٦٧م .
٤٢- حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا . القاهرة . ١٩٦٣.
٤٣- حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية . القاهرة ١٩٨٤م.
٤٤- حسن إبراهيم حسن : الإسلام والعروبة فيما يلى الصحراء الكبرى . القاهرة ١٩٥٧م.
٤٥- جمال محمد احمد : وجدان أفريقيا . الخرطوم ١٩٧٤م.
٤٦- زاهر رياض : مصر وأفريقيا : القاهرة ١٩٧٦م .
٤٧- زاهر رياض : استعمار أفريقيا القاهرة . ١٩٦٥م .
٤٨- زاهر رياض : الإسلام فى اثيوبيا ، القاهرة ١٩٦٤م .
٤٩- زاهر رياض : تاريخ اثيوبيا . القاهرة ١٩٦٦م .
٥٠- حمدى السيد : الصومال . القاهرة١٩٦٦م .
٥١- شوقى عطا الله الجمل :سياسة مصر فى البحر الأحمر . القاهرة ١٩٨٤م .
٥٢- الشاطر بصيلى عبد الجليل : تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط . القاهرة ١٩٧٢م .
٥٣- صلاح العقاد : جمال زكريا قاسم . زنجبار . القاهرة . ١٩٦٥م.
٥٤- عايشة اليسار : دولة اليعاربة فى عمان وشرق أفريقيا . بيروت . ١٩٧٥م .
٥٥- عبد الرحمن زكى : الإسلام والمسلمون فى شرق أفريقيا . القاهرة . ١٩٧٠م .
٥٦- عبد المجيد عابدين . بين الحبشة والعرب . القاهرة ١٩٤٧م.
٥٧- عبد الغنى خلف الله : مستقبل أفريقيا السياسى . القاهرة ١٩٦١م .
٥٨- عبد الفتاح الغنيمى : الإسلام والعروبة فى السودان . القاهرة . ١٩٨٥م .
٥٩- عبده بدوى : مدن أفريقية . القاهرة . د. ت .
٦٠- عبده بدوى : السود والحضارة العربية . القاهرة ١٩٧٦م.
٦١- فضل حورانى : العرب والملاحة البحرية فى المحيط الهندى . القاهرة . ١٩٥٨م.
٦٢- عبد الرازق الخالدى : مسقط وعمان، السلطنة المجهولة . بيروت ، ١٩٥٧م .
٦٣- محمد امين صالح : العرب والإسلام . القاهرة ١٩٨٤م .
٦٤- محمد عوض محمد: الشعوب والسلالات الأفريقية . القاهرة ١٩٦٥م .
٦٥- محمدسليمان : دور الأزهر فى السودان ، القاهرة ١٩٧٥م .
٦٦- محمد رجب حراز : التوسع الايطالى فى شرق أفريقيا . القاهرة ١٩٦٠م .
٦٧-محمد رجب حراز : بريطانيا وشرق أفريقيا . القاهرة ١٩٧١م .

٦٨- محمد عبد العزيز إسحاق : نهضة افريقية . القاهرة . ١٩٧٦م.
٦٩- محمد محمد أمين : تطور العلاقات العربية الأفريقية فى العصور الوسطى (فصل) القاهرة ١٩٧٨م.
٧٠- محمد المعتصم سيد : مهدى الصومال . القاهرة د. ت .
٧١- محمد محمود الصواف : أفريقيا المسلمة . بيروت . ١٣٩٥هـ .
٧٢- محمود على توبارى : قضية القرن الأفريقى . القاهرة ١٩٧٦م.
٧٣- محمود كامل : الإسلام والعروبة ، القاهرة ١٩٧٦ م .
٧٤- محمود على الداود : تاريخ العلاقات البرتغالية مع الخليج . بغداد ١٩٦٠م .
٧٥- عونى مصطفى : سلطنة الظلام فى مسقط وعمان : بيروت ، ١٩٦٤م .
٧٦- محمد صبرى : مصر فى أفريقيا الشرقية . القاهرة . ١٩٣٩م .
٧٧- يوسف أحمد : الإسلام فى الحبشة . القاهرة . ١٩٣٠م .

٢- المراجع العربية (المترجمة).

٧٨- جيان : وثائق تاريخية وجغرافية وتاريخية عن شرق أفريقيا . تعريب يوسف كمال القاهرة . ١٩٢٧م .
٧٩- أرنولد توماس : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرين . القاهرة ١٩٥٧م .
٨٠- بوركهات ، جون لويس : رحلات بوركهارت فى بلاد النوبة والسودان ، ترجمة فؤاد أندراوس .القاهرة ١٩٥٩م .
٨١- جوليان ،شارل أندريه : تاريخ أفريقيا ، ترجمةطلعت عوض اباظة، القاهرة ١٩٦٨م .
٨٢- دقدسن .بازل : أفريقيا تحت اضواء جديدة . ترجمة جمال محمد احمد . بيروت.د.ت .
٨٣- اوليفر رولاند ، جون فيج : موجز تاريخ أفريقيا . ترجمة دولت احمدصادق، مراجعة محمد السيد غلاب ، القاهرة د. ت .
٨٤-سلجمان ، س.ج : السلالات البشرية فى أفريقيا ، ترجمة يوسف خليل ، القاهرة ١٩٥٩م.
٨٥- ديشان ، هوبير ، الديانات فى افريقيا السوداء . ترجمة احمد صادق حمدى. القاهرة ١٩٥٦م.
٨٦- لوثورب ، إستودارد : حاضر العالم ، تعليق شكيب أرسلان ، ترجمة الحجاج تهويض. القاهرة .١٩٤٣م .
٨٧ ـ ترمنجهام . س.ج : الإسلام فى شرق أفريقيا . ترجمة عاطف النواوى ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

٣- الرسائل الجامعية .

٨٨- أحمد على أحمد: كلوه ، تاريخها وحضارتها ، ماچيستير ، معهد الدراسات الأفريقية. جامعة القاهرة . ١٩٨٣م .

٨٩-راجية محمد عفت: الثقافة العربية فى شرق أفريقيا ، دكتوراه ، معهدالدراسات الأفريقية ، جامعة القاهرة ، د. ت .

٩٠- نوال محمد عبد العزيز: العرب فى شرق أفريقيا فى القرن الثامن الميلادى حتى تدخل البرتغاليين فى الخامس عشر الميلادى ، ماجستير ، معهد الدراسات الأفريقية ، جامعة القاهرة . ١٩٨٠م.

٩١- إبراهيم عبد المجيد محمد : الاستعمار البريطانى فى الصومال ، ماجستير ، معهد الدراسات الافريقية ، جامعة القاهرة ١٩٧٧م .

٩٢- إبراهيم عبد المجيد محمد: الاستعمار الفرنسى فى الصومال ، دكتوراه ، معهد الدراسات الأفريقية ، جامعة القاهرة ١٩٨٢م .

٤- الدوريات .

٩٣- إبراهيم طرخان : الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة . مجلة الجمعية التاريخية، المجلد الثانى ١٩٥٩م .

٩٤- جمال زكريا قاسم : استقرار العرب فى ساحل شرق أفريقيا ، مجلة كلية الآداب جامعة عين شمس . ١٩٦٥م .

٩٥- جمال زكريا قاسم : الممالك الإسلامية فى الحبشة ، مجلة العربى الكويتية، أبريل ١٩٧٣م .

٩٦- سعد زغلول عبد ربه : الصراع الألمانى البريطانى فى شرق أفريقيا . مجلة الدراسات الأفريقية ، ١٩٧٦م .

٩٧- عبد الفتاح مقلد الغنيمى : الدعوة الإسلامية فى شرق أفريقيا ، الدعوة . السعودية ، ١٣٩٥هـ .

٩٨- زاهر رياض : اتجاهات مصر الأفريقية فى العصور الوسطى . مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة ، مايو. ١٩٨٥م.

المراجع الأجنبية

1- Anderson, J.R : Islamic law in Africa . London, 1954 .

2- Badger, G : History of the Imams and Seyyids of Oman, London, 1871.

3- Basse,H : Etudes sur l'Histiore d'Ethiopie . Paris, 1882.

4- Blyden, EW : Christianty, Islam and the Negro Race, London, 1888 .

5- Boxer, C.R : Fort Jusus and the Portugesse in Mombassa. London, 1961 .

6- Budge, E.A : History of Ethiopia, Nubia, Abyssinia . London, 1948 .

7- Burton, R : First Foot Prints in East Africa . London, 1856 .

8- Boxer, C.R : Four Centries of Portugesse Expansion, London, 1961 .

9- Calvert, A.F: German East Africa . London, 1954 .

10- Charles, R : East Africa Explorers . Oxford, 1938 .

11- Coupland,R: The explotation of East Africa . London, 1939 .

12- Coupland, R : East Africa and Its Invadors. London, 1942 .

13- Cooley, W.D : The Negro Land of the Arabs. London, 1841 .

14- Craster, E Pempa, The Spice Island of Zanzibar, London,1938 .

15- Eliot, C : East Africa Portectorate . London, 1965 .

16- Doman , M.H :The kilwa Civilisation and kilwa Ruins, London, 1938.

17- Dale, G : The people of Zanzibar London, 1920 .

18- Dixon, A : TheAfrica, uganda. and zanzibar and pempa London, 1848.

19- Free man, G : East Africa Caost Oxford, 1969 .

20- Fitzgerald, W.A : Travels in Zanzibar and Pempa . London,1848 .

21- Gabreil,F : Les Musulmans de Mudugas car et l'lies du Commeres .
Paris, 1933 .

22- Grenville, F : The Medival History of Coast of Tanjanika, London, 1962.

23- Gray, J : History of Zanzibar from the Middle Ages to 1856, London, 1958 .

24- Gray, J : History of kilwa , Tanjanika. London 1926 .

25- Gray, J : Early Portugesse Missionaries in East Africa . London,198 .

26- Greenbery, J : The Influence of Islam on Sudanese Religion . New York, 1947 .

27- Jarrtt, H.R : Africa . London, 1974

28- Hamitton, t.w : A short History of East Africa : London, 1929 .

29- Hichan, M : Islam in East Africa . London, 1942.

30- Holling S.W : A short History of East Coast of Africa .London, 1949 .

31- Hunting Ford, C.W : East Africa Background.London, 1950 .

32- Harlow, V :History of East Africa, oxford, 1954 .

33- Hodge, V and Collister, P Pioneers of East Africa. London, 1961.

34- Hutchinson, E:The Slave Trade of East Africa. London, 1874 .

35- Huxley,E : Settlers of Kenya. London, 1969 .

36- Ingrans, W.H: Zanzibar, Its History and Its People .London, 1976 .

37- Kammerir, A : Histiore d'Abysinie, paris, 1938.

38- Lyne, R.V : Zanzibar,London 1905 .

39- Longrigg, S.H : A short History of Ervitrea. London 1945.

40- Marsh, z : Hirtory of East Africa. London 1955 .

41- Marshall,A : Fort Juses Mombassa . Kenya . London ,1934 .

42- Nevill, C : kilwa, An Islamic Trading Its on the East Africa Coast London,1938 .

43- Oliver, R : The Missionery fectorin East Africa, London 1958 .

44- Eliver, R : History of East Africa . Oxford, 1962 .

45- Pearce,F.B : Zanzibar the Islamd Metropolis of Eastern Africa . London, 1920 .

46- Pruen,S : The Arab and the Africa . London, 1891 .

47- Stong, A.s: History of kilwa . London, 1895 .

48- Stevenson, J : The Arabs in Central Africa . London, 1962 .

49- Stander, J : The Portugese Period in East Africa . London, 1959 .

50- Stiegand,C.H : The Land of the Zin J . London, 1949 .

51- Ssekamwa, J.C : History of Africa London, 1976.

52- Trimingham, J.S Islam in Ethiopia . Oxford, 1952 .

53- Reute, R : The Albusaid in Oman and East Africa. London, 1929 .

54- Rotbery, R : Travels, Researches and Missionary Labour in East Africa . London, 1958 .

55- Roberts, A : Tanzina before 1900. London,1975 .

56- Reusch, R : History of East Africa . London, 1938 .

57- Warner, A : History of Pata . London, 1915 .

58- were, G and wilson, A : East Africa through 1000 years, London, 1971 .

59- Zischka, A : Afrique Complement de l'Europe .

60- Trimingham, J . S The influence of Islam upon Africa . London, 1968

* * *

فهرس المحتويات

الموضوع | رقم الصفحة

رقم الإيداع : ٢٨٦٦ /٩٨
الترقيم الدولي : I.S.B.N. 977 - 232 - 126 - 2

